الظاهرة العالمية

مواده المظلمة

الجزء الأول

فيليب پولمان

أضواء الشمال

"نادرًا ما قرأنا عجائب بهذا الثراء"

Independent

التنوير

ترجمة: هشام فهمي

الكتاب: **أضواءُ الشَّمال، موادُّه المُظلمة**، الكتاب الأول (رواية) تأليف: **فيليب پولمان**

ترجمة: **هشام فهمي**

عدد الصفحات: 384 صفحة

الترقيم الدولي: 978-614-472-138-4

الطبعة الأولى لدى دار التنوير

الناشر

دار التنوير للطباعة والنشر

لبنان: بيروت - بئر حسن - بناية فارس قاسم (سارة بنما) - الطابق السفلي

هاتف: 009611843340

بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com **مصر:** القاهرة -2 شارع السرايا الكبرى (فؤاد سراج الدين سابقا) - جاردن سيتي

هاتف: 002022795557

بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com **تونس:** 24، نهج سعيد أبو بكر - 1001 تونس

هاتف وفاكس: 0021670315690

بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com موقع إلكتروني: www.daraltanweer.com

مقدِّمة المُترجم

قرأتُ ثلاثيَّة السير فيليب پولمان «موادُّه المظلمة» للمرَّة الأولى في سنة 2008، بعد مشاهدة الفيلم السِّينمائي المحبِط المقتبَس من جزئها الأول، الذي أثبتَ مرَّةً أخرى قاعدة أن العمل الأصلي -عادةً- يظلُّ أفضل كثيرًا من الاقتباس. أعجبَتني كثيرًا الأفكار التي تطرحها الرِّوايات الثَّلاث، المباشر منها وغير المباشر، عن المعرفة والجهل، والحرِّيَّة والسُّلطة، والشَّجاعة في مواجهة أخطار أكبر منا في سبيل مَن نحبُّ، وما قد يَحدُث لتقدُّم الأمم إذا ما استبدَّت بها سُلطات تُحلِّل وتُحرِّم حسب هواها باسم الدِّين، وكلُّ هذا بلُغةٍ قويَّةٍ وسلسة تُعبِّر عن معانٍ كبيرة دون أن تتعالى على القارئ الصَّغير أو يجدها القارئ البالغ مبتذلةً مغالًى في بساطتها. أضِف إلى هذا الشَّخصيَّات المتشابكة التي يُقدِّمها المؤلِّف ببراعةٍ ويُجيد رسمها جاعلًا القارئ يتفاعَل معها ومع رحلتها الملأى بالغرائب، وهذا عماد أيِّ عملٍ أدبي فيه قيمة ومتعة، فلولا الشَّخصيَّات أولًا وثراء تفاصيل العالم (أو العوالم في هذه الحالة) ثانيًا، لما أقبلتُ على قراءة الثَّلاثيَّة أكثر من مرَّة، ولما أقدمتُ على ترجمتها.

وُلد فيليپ پولمان في مدينة نوريتش الإنجليزيَّة في سنة 1946، وقضى معظم السَّنوات الأولى من طفولته في التَّنقُّل مع عائلته، بسبب عمل والده طيَّارًا في سلاح الجو الملكي، إلى أن أودَت حادثة طيران بحياة والده في سنة 1954 خلال انتفاضة الماو ماو في كينيا. يبدو أثر هذه الحادثة وتبعاتها واضحًا في كتابات پولمان، ففي البداية كان يعدُّ والده «بطلًا مكلَّلًا بالعظمة ماتَ مدافعًا عن بلده»، خاصَّةً مع حصوله بعد مقتله على صليب الطَّيران الفخري، إلى أن اطَّلع لاحقًا على تقرير الحادثة المنشور، الذي حدا به إلى اعتقاد أن والده تعمَّد السُّقوط بالطَّائرة فرارًا من الدُّيون التي تُثقِله ومن علاقةٍ غراميَّة مليئة بالمشكلات مع امرأةٍ أخرى غير أمِّه. لكن أيًّا كان ما حدثَ حقًّا، فستجد له آثارًا ملموسةً في أعمال پولمان، ومنها هذه الثُّلاثيَّة.

درسَ پولمان الأدب الإنجليزي في كلِّيَّة إكستر بجامعة أكسفورد، وبعد تخرُّجه بدأ التَّدريس للأطفال بين سنَّي التَّاسعة والثَّالثة عشرة وكتابة المسرحيَّات المدرسيَّة، وخلال تلك الفترة كتبَ ونشرَ روايته الأولى «العاصفة المسكونة»، التي حصلَت على جائزة شباب الكُتَّاب التَّابعة للمكتبة الإنجليزيَّة الجديدة. ثم إنه انتقلَ إلى التَّدريس في كلِّيَّة وستمينستر بأكسفورد، وواصلَ في تلك الأثناء كتابة روايات وقصص الأطفال والكبار، علاوةً على تحويله عددًا من الأعمال الأدبيَّة الكلاسيَّة إلى مسرحيَّات، منها «فرانكنشتاين» لماري شِلي ومغامرة لشرلوك هولمز، ومنذ سنة 1996 وهو متفرِّغ للكتابة، ومنذ سنة 2013 يرأس جمعيَّة المؤلِّفين البريطانيَّة.

وصفَت جريدة التَّيمز البريطانيَّة پولمان بأنه واحد من أعظم خمسين كاتبًا بريطانيًّا منذ سنة 1945، وقبل هذا في استطلاعٍ أجرَته «BBC»، اختيرَ الشَّخص الحادي عشر الأعظم تأثيرًا في الثَّقافة البريطانيَّة. وبعيدًا عن الكتابة نفسها، لپولمان نشاط بارز في عددٍ من الشُّؤون المتعلِّقة بالكُتب والكُتَّاب والقضايا السِّياسيَّة، منها حقوق المؤلِّفين، والتَّخلِّي عن تحديد السِّن المناسبة لقراءة العمل أو كونه مناسبًا للصِّبية أو الفتيات فقط على غلاف الكتاب، ومعارضته إغلاق ستمئة مكتبة بريطانيَّة،

وترميم وصيانة الكوخ الذي كتبَ فيه ويليام بليك قصائده ورسمَ لوحاته، وفي الفترة الأخيرة معارضته خروج المملكة المتَّحدة من الاتِّحاد الأوروبي.

حتى الآن نشرَ پولمان أكثر من عشرين روايةً، بخلاف المجموعات القصصيَّة والكُتب التَّاريخيَّة والرِّوايات المصوَّرة، لكن يظلُّ أهم وأشهر أعماله ثلاثيَّة «موادُّه المظلمة»، التي نُشر الجزء الأول منها في سنة 1995، وتبعَه الجزء الثَّاني في سنة 1997، والثَّالث في سنة 2000. تقع الثُّلاثيَّة تحت تصنيف الفانتازيا العُليا أو الفائقة، وكذا الفانتازيا العلميَّة، إلَّا أن پولمان نفسه يقول إنه يَرفُض هذا التَّصنيف، خاصَّةً أن له آراءً معارضةً لكتابات بعض أكبر أعمدة الفانتازيا، مثل تولكين وسي إس لويس، ويعدُّ ثلاثيَّته «واقعًا تامًّا» على الرغم من احتوائها على عناصر وكائنات وأحداث تنتمي إلى عوالم الفانتازيا.

تأثَّر پولمان في كتابة ثلاثيَّته بويليام بليك، واستوحى اسم بطلتها لايرا من اسم لايكا بطلة قصيدة بليك «الفتاة الصَّغيرة المفقودة»، وتأثَّر أيضًا بكتابات هاينريش ڤون كلايست وريتشارد دوكنز، إضافةً إلى تأثُّره بليوناردو دا ڤينشي الذي استوحى فكرة القُرناء من لوحته «سيِّدة مع قاقوم». على أن التَّأثير الأعظم عليه كان من چون ميلتون وقصيدته الملحميَّة «الفردوس المفقود»، ويقول إن هذا التَّأثير يرجع إلى قراءته وزملائه القصيدة بصوتٍ عالٍ في المدرسة قبل أعوامٍ كثيرة، ثم إنه اكتشفَ أن ناشره درسَ القصيدة أيضًا وأنه مولعٌ بها، وبعد حوارٍ طويل بينهما وافقَ على كتابة عمل روائي طويل يُحاوِل فيه استدعاء شيءٍ من أجواء «الفردوس المفقود» التي أحبَّها كلاهما. وهكذا كانت الأجواء نُقطة البداية، لكن پولمان يقول إنه، إذ بدأت الحكاية تتَّخذ تكوينًا على الصَّفحة، وجدَ نفسه يُعيد حكي قصَّة القصيدة نفسها بشكلٍ ما، وإن لم يُقلِقه ذلك لأنه يعي تمامًا أن القصَّة الواحدة قابلة لأن تُحكى بعدَّة أساليب مختلفة، لا سيَّما إن كانت القصَّة الأصليَّة عظيمةً.

يستغلُّ پولمان أيضًا في ثلاثيَّته نظريَّة الأكوان المتعدِّدة التي وضعَها الفيزيائي الأمريكي هيو إيڤرت في سنة 1954، وإن كان پولمان يُرجِع استخدامها إلى أبياتٍ من «الفردوس المفقود» أيضًا:
بين نجومٍ لا تُحصى، نجومٌ تسطع

من بعيد. أمَّا من قريبٍ فتبدو عوالم أخرى

أو أنها بدَت عوالم أخرى، أو جُزرًا سعيدةً

جديرٌ بالذِّكر أن عنوان «موادُّه المظلمة» نفسه مأخوذ من قصيدة ميلتون، وإن أرادَ پولمان في البداية أن يُطلِق على الثُّلاثيَّة عنوان «الفِرجار الذَّهبي»، المستوحى أيضًا من القصيدة نفسها: أمسكَ في يده الفراجير الذَّهبيَّة المهيَّأة

في خزانة الله السَّرمديَّة، ليرسم

حدود هذا الكون، وكلَّ ما فيه من مخلوقات

وهو ما سبَّب خلطًا عند النَّاشر الأمريكي، الذي حسبَ أن المقصود بكلمة «Compass» هو الأليثيوميتر (الشَّبيه بالبوصلة) الذي تحمله البطلة لايرا، في حين أن الكلمة في قصيدة ميلتون، وكما

انتواها پولمان، تعني الفِرجار الذي تُرسَم به الدَّوائر، وبسبب هذا الخلط يُعرَف الجزء الأول في أمريكا الشَّماليَّة بعنوان «البوصلة الذَّهبيَّة» بدلًا من «أضواء الشَّمال» لأن النَّاشر الأمريكي أصرَّ عليه، وقد قبلَ پولمان هذا قائلًا إن التَّزمُّت في تغيير العنوان صاحبَه كرم في الدُّفعة الأولى من حقوقه الماديَّة، بالإضافة إلى الثَّناء والوعد بالتَّرويج للكتاب وخلافه، فرأى أن من الخشونة أن يأبى على ناشره هذا.

وقد لاقى الكتاب وجزآه التَّاليان نجاحًا رائعًا في بريطانيا والولايات المتَّحدة على حدٍّ سواء، بخلاف التَّرجمة إلى أكثر من عشرين لُغةً، وحصلَت الثُّلاثيَّة على جوائز أدبيَّة عديدة، وحُوِّلَت بخلاف الاقتباس السينمائي إلى عرضٍ مسرحي استمرَّ عامين على المسرح الملكي بلندن، وإلى مسلسل تليفزيوني من إنتاج «HBO» و«BBC»، وإلى روايةٍ مصوَّرة وتمثيليَّةٍ إذاعيَّة.

* * *

لم يُحاوِل المؤلِّف في هذه الثُّلاثيَّة أن يشرح المصطلحات التي قد تكون غريبةً واستخدمَها في عالم لايرا والعوالم الأخرى، واثقًا بأن القارئ يستطيع استنتاج معانيها من السِّياق أو بالقليل جدًّا من البحث، ولذا لم نلجأ في هذه التَّرجمة إلى استخدام هوامش الشَّرح إلَّا قليلًا جدًّا، متخلِّين عن شرح بعض المصطلحات بالكامل، ليكتشف القارئ معانيها مع الأبطال مع تطوُّر الأحداث، وإن حرصنا على وضع قائمةٍ بما وردَ منها في نهاية الكتاب، ليطَّلع عليها القارئ إذا أرادَ، ويعرف ما يُقابِلها في عالمنا.

كذلك، على غرار المؤلِّف، لجأنا في هذه التَّرجمة إلى تمييز بعض التَّراكيب الصِّياغيَّة التي يستخدمها شعب الجيپتيِّين أحيانًا في الكلام، مثل ما النَّافية بدلًا من ليس، وكذا ميَّزنا بعض اللَّوازم في كلام البطلة لايرا وغيرها، كي لا يبدو أن اللُّغة والتَّعبيرات التي يستخدمها الجميع واحدة. واخترنا أيضًا استخدام صيغة العاقل العربيَّة مع كلٍّ من القُرناء والدِّببة المدرَّعين، لأنهم -في ذلك العالم الموازي- مخلوقات عاقلة.

وأخيرًا، وضعنا في نهاية الكتاب خريطةً تُوضِّح أهم المناطق والقُوى الدَّوليَّة في عالم لايرا.

أرجو أن تنال ترجمة الجزء الأول من هذه الملحمة، التي تبدأ بـ«فتاة تحترف الكذب بين يديها أداة لقول الحقيقة»، إعجاب القارئ، وإلى لقاء في الجزأيْن التَّاليين.

في هذه الهوَّة الموحشة،

رحم الطَّبيعة، وربما قبرها أيضًا،

حيث لا بحر ولا شاطئ ولا هواء ولا نار

بل جميعها في أسبابه الأوليَّة يمتزجُ

بارتباكٍ، وهكذا إلى الأبد يصطرِعُ،

إلَّا إذا قضى البارئ القدير

أن تخلق موادُّه المظلمة عوالمَ أخرى.

في هذه الهوَّة الموحشة وقفَ الشَّيطان الحذِر

على شفا الجحيم، ورنا بُرهةً

متفكِّرًا في رحلته...

چون ميلتون

الفردوس المفقود، الكتاب الثَّاني

«أضواء الشَّمال» هو الكتاب الأول من قصَّة من ثلاثة أجزاء. تدور أحداث الجزء الأول في عالمٍ يُشبِه عالمنا كثيرًا لكنه مختلف عنه في وجوهٍ شتَّى. ثم يتنقَّل الجزء الثَّاني بين ثلاثة عوالم، هي عالم «أضواء الشَّمال»، وعالمنا الذي نعرفه، وعالم ثالث يختلف بدوره عن عالمنا من نواحٍ شتَّى. أمَّا الكتاب الأخير من الثُّلاثيَّة فيتنقَّل بين عوالم عدَّة.

القسم الأول

أُكسفورد



(1) دورق التوكاي

قطعَت لايرا وقرينها القاعة المعتمة ملتزميْن الحركة على جانبٍ واحد، حرصًا على البقاء بعيدًا عن أنظار مَن في المطبخ. كانت الموائد الكبيرة الثّلاث الممتدَّة بطول القاعة مجهَّزةً بالفعل، وينعكِس ما في المكان من ضوءٍ خافت على الفضَّة والزُّجاج، والدِّكك الطَّويلة مسحوبةً وجاهزةً للضُّيوف. على الجُدران صُور مرسومة للعُمداء السَّابقين، معلَّقة عاليًا في العتمة. بلغَت لايرا المنصَّة ونظرَت وراءها إلى باب المطبخ المفتوح، فلمَّا لم ترَ أحدًا تقدَّمت من المائدة العالية. أدوات المائدة هنا ذهبيَّة لا فضِّيَّة، والمقاعد الأربعة عشر ليست دِككًا من خشب السَّنديان، بل كراسي من الماهوجني مزوَّدة بوسائد من المخمل.

وقفَت لايرا إلى جوار كُرسي العميد، وبرفقٍ نقرَت أكبر كأسٍ بظُفرها، ليرنَّ الصَّوت بوضوحٍ في أنحاء القاعة.

همسَ قرينها: «لستِ تأخذين الأمر بجدِّيَّة. أحسِني الأدب».

اسم قرينها پانتالايمون، ويتَّخذ حاليًّا تكوين عُثَّةٍ بنِّيَّة داكنة كي لا يظهر في عتمة القاعة.

ردَّت لايرا همسًا: «لن يسمعوا شيئًا من الضجَّة التي يُحدِثونها في المطبخ، والوكيل لا يَدخُل قبل الجرس الأول. كفى شكوى».

لكنها وضعَت راحة يدها فوق البلَّورة الرنَّانة رغم ذلك، ورفرفَ پانتالايمون إلى الأمام داخلًا من باب الاستراحة الموارَب عند طرف المنصَّة الآخَر، وبعد لحظةٍ ظهرَ ثانيةً، وهمسَ: «لا أحد بالدَّاخل، لكن يجب أن نُسرِع».

انطلقَت لايرا كالسَّهم حانيةً ظَهرها وراء المائدة العالية، واندفعَت داخلةً من باب الاستراحة، حيث فردَت قامتها وتلفَّتت حولها. مصدر الضَّوء الوحيد هنا المدفأة، وإذ نظرَت لايرا طقطقَ الحطب المتوهِّج بعض الشَّيء، مرسلًا نافورةً من الشَّرر إلى المدخنة بالأعلى. لقد قضَت معظم حياتها في الكلِّيَّة، وإن لم ترَ الاستراحة من قبل قَطُّ، فوحدهم الباحثون وضيوفهم مسموح لهم بالدُّخول، والإناث غير مسموح لهن على الإطلاق. حتى الخادمات لا يُنظِّفن هنا، فهذه وظيفة رئيس الخدم فقط.

حطَّ پانتالايمون على كتفها هامسًا: «سعيدة الآن؟ هل يُمكننا الذَّهاب؟».

- «لا تكن سخيفًا! أريدُ أن أتفرَّج!».

الغُرفة كبيرة، تضمُّ منضدةً بيضاويَّةً من خشب الورد، يستقرُّ عليها عدد كبير من الدَّوارق والكؤوس، بالإضافة إلى رفِّ تدخين فضِّي مزوَّد بحاملٍ للغلايين، وعلى خوانٍ جانبي قريب ثمَّة موقد صغير وسلَّة من رؤوس الخشخاش.

قالت بصوتٍ خفيض: «يُدلِّلون أنفُسهم هنا، أليس كذلك يا پان؟».

جلسَت على أحد الكراسي الجلد الخضراء، وكان وثيرًا لدرجة أنها وجدَت نفسها تكاد تتمدَّد عليه، لكنها اعتدلَت ثانيةً وثنَت ساقيها تحتها لتُلقي نظرةً على الصُّور المرسومة على الجُدران. مزيد من الباحثين السَّابقين على الأرجح، يرتدون العباءات جميعًا ولهم جميعًا لحى وملامح كئيبة، وقد حدَّق كلٌّ منهم من إطار صورته بنظرات الاستنكار.

قالت لايرا: «عمَّ تحسبهم يتكلّمون؟»... أو أنها بدأت تقول ذلك، فقبل أن تَفرُغ من السُّؤال سمعَت أصواتًا خارج الباب.

همسَ پانتالايمون: «وراء الكُرسي، أسرِعي!»، وفي غمضة عينٍ كانت لايرا قد نهضَت وأقعَت وراء الكُرسي. ليس هذا أفضل كُرسي تختبئ وراءه، فقد اختارَت واحدًا في مركز الغُرفة، وما لم تلزم الهدوء الشَّديد...

انفتحَ الباب، وتغيَّر الضَّوء في الغُرفة. كان أحد الدَّاخلين يحمل قنديلًا، وقد وضعَه على الخوان. رأت لايرا ساقيه في بنطاله الأخضر الدَّاكن وقدميه في حذائه الأسود اللَّامع. إنه خادم.

ثم قال صوت عميق: «هل وصلَ اللورد آزريل؟».

صوت العميد. بينما حبسَت لايرا أنفاسها رأت قرينة الخادم (وهي كلبة ككلِّ قُرناء الخدم) تَدخُل مسرعةً وتجلس بهدوءٍ عند قدميه، ثم ظهرَت قدما العميد أيضًا في حذائهما الأسود البالي الذي ينتعله دومًا.

أجابَ رئيس الخدم: «لا يا حضرة العميد، ولم يَبلُغنا خبر من الميناء الجوِّي كذلك».

- «أتوقَّعُ أنه سيكون جائعًا حين يصل. أدخِله إلى القاعة مباشرةً».

- «أمرك يا حضرة العميد».

- «وهل صفَّيت القليل من التوكاي الخاص من أجله؟».

- «نعم يا حضرة العميد، المعتَّق منذ 1898 كما أمرت. حضرة اللورد يُفضِّله للغاية كما أذكرُ».

- «عظيم. والآن اترُكني من فضلك».

- «هل تحتاج إلى القنديل يا حضرة العميد؟».

- «نعم، اترُك هذا أيضًا. هلَّا ألقيت نظرةً عليه خلال العَشاء وشذَّبت الفتيل؟».

انحنى رئيس الخدم انحناءةً خفيفةً ودارَ مغادرًا، وأسرعَت قرينته في أعقابه بطاعة. من مكانها الذي لا يَصلُح للاختباء حقًّا شاهدَت لايرا العميد يذهب إلى خزانة ثيابٍ كبيرة من خشب السَّنديان في رُكن الغُرفة، ويخلع عباءته عن مشجبٍ ويرتديها بجهد. كان العميد رجلًا قويًّا في الماضي، لكنه تجاوزَ السَّبعين بعدَّة سنوات، وصارَت حركاته بطيئةً متيبِّسةً. لقرينة العميد تكوين أنثى غُداف، وما إن ارتدى عباءته وثبَت من فوق الخزانة واستقرَّت في مكانها المعتاد فوق كتفه اليُمنى.

شعرَت لايرا بپانتالايمون يتميَّز قلقًا على الرغم من أنه لم يُصدِر صوتًا، أمَّا هي فقد تملَّكتها حماسة سارَّة، فالزَّائر الذي ذكرَه العميد، اللورد آزريل، عمُّها، وهو رجل تكنُّ له قدرًا عظيمًا من الإعجاب والرَّهبة. يُقال إنه يشتغل بالسِّياسة العُليا والاستكشافات السرِّيَّة والحروب البعيدة، ولا تعلم لايرا أبدًا

متى سيظهر. إنه رجل شديد المراس، وإذا ضبطها هنا فسوف يكون عقابها وخيمًا، لكنها تستطيع احتمال ذلك.

على أن ما رأته في اللَّحظات التَّالية غيَّر كلَّ شيءٍ تمامًا.

أخرجَ العميد من جيبه ورقةً مطويَّةً ووضعَها على المنضدة إلى جوار النَّبيذ، ثم خلعَ سدادة دورقٍ يحتوي على نبيذٍ ذهبي غني، وفتحَ الورقة وصبَّ منها خيطًا رفيعًا من مسحوقٍ أبيض في الدَّورق، قبل أن يسحق الورقة في قبضته ويُلقيها في النَّار. ثم إنه تناولَ قلم رصاصٍ من جيبه وقلَّب النَّبيذ حتى ذابَ فيه المسحوق، وأعادَ وضع السِّدادة.

أطلقَت قرينته نعيقًا قصيرًا خفيضًا، فردَّ عليها العميد بنبرةٍ خافتة ونظرَ حوله بعينيه المتوتِّرتين ثقيلتَي الجفنين، قبل أن يُغادِر من الباب الذي دخلَ منه.

سألَت لايرا همسًا: «هل رأيت هذا يا پان؟».

- «بالطَّبع رأيته! والآن أسرِعي بالخروج قبل أن يأتي الوكيل!».

ولكن بينما يتكلَّم، سمعا صوت جرسٍ يدقُّ مرَّةً من طرف القاعة الآخَر.

قالت لايرا: «جرس الوكيل! حسبتُ أن لدينا وقتًا أطول».

حلَّق پانتالايمون مسرعًا إلى باب القاعة، وبالسُّرعة نفسها عادَ قائلًا: «الوكيل هناك بالفعل، ولا يُمكنكِ الخروج من الباب الآخَر...».

يقود الباب الآخَر، الذي دخلَ منه العميد وخرجَ، إلى الرُّواق المشغول بين المكتبة وصالة الباحثين، وفي هذا الوقت من اليوم يزدحم الرُّواق بالرِّجال الذين يرتدون عباءاتهم استعدادًا للعَشاء، أو يهرعون لترك أوراقهم أو حقائبهم الجلديَّة في الصَّالة قبل أن ينتقلوا إلى القاعة. كانت لايرا تنوي أن تذهب من الطَّريق الذي جاءَت منه، آملةً أن تحظى ببضع دقائق إضافيَّة قبل أن يدقَّ جرس الوكيل.

ولو لم ترَ العميد يصبُّ ذلك المسحوق في النَّبيذ فلربما خاطرَت بتعريض نفسها إلى غضبة الوكيل، أو أملَت أن تتلافى أن يراها أحد في الرُّواق المشغول، إلَّا أن الارتباك أصابَها، وجعلَها هذا تتردَّد.

ثم إنها سمعَت خُطواتٍ ثقيلةً على المنصَّة. الوكيل قادم ليتأكَّد من أن الاستراحة جاهزة لخشخاش الباحثين ونبيذهم بعد العَشاء. اندفعَت لايرا كالسَّهم إلى الخزانة السَّنديان وفتحَتها واختبأَت داخلها، مغلقةً الباب في اللَّحظة التي دخلَ فيها الوكيل. لم تخشَ على پانتالايمون، فألوان الغُرفة قاتمة، وبإمكانه دومًا أن يختبئ تحت أحد الكراسي.

تناهى إلى مسامعها صوت أنفاس الوكيل الثَّقيلة المصحوبة بالخشخشة، وعبر الفُرجة حيث لم ينغلِق باب الخزانة تمامًا شاهدَته يُنظِّم الغلايين على الحامل عند رفِّ التَّدخين ويجوس بنظره سريعًا في الدَّوارق والكؤوس، ثم إنه سوَّى الشَّعر فوق أذنيه بكفَّيه وقال شيئًا ما لقرينته. إنه خادم، ولذا فقرينته كلبة، لكنه خادم أعلى مرتبةً، وعليه فكلبته من مرتبةٍ أعلى، والحقيقة أنها تتَّخذ تكوين كلبةٍ

من فصيلة السَّاطر الأحمر. بدا الشَّكّ على القرينة، وراحَت تتلفّت حول نفسها كأنها شعرَت بوجود متطفِّل، لكنها لم تذهب إلى الخزانة، وهو ما أراحَ لايرا بشدَّة. إنها تخاف الوكيل الذي ضربَها مرَّتين من قبل.

سمعَت لايرا همسةً خفيضةً للغاية. واضح أن پانتالايمون دسَّ نفسه إلى جوارها.

- «علينا أن نبقى هنا الآن. لِمَ لا تُصغين إليَّ أبدًا؟!».

لم تُجِبه حتى خرجَ الوكيل، الذي يتضمَّن عمله الإشراف على تقديم الطَّعام والشَّراب على المائدة العالية. كان بإمكانها سماع الباحثين يَدخُلون القاعة؛ أصوات الهمهمة وخُطوات الأقدام.

ردَّت هامسةً: «جيِّد أني لم أفعل، وإلَّا لما رأينا العميد يضع السُّمَّ في النَّبيذ. پان، هذا هو التوكاي الذي سألَ رئيس الخدم عنه! سيَقتُلون اللورد آزريل!».

- «لستِ تعلمين أنه سُم».

- «أوه، بل هو سُم بالطَّبع. ألا تَذكُر؟ لقد صرفَ رئيس الخدم قبل أن يفعلها. لو كان أمرًا بريئًا لما همَّه أن يراه رئيس الخدم. ثم إنني أعلمُ أن هناك شيئًا ما يَحدُث، شيئًا له علاقة بالسِّياسة. الخدم يتكلَّمون عنه منذ أيام. بإمكاننا أن نمنع جريمة قتل يا پان!».

قال بخشونة: «لم أسمع هُراءً كهذا من قبل. كيف ستبقين ثابتةً في هذه الخزانة الضيِّقة أربع ساعاتٍ كاملةً؟ دعيني أذهبُ وألقي نظرةً في الرُّواق. سأخبركِ حين يخلو»، وطارَ من فوق كتفها، ورأت لايرا ظلَّه الصَّغير يظهر في فُرجة الضَّوء.

قالت: «لا فائدة يا پان. سأظلُّ هنا. ثمَّة عباءة أخرى أو شيء ما هنا. سأفرشها على الأرض وأستريحُ عليها. يجب أن أرى ما يفعلونه!».

كانت جالسةً القرفصاء، فنهضَت متحسِّسةً بحثًا عن مشاجب الثِّياب كي لا تُصدِر صوتًا، ووجدَت الخزانة أكبر مما حسبَت، إذ تحوي العديد من العباءات والقلنسوات الأكاديميَّة، الموشَّى بعضها بالفرو وأكثرها بالحرير.

همسَت: «تُرى هل يملكها العميد كلَّها؟ ربما يُعطونه عباءاتٍ فاخرةً عندما يَحصُل على درجاتٍ شرفيَّة من أماكن أخرى، ويحتفظ بها هنا إذا أراد أن يتأنَّق... پان، أتظنُّ حقًّا أن ما في النَّبيذ ليس سُمًّا؟».

أجابَها: «نعم، أظنُّ أنه سُم، تمامًا مثلما تظنِّين. وأظنُّ أيضًا أن هذا ليس من شأننا. وأظنُّ أن تدخُّلكِ سيكون أسخف تصرُّفٍ تفعلينه في عُمرٍ من التَّصرُّفات السَّخيفة. لا علاقة لنا بالأمر».

قالت لايرا: «لا تكن أحمق. لا يُمكنني أن أجلس هنا وأشاهدهم يُسمِّمونه!».

- «تعالي إلى مكانٍ آخَر إذن».

- «أنت جبان يا پان».

- «بكلِّ تأكيد. هل لي أن أسأل عمَّا تنوين فِعله؟ هل ستندفعين من الخزانة وتختطفين الكأس من أصابعه الرَّاجفة؟ فيمَ كنتِ تُفكِّرين؟».

ردَّت بحدَّةٍ هادئة: «لم أكن أفكِّرُ في أيِّ شيءٍ كما تعلم جيِّدًا، لكن الآن وقد رأيتُ ما فعلَه العميد فليس لديَّ خيار. المفترَض أنك تعلم معنى الضَّمير، أليس كذلك؟ كيف يُمكنني الذَّهاب للجلوس في المكتبة أو غيرها وأهدرُ الوقت وأنا أعرفُ ما سيَحدُث؟ لستُ أنوي أن أفعل ذلك، أؤكِّدُ لك».

قال بعد لحظة: «هذا ما كنتِ تُريدينه من البداية. أردتِ أن تختبئي هنا وتُشاهِدي. لِمَ لم أدرك هذا من قبل؟».

- «حسن، هذا ما أريده بالفعل. الكلُّ يعلم أنهم يفعلون شيئًا سرِّيًّا، يُمارِسون طقسًا ما، وأردتُ أن أعرف ما هو».

- «ليس ذلك من شأنكِ! إذا أرادوا الاستمتاع بأسرارهم فعليكِ فقط أن تترفَّعي عنهم وتدعيهم يفعلون ما يفعلونه. الاختباء والتَّجسُّس للأطفال السُّخفاء».

- «كنتُ أعلمُ أنك ستقول هذا بالضَّبط. والآن كُفَّ عن الشَّكوى».

ظلَّ كلاهما صامتًا فترةً، لايرا غير مستريحةٍ على أرضيَّة الخزانة الصُّلبة، وپانتالايمون على أحد العباءات تختلج قرون استشعاره المؤقَّتة بعزَّة نفس. أحسَّت لايرا بمزيجٍ من الأفكار المتبارية في عقلها، وما كانت لترغب في شيءٍ أفضل من مشاركتها مع قرينها، غير أنها تعتدُّ بنفسها أيضًا، وربما عليها أن تُصفِّي أفكارها من دون مساعدته.

الفكرة الأساسيَّة في رأسها هي القلق، وليس على نفسها، فقد وقعَت في المتاعب مرارًا حتى إنها اعتادَتها. هذه المرَّة قلقها على اللورد آزريل، ومما يعنيه كلُّ هذا. إنه لا يزور الكلِّيَّة كثيرًا، وحقيقة أن التَّوتُّرات السِّياسيَّة على أشدُّها حاليًّا تعني أنه لم يأتِ لمجرَّد أن يأكل ويشرب ويُدخِّن مع بعض الأصدقاء القُدامى. إنها تعلم أن اللورد آزريل والعميد عُضوان في ديوان الوُزراء، وهو الهيئة الاستشاريَّة الخاصَّة التَّابعة لرئيس الوُزراء، أي أن الأمر قد تكون له علاقة بهذا. لكن اجتماعات ديوان الوُزراء تُعقَد في القصر، وليس في استراحة كلِّيَّة چوردان.

ثم إن هناك تلك الشَّائعة التي يتهامَس عنها خدم الكلِّيَّة منذ أيام، إذ يُقال إن التَّرتار غزوا موسكوڤي، ويتدفَّقون شمالًا نحو سانت پيترسبرج، حيث سيُمكنهم السَّيطرة على بحر البلطيق توطئةً لاجتياح غرب أوروپا بأكمله. واللورد آزريل كان في الشَّمال البعيد، وحين رأته آخِر مرَّةٍ كان يعدُّ لحملةٍ في لاپي...

همسَت لايرا: «پان».

- «نعم؟».

- «أتحسب أن حربًا ستقوم؟».

- «ليس بعدُ. لم يكن اللورد آزريل ليتناوَل العَشاء هنا لو كانت ستشتعل الأسبوع المقبل أو نحوه».

- «كما حسبتُ. لكن لاحقًا؟».

- «شش! أحدهم قادم».

اعتدلَت جالسةً ووضعَت عينها على فُرجة الباب، لترى رئيس الخدم يَدخُل لتشذيب فتيل القنديل كما أمرَه العميد. تُضيء الصَّالة والمكتبة مصابيح الطَّاقة العنبريَّة، غير أن الباحثين يُفضِّلون قناديل النَّفثة[1] الأقدم والأخفت ضوءًا في الاستراحة، ولن يُغيِّروا هذا ما دامَ العميد حيًّا.

شذَّب رئيس الخدم الفتيل وأضافَ المزيد من الحطب إلى النَّار، ثم أصغى بانتباهٍ عند باب القاعة، قبل أن يأخذ لنفسه حفنةً من ورق الدُّخان من فوق رفِّ التَّدخين.

كان قد وضعَ غطاء جرَّة ورق الدُّخان بالكاد عندما دارَ مقبض الباب الآخَر جاعلًا إياه يثب في مكانه باضطراب. حاولَت لايرا ألَّا تضحك، فيما أسرعَ رئيس الخدم يدسُّ ورق الدُّخان في جيبه والتفتَ يُواجِه الوافد.

قال الرَّجل: «لورد آزريل!»، وسرَت رجفة المفاجأة الباردة على ظَهر لايرا. لم تستطِع رؤيته من مكانها هذا، وحاولَت أن تخنق الرَّغبة في أن تتحرَّك وتَنظُر.

خاطبَه اللورد آزريل: «مساء الخير يا رِن». لطالما سمعَت لايرا هذا الصَّوت الأجش بخليطٍ من السُّرور والخشية. «لقد وصلتُ متأخِّرًا على العَشاء. سأنتظرُ هنا».

لاحَ الارتباك على رئيس الخدم، ذلك أن الضُّيوف لا يَدخُلون الاستراحة إلَّا بدعوة العميد، واللورد آزريل يعلم هذا، لكن رئيس الخدم رأى اللورد آزريل يَنظُر مباشرةً إلى الانتفاخ في جيبه، وقرَّر ألَّا يعترض.

- «هل أخبرُ العميد بوصولك يا سيِّدي؟».

- «لا بأس. أحضِر لي القليل من القهوة».

- «أمرك يا سيِّدي».

انحنى رئيس الخدم وخرجَ مسرعًا، وفي أعقابه قرينته تمضي بخنوع، في حين اقتربَ عمُّ لايرا من النَّار ومدَّ ذراعيه عاليًا فوق رأسه وتثاءبَ كالأسد. كان يرتدي ثياب السَّفر. تذكَّرت لايرا، مِثلما يَحدُث دومًا متى رأته ثانيةً، كم يُخيفها، والآن لم يَعُد تسلُّلها إلى الخارج من دون أن يلحظها أحد واردًا على الإطلاق، وأصبحَ واجبًا أن تجلس وتأمل.

وقفَت قرينة اللورد آزريل، التي تتَّخذ تكوين نمرة ثلوج، وراءه متسائلةً: «هل ستعرض الإسقاطات هنا؟».

- «نعم، سيُسبِّب هذا اضطرابًا أقل من الانتقال إلى مسرح المحاضرات. سيُريدون رؤية العيِّنات أيضًا. سأرسلُ إلى الحمَّال بعد قليل. إننا نمرُّ بوقتٍ سيِّئ يا ستلماريا».

- «جدير بك أن تستريح».

تمدَّد على أحد الكراسي فلم تَعُد لايرا ترى وجهه، وقال: «نعم، نعم، وجدير بي أيضًا أن أبدِّل ثيابي. على الأرجح لديهم إتيكيت عتيق يُتيح لهم تغريمي دستةً من زُجاجات النَّبيذ لمجيئي هنا دون ملبسٍ لائق. المفروض أن أنام ثلاثة أيام. لكن تبقى حقيقة أن...».

سُمِعَت طَرقة على الباب، ثم دخلَ رئيس الخدم حاملًا صحفةً عليها إبريق وقدح قهوة.

قال اللورد آزريل: «شكرًا يا رِن. أهذا توكاي الذي أراه على المنضدة؟».

أجابَ رئيس الخدم: «العميد أمرَ بتصفيته من أجلك خصِّيصًا يا سيِّدي. لم يتبقَّ من الزُّجاجات المعتَّقة منذ 98 إلَّا ثلاث دستات».

- «لكلِّ شيءٍ حُلو نهاية. اترُك الصَّحفة هنا إلى جواري. أوه، واطلُب من الحمَّال أن يُرسِل الصُّندوقين اللذين تركتهما في النُّزل».

- «هنا يا سيِّدي؟».

- «نعم، هنا يا رجل. وسأحتاجُ إلى شاشةٍ وفانوس عرض أيضًا، هنا أيضًا، والآن أيضًا».

استطاعَ رئيس الخدم بالكاد أن يحول دون انفتاح فمه دهشةً، لكنه تمكَّن من كبت السُّؤال، أو الاعتراض.

قال اللورد آزريل: «إنك تنسى مقامك يا رِن. لا تُحقِّق معي، افعل كما أخبرتك».

قال رئيس الخدم: «أمرك يا سيِّدي. إن سمحت لي بالاقتراح، عليَّ أن أخبر المستر كوسون بما تُخطِّط له يا سيِّدي، وإلَّا لاندهشَ نوعًا، إن كنت تفهم ما أعنيه».

- «نعم، أخبِره إذن».

المستر كوسون هذا هو الوكيل، وثمَّة منافسة قديمة راسخة بينه وبين رئيس الخدم. الوكيل أعلى مرتبةً، إلَّا أن رئيس الخدم يحظى بفُرصٍ أكبر للتَّودُّد إلى الباحثين، ويستغلُّها تمام الاستغلال، وسيلتذُّ بفُرصة أن يُري الوكيل أنه يعلم أكثر منه عمَّا يدور في الاستراحة.

انحنى رئيس الخدم وغادرَ، وشاهدَت لايرا عمَّها يصبُّ كوبًا من القهوة ويُفرِغه كلَّه في جوفه في الحال، ثم يصبُّ آخَر ويرشف منه ببُطء. كانت تَشعُر بحماسةٍ وتشوُّق. صناديق عيِّنات؟ فانوس عرض؟ ما الشَّيء العاجل بالغ الأهميَّة الذي يُريد أن يُري الباحثين إياه؟

ثم نهضَ اللورد آزريل والتفتَ عن النَّار، لتراه لايرا كاملًا وتتعجَّب من التَّبايُن بينه وبين رئيس الخدم ممتلئ الجسد وبين الباحثين المترهِّلين محنيِّي الظُّهور. اللورد آزريل رجل طويل القامة، له كتفان قويَّتان ووجه قاسٍ قاتم، وتبدو عيناه كأنما يتألَّق فيهما الضَّحك الضَّاري ويلتمع. إنه وجه إمَّا يستحوذ عليك وإمَّا تُقاتِله، وليس وجهًا تتملَّقه أو تُشفِق عليه أبدًا. حركاته كلُّها كبيرة مثاليَّة في

توازُنها كحركات الحيوانات البرّيَّة، وحين يظهر في غُرفةٍ كهذه يبدو كحيوانٍ برّي حبيس قفصٍ أصغر من أن يحتويه.

في تلك اللَّحظة كان التَّعبير على وجهه شاردًا مهمومًا، ودنَت منه قرينته وأراحَت رأسها على خصره، فرمقَها بنظرةٍ يتعذَّر فهمها قبل أن يلتفت عنها ويتحرَّك نحو المنضدة. فجأةً أحسَّت لايرا بمعدتها تنقلب بعُنفٍ إذ خلعَ اللورد آزريل سدادة دورق التوكاي وبدأ يصبُّ كأسًا.

- «لا!».

خرجَت الصَّيحة الخافتة منها قبل أن تتمكَّن من كتمانها، وسمعَها اللورد آزريل والتفتَ في الحال.

- «مَن هناك؟».

لم تستطِع منع نفسها واندفعَت من الخزانة، وبحركةٍ خرقاء ضربَت الكأس من يده، ليتناثَر النَّبيذ ملطِّخًا حافة المنضدة والبساط، وتَسقُط الكأس وتتهشَّم.

أطبقَ اللورد آزريل على معصمها ولواه بشدَّةٍ قائلًا: «لايرا! ماذا تفعلين بحقِّ الجحيم؟».

- «اترُكني وسأخبرك!».

- «سأكسرُ ذراعكِ أولًا. كيف تجرُئين على الدُّخول هنا؟».

- «لقد أنقذتُ حياتك!».

ظلَّا هكذا لحظةً، تتلوَّى الفتاة ألمًا مقلِّصةً ملامحها كي لا تصيح بصوتٍ أعلى، ويميل الرَّجل عليها عابسًا كالرَّعد.

سألَها بنبرةٍ أهدأ: «ماذا قلتِ؟».

تمتمَت من بين أسنانها المُطبقة: «النَّبيذ مسموم. رأيتُ العميد يضع فيه مسحوقًا ما».

أفلتَها، وخرَّت هي أرضًا وطارَ پانتالايمون بقلقٍ إلى كتفها، فيما نظرَ عمُّها إليها من أعلى بغضبٍ مكبوح، ولم تجرؤ على مبادلته النَّظر.

قالت لايرا: «دخلتُ لأرى شكل الغُرفة لا أكثر. أعرفُ أنه لم يكن يَجدُر بي هذا، لكنني كنتُ سأخرجُ قبل أن يَدخُل أحد، ثم سمعتُ العميد آتيًا وعلقتُ هنا. الخزانة كانت المكان الوحيد للاختباء، ورأيته يضع المسحوق في النَّبيذ. لو لم أرَه...».

قاطعَتها طَرقة على الباب.

قال اللورد آزريل: «إنه الحمَّال. عودي إلى الخزانة. إذا سمعتُ أدنى صوتٍ فسأجعلكِ تتمنِّين الموت».

انطلقَت عائدةً إلى الخزانة من فورها، وما إن أغلقَت الباب حتى رفعَ اللورد آزريل صوته قائلًا: «ادخُل».

وكما قال، كان الحمَّال هو الطَّارق.

- «هنا يا سيِّدي؟».

رأت لايرا العجوز واقفًا في المدخل وقد لاحَت عليه الرِّيبة، ووراءه رُكن صندوقٍ خشبي كبير.

قال اللورد آزريل: «نعم يا شوتر. أدخِل الصُّندوقين وضعهما عند المنضدة».

استرخَت لايرا بعض الشَّيء، وسمحَت لنفسها بالإحساس بما في كتفها ومعصمها من ألمٍ كان كفيلًا بأن يُبكيها لو أنها من الفتيات اللائي يبكين، لكنها كزَّت على أسنانها بدلًا من ذلك وحرَّكت ذراعها برفقٍ إلى أن أحسَّت بها ترتخي.

ثم إنها سمعَت صوت زُجاجٍ يتحطَّم وسائلٍ ينسكِب.

- «عليك اللَّعنة يا شوتر أيها الأحمق العجوز المهمل! انظُر ماذا فعلت!».

رأت لايرا ما حدثَ بالكاد، إذ استطاعَ عمُّها أن يُسقِط دورق التوكاي من فوق المنضدة، ويجعل الأمر يبدو كأن الحمَّال هو من فعلَها.

وضعَ العجوز الصُّندوق بحرصٍ وشرعَ في الاعتذار.

- «أنا آسفٌ حقًّا يا سيِّدي... يبدو أنني كنتُ أقرب مما حسبتُ...».

- «أحضِر شيئًا تُنظِّف به هذه الفوضى. اذهب قبل أن يتشرَّبه البساط!».

هرعَ الحمَّال يَخرُج، ودنا اللورد آزريل من الخزانة وبدأ يتكلَّم بنبرةٍ خفيضة.

- «ما دُمتِ هنا فيُمكنكِ أن تجعلي نفسكِ مفيدةً. راقبي العميد بانتباهٍ حين يَدخُل. إذا أخبرتِني بشيءٍ عنه يُثير الاهتمام فسأحميكِ من الوقوع في مشكلةٍ أكبر مما أنتِ فيها بالفعل، مفهوم؟».

- «نعم يا عمَّاه».

- «أصدِري صوتًا ولن أساعدكِ، ستكونين وحدكِ».

ثم إنه ابتعدَ وعادَ يقف معطيًا النَّار ظَهره فيما عادَ الحمَّال بفُرشاةٍ وجاروف للزُّجاج، ووعاءٍ وخرقة.

- «لا يسعني إلَّا أن أقولها ثانيةً يا سيِّدي. أرجو أن تتقبَّل اعتذاري الخالص. لستُ أدري ما...».

- «نظِّف هذه الفوضى فقط».

بينما بدأ الحمَّال يُنظِّف البساط من النَّبيذ طرقَ رئيس الخدم الباب ودخلَ مع خادم اللورد آزريل المسمَّى ثورولد، يحملان معًا صندوقًا ثقيلًا من الخشب المصقول مزوَّدًا بمقبضين من النُّحاس الأصفر، ولمَّا رأيا ما يفعله الحمَّال تجمَّدا في مكانهما.

قال اللورد آزريل: «نعم، إنه التوكاي. مؤسف. أهذا هو الفانوس؟ ركِّبه عند الخزانة يا ثورولد إذا سمحت. أريدُ الشَّاشة عند الطَّرف الآخَر».

أدركَت لايرا أنها ستتمكَّن من رؤية الشَّاشة وما يُعرَض عليها عبر فُرجة الباب، وتساءلَت إن كان عمُّها قد تعمَّد هذا التَّرتيب من أجلها. تحت الضجَّة التي أحدثَها الخادم وهو يبسط الكتَّان اليابس ويُثبِّته على الإطار، همسَت: «أترى؟ كان الأمر يستحقُّ المجيء، أليس كذلك؟».

أجابَ بتجهُّمٍ بصوت العُثَّة الخافت: «ربما، وربما لا».

وقفَ اللورد آزريل عند المدفأة يرشف ما تبقَّى من قهوته ويُشاهِد بعبوسٍ فيما فتحَ ثورولد صندوق فانوس العرض وخلعَ غطاء العدسة، قبل أن يتفقَّد خزَّان الزَّيت، ويقول: «الزَّيت كثير يا سيِّدي. هل أرسلُ إلى فنِّي ليُشغِّله؟».

- «لا، سأشغِّله بنفسي. أشكرك يا ثورولد. هل فرغوا من العَشاء بعدُ يا رِن؟».

أجابَ رئيس الخدم: «أظنُّهم على وشك الفروغ يا سيِّدي. إذا أحسنتُ فهم المستر كوسون فالعميد وضيوفه لن يتلكَّأوا ما إن يعلموا بوجودك هنا. هل آخذُ صحفة القهوة؟».

- «خُذها واذهب».

- «أمرك يا سيِّدي».

بانحناءةٍ صغيرة أخذَ رئيس الخدم الصَّحفة وغادرَ، وذهبَ ثورولد معه، وبمجرَّد أن انغلقَ الباب نظرَ اللورد آزريل عبر الغُرفة نحو الخزانة مباشرةً، وشعرَت لايرا بقوَّة نظرته كأن لها حضورًا

ماديًّا ملموسًا، كأنها سهم أو حربة. ثم إنه أشاحَ ببصره وخاطبَ قرينته بخفوت.

جاءَت قرينته تجلس بهدوءٍ إلى جواره، منتبهةً وأنيقةً وخطرةً، تمسح عيناها السَّمراوان المصفرَّتان الغُرفة، قبل أن تلتفتا -كعينيه السَّوداوين- إلى الباب المفضي إلى القاعة في اللَّحظة التي دارَ فيها مقبضه. لا تستطيع لايرا رؤية الباب من هنا، لكنها سمعَت شهقةً إذ دخلَ الرَّجل الأول.

وقال اللورد آزريل: «حضرة العميد. أجل، لقد عدتُ. أدخِل ضيوفك من فضلك، فلديَّ شيء شائق للغاية أريكم إياه».

(2) فكرة الشَّمال

بلهجةٍ ثقيلة قال العميد: «لورد آزريل»، وتقدَّم يُصافِحه، ومن مكمنها راقبَت لايرا عينَيه، وبالفعل رأتهما تخطفان نظرةً إلى المنضدة حيث كان التوكاي.

قال اللورد آزريل: «حضرة العميد، لقد وصلتُ متأخِّرًا ولم أرغب في إزعاجكم على العَشاء، فأخذتُ راحتي هنا. حضرة نائب العميد، مرحبًا، يسرُّني أن أراك بخير. اعذُروني على سوء هندامي، فقد هبطتُ لتوِّي. نعم أيها العميد، فقدنا التوكاي. أظنُّ أنك واقف فيه. الحمَّال أسقطَه من فوق المنضدة، لكنها كانت غلطتي. أهلًا حضرة رئيس الصَّومعة. لقد قرأتُ ورقتك البحثيَّة الأخيرة باهتمامٍ بالغ».

ابتعدَ عمُّها مع رئيس الصَّومعة تاركًا لايرا تُلقي نظرةً واضحةً على وجه العميد، الذي لم تنمَّ ملامحه عن شيء، وإن نفشَت قرينته على كتفه ريشها وراحَت تتحرَّك بتوتُّر. كان اللورد آزريل قد تسيَّد الغُرفة بالفعل، وعلى الرغم من حرصه على مخاطبة العميد بكياسةٍ على أرضه، فمن الواضح ها هنا مَن يُمسِك بزمام القوَّة.

حيَّا الباحثون الزَّائر ودخلوا الغُرفة، ليجلس بعضهم حول المنضدة وبعضهم على الكراسي، وسرعان ما ملأ طنين الكلام الهواء. رأت لايرا أن الصُّندوق الخشبي والشَّاشة والفانوس أثاروا اهتمامهم الشَّديد. إنها تعرف الباحثين جيِّدًا؛ أمين المكتبة ونائب العميد والمحقِّق والبقيَّة، فهُم رجال عرفتهم طوال حياتها، رجال علَّموها وعاقَبوها وواسوها وأعطوها هدايا صغيرةً وطردوها من عند أشجار الفاكهة في الحديقة. إنهم أقرب ما لديها إلى العائلة، وربما كانت لتَشعُر بأنهم عائلتها الحقيقيَّة لو أنها تعرف معنى العائلة، ولو فعلَت لشعرَت بذلك نحو خدم الكلِّيَّة على الأرجح. أمَّا الباحثون فعندهم مشاغل أهم من العناية بعواطف فتاةٍ نِصف همجيَّة نِصف متحضِّرة تركَتها بينهم الصُّدفة.

أشعلَ العميد موقد الكحول تحت طبق التَّسخين الفضِّي الصَّغير، وأذابَ فيه القليل من الزُّبدة قبل أن يُقطِّع بضعة رؤوس خشخاش ويُضيفها. دائمًا يُقدَّم الخشخاش بعد المآدب، إذ إنه يُصفِّي العقل ويُطلِق اللِّسان وتَنتُج عنه محادثات ثريَّة، وقد جرى التَّقليد على أن يَطبُخه العميد بنفسه.

تحت أزيز الزّبدة وطنين الكلام اعتدلت لايرا لتجد لنفسها وضعًا أكثر راحةً، وبحذرٍ شديد خلعَت إحدى العباءات -واحدةً طولها كاملًا من الفرو- عن مشجبها، وفرشَتها على أرضيَّة الخزانة.

همسَ پانتالايمون: «كان عليكِ استخدام واحدةٍ قديمة خشنة. إذا استرحتِ أكثر من اللَّازم فستغيبين في النَّوم».

ردَّت: «إذا نمتُ فعملك أن تُوقِظني».

جلسَت وأصغَت إلى الكلام، ولكم كان كلامًا مملًّا، معظمه عن السِّياسة، بل والسِّياسة اللندنيَّة أيضًا، لا شيء مثيرًا عن التَّرتار. حملَ الهواء روائح الخشخاش المحمَّر وورق الدُّخان المحروق السَّارَّة إلى داخل الخزانة، ووجدَت لايرا رأسها يتمايَل من النُّعاس أكثر من مرَّة، غير أنها سمعَت أحدهم يدقُّ على المنضدة أخيرًا، فلاذَت الأصوات بالصَّمت، ثم بدأ العميد يتكلَّم.

- «أيها السَّادة، أنا واثقٌ بأنني أتكلَّمُ بلسان الجميع إذ أرحِّبُ باللورد آزريل. صحيحٌ أن زياراته نادرة، لكنها بالغة القيمة دومًا، وقد فهمتُ أن لديه شيئًا ذا أهميَّةٍ خاصَّة سيُرينا إياه اللَّيلة. إننا في وقتٍ تشتدُّ فيه التَّوتُّرات السِّياسيَّة كما يعي الجميع، وحضور اللورد آزريل مطلوب في الصَّباح الباكر في وايت هول. ثمَّة قطار بُخاري جاهز لحمله إلى لندن بمجرَّد أن نَفرُغ من حوارنا هنا، ولذا علينا استغلال الوقت بحكمة. أظنُّ أنه ستكون هناك أسئلة حين يَفرُغ من التَّحدُّث إلينا. أرجو أن تجعلوها مختصرةً وفي صميم الموضوع. لورد آزريل، هل ترغب في البدء؟».

قال اللورد آزريل: «أشكرك يا حضرة العميد. بدايةً، لديَّ بضع شرائح أريكم إياها. حضرة نائب العميد، الأفضل أن تجلس هنا في رأيي. هل يحبُّ العميد أن يأخذ الكُرسي المجاور للخزانة؟».

تعجَّبت لايرا من مهارة عمِّها. نائب العميد العجوز يكاد يكون كفيفًا، ولذا فمن الكياسة أن يُفسِحوا مكانًا له قُرب الشَّاشة، وهو ما يعني أن تقدُّمه يُجبِر العميد على الجلوس إلى جوار أمين المكتبة، على بُعد ياردة واحدة أو نحوها من لايرا الجاثمة في الخزانة. وإذ استقرَّ العميد على الكُرسي سمعَته لايرا يُغَمغِم: «الشَّيطان! كان يعلم بأمر النَّبيذ، إنني واثق».

ردَّ أمين المكتبة مغمغمًا بدوره: «سيَطلُب تمويلًا. إذا أجبرَنا على التَّصويت...».

- «إذا فعلَ ذلك فعلينا أن ندفع بالرَّفض بكلِّ ما نتمتَّع به من بلاغة».

بدأ الفانوس يُهَسهِس إذ شرعَ اللورد آزريل يُشغِّل مضخَّته بقوَّة، وتحرَّكت لايرا في مكانها بعض الشَّيء لتتمكَّن من رؤية الشَّاشة، حيث بدأت دائرة بيضاء برَّاقة تتوهَّج.

نادى اللورد آزريل: «هلَّا خفضَ أحدكم ضوء القنديل؟».

نهضَ أحد الباحثين يُلبِّي الطَّلب، وأظلمَت الغُرفة.

ثم بدأ اللورد آزريل يتكلَّم.

- «كما يعلم بعضكم، لقد ارتحلتُ إلى الشَّمال قبل اثني عشر شهرًا في بعثةٍ دبلوماسيَّة إلى ملك لابي. أو أن ذلك ما تظاهرتُ بفعله على الأقل. الواقع أن هدفي الحقيقي كان أن أتوغَّل شمالًا، إلى قلب الجليد في الحقيقة، لأحاول أن أكتشف ما جرى لحملة جرومان. إحدى آخِر رسائل جرومان إلى الأكاديميَّة في برلين ذكرَت ظاهرةً طبيعيَّةً معيَّنةً لا تُرى إلَّا في أراضي الشَّمال، وكنتُ عازمًا على التَّحقُّق منها علاوةً على معرفة ما أستطيعُ معرفته عن جرومان. على أن الصُّورة الأولى التي سأريكم إياها لا تخصُّ أيًّا من هذين الشَّأنين تحديدًا».

ثم إنه وضعَ الشَّريحة الأولى في الإطار ودفعَها وراء العدسة، لتظهر على الشَّاشة صورة فوتوجراميَّة[2] دائريَّة بالأبيض والأسود البارزيْن، ملتقَطة ليلًا تحت قمرٍ كامل، ويظهر فيها كوخ خشبي في المنتصَف، جُدرانه داكنة وسط الثَّلج الذي يُحيط به وتفترِش طبقة كثيفة منه السَّقف. إلى جوار الكوخ تقف أدوات فلسفيَّة عدَّة، بدَت للايرا كأشياء تراها في الحديقة العنبريَّة على الطَّريق إلى يارنتون: هوائيَّات وأسلاك وعوازل من اليورسلين، كلُّها يلمع في نور القمر ويكسوه الصَّقيع بكثافة. في المقدِّمة يقف رجل يكاد وجهه لا يُرى تحت قلنسوة معطفه الفرو السَّميكة، رافعًا يده كأنما يُحيِّي أحدهم، وإلى جانبه شكل أصغر حجمًا، وقد غمرَ نور القمر كلَّ شيءٍ بالبريق الباهت نفسه.

قال اللورد آزريل: «هذه الصُّورة الفوتوجراميَّة ملتقَطة بمستحلَب نترات فضَّة تقليدي. أريدكم أن تروا واحدةً أخرى ملتقَطة في البُقعة ذاتها بعد دقيقةٍ واحدة، باستخدام مستحلَبٍ جديد محضَّر خصِّيصًا».

رفعَ اللورد آزريل الشَّريحة الأولى وأنزلَ أخرى مكانها في الإطار. هذه الصُّورة أغمق كثيرًا، كأن هناك مَن فلترَ نور القمر منها. ما زالَ الأُفق واضحًا، وكذا شكل الكوخ الدَّاكن بسقفه المغطَّى بالثَّلج ما زالَ بارزًا، إلَّا أن الظَّلام أخفى تعقيد الأدوات وتشابُكها، أمَّا الرَّجل فقد تبدَّل تمامًا، إذ يغمره الضَّوء الآن، ويبدو كأنما تتدفَّق نافورة من الجُسيمات المتوهِّجة من يده المرفوعة.

تساءلَ رئيس الصَّومعة: «هذا الضَّوء، هل يصعد أم ينزل؟».

أجابَ اللورد آزريل: «ينزل. لكنه ليس ضوءًا، بل (غُبار)».

شيء ما في الطَّريقة التي لفظَ بها الكلمة جعلَ لايرا تتخيَّلها بين قوسين، كأنه ليس غُبارًا تقليديًّا، وأكَّدت ردَّة فعل الباحثين شعورها، لأن كلمات اللورد آزريل سبَّبت صمتًا جماعيًّا مفاجئًا، تبعَته شهقات عدم التَّصديق.

- «لكن كيف...».

- «مؤكَّد أن...».

- «لا يُمكن...».

جاءَ صوت رئيس الصَّومعة يُقاطِعهم: «أيها السَّادة! دعوا اللورد آزريل يشرح».

كرَّر اللورد آزريل: «إنه (غُبار)»، وأتبعَ: «لوح التّصوير سجَّله ضوءًا لأن جُسيمات (الغُبار) تُؤثِّر في هذا المستحلَب كما تُؤثِّر الفوتونات في مستحلَب نترات الفضَّة. كان اختباره جزءًا من ذهاب حملتي إلى الشَّمال. كما ترون، شكل الرَّجل واضح تمامًا. والآن أريدكم أن تُلقوا نظرةً على الشَّكل إلى يساره»، وأشارَ إلى الشَّكل الأصغر المشوَّش.

علَّق المحقِّق: «حسبته قرينة الرَّجل».

- «لا، في تلك اللَّحظة كانت قرينته الأفعى ملتفَّةً حول عُنقه. الشَّكل المعتم الذي ترونه طفل».

قال أحدهم: «طفل مبتور...؟»، ووشَت الطَّريقة التي بترَ بها عبارته بأنه نطقَ بشيءٍ لم يكن يجب أن يُنطَق.

وسادَ صمت ثقيل.

ثم قال اللورد آزريل بهدوء: «طفل كامل. وباعتبار طبيعة (الغُبار) فهذا بيت القصيد، أليس كذلك؟».

لم يتكلَّم أحد لثوانٍ عدَّة، ثم جاءَ صوت رئيس الصَّومعة: «آه». قالها كرجلٍ كان ظمآنًا فعبَّ الماء عبًّا ثم وضعَ الكوب ليُطلِق النَّفس الذي حبسَه وهو يشرب. «و(الغُبار) المتدفِّق...».

- «... يأتي من السَّماء ويغمره بما يبدو ضوءًا. يُمكنكم فحص هذه الصُّورة بمنتهى الإمعان إذا أردتم، سأتركها عندما أذهبُ. إنني أريكم إياها الآن لأعرض عليكم تأثير هذا المستحلَب الجديد. والآن أودُّ أن أريكم صورةً أخرى».

بدَّل اللورد آزريل الشَّريحة، لتظهر الصُّورة التَّالية، الملتقَطة ليلًا أيضًا، ولكن في غياب نور قمر هذه المرَّة، وتُظهِر مجموعةً صغيرةً من الخيام في الخلفيَّة، محدَّدة في العتمة أمام الأُفق المنخفِض، وإلى جوارها كومة غير مرتَّبة من الصَّناديق الخشب ومِزلجة. على أن مصبَّ الاهتمام الأساسي في الصُّورة هو السَّماء، ففي السَّماء سيَّالات وحُجُب من الضَّوء معلَّقة كالسَّتائر، معقودة ومُرخاة على خطاطيف خفيَّة ترتفع مئات الأميال، أو تتراقَص إلى الجانب كأنها في مهبِّ ريحٍ لا يُدرِكها الخيال.

تساءلَ صوت نائب العميد: «ما هذا؟».

- «إنها صورة للأورورا».

علَّق پروفسور المذهب الپالماري: «صورة فوتوجراميَّة ممتازة، واحدة من أفضل ما رأيتُ».

قال رئيس جوقة المرتِّلين العجوز بصوته الرَّاجف: «اعذُروا جهلي، لكن إن كنتُ عرفتُ ما هي الأورورا يومًا فقد نسيتُ. أهي ما يُسمُّونه أضواء الشَّمال؟».

- «نعم. إن لها عدَّة أسماء. إنها تتكوَّن من عواصف من الجُسيمات المشحونة وأشعَّة الشَّمس بالغة القوَّة... تلك الأشياء في حدِّ ذاتها خفيَّة، لكنها تُسبِّب هذا الإشعاع المنير حين تتفاعَل مع الغلاف الجوِّي. لو كان الوقت يسمح لصبغت هذه الشَّريحة لأريكم الألوان؛ معظمها أخضر باهت ووردي، مع مسحة من القرمزي بطول الحافة السُّفليَّة لهذا التَّكوين الشَّبيه بالسِّتار. هذه الصُّورة ملتقَطة بالمستحلَب التَّقليدي. الآن أريدكم أن تُلقوا نظرةً على واحدةٍ ملتقَطة بالمستحلَب الخاص».

وبينما أخرجَ عمُّها الشَّريحة سمعَت لايرا العميد يقول: «إذا أجبرَنا على التَّصويت فيُمكننا أن نُحاوِل الاستناد إلى بند الإقامة. إنه لم يُقِم في الكلِّيَّة طوال ثلاثين أسبوعًا من الأسابيع الاثنين وخمسين الأخيرة».

ردَّ أمين المكتبة مغمغمًا: «رئيس الصَّومعة في صفِّه بالفعل».

وضعَ اللورد آزريل شريحةً أخرى في إطار الفانوس، ليظهر في الصُّورة المشهد نفسه، وكما هي الحال في الصُّورتين السَّابقتين، فكثير من الملامح الظَّاهرة في الضَّوء العادي أشد إعتامًا بكثير في هذه، وكذا حُجب الضِّياء في السَّماء.

لكن في منتصَف الأورورا، عاليًا فوق التَّضاريس المقفرة، رأت لايرا شيئًا جامدًا. ألصقَت وجهها بفُرجة الباب لترى بوضوحٍ أكثر، ولمحَت الباحثين قُرب الشَّاشة يميلون إلى الأمام أيضًا. وإذ نظرَت تنامى عجبها، ففي السَّماء، وبمنتهى الوضوح، شكل مدينةٍ بأبراجها وقبابها وأسوارها... بنايات وشوارع معلَّقة في الهواء!

كادَت لايرا تشهق ذهولًا من المنظر.

قال باحث أبرشيَّة كاسينجتن: «إنها تبدو... كمدينة».

قال اللورد آزريل: «بالضَّبط».

بصوتٍ محمَّل بالازدراء قال النَّاظر: «مدينة في عالمٍ آخَر ولا شك؟».

تجاهلَه اللورد آزريل. بين بعض الباحثين ثارَت الحماسة، كأنهم كتبوا أطروحاتٍ كاملةً عن وجود اليونيكورن دون أن يروا واحدًا، ثم إذا بهم يظفرون بنموذجٍ حي سقطَ حديثًا في الأَسر.

قال پروفسور المذهب الپالماري: «ألهذا علاقة بمسألة بارنارد-ستوكس؟ إن له علاقةً، أليس كذلك؟».

أجابَ اللورد آزريل: «هذا ما أريدُ أن أكتشفه».

وقفَ عمُّها إلى جانب الشَّاشة المضيئة، ورأت لايرا عينيه الدَّاكنتين تُمعِنان النَّظر إلى الباحثين إذ حدَّقوا إلى صورة الأورورا، والوهج الأخضر في عينَي قرينته الواقفة إلى جواره. كلُّ الرُّؤوس الجليلة مائل إلى الأمام بعُويناتٍ تلمع، ووحدهما العميد وأمين المكتبة مائلان إلى الوراء في مقعديهما برأسين متقاربين.

كان رئيس الصَّومعة يقول: «قلت إنك كنت تبحث عن أخبار عن حملة جرومان أيها اللورد آزريل. هل كان الدكتور جرومان يبحث هذه الظَّاهرة أيضًا؟».

- «هذا ما أعتقده، وأعتقدُ أيضًا أنه جمعَ عنها قدرًا وافرًا من المعلومات، لكنه لن يتمكَّن من إطلاعنا عليها، لأنه ماتَ».

قال رئيس الصَّومعة: «لا!».

- «للأسف نعم، والدَّليل معي هنا».

غمرَت موجة من التَّوجُّس المنفعِل الاستراحة، إذ حملَ اثنان أو ثلاثة من الباحثين الأصغر سنًّا الصُّندوق الخشبي تحت إشراف اللورد آزريل، ووضعوه في مقدِّمة الغُرفة. أخرجَ اللورد آزريل الشَّريحة الأخيرة لكنه تركَ الفانوس مشتعلًا، وفي وهج دائرة الضَّوء الذي أضفى طابعًا دراميًّا، انحنى ليفتح الصُّندوق مستخدمًا عتلةً. سمعَت لايرا صرير المسامير إذ انتُزِعَت من الخشب الرَّطب، ثم نهضَ العميد يَنظُر حاجبًا عنها الرُّؤية.

من جديدٍ تكلَّم عمُّها قائلًا: «إذا كنتم تَذكُرون، فقد اختفَت حملة جرومان قبل ثمانية عشر شهرًا. كانت الأكاديميَّة الألمانيَّة قد أرسلَته إلى هناك كي يتوغَّل شمالًا حتى القُطب المغنطيسي ويُسجِّل شتَّى الملاحظات الفلكيَّة. خلال تلك الرِّحلة لاحظَ الظَّاهرة العجيبة التي رأيناها، وبعد ذلك بفترةٍ قصيرة اختفى. افتُرِضَ أن حادثةً وقعَت له ومنذ ذلك الحين وجثَّته في شَقٍّ عميق ما، لكن الحقيقة أن لا حوادث وقعَت».

سألَه النّاظر: «ما هذا الذي معك؟ حاوية مفرَّغة الهواء؟».

لم يُجِب اللورد آزريل في البداية، وسمعَت لايرا طقطقة مشابك معدنيَّة وهسهسةً إذ تدفَّق الهواء إلى داخل الحاوية، ثم رانَ الصَّمت.

لكنه لم يَطُل، فبعد لحظةٍ أو لحظتين سمعَت لايرا لغطًا مرتبكًا يجتاح المكان؛ صياح فزعٍ وصخب استهجانٍ وأصواتًا ارتفعَت بالغضب والخوف.

- «لكن ماذا...».

- «... بالكاد بشريًّا...».

- «... منذ كان...».

- «... ما الذي حدثَ له؟!».

قاطعَهم جميعًا صوت العميد.

- «لورد آزريل، ما هذا بالله عليك؟».

قال صوت اللورد آزريل: «إنه رأس ستانيسلوس جرومان».

فوق الأصوات المتشابكة سمعَت لايرا أحدهم يهرع متعثِّرًا إلى الباب ويَخرُج مصدرًا أصوات هلعٍ غير مفهومة، وتمنَّت لو ترى ما يرونه الآن.

قال اللورد آزريل: «وجدتُ جثَّته محفوظةً في الجليد خارج سڤالبارد. قتَلته هُم من عالَجوا رأسه بهذه الطَّريقة. ستُلاحِظون نمط سلخ فروة الرَّأس المميَّز. أظنُّه مألوفًا لديك يا حضرة نائب العميد».

بصوتٍ ثابت قال العجوز: «رأيتُ التَّرتار يفعلون هذا. إنه تكنيك موجود عند سُكَّان سيبيريا الأصليِّين وأهل تنجسكا، ومن هناك بالطَّبع انتشرَ إلى أراضي السكريلينج، ولو أنني أدركُ أنه محظور الآن في الدنمارك الجديدة. هل لي أن أفحصه من قُرب أيها اللورد آزريل؟».

وبعد صمتٍ قصير تكلَّم الرَّجل ثانيةً.

- «عيناي ليستا بصيرتيْن جدًّا، والجليد متَّسخ، لكن يبدو لي أن هناك ثقبًا في قمَّة الجمجمة، أليس كذلك؟».

- «بلى».

- «أهو نَقب؟».

- «بالضَّبط».

سبَّب الجواب همهمةَ منفعلةَ. انزاحَ العميد عن الطّريق وعادَت لايرا ترى. كان نائب العميد العجوز في دائرة الضَّوء التي يُلقيها الفانوس، ممسكًا بقالبٍ ثقيل من الجليد على مقربةٍ بالغة من عينيه، واستطاعَت لايرا أن ترى ما في داخله: كُتلة دامية يستعصي تمييز أنها رأس بشري. راحَ پانتالايمون يُرَفرِف حول لايرا، وقد بدأ انزعاجه يُؤثِّر فيها.

همسَت: «صهِ! أصغِ».

قال النَّاظر بحرارة: «الدكتور جرومان كان باحثًا في هذه الكلِّيَّة ذات يوم».

- «أن يقع في أيدي التَّرتار...».

- «لكن على هذه المسافة البعيدة شمالًا؟».

- «مؤكَّد أنهم توغَّلوا أبعد من خيال أيِّ أحد!».

تساءلَ النَّاظر: «هل سمعتك تقول إنك وجدته قُرب سڤالبارد؟».

- «هذا صحيح».

- «هل نفهم إذن أن الپانزربيورنِه كان لهم علاقة بالأمر؟».

لم تتعرَّف لايرا الكلمة، لكن من الواضح أن الباحثين يعرفونها.

ردَّ باحث أبرشيَّة كاسينجتن بحسم: «مستحيل. إنهم لا يتصرَّفون بهذا الأسلوب أبدًا».

قال پروفسور المذهب الپالماري، الذي ذهبَ في عدَّة حملات إلى المناطق الأركتيكيَّة: «إذن فأنت لا تعرف يوفور راكنيسن. لن أندهش على الإطلاق إذا عرفتُ أنه عمدَ إلى سلخ فراء رؤوس النَّاس على غرار التَّرتار».

عادَت لايرا تَنظُر إلى عمِّها، الذي يَشاهِد الباحثين بلمعةٍ من الاستمتاع السَّاخر وقد لاذَ بالصَّمت.

سألَ أحدهم: «مَن يوفور راكنيسن؟».

أجابَه پروفسور المذهب الپالماري: «ملك سڤالبارد. نعم، هذا صحيح، إنه واحد من الپانزربيورنِه. يُمكنك أن تعتبره غاصِبًا، فقد شقَّ طريقه إلى العرش بالاحتيال والخداع، أو أن هذا ما بلغَني. لكنه شخصيَّة قويَّة، وليس أحمقَ على الإطلاق على الرغم من سلوكه الاستعراضي الهزلي، كبنائه قصرًا من الرُّخام المستورَد، وإنشاء ما يدعوه بالجامعة...».

قال أحد آخَر: «لمَن؟ للدِّببة؟»، وضحكَ الجميع.

غير أن پروفسور المذهب الپالماري تابعَ: «لكلِّ هذه الأسباب أقولُ لكم إن يوفور راكنيسن قادر على فعل هذا بجرومان، لكن في الوقت نفسه من الممكن دفعه بالمُلاطفة إلى التَّصرُّف بشكلٍ مختلف تمامًا إذا دعَت الحاجة».

سألَه النَّاظر باستهزاء: «وأنت تعرف كيف، أليس كذلك يا تريلوني؟».

- «بكلِّ تأكيد. هل تعلم ما يُريده فوق كلِّ شيءٍ آخَر؟ أكثر من نيل دكتوراه فخريَّة؟ يُريد قرينًا! جِد وسيلةً لإعطائه قرينًا وسيفعل أيَّ شيءٍ من أجلك».

على إثر عبارته ضحكَ الباحثون بشدَّة.

كانت لايرا تُتابِع كلَّ هذا حائرةً. ما قاله پروفسور المذهب الپالماري لا يُعقَل إطلاقًا. ثم إنها متلهّفة إلى سماع المزيد عن سلخ فراء الرُّؤوس وأضواء الشَّمال وذلك (الغُبار) الغامض. إلَّا أن خيبة الأمل أصابَتها، إذ فرغَ اللورد آزريل من عرض آثاره وصُوره، وسرعان ما تحوَّل الكلام إلى جدلٍ إداري حول إعطائه مالًا للقيام بحملةٍ أخرى من عدمه. جيئةً وذهابًا دارَت النِّقاشات، وأحسَّت لايرا بجفنيها ينسدلان، ولم يمضِ وقت طويل قبل أن تغيب في النَّوم، وقد التفَّ پانتالايمون حول عُنقها متَّخذًا تكوين القاقوم[3] المفضَّل لديه عند النَّوم.

***

استيقظَت جافلةً حين هزَّ أحدهم كتفها.

قال عمُّها: «اهدئي». كان باب الخزانة مفتوحًا، وهو جاثمًا هناك ومن ورائه الضَّوء. «لقد غادَروا جميعًا، لكن ما زالَ بعض الخدم في الجوار. اذهبي إلى غُرفة نومكِ الآن، واحرِصي على كتمان كلِّ ما قيلَ هنا».

تساءلَت ناعسةً: «هل صوَّتوا بإعطائك المال؟».

- «نعم».

حاولَت النُّهوض بصعوبةٍ بعد انحشارها طيلة هذه المُدَّة، وسألَته: «ما هو (الغُبار)؟».

- «شيء لا علاقة له بكِ».

- «بل له علاقة بي. إذا أردتني أن أتجسَّس من الخزانة فعليك أن تُخبِرني بما أتجسَّسُ عليه. هل يُمكنني أن أرى رأس الرَّجل؟».

نفشَ پانتالايمون فرو القاقوم الأبيض، وشعرَت به لايرا يُدَغدِغ عُنقها، وأطلقَ اللورد آزريل ضحكةً قصيرةً.

قال: «لا تكوني مقزِّزةً»، وبدأ يحزم شرائحه وصندوق العيِّنات. «هل راقبتِ العميد؟».

- «نعم، وقد بحثَت عيناه عن النَّبيذ قبل أن يفعل أيَّ شيءٍ آخَر».

- «عظيم. لكنني ثبَّطته في الوقت الحالي. افعلي كما قيلَ لكِ واذهبي إلى الفِراش».

- «لكن أين ستذهب أنت؟».

- «سأعودُ إلى الشَّمال. أنا راحل خلال عشر دقائق».

- «هل يُمكنني أن آتي؟».

توقَّف عمَّا يفعله ورمقَها كأنه يراها للمرَّة الأولى، والتفتَت إليها بدورها قرينته بعينَي نمرة الثُّلوج السَّمراوين المصفرَّتين، وتحت نظراتهما المركَّزة هذه تضرَّج وجه لايرا بالحُمرة، لكنها بادلَتهما النَّظر بعناد.

أخيرًا قال عمُّها: «إن مكانكِ هنا».

- «لكن لماذا؟ لماذا مكاني هنا؟ لماذا لا يُمكنني الذَّهاب إلى الشَّمال معك؟ أريدُ أن أرى أضواء الشَّمال والدِّببة وجبال الجليد وكلَّ شيء. أريدُ أن أعرف ما هو (الغُبار). وتلك المدينة في الهواء. أهو عالم آخَر؟».

- «لن تأتي أيتها الصَّغيرة. أخرِجي هذا الأمر من رأسكِ. إننا في زمن شديد الخطورة. افعلي كما قيلَ لكِ واذهبي إلى الفِراش، وإذا أحسنتِ السُّلوك فسأجلبُ لكِ ناب فظٍّ(4) عليه نقوش من الإسكيمو. كفى جدلًا وإلَّا غضبتُ».

وزمجرَت قرينته مطلقةً هديرًا وحشيًّا عميقًا جعلَ لايرا تُدرِك فجأةً معنى أن تنطبِق الأسنان على حَلقها.

ضغطَت لايرا شفتيها معًا ونظرَت إلى عمِّها بعبوسٍ بالغ. كان يضخُّ الهواء من الحاوية ولم يلحظ، كأنه نسيَ وجودها بالفعل.

ودون كلمة، لكن بشفتين زمَّتهما عن آخِرهما وعينين ضيَّقتهما، غادرَت الفتاة وقرينها وذهبَت إلى الفِراش.

* * *

العميد وأمين المكتبة صديقان وحليفان قديمان، ومن عادتهما بعد المرور بواقعةٍ صعبة أن يحتسيا كأسًا من البرانتيڤين ويتبادَلا المواساة. وهكذا، بعد أن ودَّعا اللورد آزريل، ذهبا إلى مسكن العميد واستقرَّا في حُجرة مكتبه وقد أُسدِلَت السَّتائر وأُذكِيَت النَّار، واستقرَّت قرينتاهما في مكانيهما المعتادين على رُكبةٍ أو كتف. استعدَّ الرَّجلان للتَّفكير مليًّا في ما حدثَ للتَّوِّ.

سألَ أمين المكتبة: «هل تعتقد حقًّا أنه عرفَ بأمر النَّبيذ؟».

- «بالطَّبع. لا أدري كيف، لكنه عرفَ وسكبَ الدَّورق بنفسه. بالطَّبع عرفَ».

- «سامِحني أيها العميد، لكنني لا أستطيعُ منع نفسي من الشُّعور بالرَّاحة. لم أكن راضيًا قَطُّ عن فكرة...».

- «فكرة تسميمه؟».

- «نعم، فكرة القتل».

- «قلَّما تجد أحدًا يرضى عن تلك الفكرة يا تشارلز. كان السُّؤال إن كان فِعل ذلك أسوأ من عدمه أم لا. حسن، لقد تدخَّلت قوَّة عُليا ما ولم يَحدُث شيء. إنني آسفٌ فقط لكوني أثقلتك بهذه المعرفة».

قال أمين المكتبة: «لا، لا. لكنني أتمنَّى لو أخبرتني بالمزيد».

صمتَ العميد مُدَّةً قبل أن يقول: «نعم، ربما كان عليَّ أن أفعل ذلك. الأليثيوميتر يُحذِّر من تبعاتٍ وخيمة إذا سعى اللورد آزريل في هذا البحث. بعيدًا عن أيِّ شيءٍ آخَر، ستُسحَب الطِّفلة إلى هذه المسألة، وأنا أريدها أن تبقى آمنةً أطول وقتٍ ممكن».

- «هل لعمل اللورد آزريل علاقة بالمبادرة الجديدة لمحكمة التَّقويم الكنسيَّة؟ تلك التي يُسمُّونها هيئة القرابين؟».

- «اللورد آزريل... لا، لا. على العكس تمامًا. وهيئة القرابين ليست خاضعةً بالكامل للمحكمة الكنسيَّة كذلك. إنها مبادرة شبه خاصَّة يُديرها شخص لا يكنُّ حُبًّا للورد آزريل. بين هذين الاثنين يا تشارلز، أجدُ نفسي أرتجفُ خوفًا».

لاذَ أمين المكتبة بالصَّمت بدوره. منذ نقلَ البابا چون كالڤين كُرسي البابويَّة إلى چنيڤ، وأنشأ محكمة التَّقويم الكنسيَّة، صارَت سُلطة الكنيسة على الحياة بجميع وجوهها مطلقةً. البابويَّة نفسها أُلغِيَت بعد وفاة كالڤين، ونمَت في مكانها شبكة معقَّدة من المحاكم والكلِّيَّات والمجالس معروفة إجمالًا باسم مجمع حماية العقيدة. هذه الجهات ليست متَّحدةً على طول الخطِّ، فأحيانًا تنشأ منافسات مريرة بينها، وطيلة فترةٍ طويلة من القرن السَّابق كان أقواها على الإطلاق مجمع الأساقفة، لكن في السَّنوات الأخيرة حلَّت محكمة التَّقويم الكنسيَّة محلَّه باعتبارها أنشط هيئات الكنيسة وأشدَّها بثًّا للخوف.

على أن من الممكن دائمًا أن تنشأ جهات مستقلّة تحت حماية جزء آخَر من مجمع حماية العقيدة، وهيئة القرابين -التي أشارَ إليها أمين المكتبة- إحدى تلك الجهات. لا يعرف أمين المكتبة الكثير عن الهيئة، لكنه ينفر مما بلغَ مسامعه عنها ويخشاه، ويفهم توتُّر العميد تمام الفهم.

بعد دقيقةٍ أو نحوها قال: «پروفسور المذهب الپالماري ذكرَ اسمًا. بارنارد-ستوكس؟ ما شأن بارنارد-ستوكس هذا؟».

- «آه، ليس هذا مجالنا يا تشارلز. ما فهمته أن الكنيسة المقدَّسة تُعلِّم أن هناك عالميْن: العالم الذي يضمُّ كلَّ شيءٍ نراه ونسمعه ونلمسه، وعالمًا آخَر، العالم الرُّوحاني حيث الجنَّة والجحيم. بارنارد وستوكس كانا -كيف أقولها؟- لاهوتيَّيْن مارقيْن سلَّما بوجود عوالم أخرى عديدة كهذا العالم لا هي جنَّة ولا هي جحيم، وإنما عوالم ماديَّة ملأى بالخطايا. إنها موجودة، قريبة، لكنها خفيَّة ولا يُمكن الوصول إليها. بطبيعة الحال استنكرَت الكنيسة المقدَّسة هذه الهرطقة الصَّارخة، وأُسكِتَ بارنارد وستوكس. لكن لسوء حظِّ مجمع حماية العقيدة أن هناك -على ما يبدو- حُججًا رياضيَّةً سليمةً تدعم نظريَّة العوالم الأخرى هذه. عن نفسي لم أتابعها قَطُّ، لكن باحث أبرشيَّة كاسينجتن يقول لي إنها سليمة».

قال أمين المكتبة: «والآن التقطَ اللورد آزريل صورةً لأحد تلك العوالم الأخرى، وموَّلناه نحن ليذهب ويبحث عنه. فهمتُ».

- «بالضَّبط. سيبدو لهيئة القرابين وحُماتها الأقوياء أن كلِّيَّة چوردان مصدر لدعم الهرطقة. عليَّ أن أحافظ على التَّوازُن بين المحكمة الكنسيَّة وهيئة القرابين يا تشارلز، وفي تلك الأثناء تنمو الطِّفلة، ومؤكَّد أنهم لم ينسوها. عاجلًا أو آجلًا كانت ستتورَّط في الأمر، والآن ستُسحَب إليه سحبًا سواء أأردتُ أن أحميها أم لم أُرِد».

- «لكن كيف تعلم هذا بحقِّ الله؟ أهو الأليثيوميتر ثانيةً؟».

- «نعم. للايرا دور ستلعبه في كلِّ هذا، ودور كبير. المفارقة أن عليها أن تفعل كلَّ شيءٍ دون أن تُدرِك ما تفعله حقًّا. لكن مساعدتها ممكنة، ولو نجحَت خطَّتي مع التوكاي لظلَّت آمنةً فترةً أطول قليلًا. كنتُ أودُّ أن أغنيها عن رحلةٍ إلى الشَّمال. أتمنَّى فوق كلِّ شيءٍ آخَر لو تمكَّنتُ من أن أشرح لها...».

قال أمين المكتبة: «ما كانت لتُصغي. إنني أعرفها جيِّدًا. حاول أن تُخبِرها بأيِّ شيءٍ جاد وستسمعك بأُذنٍ واحدة لخمس دقائق ثم تبدأ تتململ. امتحِنها في الأمر في المرَّة التَّالية وستكون قد نسيَته بالكامل».

- «ماذا لو كلَّمتها عن (الغُبار)؟ ألا تحسبها ستُصغي إلى ذلك؟».

أصدرَ أمين المكتبة صوتًا ينمُّ عن استبعاده هذا الاحتمال تمامًا، وقال: «ولِمَ تُصغي؟ لِمَ تُثير أُحجية لاهوتيَّة بعيدة طفلةً طائشةً سليمةً؟».

- «بسبب ما عليها أن تختبره. جزء من هذا يتضمَّن خيانةَ كُبرى...».

- «ومَن سيخونها؟».

- «لا، لا. هذا هو أشد ما يُحزِن في الأمر. ستكون هي الخائنة، وستكون التَّجربة رهيبةً. يجب ألَّا تعرف ذلك طبعًا، لكن ليس هناك ما يدعو إلى حجب مسألة (الغُبار) عنها. وقد تكون مخطئًا يا تشارلز، قد تُلقي إليها بالًا إذا شُرِحَت لها ببساطة، وهو ما قد يُساعِدها لاحقًا. الأكيد أنه سيُساعِدني على الحدِّ من قلقي عليها».

قال أمين المكتبة: «هذا هو واجب المسنِّين، أن يقلقوا نيابةً عن الصِّغار، وواجب الصِّغار أن يسخروا من قلق المسنِّين».

جلسا معًا فترةً أطول ثم افترَقا، فالوقت تأخَّر، وكلاهما مسنٌّ قلِق.

(3) لايرا في چوردان

كلِّيَّة چوردان أرقى كلِّيَّات جامعة أكسفورد وأغناها، وعلى الأرجح أكبرها مساحةً أيضًا، ولو أن أحدًا لا يعلم ذلك يقينًا. يعود تاريخ المباني، المضمومة معًا حول ثلاثة أفنية مربَّعة غير منتظمة، إلى كلِّ حقبةٍ من العصور الوُسطى المبكِّرة إلى منتصَف القرن الثَّامن عشر، وهو شيء لم يكن مخطَّطًا قَطُّ، إذ ارتفعَت المباني جنبًا إلى جنبٍ بالتَّدريج، يتداخَل فيها الماضي والحاضر عند كلِّ زاوية، لتُصبِح الحصيلة الأخيرة نوعًا من الفخامة البائسة التي يعوزها التَّناغُم. ثمَّة جزء ما هنا أو هناك آيل للسُّقوط دومًا، ولذا فمنذ خمسة أجيالٍ كاملة استأجرَت الكلِّيَّة العائلة نفسها -عائلة پارسلو- بدوامٍ كامل للقيام بأعمال البناء والتَّرميم. يُعلِّم المستر پارسلو الحالي ابنه الحِرفة، وعند اللُّزوم تجدهما وعمَّالهما الثَّلاثة يتحرَّكون بنشاطٍ كالنَّمل الأبيض الدَّؤوب فوق السقَّالات التي نصبوها عند رُكن المكتبة أو على سطح الصَّومعة، ويرفعون قوالب جديدةً زاهيةً من الحجارة أو أسطواناتٍ من الرَّصاص اللَّامع أو ألواحًا من الخشب.

تملك الكلِّيَّة مزارع وعقاراتٍ في جميع أنحاء إنجلترا، ويُقال إن بإمكانك أن تمشي من أكسفورد إلى بريستول في اتِّجاه، أو إلى لندن في الاتِّجاه الآخَر، دون أن تَخرُج من أرض چوردان. في كلِّ بُقعةٍ من المملكة عُمَّال مصابغ وأفران قرميد وحطَّابون ومشتغلون بالذرَّة يدفعون لچوردان إيجارات، وكلَّ رُبع سنةٍ يُحصي أمين الصُّندوق وكتَبة الحسابات تحت إمرته الدُّخول كلَّها، ويُعلِن المبلغ الإجمالي لمجلس الإدارة، ثم يَطلُب إوزَّتين للمأدبة. يُخصَّص جزء من الأموال لإعادة الاستثمار -فمثلًا وافقَ مجلس الإدارة لتوِّه على شراء بناية مكاتب في مانشستر- في حين تُنفَق البقيَّة على دفع رواتب الباحثين الزَّهيدة وأجور الخدم (وعائلة پارسلو، ودستة عائلات الحِرفيِّين والتُّجَّار الأخرى التي تخدم الكلِّيَّة)، بالإضافة إلى الحفاظ على امتلاء أقبية الخمور بالأصناف الفاخرة، وشراء الكُتب والمخطَّطات العنبريَّة للمكتبة الضَّخمة التي تحتلُّ أحد أضلاع مربَّع مِلروز وكالجُحر تمتدُّ عدَّة طوابق تحت الأرض، وأخيرًا وليس آخِرًا، لشراء أحدث المعدَّات الفلسفيَّة للصَّومعة.

من المهم أن تبقى الصَّومعة محدَّثةً باستمرار، لأن كلِّيَّة چوردان لا منافس لها باعتبارها مركزًا للَّاهوت التَّجريبي، سواء أفي أوروپا أم فرنسا الجديدة. تعرف لايرا هذا القدر على الأقل، وتَشعُر بالفخر بوجاهة كلِّيَّتها وتحبُّ التَّباهي بها أمام الأطفال المشاغبين والصَّعاليك الذين تلعب معهم عند القناة أو أحواض الصَّلصال، وتَنظُر إلى الباحثين الزُّوَّار والپروفسورات البارزين من كلِّيَّاتٍ أخرى

بسخريةٍ ممتزجة بالشَّفقة لأنهم لا ينتمون إلى چوردان، وبالتّالي فمؤكّد أن أشد مساعدي الباحثين تواضُعًا في چوردان يعرف أكثر منهم.

بالنِّسبة إلى ماهية اللَّاهوت التَّجريبي نفسه فلا تعرف لايرا عنها شيئًا أكثر من الصَّعاليك. كانت قد كوَّنت فكرةً عن أن له علاقةً بالسِّحر، بحركة النُّجوم والكواكب، بجُسيمات المادَّة الدَّقيقة، لكن كلَّ هذا مجرَّد تخمينٍ في الحقيقة. للنُّجوم على الأرجح قُرناء مِثل البشر، واللَّاهوت التَّجريبي يتضمَّن الكلام معهم. تتخيَّل لايرا رئيس الصَّومعة يتكلَّم بتعالٍ ويُصغي إلى ملاحظات قُرناء النُّجوم، ثم يُومئ برأسه بحكمةٍ أو يهزُّه بندم... أمَّا ما عساه يدور بينه وبينهم فلا تتصوَّره لايرا على الإطلاق.

ولا هي مهتمَّة بشكلٍ خاص. من نواحٍ شتَّى تُعَدُّ لايرا فتاةً بربريَّةً، أكثر ما تحبُّه هو التَّسلُّق إلى سطوح الكلِّيَّة مع روچر صبي المطبخ وصديقها المقرَّب، ليَبصُقا نوى البرقوق على رؤوس الباحثين المارَّة، أو ينعبا كالبوم خارج إحدى النَّوافذ في أثناء درسٍ ما، وكذا السِّباق في الشَّوارع الضيِّقة، أو سرقة التُّفَّاح من السُّوق، أو شنُّ الحرب. تمامًا كما تجهل هي تيَّارات السِّياسة الخفيَّة الجارية تحت سطح شؤون چوردان، يعجز الباحثون من ناحيتهم عن رؤية المزيج الغني الفائر من الأحلاف والعداوات والصِّراعات والمعاهدات، الذي تتجسَّد فيه حياة الطِّفل في أكسفورد. أطفال يلعبون معًا، يا له من مشهدٍ يسرُّ العين! هل من شيءٍ أكثر براءةً وسحرًا؟

الحقيقة بالطَّبع أن لايرا وأترابها منهمكون في حروبٍ مميتة، حروب عدَّة تدور رحاها في آنٍ واحد. دائمًا يُعلِن أطفال إحدى الكلِّيَّات (الخدم الصِّغار، وأولاد الخدم، ولايرا) الحرب على أطفال كلِّيَّةٍ أخرى، وفي مرَّةٍ وقعَت لايرا في أَسر أطفال كلِّيَّة جابريل، فشنَّ روچر وصديقاهما هيو لوقات وسايمون پارسلو غارةً على المكان لإنقاذها، متسلِّلين زحفًا عبر حديقة رئيس جوقة المرتِّلين وجامعين مِلء أذرُعهم من البرقوق الصُّلب كالحجر ليقذفوا به الخاطفين. هناك أربع وعشرون كلِّيَّةً، وهو ما يُتيح تحالُفاتٍ وخياناتٍ لا نهائيَّة، وهكذا دواليك. إلَّا أن العداوة بين الكلِّيَّات المختلفة تُنسى لحظة أن يُهاجِم أطفال البلدة أحد أطفال الكلِّيَّات، فعندها يتَّحد أطفال الكلِّيَّات جميعًا ويَدخُلون المعركة ضد أطفال البلدة. إنه سِجال عُمره مئات الأعوام، سِجال عميق ومشبع للغاية.

لكن حتى هذا يُنسى حينما يُهدِّدهم أعداء آخَرون، ومن هؤلاء عدوٌّ دائم هو أطفال صانعي القرميد، الذين يعيشون عند أحواض الصَّلصال ويزدريهم أطفال الكلِّيَّات وأطفال البلدة على حدٍّ سواء. خلال العام السَّابق عقدَت لايرا وبعض أطفال البلدة هُدنةً مؤقَّتةً وأغاروا على أحواض الصَّلصال، حيث رجموا أطفال صانعي القرميد بكُتلٍ ثقيلة من الصَّلصال وهدموا القلعة الرَّخوة التي بنوها، قبل أن يُدَحرِجوهم ويُدَحرِجوهم في المادَّة اللَّاصقة التي يعيشون قُربها، وحتى بدا المنتصرون والمهزومون جميعًا كقطيعٍ من العفاريت الصَّارخة.

العدوُّ الدَّائم الآخَر موسمي، إذ تأتي العائلات الچيپتيَّة، التي تعيش على قوارب القنوات، وتأتي وتذهب مع مهرجانات الرَّبيع والخريف، وتَصلُح دومًا للقتال. ثمَّة عائلة چيپتيَّة معيَّنة ترجع إلى مرساها في هذا الجزء من المدينة المعروف باسم چريكو، والصِّراع بينها وبين لايرا قائم منذ تعلَّمت القذف بالحجارة. حين كانوا في أكسفورد آخِر مرَّةٍ تربَّصت بهم لايرا وروچر وبعض صِبية المطبخ الآخَرين من چوردان وكلِّيَّة سانت مايكل، ملقين الطَّمي على قاربهم الضيِّق المطلي بالألوان الزَّاهية، إلى أن خرجَت العائلة كلُّها تُطارِدهم... وحينها أغارَت كتيبة الاحتياط بقيادة لايرا على

القارب ودفعَته عن الضفّة، ليطفو في مياه القناة معترضًا طريق المراكب الأخرى، فيما فتّش مغيرو لايرا القارب من أقصاه إلى أقصاه بحثًا عن السِّدادة. كان إيمان لايرا بتلك السِّدادة شديدًا، وقد أكَّدت لجنودها أنهم إذا خلعوها فسيغرق القارب في الحال، لكنهم لم يجدوها، ثم هجروا القارب مرغمين عندما لحقَ بهم الچيپتيُّون، ليفرُّوا غارقين بالماء صائحين ظفرًا عبر أزقَّة چيريكو الضيِّقة.

هذا هو عالم لايرا ومسرَّتها. إنها همجيَّة صغيرة، خشنة طمَّاعة في أغلب الأحيان، ولكن لطالما راودَها إحساس غامض بأن هذا ليس عالمها بأكمله، بأن جزءًا منها ينتمي أيضًا إلى عظمة كلِّيَّة چوردان ووقارها، وبأن في مكانٍ ما في حياتها رابطًا بعالم السِّياسة العُليا الذي يُمثِّله اللورد آزريل. على أن كلَّ ما تفعله بهذه المعرفة أنها تتصرَّف بغطرسةٍ وتتعالى على الأطفال الصَّعاليك الآخَرين، ولم يَخطُر لها قَطُّ أن تكتشف المزيد.

وهكذا تقضي لايرا طفولتها كقطَّةٍ نِصف برِّيَّة. الاختلاف الوحيد في وتيرة أيامها يأتي في المناسبات غير المنتظمة التي يزور فيها اللورد آزريل الكلِّيَّة. لا بأس أبدًا بأن لها عمًّا ثريًّا صاحب نفوذٍ تتباهى به، لكن ثمن التَّباهي أن يقبض عليها أرشق باحثي الكلِّيَّة ويأخذها إلى المدبِّرة، حيث تغتسل وترتدي فُستانًا نظيفًا، وبعدها تُصطحَب (بالكثير من التَّهديد) إلى قاعة كبار الموظَّفين، لتشرب الشَّاي مع اللورد آزريل ولفيفٍ من كبار الباحثين المدعوِّين. في تلك المناسبات تخشى أن يراها روچر، ففي مرَّةٍ لمحَها وانفجرَ ضاحكًا من منظرها بشرائط الزِّينة والكشكشة الورديَّة، وهو ما ردَّت عليه بسيلٍ من الشَّتائم الصَّارخة صدمَت الباحث المسكين الذي اصطحبَها، وفي قاعة كبار الموظَّفين جلسَت مرخيةً جسدها بتمرُّدٍ إلى أن قال لها العميد بحدَّةٍ أن تعتدِل، ثم إنها حملقَت إليهم جميعًا عابسةً حتى بدأ رئيس الصَّومعة نفسه يضحك رغمًا عنه.

لا يتنوَّع أبدًا ما يجري في تلك الزِّيارات الرَّسميَّة المضطربة. بعد الشَّاي يُغادِر العميد والباحثون القلائل الآخَرون ويَترُكون لايرا مع عمِّها، الذي يُناديها ويُوقفها أمامه لتُخبِره بما تعلَّمته منذ زيارته الأخيرة، وعندها تُتَمتِم بما تستطيع انتشاله من ذاكرتها عن الهندسة أو اللُّغة العربيَّة أو التَّاريخ أو العنبريَّات، في حين يجلس هو مُسندًا كاحله إلى رُكبته الأخرى ويُراقِبها بتعبيرٍ غامض على ملامحه إلى أن تخذلها الكلمات.

في العام الماضي، قبل حملته إلى الشَّمال، قال لها: «وكيف تقضين وقتكِ عندما لا تجتهدين في الاستذكار؟».

وغمغمَت هي: «ألعبُ فقط، في أنحاء الكلِّيَّة. فقط... ألعبُ حقًّا».

فقال: «أريني يديكِ أيتها الصَّغيرة».

ومدَّت لايرا يديها ليفحصهما، وأخذَهما عمُّها وقلبَهما ليَنظُر إلى أظفارها، وقد جثَمَت على البساط إلى جواره قرينته كتمثال أبي الهول، تُدوِّر ذيلها بين الحين والآخَر وتَرمُق لايرا بعينين لا تطرفان.

قال اللورد آزريل دافعًا يديها: «أظفاركِ متَّسخة. ألا يجعلونكِ تستحمِّين في هذا المكان؟».

أجابَت: «بلى. لكن أظفار رئيس الصَّومعة متَّسخة دومًا، أشد اتِّساخًا من أظفاري».

- «إنه رجل متعلِم. ما عُذركِ أنتِ؟».

- «مؤكَّد أنها اتَّسخت بعد أن استحمَمتُ».

- «أين تلعبين لكي تتَّسخي لهذه الدَّرجة؟».

نظرَت إليه بشكٍّ، وقد خامرَها شعور بأن اللَّعب فوق السَّطح ممنوع، ولو أن أحدًا لم يقل لها هذا صراحةً. أخيرًا قالت: «في بعض الغُرف القديمة».

- «وأين أيضًا؟».

- «في أحواض الصَّلصال أحيانًا».

- «و...؟».

- «چريكو وپورت مِدو».

- «ولا مكان آخَر؟».

- «نعم».

- «كاذبة. لقد رأيتكِ فوق السَّطح أمس».

عضَّت شفتها ولم تردَّ بشيء، وراقبَها هو بتهكُّم، ثم إنه واصلَ: «إذن فأنتِ تلعبين فوق السَّطح أيضًا. هل تَدخُلين المكتبة؟».

- «لا، لكنني وجدتُ رُخًّا فوق سطح المكتبة».

- «حقًّا؟ هل صِدتِه؟».

- «كانت قدمه مصابةً. كنتُ سأقتله وأشويه، لكن روچر قال إن علينا أن نُساعِده على الشِّفاء، وهكذا أعطيناه بضع لُقيمات من الطَّعام والقليل من النَّبيذ، وتحسَّنت حالته وطارَ».

- «مَن روچر؟».

- «صديقي، صبي المطبخ».

- «مفهوم. إذن فقد لعبتِ فوق كلِّ السُّطوح...».

- «ليس كلها. لا يُمكنك الصُّعود فوق مبنى شلدون لأن عليك القفز إليه من بُرج پيلجريم فوق الفراغ. هناك منور ينفتِح عليه، لكنني لستُ طويلةً كفايةً لبلوغه».

- «إذن فقد لعبتِ فوق السُّطوح كلِّها باستثناء مبنى شلدون. وماذا عن تحت الأرض؟».

- «تحت الأرض؟».

- «تحت الأرض من الكلِّيَّة يُعادِل ما هو فوقها. يُدهِشني أنكِ لم تكتشفي ذلك. حسن، إنني راحل بعد قليل. تبدين في صحَّةٍ طيِّبة. هاكِ».

نقَّب عمُّها في جيبه وأخرجَ حفنةً من النُّقود، أعطاها منها خمسة دولارات ذهبيَّة.

- «ألم يُعلِّموكِ أن تقولي شكرًا؟».

تمتمَت: «شكرًا».

- «هل تُطيعين العميد؟».

- «أوه، نعم».

- «وتحترمين الباحثين؟».

- «نعم».

أطلقَت قرينة اللورد آزريل ضحكةً ناعمةً، هي أول صوتٍ أصدرَته، لتتورَّد وجنتا لايرا خجلًا.

قال اللورد آزريل: «اذهبي والعبي».

دارَت لايرا على عقبيها وانطلقَت إلى الباب شاعرةً بالرَّاحة، دون أن تنسى أن تلتفت وتقول باندفاع: «إلى اللِّقاء».

***

على هذا المنوال كانت حياة لايرا قبل اليوم الذي قرَّرت فيه أن تختبئ في الاستراحة وسمعَت عن (الغُبار) للمرَّة الأولى.

وبالطَّبع كان أمين المكتبة مخطئًا في قوله للعميد إنها ما كانت لتهتمَّ، فالآن كانت لتُصغي بحماسةٍ إلى أيِّ شخصٍ يُحدِّثها عن (الغُبار). سوف تسمع لايرا عنه الكثير جدًّا في الشُّهور المقبلة، وفي النِّهاية ستعرف عنه ما هو أكثر من أيِّ أحدٍ في العالم، لكن في الوقت الحالي ما زالَت حياة چوردان الغنيَّة تُعاش حولها.

وعلى كلِّ حالٍ ثمَّة شيء آخَر تُفكِّر فيه؛ تلك الشَّائعة المنتشرة في الشَّوارع منذ أسابيع، ودفعَت بعض النَّاس إلى الضَّحك وبعضهم إلى الصَّمت، كما يسخر بعض النَّاس من الأشباح ويخافها بعضهم.

لسببٍ لا يتخيَّله أحد، كان الأطفال قد بدأوا يختفون.

* * *

يَحدُث الأمر هكذا.

شرقًا بطول كورنيش نهر الآيزس العظيم، المزدحم بمراكب القرميد البطيئة وقوارب الأسفلت وصهاريج الذُّرة، بعيدًا بعد بلدتَي هنلي ومايدنهد إلى ضاحية تدينجتن حيث يصل التيَّار من المحيط الألماني، وبعد ذلك إلى مقاطعة مورتليك مرورًا بمنزل السَّاحر الشَّهير الدكتور دي، بعد فولكشول حيث تنتشر المنتزهات المتألِّقة فيها النَّوافير والرَّايات نهارًا، وقناديل الأشجار والألعاب النَّاريَّة ليلًا، بعد قصر وايت هول حيث يعقد الملك مجلس الدَّولة أسبوعيًّا، بعد بُرج المقذوفات الذي يسيل منه الرَّصاص المصهور بلا نهايةٍ في أحواض المياه العكرة، وبعد ذلك إلى حيث يتَّسع النَّهر ويتَّسخ وينعطف في منحنًى عظيم إلى الجنوب.

هذه هي منطقة لايمهاوس، وهنا الطِّفل الذي سيختفي.

اسمه توني مكاريوس، وتظنُّ أمُّه أنه في التَّاسعة من العُمر، لكن لها ذاكرةً ضعيفةً أتلفَها الشَّراب، ولذا فقد يكون في الثَّامنة أو العاشرة. لقب العائلة يوناني، لكن هذا -كسِتِّه- مجرَّد تخمينٍ من أمِّه، لأنه يبدو صينيًّا أكثر من يوناني، كما أن فيه أعراقًا من الأيرلنديِّين والسكريلينج والبحَّارة الهنود من جانب أمِّه أيضًا. لا يملك توني ذكاءً حادًّا، لكنه يتمتَّع بنوعٍ من الرِّقَّة الخرقاء يحثُّه أحيانًا على أن يُعطي أمَّه حضنًا خشنًا ويطبع قُبلةً لزجةً على خدَّيها. عادةً ما تكون المرأة المسكينة أشد سُكرًا من أن تُقدِم على حركةٍ كهذه من تلقاء نفسها، وإن استجابَت لها بدفءٍ كافٍ حالما تُدرِك ما يَحدُث.

في الوقت الحالي يتسكَّع توني في أنحاء السُّوق في شارع الفطير. إنه جائع. المساء في أوله، ولن يجد طعامًا في البيت. في جيبه شِلِن منحَه إياه جُندي مقابل حمله رسالةً إلى فتاته، لكن توني لن يُبدِّده على الطَّعام ما دامَ بإمكانه أن يسرق الكثير من دون أن يدفع شيئًا.

وهكذا يتجوَّل في السُّوق بين أكشاك الملابس المستعملة وأكشاك ورق اليانصيب وباعة الفواكه وباعة السَّمك المقلي، على كتفه قرينته الصَّغيرة متَّخذةً تكوين عُصفورة، تُراقِب هذا الاتِّجاه وذاك. وعندما تُشيح صاحبة أحد الأكشاك وقرينها بأنظارهما تُسمَع زقزقة حادَّة سريعة، وتنطلق يد توني كالسَّهم ثم ترتدُّ إلى قميصه الفضفاض قابضةً على تُفَّاحةٍ أو حبَّتين من الجوز، وأخيرًا على فطيرةٍ ساخنة.

ترى صاحبة الكُشك هذا وتصيح، ويثب قرينها القِطُّ، لكن عُصفورة توني في الهواء، وتوني نفسه بلغَ منتصَف الشَّارع بالفعل. تُصاحِبه الشَّتائم واللَّعنات، ولكن ليس لمسافةٍ طويلة. ثم إنه يكفُّ عن

الجري عند سلالم مصلّى سانت كاثرين، حيث يجلس ويُخرِج غنيمته المهروسة التي يتصاعَد منها الدُّخان، تاركًا لُطخًا من المرق على صدر قميصه.

وثمَّة من يُراقِبه. إنها سيِّدة ترتدي معطفًا طويلًا من فرو الثَّعالب الأحمر المصفر، سيِّدة شابَّة جميلة ينسدِل شعرها الدَّاكن ملتمعًا برقَّةٍ تحت ظلِّ قلنسوتها المبطَّنة بالفرو، سيِّدة تقف في مدخل المصلَّى، أعلى توني بِنصف دستةٍ من الدَّرجات. قد تكون الصَّلاة في نهايتها، فالضَّوء يأتي من المدخل ورائها، وثمَّة من يعزف على الأرغن بالدَّاخل، والسيِّدة تحمل كتاب أدعيةٍ مزيَّنًا بالجواهر.

لا يدري توني عن هذا شيئًا، فوجهه مغموس برضا في الفطيرة، وأصابع قدميه مثنيَّة إلى الدَّاخل وباطناهما مضمومان معًا، جالسًا يَمضُغ ويبتلع، فيما تتحوَّل قرينته إلى فأرةٍ وتُنظِّف شواربها.

يتحرَّك قرين السيِّدة الشَّابَّة من جانب معطف فرو الثَّعالب بتكوين قرد، وإن لم يكن قردًا تقليديًّا، ففروه طويل حريري وله لون ذهبي غني برَّاق. بحركاتٍ متأوِّدة يبدأ نزول السَّلالم شيئًا فشيئًا نحو الصَّبي، ويجلس أعلاه درجةً.

ثم تَشعُر الفأرة بشيءٍ ما، ومن جديدٍ تتحوَّل إلى عُصفورة، وتميل برأسها جانبًا ميلًا يكاد لا يُلحَظ، ثم تثب على السَّلالم درجةً أو درجتين.

يَرمُق القرد العُصفورة، وتَرمُق العُصفورة القرد.

ببُطءٍ يمدُّ القرد يده. يده الصَّغيرة سوداء، وأظفاره مخالب بارزة حادَّة، وحركاته رقيقة مغرية. ليس بمقدور العُصفورة المقاومة، فتثب مبتعدةً أكثر فأكثر، وأخيرًا تبسط جناحيها قليلًا وتحطُّ على يد القرد.

يرفعها القرد ويُحدِّق إليها بإمعان، قبل أن يقف ويثب عائدًا إلى إنسانته آخذًا معه القرينة العُصفورة، وتحني السيِّدة رأسها المعطَّر لتهمس بشيءٍ ما.

ثم يلتفت توني رغمًا عنه.

بشِبه انزعاجٍ وفمٍ مليء يقول: «راتر!».

وتُزَقزِق العُصفورة. مؤكَّد أنها في أمانٍ إذن. يبتلع توني ما في فمه ويُحدِّق.

وتقول السيِّدة الجميلة: «مرحبًا. ما اسمك؟».

- «توني».

- «أين تَسكُن يا توني؟».

- «كلاريس ووك».

- «ما الذي في هذه الفطيرة؟».

- «لحم مشوي».

- «هل تحبُّ الشوكولاتِل؟».

- «نعم!».

- «يتصادَف أن عندي شوكولاتِل أكثر من أن أشربها وحدي. هلَّا جئت وساعدتني على شُربها؟».

لقد ضاعَ بالفعل، ضاعَ لحظة أن حطَّت قرينته بطيئة البديهة على يد القرد، وهكذا تبعَ السيِّدة الشَّابَّة الجميلة وقردها الذَّهبي عبر شارع الدنمارك إلى رصيف هانجمان، ثم نزلَ وراءهما سلالم الملك چورچ إلى بابٍ أخضر صغير في جانب مستودَع طويل. تَطرُق السيِّدة الباب فينفتح، ويَدخُلون لينغلق الباب. لن يَخرُج توني من هذا المكان... على الأقل من المدخل نفسه، ولن يرى أمَّه ثانيةً أبدًا. ستحسب السكِّيرة المسكينة أنه هربَ، وحين تتذكَّره ستحسب الغلطة غلطتها، ومن فرط ما في قلبها من حزنٍ ستذرف الدَّمع.

ليس الصَّغير توني مكاريوس الطِّفل الوحيد الذي قبضَت عليه السيِّدة صاحبة القرد الذَّهبي، ففي قبو المستودَع وجدَ دستةً من الأطفال الآخَرين، صِبيةً وصبايا لا تتجاوَز سِنُّهم الثَّانية عشرة، ولو أن لكلٍّ منهم تاريخًا كتاريخه، ولذا فلا أحد منهم متأكِّد من سِنِّه الحقيقيَّة. ما لم يلحظه توني بالطَّبع هو العامل المشترَك بينهم جميعًا، ألا وهو أن أحدًا من الأطفال الموجودين في هذا القبو الدَّافئ المشبَّع بالبُخار لم يصل بعدُ إلى سِنِّ البلوغ.

رأته السيِّدة الطيِّبة جالسًا على دِكَّةٍ عند الحائط، وأرسلَت إليه مع خادمةٍ صامتة قدحًا من الشوكولاتِل من القِدر المرفوعة على الموقد الحديدي. أكلَ توني بقيَّة فطيرته وشربَ المشروب السَّاخن الحُلو، مانحًا البيئة المحيطة قليلًا من الانتباه، وبدورها منحَته البيئة المحيطة انتباهًا قليلًا، فهو أصغر حجمًا من أن يُمثِّل تهديدًا، وأشد بلادةً من أن يكون ضحيَّةً مُرضيةً.

صبيٌّ آخَر كان مَن ألقى السُّؤال البيِّن.

- «أيتها السيِّدة! لماذا جمعتِنا هنا؟».

كان صعلوكًا تبدو عليه الخشونة، فوق شفته العُلويَّة لطخة داكنة من الشوكولاتِل، وقرينته أنثى جرذ سوداء مهزولة. وكانت السيِّدة واقفةً قُرب الباب، تتكلَّم مع رجلٍ ممتلئ يبدو عليه طابع قباطنة البحر، وإذ التفتَت تُجيب عن السُّؤال بدَا منظرها ملائكيًّا للغاية في ضوء النَّفثة، حتى إن الأطفال جميعًا لاذوا بالصَّمت.

قالت: «نُريد مساعدتكم. لستم تُمانِعون أن تُساعِدونا، أليس كذلك؟».

لم ينطق أحدهم بكلمة، وحدَّق الجميع إليها وقد اعتراهم خجل مفاجئ. لم يَحدُث قَطُّ أن رأوا سيِّدةً كهذه، شديدة اللُّطف والعذوبة والرِّقَّة، تُشعِرهم كأنهم يستحقُّون حظَّهم السَّعيد هذا بالكاد، ومهما

طلبَت فسوف يُعطونها إياه بكلِّ سرورٍ لكي يبقوا في حضورها وقتًا أطول قليلًا.

أخبرَتهم بأنهم ذاهبون في رحلةٍ بحريَّة. سيأكلون طعامًا مشبعًا ويرتدون ثيابًا ثقيلةً، ويُمكن لمن يُريدون أن يبعثوا برسائل إلى أُسرهم ليُعلِموها بأنهم بخير. قريبًا جدًّا سيأخذهم القُبطان ماجنوسن على متن سفينته، وحين يُصبح التيَّار مناسبًا سيَخرُجون إلى البحر ويتَّجهون إلى الشَّمال.

سرعان ما جلسَ القلائل، الذين يُريدون البعث برسائل إلى هذا البيت أو ذاك، حول السيِّدة الجميلة التي كتبَت بضعة سطورٍ أملوها عليها، ثم تركَت كلًّا منهم يخطُّ توقيعه الرَّديء في نهاية الصَّفحة، قبل أن تطوي الورقة وتدسَّها في مظروفٍ معطَّر، وتُدوِّن العنوان. كان توني يودُّ أن يُرسِل شيئًا إلى أمِّه، غير أنه يملك فكرةً واقعيَّةً عن قُدرتها على قراءته، وهكذا شدَّ كُمَّ السيِّدة المصنوع من فرو الثَّعالب، وهمسَ لها برغبته في أن تقول لأمِّه أين سيذهب وكلَّ شيء، وقد حنَت هي رأسها الرَّقيق وقرَّبته من جسده الصَّغير برائحته الكريهة لتسمع، وملَّست على رأسه ووعدَته بنقل الرِّسالة.

ثم تحلَّق الأطفال حولها ليُودِّعوها، وملَّس القرد الذَّهبي على قُرنائهم جميعًا، وتحسَّسوا هُم فرو الثَّعالب طلبًا للحظِّ السَّعيد، كأنهم يستمدُّون شيئًا من القوَّة أو الأمل أو الطِّيبة من السيِّدة، التي ودَّعتهم وتركَتهم في عناية القُبطان الجريء على متن قاربٍ بُخاري في المرفأ. كانت السَّماء قد أظلمَت، والنَّهر كُتلة من الأضواء المتذبذبة، وقد وقفَت السيِّدة على المرسى ولوَّحت حتى غابَت وجوههم عن نظرها.

وبعدها عادَت إلى الدَّاخل بالقرد الذَّهبي الذي توسَّد صدرها، وقبل أن تُغادِر من الطَّريق الذي جاءَت منه ألقَت حزمة الرَّسائل في نار الفُرن.

***

من السَّهل استدراج أطفال المناطق الفقيرة، لكن في النِّهاية لاحظَ النَّاس اختفاءهم، ودُفِعَت الشُّرطة إلى التَّحرُّك على مضض. لبعض الوقت لم يختفِ أطفال آخَرون منساقون وراء الفتنة، إلَّا أن شائعةً كانت قد وُلِدَت بالفعل، وشيئًا فشيئًا تبدَّلت ونمَت وانتشرَت، وبعد فترةٍ عندما اختفى بعض الأطفال في نورويتش، ثم شفيلد، ثم مانشستر، أضافَ أهل تلك المناطق، الذين سمعوا عن الاختفاءات في المناطق الأخرى، الاختفاءات الجديدة إلى القصَّة مجدِّدين قوَّتها.

وهكذا نمَت أسطورة عن مجموعةٍ غامضة من السَّحرة الذين يختطفون الأطفال. قال بعضهم إن سيِّدةً جميلةً تقودهم، وقال آخَرون إنه رجل طويل القامة أحمر العينين، فيما حكَت قصَّة ثالثة عن شابٍّ يضحك ويُغنِّي لضحاياه ليتبعوه كالغنم.

أمَّا المكان الذين يأخذون إليه الأطفال الضَّائعين فلم يتَّفق عليه أيٌّ من رُواة القصص. بعضهم يقول إلى الجحيم، تحت الأرض، إلى أرض الجنِّيَّات، وبعضهم إلى مزرعةٍ يحتفظون فيها بالأطفال ويُسمِّنونهم ليأكلوهم، وآخَرون يقولون إن الأطفال يُباعون عبيدًا لأغنياء التَّرتار... وهلمَّ جرًّا.

على أن الشَّيء الوحيد الذي اتَّفق عليه الجميع هو اسم هؤلاء المختطفين. كان يجب أن يكون لهم اسم، أو ألَّا يُشار إليهم على الإطلاق، والكلام عنهم -خاصَّةً إذا كنت آمنًا مستريحًا في بيتك، أو في

كلِّيَّة چوردان- شهي حقًا. وهكذا، دون أن يعرف أحد السَّبب بالضَّبط، بدا أن الاسم الذي استقرَّ عليهم هو الملتهِمون.

- «لا تتأخَّر بالخارج وإلَّا نالَ منك الملتهِمون!».

- «ابنة خالتي في نورثهامپتن تعرف امرأةً اختطفَ الملتهِمون ابنها الصَّغير...».

- «الملتهِمون كانوا في ستراتفورد. يقولون إنهم قادمون جنوبًا!».

***

وما لم يكن هناك منه مفر: - «لنلعب «أطفال وملتهِمون»!».

هكذا قالت لايرا لروچر ذات أصيلٍ مطير وهما وحدهما في العلِّيَّة الملأى بالغُبار. كان قد أصبحَ عبدها المخلص، وبإمكانه أن يتبعها إلى أطراف الأرض.

- «كيف نلعبها؟».

- «تختبئ وأعثرُ عليك، تمام؟ وأشقُّ بطنك كما يفعل الملتهِمون».

- «لستِ تعلمين ما يفعلونه. ربما لا يفعلون ذلك أساسًا».

- «أنت خائف منهم، أرى هذا».

- «لا، وما أومنُ بوجودهم على كلِّ حال».

ردَّت بحسم: «أنا أومنُ بوجودهم، لكنني ما خائفة كذلك. سأفعلُ فقط كما فعلَ عمِّي آخِر مرَّةٍ زارَ فيها چوردان. لقد رأيته. كان في الاستراحة، وكان هناك ضيف يعوزه التَّهذيب، فرماه عمِّي بنظرة قاسية وسقطَ الرَّجل ميتًا من فوره، وفارَت الرَّغوة حول فمه».

قال روچر بارتياب: «لم يَحدُث. إنهم لم يَذكُروا شيئًا عن ذلك في المطبخ. ثم إن دخولكِ الاستراحة ممنوع».

- «بالطَّبع لا، فلن يُخبِروا الخدم بشيءٍ كهذا. ثم إنني دخلتُ الاستراحة بالفعل، فلتأكل نفسك غيظًا. على كلِّ حالٍ عمِّي يفعل هذا طوال الوقت، وقد فعلَه ببعض التَّرتار عندما قبضوا عليه ذات مرَّة وقيَّدوه وكانوا على وشك بقر بطنه، لكن حين جاءَه الرَّجل الأول بالسكِّين نظرَ إليه عمِّي فقط وسقطَ الرَّجل ميتًا، فجاءَ واحد آخَر وفعلَ عمِّي به نفس الشَّيء، وأخيرًا تبقَّى واحد فقط. قال عمِّي إنه سيَترُكه حيًّا إذا حلَّ وثاقه، وهو ما فعلَه الرَّجل، ثم إن عمِّي قتلَه رغم ذلك لمجرَّد أن يُلقِّنه درسًا».

كانت ثقة روچر بصحَّة ذلك أقل من ثقته بوجود الملتهمين، وإن وجدَ القصَّة أفضل من أن تُبدَّد، فتبادَلا لعب أدوار اللورد آزريل والتَّرتار القتلى، مستخدميْن مسحوق الشَّربات لعمل الرَّغوة.

على أن هذا مجرَّد إلهاء، فلايرا لا تزال عازمةً على لعب لُعبة الملتهِمين، وقد تحايلَت على روچر للنُّزول إلى أقبية الخمور، التي دخلاها بواسطة حلقة مفاتيح رئيس الخدم الاحتياطيَّة. معًا تجوَّلا في الأقبية العظيمة، حيث خمور الكلِّيَّة المعتَّقة، من التوكاي إلى الكناري إلى البرجندي إلى البرانتيڤين، التي اكتسَت بشباك العناكب على مرِّ السَّنوات. أعلاهما ترتفع قناطر حجريَّة عتيقة تدعمها أعمدة بسماكة عشر أشجار، وتحت أقدامهما بلاط غير منتظم، وعلى كلِّ جانبٍ رفٌّ فوق رفٍّ وصفٌّ فوق صفٍّ من الزُّجاجات والبراميل. أذهلَ المنظر الطِّفلين وأنساهما الملتهِمين ثانيةً، فتنقَّلا على أطراف أصابعهما من طرفٍ إلى طرفٍ حامليْن شمعةً بأصابع راجفة، يُلقِيان نظرةً داخل كلِّ ركنٍ مظلم، وقد ظلَّ سؤال أوحد يتنامى بإلحاحٍ في عقل لايرا مع كلِّ لحظة: ما مذاق النَّبيذ؟

والإجابة سهلة. متجاهلةً اعتراضات روچر المحمومة، التقطَت لايرا أقدم الزُّجاجات في متناولها وأشدها التواءً واخضرارًا، ولمَّا لم تجد شيئًا تنزع به السِّدادة كسرَت الزُّجاجة عند العُنق، ثم ربضَ الاثنان في أبعد أركان المكان ليرشفا من الشَّراب القرمزي القوي، متسائليْن متى سيسكران وكيف سيعرفان أنهما سكرانان. لم يُعجِب المذاق لايرا كثيرًا، وإن أقرَّت رغمًا عنها بعظمة الشَّراب وتعقيده، لكن أطرف ما في الأمر كان مشاهدة قرينيهما اللذين بدا عليهما الارتباك أكثر فأكثر، فأخذا يَسقُطان ويُقَهقِهان بحماقةٍ ويُبَدِّلان شكليهما ليبدوا كالكراجل[5]، يُحاوِل كلٌّ منهما أن يُصبِح أقبح من الثَّاني.

أخيرًا، وفي الآن نفسه تقريبًا، اكتشفَ الطِّفلان معنى أن يكون المرء سكرانَ.

قال روچر لاهثًا بعد أن تقيَّأ بغزارة: «هل يُحبُّون هذا فعلًا؟».

أجابَت لايرا وهي في الحالة نفسها: «نعم»، وأضافَت بعناد: «وأنا أيضًا».

***

لم تتعلَّم لايرا شيئًا من تلك الواقعة باستثناء أن لُعبة الملتهِمين تقود إلى أماكن شائقة. تذكَّرت كلام عمِّها في لقائهما الأخير، وبدأت تستكشِف تحت الأرض، فما فوقها ليس إلَّا جزءًا صغيرًا من كلٍّ أشمل. كفطرٍ هائل تمتدُّ جذوره فدادين وفدادين، وقد وجدَت چوردان نفسها تتنافَس على متَّسعٍ فوق الأرض مع كلِّيَّة سانت مايكل من ناحيةٍ وكلِّيَّة جابريِل من ناحيةٍ أخرى ومكتبة الجامعة من ورائها، بدأت الكلِّيَّة في وقتٍ ما من العصور الوُسطى تنتشر تحت السَّطح، لتُفرِّغ الأنفاق والآبار والسَّراديب والأقبية والسَّلالم التُّربة تحتها وحولها بعدَّة مئات من الياردات، حتى إن نسبة الهواء تحت الأرض تكاد تُعادِل نسبته فوقها، وهكذا تقف كلِّيَّة چوردان فوق ما يُشبِه رغوةً من الحجر.

والآن مع شعور لايرا بالرَّغبة في استكشاف المكان فقد تخلَّت عن مزاراتها المعتادة، الجبال الشَّاهقة غير المنتظمة المتمثِّلة في سطوح چوردان، وانطلقَت مع روچر إلى العالم السُّفلي. من لعب الملتهِمين انتقلَت إلى مطاردتهم، فما الأرجح احتمالًا من كمونهم بعيدًا عن الأنظار تحت الأرض؟

وهكذا شقَّت مع روچر طريقهما إلى السِّرداب الواقع تحت المصلَّى، حيث أجيال وأجيال من العُمداء المدفونين، كلٌّ منهم في تابوته السَّنداني المبطَّن بالرَّصاص في كُوَّاتٍ بطول الجُدران الحجريَّة، وأسفل كلِّ مدفنٍ لوح حجري يُخبِرك باسم صاحبه: **سايمون لو كلير، عميد 1765-1789 سريباتون**

رِكْوِيِسْكات إن پايس

تساءلَ روچر: «ما هذا الاسم؟».

- «الجزء الأول اسمه، والجزء الأخير بالرُّومانيَّة، وفي المنتصَف المُدَّة التي قضاها عميدًا. لا بُدَّ أن الاسم الآخَر لقرينته».

ثم إنهما تحرَّكا في السِّرداب الصَّامت متتبِّعيْن الحروف المنقوشة الأخرى: **فرانسيس لايال، عميد 1748-1765 زوهاريل**

رِكْوِيِسْكات إن پايس

إيجناتيوس كول، عميد 1745-1748 موسكا

رِكْوِيِسْكات إن پايس

أثارَ اهتمام لايرا أن ترى على كلِّ تابوتٍ لوحةً من النُّحاس الأصفر تحمل صورةً لكائنٍ مختلف، أصَلة أو حيَّة أو قردة، وأدركَت أنها صُور قرينات هؤلاء الموتى. حين يَبلُغ النَّاس مبلغ الكبار يفقد قُرناؤهم القُدرة على التَّبدُّل ويتَّخذون تكوينًا وحيدًا يحتفظون به إلى النِّهاية.

همسَ روچر: «هذه التَّوابيت فيها هياكل عظميَّة!».

همسَت لايرا: «لحم متحلِّل، وديدان ويرقات تتلوَّى في محاجر أعيُّنها».

قال مرتجفًا بحماسة: «مؤكَّد أن في هذا المكان أشباحًا».

بعد السِّرداب الأول وجدا رُواقًا تصطفُّ فيه الرُّفوف الحجريَّة، كلٌّ منها مقسوم إلى أربعة أقسام، وفي كلِّ قسمٍ تستقرُّ جمجمة.

بذيلٍ مدسوس بقوَّةٍ بين قدميها ارتجفَت قرينة روچر الملتصقة به، وأطلقَت عُواءً قصيرًا، فقال: «صمتًا».

لم يكن بإمكان لايرا رؤية پانتالايمون، لكنها علمَت أنه جاثم بتكوين العُثَّة على كتفها، وغالبًا يرتجف أيضًا.

رفعَت يدها ورفعَت أقرب جمجمةٍ برفقٍ من مكانها، فقال روچر: «ماذا تفعلين؟ ما يَجدُر بكِ أن تلمسيها!».

لكنها قلَّبت الجمجمة بين يديها دون أن تُلقي إليه بالًا. ثم إن شيئًا ما سقطَ فجأةً من الفتحة في قاعدة الجمجمة، سقطَ من بين أصابعها ورنَّ إذ ارتطمَ بالأرض، وكادَت لايرا تُسقِط الجمجمة فزعًا.

قال روچر متحسِّسًا: «إنها عُملة! قد يكون كنزًا!»، ورفعَ الشَّيء إلى لهب الشَّمعة وحدَّق إليه الاثنان بأعيُنٍ متَّسعة. لكنها ليست عُملةً، بل قُرص صغير من البرونز، عليه نقش بدائي لقِطَّة.

قالت لايرا: «مِثل الصُّور على التَّوابيت. إنها قرينته، مؤكَّد أنها هي».

بتوتُّرٍ قال روچر: «يَحسُن أن تُعيديه»، فقلبَت لايرا الجمجمة وأسقطَت القُرص في مستقرِّه الأخير، قبل أن تُعيد الجمجمة إلى رفِّها، وبعدها وجدا أن في كلِّ جمجمةٍ أخرى عُملة قرينةٍ تُظهِر رفيقة حياة صاحبها قريبةً منه حتى في الموت.

قالت لايرا: «مَن تحسبهم كانوا وهُم أحياء؟ أظنُّهم باحثين على الأرجح. العُمداء فقط يُدفَنون في توابيت. غالبًا كان الباحثون كثيرين للغاية على مرِّ القرون، ولم يكن هناك مكان لدفنهم كاملين، فقطعوا رؤوسهم واحتفظوا بها. إنها أهم جزء منهم على كلِّ حال».

لم يَعثُرا على ملتهمين، لكن المدافن تحت المصلَّى شغلَت لايرا وروچر أيامًا. في مرَّةٍ حاولَت أن تُمارِس حيلةً على الباحثين الموتى، عن طريق تبديل العُملات في جماجمهم ليحظى كلٌّ منهم بالقرينة الخطأ، وهو ما أثارَ پانتالايمون لدرجة أنه تحوَّل إلى وطواط وراح يطير من أعلى إلى أسفل مطلقًا صرخاتٍ حادَّةً وملوِّحًا بجناحيه في وجهها، لكنها لم تنتبه إليه، فالدُّعابة أفضل كثيرًا من أن تُفوِّتها. غير أنها دفعَت الثَّمن لاحقًا، ففي فِراشها في غُرفتها الضيِّقة على قمَّة السَّلالم 12 زارَها جاثوم، واستيقظَت صارخةً من ثلاثة أطياف متَّشحة بالمسوح، تقف إلى جوار الفِراش مشيرةً بأصابعها العظميَّة، قبل أن ترفع قلنسواتها كاشفةً عن الجَدعات النَّازفة التي كانت رؤوسهم تحتلُّ مكانها من قبل. فقط عندما تحوَّل پانتالايمون إلى أسدٍ وزأرَ فيها تراجعَت الأطياف غائصةً في مادَّة الجِدار، حتى لم يَعُد بارزًا منها إلَّا أذرُعها، ثم أيديها الرَّماديَّة المصفرَّة القاسية، ثم أصابعها

المرتعدة، ثم لا شيء. وأول ما فعلته لايرا في الصَّباح أنها هرعَت إلى المدافن وأعادَت عُملات القرينات إلى أماكنها الصَّحيحة، وهمسَت للجماجم: «آسفة! آسفة!».

المدافن أوسع كثيرًا من أقبية الخمور، لكن لها حدودًا أيضًا، وبعد أن استكشفَت لايرا وروچر كلَّ رُكنٍ منها وتأكَّدا من عدم وجود أيِّ ملتهِمين هناك، أوليا أماكن أخرى انتباههما، ولكن ليس قبل أن يلمحهما القسُّ يُغادِران السِّرداب ويستدعيهما إلى المصلَّى.

القسُّ رجل عجوز ممتلئ معروف باسم الأب هايست، وعمله أن يقود شعائر الكلِّيَّة الدِّينيَّة ويُبشِّر ويُصلِّي ويسمع الاعترافات. وقت أن كانت لايرا أصغر اهتمَّ القسُّ بصحَّتها الرُّوحانيَّة، فقط لتُدهِشه لا مبالاتها الماكرة وتوباتها المدَّعاة، فقرَّر أنها ليست طفلةً واعدةً من النَّاحية الرُّوحانيَّة.

عندما سمعاه يُنادي التفتَت لايرا وروچر على مضضٍ ودخلا يجرَّان أقدامهما إلى عتمة المصلَّى العظيم ورائحته الزَّنخة. أمام صُور القدِّيسين هنا وهناك كانت الشُّموع تتذبذَب، وجاءَت جلبة بعيدة من علِّيَّة الأرغن حيث تجري بعض أعمال الصِّيانة، ووقف أحد الخدم يُلمِّع المِقرأ النُّحاسي.

أشارَ الأب هايست من مدخل حُجرة الاجتماعات، وقال لهما: «أين كنتما؟ لقد رأيتكما تأتيان إلى هنا مرَّتين أو ثلاثًا. ماذا تفعلان؟».

لم تحمل نبرته اتِّهامًا، بل نمَّت عن اهتمامٍ صادق، ومن مجثمها على كتفه مدَّت قرينته لسان سحليَّةٍ في وجهيهما.

قالت لايرا: «أردنا أن نَنظُر في السِّرداب».

- «لأيِّ سبب؟».

- «الـ... التَّوابيت. أردنا أن نرى التَّوابيت».

- «لكن لماذا؟».

هزَّت كتفيها كعادتها إذا ما ضغطَ أحدهم عليها.

تابعَ القسُّ ملتفتًا إلى روچر: «وأنت»، لتهزَّ قرينة الصَّبي ذيل كلبة التِّرْيَر التي صارَتها بحركة استرضاء. «ما اسمك؟».

- «روچر يا أبانا».

- «إذا كنت خادمًا فأين تعمل؟».

- «في المطبخ يا أبانا».

- «أيُفترَض أن تكون هناك الآن؟».

- «نعم يا أبانا».

- «اذهب إذن».

دارَ روچر وجرى، في حين أخذَت لايرا تجرُّ قدمها من جانبٍ إلى جانب على الأرض.

قال الأب هايست: «أمَّا أنتِ يا لايرا فيسرُّني أن أراكِ تهتمِّين بما يقع تحت المصلَّى. أنتِ طفلة محظوظة بكلِّ هذا التَّاريخ المحيط بكِ».

قالت لايرا: «ممم».

- «لكنني أتساءلُ عن اختيارِكِ رفاقكِ. هل تَشعُرين بالوحدة؟».

- «لا».

- «هل... هل تفتقدين صُحبة الأطفال الآخَرين؟».

- «لا».

- «لا أعني روچر صبي المطبخ، أعني الأطفال مثلكِ، الأطفال النُّبلاء. هل تودِّين أن تحظي برفاقٍ كهؤلاء؟».

- «لا».

- «لكن إذا كُنَّ فتياتٍ أخريات...».

- «لا».

- «لا أحد منا يُريد أن تفوتكِ مسرَّات الطُّفولة وتساليها المعتادة. أحيانًا أفكِّرُ أنكِ تعيشين حياةً ملأى بالوحدة هنا في صُحبة الباحثين المسنِّين يا لايرا. هل تَشعُرين بهذا؟».

- «لا».

عاجزًا عن التَّفكير في سؤالٍ آخَر يُلقيه على هذه الطِّفلة العنيدة، اكتفى القسُّ بنقر إبهاميه معًا فوق أصابعه المتشابكة، وأخيرًا قال: «إذا كان هناك أيُّ شيءٍ يُزعِجكِ فأنتِ تعرفين أن بإمكانكِ المجيء إليَّ وإخباري به. أتمنَّى أن تَشعُري دومًا بأنك تستطيعين هذا».

قالت: «نعم».

- «هل تُردِّدين صلواتكِ؟».

- «نعم».

- «فتاة طيِّبة. حسن، اذهبي».

ودون أن تكتم تنفُّسها الصُّعداء دارَت لايرا وغادرَت.

وهكذا، بعد أن فشلَت في العثور على الملتهِمين تحت الأرض، عادَت لايرا إلى الشَّوارع حيث تَشعُر بأنها في بيتها.

ثم، وقد كادَت تفقد اهتمامها بهم، ظهرَ الملتهِمون في أكسفورد.

***

سمعَت لايرا أول مرَّةٍ بالأمر حين اختفى صبيٌّ صغير من عائلةٍ چيپتيَّة تعرفها.

كان هذا في وقت مهرجان الخيول، وقد ازدحمَ حوض القناة بالقوارب الضيّقة والكبيرة والتّجَّار والمسافرين، وعلى أرصفة الضفَّة في چريكو التمعَت السُّروج والألجمة وسادَ صخب الحوافر ولغط المساومات. لطالما استمتعَت لايرا بمهرجان الخيول، فعلاوةً على فُرصة أن تسرق جولةً على ظَهر حصانٍ ما في غفلةٍ من أصحابه، فإن فُرص التَّحريض على الحرب لا تُحصى.

وهذا العام لديها خطَّة ممتازة. من وحي الاستيلاء على القارب الضيّق في العام السَّابق، عزمَت لايرا هذه المرَّة على الخروج في رحلةٍ مائيَّة حقيقيَّة قبل أن يُقبَض عليها، وإذا استطاعَت وأتباعها من مطبخ الكلِّيَّة بلوغ بلدة آبينجدن فيُمكنهم أن يُحدِثوا الكثير من الفوضى بواسطة السَّد...

على أن حربًا لن تقوم هذا العام، لأن شيئًا آخَر حدثَ. كانت لايرا تمشي متَّئدةً في شمس الصَّباح على حافة ساحة بناء المراكب في پورت مِدو (في غياب روچر، الذي كُلِّفَ بتنظيف أرضيَّة المقصف)، يُصاحِبها هيو لوفات وسايمون پارسلو، ويتبادَل الثَّلاثة تدخين سيجارة مسروقة ويَنفُخون الدُّخان بتباهٍ. ساعتها سمعَت صيحةً بصوتٍ تعرَّفته.

- «ماذا فعلت به أيها الأبله المهمل؟!».

كان صوتًا قويًّا، صوت امرأة، لكنها امرأة رئتاها من النُّحاس والجِلد. تلفَّتت لايرا تبحث عنها في الحال، لأن هذه المرأة هي مَا كوستا، التي ضربَت لايرا ضربًا مبرِّحًا في مناسبتين ولكن أعطَتها بسكويت الزَّنجبيل السَّاخن في ثلاث مناسبات، وتشتهر عائلتها بأبَّهة قاربها وفخامته. إنهم أمراء بين الچيپتيّين، ولايرا تحمل قدرًا كبيرًا من الإعجاب بمَا كوستا، وإن كانت تتوخَّى الحذر منها منذ مدَّة، فقارب العائلة هو القارب الذي سبقَ لها اختطافه.

تلقائيًّا التقطَ أحد رفيقَي لايرا حجرًا ما إن سمعَ الصِّياح، لكنها قالت له: «ضعه. إنها غاضبة، وبإمكانها أن تكسر عمودك الفقري كأنه غُصين».

الحقيقة أن مَا كوستا بدَت قلقةً أكثر من غاضبة، وكان الرَّجل الذي تُخاطِبه -وهو تاجر خيول- يهزُّ كتفيه ويبسط يديه قائلًا: «لا أدري. كان هنا في لحظةٍ واختفى في التَّالية. لم أرَ أين ذهبَ...».

- «كان يُساعِدك! كان يَحرُس خيولك اللَّعينة!».

- «إذن كان عليه البقاء هنا، أليس كذلك؟ لكنه هربَ في منتصَف العمل...».

لم يقل أكثر من هذا، إذ هوَت مَا كوستا فجأةً على جانب رأسه بضربةٍ بالغة القوَّة، وتبعَتها بسيلٍ من الشَّتائم والصَّفعات حتى إنه صرخَ وولَّى الأدبار، فيما صاحَ تُجَّار الخيول القريبون مستهزئين، ورفعَ مُهر أهوج قائمتيه الأماميَّتين مفزوعًا.

سألَت لايرا طفلًا چيپتيًّا يُشاهِد بفمٍ مفتوح: «ماذا يَحدُث؟ ما الذي أغضبَها هكذا؟».

أجابَ الطِّفل: «إنه ابنها، بيلي. علأرجح تظنُّ أن الملتهِمين نالوا منه. وربما فعلوا. إنني لم أرَه عن نفسي منذ...».

- «الملتهمون؟ هل وصلوا إلى أكسفورد إذن؟».

التفتَ الصَّبي الچيپتي يُنادي أصدقاءه الذين يُشاهِدون مَا كوستا، وقال: «ليست تعلم ما يَحدُث! ليست تعلم أن الملتهِمين هنا!».

بتعبيرات الازدراء على وجوههم، التفتَ نِصف دستة من الأطفال، فألقَت لايرا سيجارتها وقد تعرَّفت إشارة القتال، وفي لحظةٍ تحوَّل قرين كلِّ طفلٍ إلى مخلوقٍ محارب، لتُصاحِب كلٌّ منهم الأنياب أو المخالب أو الفرو المنفوش. أمَّا پانتالايمون، محتقرًا خيال الأطفال الچيپتيِّين المحدود، فقد تحوَّل إلى تنِّينٍ بحجم كلب صيد الغزلان.

لكن قبل أن تبدأ المعركة تدخَّلت مَا كوستا نفسها، فلطمَت اثنين من الچيپتيِّين وأزاحَت إياهما جانبًا، لتُواجِه لايرا وقد بدَت كملاكِمةٍ محترفة.

- «هل رأيتِه؟ هل رأيتِ بيلي؟».

- «لا. لقد وصلنا لتوِّنا. ما رأيتُ بيلي منذ شهور».

كان قرين مَا كوستا يدور في الهواء الصَّافي فوق رؤوسهم، صقر عيناه صفراوان شرستان تدوران في هذا الاتِّجاه وذاك دون أن تطرفا. أفعمَ الخوف لايرا. لا أحد يقلق على طفلٍ يغيب بضع ساعات، خاصَّةً إذا كان طفلًا چيپتيًّا، ففي عالم قوارب الچيپتيِّين المتشابك الوطيد يُعَدُّ كلُّ طفلٍ نفيسًا ويغمره الجميع بالمحبَّة، وتعلم كلُّ أمٍّ أنه إذا غابَ طفلها عن نظرها فإنه لن يكون بعيدًا عن نظر شخصٍ آخَر سيحميه على نحوٍ غريزي.

لكن ها هي ذي مَا كوستا، الملكة بين الچيپتيِّين، مرعوبة على طفلٍ غائب. ما الذي يَحدُث؟

تطلَّعت مَا كوستا ببصرٍ شِبه أعمى إلى مجموعة الأطفال الصَّغيرة، ثم دارَت لتدسَّ نفسها في زحام الرَّصيف وتمشي تتعثَّر مناديةً طفلها بصوتٍ هادر، وفي الحال عادَ بعض الأطفال يلتفت إلى بعضٍ وقد تناسوا خصامهم في وجه فجيعتها.

سألَ رفيق لايرا المسمَّى سايمون پارسلو: «ما هؤلاء الملتهِمون؟».

قال الصَّبي الچيپتي الأول: «أنت تعلم. إنهم يسرقون الأطفال في جميع أنحاء البلاد. إنهم قراصنة...».

قاطعَه چيپتي آخَر مصحِّحًا: «ليسوا قراصنةً. إنهم أكَّيلة لحوم بشر، لهذا يُسمُّونهم ملتهِمين».

- «يأكلون الأطفال؟!». قالها رفيق لايرا الآخَر هيو لوڤات، وهو صبي مطبخٍ من كلِّيَّة سانت مايكل.

قال الچيپتي الأول: «لا أحد يعرف. إنهم يأخذونهم وما يراهم أحد بعدها».

قالت لايرا: «كلّنا يعلم هذا. إننا نلعب «أطفال وملتهِمون» منذ شهور، وأراهنُ أننا نلعبها من قبلكم، لكنني أراهنُ أيضًا أن لا أحد رآهم».

قال أحد الصِّبية: «بل رأوهم».

سألَته لايرا بإصرار: «مَن؟ هل رأيتهم أنت؟ كيف تعلم أنه ما شخص واحد؟».

قالت فتاة چيپتيَّة: «تشارلي رآهم في بانبري. لقد أتوا وتكلَّموا مع تلك السيِّدة فيما أخذَ رجل آخَر طفلها الصَّغير من الحديقة».

رفعَ الصَّبي الچيپتي تشارلي صوته قائلًا: «نعم، رأيتهم يأخذونه!».

سألَته لايرا: «كيف بدوا؟».

أجابَ تشارلي بتردُّد: «إنني... لم أرَهم جيِّدًا»، ثم أضافَ: «لكنني رأيتُ شاحنتهم. لقد أتوا في شاحنةٍ بيضاء، ووضعوا الطِّفل في الشَّاحنة ورحلوا بها».

سألَت لايرا: «لكن لِمَ يدعونهم بالملتهِمين؟».

قال الصَّبي الچيپتي الأول: «لأنهم يأكلونهم. أحدهم أخبرَنا في نورثهامپتن. كانوا هناك أيضًا. تلك الفتاة في نورثهامپتن، لقد أخذوا أخاها، وقالت إن الرِّجال الذين أخذوه أخبَروها بأنهم سيأكلونه. الجميع يعلمون هذا. إنهم يلتهمونهم».

بدأت فتاة چيپتيَّة واقفة على مقربةٍ تبكي بصوتٍ عالٍ.

قال تشارلي: «إنها ابنة عمِّ بيلي».

سألَتهم لايرا: «مَن آخِر مَن رأى بيلي؟».

أجابَها نِصف دستة من الأصوات: «أنا»، «رأيته يَحرُس حصان چوني فيورلي العجوز...»، «رأيته عند بائع التُّفَّاح بالطُّوفي...»، «رأيته يتأرجح على الرَّافعة...».

حين رتَّبت لايرا أجوبتهم استنتجَت أن بيلي شُوهِدَ حتمًا قبل أقل من ساعتين، فقالت: «إذن فخلال السَّاعتين الأخيرتين كان الملتهِمون هنا...».

تلفَّتوا جميعًا حول أنفُسهم مرتجفين على الرغم من دفء الشَّمس والرَّصيف المزدحم وروائح القطران والخيول وورق التَّدخين. المشكلة أن أحدًا لا يدري كيف يبدو أولئك الملتهِمون، ولذا فمن الممكن أن يكون أيُّ واحدٍ منهم، وهو ما أشارَت إليه لايرا للمجموعة المذعورة، التي صارَ أفرادها جميعًا تحت سيطرتها بالفعل، أطفال الكلِّيَّات وأطفال الچيپتيِّين على حدِّ السَّواء.

شرحَت لهم قائلةً: «مؤكَّد أنهم يبدون كالنَّاس العاديِّين، وإلَّا لرآهم أيُّ أحدٍ في الحال. لو كانوا يأتون ليلًا فقط فمن الممكن أن يبدوا كأيِّ شيء، لكن ما داموا يأتون في نور النَّهار فلا شكَّ أنهم يبدون عاديِّين. قد يكون أيٌّ من هؤلاء النَّاس هنا ملتهِمًا...».

قال صبي چيپتي مرتابًا: «لا، إنني أعرفهم جميعًا».

قالت لايرا: «حسن، ليس هؤلاء، لكن أي أحدٍ آخَر. لنذهب ونبحث عنهم! وعن شاحنتهم البيضاء!».

وسرعان ما أدَّى قولها إلى جمهرة، وانضمَّ آخَرون إلى المجموعة الأولى، ولم يمضِ وقت طويل قبل أن يندفع ثلاثون طفلًا چيپتيًّا أو أكثر يُفتِّشون الأرصفة من أقصاها إلى أقصاها، يَدخُلون الاسطبلات ويَخرُجون منها، ويتسلَّقون الرَّافعات والأوناش في ساحة بناء القوارب، ويثبون من فوق السِّياج إلى المرج الفسيح، وينطلق خمسة عشر منهم في المرَّة على الجسر الدوَّار الممتد فوق المياه الخضراء، ويجرون بأقصى سرعتهم في شوارع چريكو الضيِّقة، بين المنازل القرميد الصَّغيرة ذات الشُّرفات وإلى مصلَّى سانت بارناباس -الكيميائي العظيم- ذي البُرج المربَّع، يجهل نِصفهم عمَّ يبحث بالضَّبط ويحسب الأمر لهوًا لا أكثر، فيما يَشعُر هؤلاء الأقرب إلى لايرا بخوفٍ وتوجُّسٍ حقيقيَّيْن كلَّما رأوا شكل شخصٍ وحيد في طرف أحد الأزقَّة أو في عتمة المصلَّى. أهذا ملتهِم؟

لكنه لم يكن كذلك بالطَّبع. وفي النِّهاية، وقد علقَ ظلُّ اختفاء بيلي الحقيقي فوق الجميع، تلاشى المرح، وبينما غادرَت لايرا والطِّفلان الآخَران چريكو مع اقتراب موعد العَشاء، رأوا الچيپتيِّين محتشدين على الرَّصيف الرَّاسي عنده قارب عائلة كوستا، وقد انفجرَ بعض النِّساء في بُكاءٍ عالٍ، واجتمعَ الرِّجال في مجموعاتٍ غاضبة، وبدا الاهتياج على قُرنائهم الذين ارتفعوا في طيرانٍ مضطرب أو راحوا يُزمجِرون في وجه الظِّلال.

مع عبورهما عتبة مدخل چوردان العظيم قالت لايرا لسايمون پارسلو: «أراهنُ أن أولئك الملتهِمين لن يجرؤوا على المجيء إلى هنا».

قال بشكٍّ: «نعم، لكنني أعرفُ أن هناك طفلةً مفقودةً من السُّوق».

- «مَن؟». إنها تعرف أكثر أطفال السُّوق، ولم تسمع عن ذلك شيئًا.

- «چسي رينولدز، من عند صانع السُّروج. لم تكن موجودةً وقت الإغلاق ليلة البارحة. كانت قد ذهبَت فقط لشراء سمكٍ يأكله أبوها مع الشَّاي، لكنها لم ترجع ولم يرَها أحد. لقد بحثوا في جميع أنحاء السُّوق وحولها».

قالت لايرا باستياء: «لم أسمع شيئًا عن ذلك!»، وعدَّتها زلَّةً مؤسفةً من أتباعها ألَّا يُخبِروها بكلِّ شيءٍ وعلى الفور.

- «كان هذا أمس. ربما عادَت».

قالت: «سأذهبُ وأسألُ»، ودارَت لتُغادِر المدخل.

غير أنها لم تَخرُج من البوَّابة قبل أن يُناديها الحمَّال: «مهلًا، لايرا! لا يُمكنكِ الخروج ثانيةً هذا المساء. إنها أوامر العميد».

- «ولِمَ لا؟».

- «كما أخبرتكِ، أوامر العميد. قال إن عليكِ البقاء هنا إذا دخلتِ».

قالت: «أمسِكني أولًا»، واندفعَت خارجةً قبل أن يتحرَّك العجوز من بابه.

جرَت لايرا في الشَّارع الضيِّق وإلى الزُّقاق الذي تُفرِّغ فيه الشَّاحنات بضائعها للسُّوق المغطَّاة، وبما أن هذا موعد الإغلاق فقد وجدَت شاحناتٍ قليلةً هناك، وإن وقفَت مجموعة من الشُّبَّان تُدخِّن وتتكلَّم عند البوَّابة الوُسطى المواجهة لسور كلِّيَّة سانت مايكل الحجري العالي. تعرف لايرا أحدهم، فتى في السَّادسة عشرة من العُمر تَشعُر نحوه بالإعجاب لأنه يستطيع البصق على مسافةٍ أبعد من أيِّ أحدٍ سمعَت عنه على الإطلاق، وقد ذهبَت وانتظرَت بتواضُعٍ أن يلحظها.

أخيرًا قال: «نعم؟ ماذا تُريدين؟».

- «هل اختفَت چسي رينولدز؟».

- «نعم. لماذا؟».

- «لأن طفلًا چيپتيًّا اختفى اليوم وما إلى ذلك».

- «الچيپتيُّون يختفون طوال الوقت، بعد كلِّ مهرجان خيول تجدينهم يختفون».

أضافَ أحد رفاقه: «وكذا الخيول».

قالت لايرا: «هذه مسألة مختلفة. إنه طفل. لقد بحثنا عنه طوال بعد الظُّهر، والأطفال الآخَرون يقولون إن الملتهِمين نالوا منه».

- «الماذا؟».

- «الملتهِمون. أما سمعت عنهم؟».

كان الخبر جديدًا على الفِتية الآخَرين أيضًا، وباستثناء بعض التَّعليقات الخشنة أصغوا باهتمامٍ إلى ما أخبرَتهم به.

قال معرفة لايرا المسمَّى ديك: «ملتهِمون. إنها حماقة. هؤلاء الجيبتيُّون يلتقطون جميع أنواع الأفكار الحمقاء ويُردِّدونها».

ردَّت لايرا بإصرار: «كان هناك ملتهِمون في بانبري قبل أسبوعين، واختُطِفَ خمسة أطفال. على الأرجح أتوا إلى أكسفورد ليأخذوا أطفالًا من بيننا. مؤكَّد أنهم هُم الذين اختطَفوا چسي».

قال أحد الفِتية: «ثمَّة طفل ضائع ناحية كاولي. تذكَّرتُ الآن. عمَّتي كانت هناك البارحة لأنها تبيع السَّمك ورقائق البطاطس من شاحنة، وسمعَت بالأمر... صبي صغير، نعم... لكنني لا أعرفُ شيئًا عن الملتهِمين. إنهم ليسوا حقيقيِّين، مجرَّد قصَّة».

صاحَت لايرا: «بل حقيقيُّون! الجيبتيُّون رأوهم، ويحسبون أنهم يأكلون الأطفال الذين يقبضون عليهم و...».

بترَت عبارتها في منتصَفها، لأن فكرةً ما خطرَت لها بغتةً. خلال تلك الأمسيَّة العجيبة التي قضتها مختبئةً في الاستراحة، عرضَ اللورد آزريل شريحة فانوس لرجلٍ يتدفَّق الضَّوء من يده، وكان هناك شكل صغير إلى جواره يُحيط به ضوء أقل. عمُّها قال إنه طفل، وسألَه أحدهم إن كان طفلًا مبتورًا فأجابَ عمُّها بالنَّفي، وأن هذا بيت القصيد.

تذكَّرت لايرا أن «مبتور» معناها «مقطوع».

ثم إن شيئًا آخَر أصابَ قلبها: أين روچر؟

إنها لم ترَه منذ الصَّباح...

فجأةً انتابها الخوف، وبتكوين أسدٍ منمنَم قفزَ پانتالايمون بين ذراعيها وأخذَ يُزَمجِر.

ألقَت لايرا التَّحيَّة على الشُّبَّان عند البوَّابة ومشَت بتمهُّلٍ عائدةً إلى شارع تورل، ثم بدأت تَركُض بأقصى سرعتها نحو مدخل چوردان، واندفعَت من الباب قبل ثانيةٍ من قرينها الذي يتَّخذ الآن تكوين فهد.

خاطبَها الحمَّال متظاهرًا بالتّهذيب: «اضطررتُ إلى الاتِّصال بالعميد وإبلاغه. إنه ليس مسرورًا على الإطلاق. لا أودُّ أن أكون في مكانكِ أبدًا، ولو مقابل مال».

سألَته مباشرةً: «أين روچر؟».

- «ما رأيته. هو أيضًا في ورطة. أووه، عندما يُمسِك به المستر كوسون...».

جرَت لايرا إلى المطبخ وألقَت بنفسها في جلبته وحرارته وبُخاره صائحةً: «أين روچر؟».

- «اخرُجي من هنا يا لايرا! إننا مشغولون!».

- «لكن أين هو؟ هل ظهرَ أم لا؟».

ولم يبدُ على أحدٍ منهم الاهتمام.

صاحَت لايرا في رئيسة الطُّهاة: «لكن أين هو؟ مؤكَّد أنكم سمعتم!»، غير أن المرأة لطمَتها على أُذنيها وزجرَتها لتبتعد مهمهمةً بغضب.

حاول برني طاهي المعجَّنات أن يُهدِّئها بلا طائل، وقالت بانفعال: «لقد نالوا منه! هؤلاء الملتهِمون الملاعين، يجب أن يقبضوا عليهم ويفتكوا بهم! إنني أكرههم! لستم تُبالون بروچر...».

- «لايرا، كلُّنا يُبالي بروچر...».

- «لا، لستم تُبالون به، وإلَّا لتوقَّفتم جميعًا عن العمل وذهبتم للبحث عنه حالًا! إنني أكرهكم!».

- «قد تكون هناك أسباب عديدة لعدم ظهور روچر. أصغي إلى العقل. علينا أن نعدَّ العَشاء ونُقدِّمه خلال أقل من ساعة. العميد عنده ضيوف في مسكنه وسيأكل هناك، أي أن على الشِّيف أن تحرص على وصول الطَّعام بسرعةٍ قبل أن يبرد. مع كلِّ هذه المشاغل يجب أن تستمرَّ الحياة يا لايرا. أنا واثق بأن روچر سيظهر...».

دارَت لايرا وجرَت من المطبخ مُسقطةً كومةً من أغطية الأطباق الفضِّيَّة ومتجاهلةً الهدير الغاضب الذي ارتفعَ. أسرعَت تنزل السَّلالم وتَعبُر الفِناء بين الصَّومعة وبُرج پالمر، إلى فِناء ياكسلي حيث يقف أقدم مباني الكلِّيَّة.

هرعَ پانتالايمون أمامها مرتقيًا السَّلالم إلى قمَّتها حيث غُرفة نوم لايرا، التي دفعَت الباب بحدَّةٍ وجرَّت كُرسيَّها المتداعي إلى النَّافذة، ثم فتحَتها على مصراعيها وخرجَت منها. تحت النَّافذة مباشرةً مزراب حجري مبطَّن بالرَّصاص عرضه قدم كامل، وما إن وقفَت فيه دارَت وتسلَّقت القرميد الخشن حتى وصلَت إلى أعلى حواف السَّطح، وهناك فغرَت فاها وانفجرَت في الصُّراخ، فيما راحَ پانتالايمون يدور ويدور حولها مطلقًا صرخات رُخٍّ، وقد تحوَّل إلى طائرٍ كما يفعل دومًا فوق السَّطح.

كانت سماء المساء مغمورةً بألوان الخوخ والمشمش والقشدة، وعلى صفحتها البرتقاليَّة سحابات رقيقة صغيرة أشبه بالآيس كريم. حول لايرا وقرينها تنتصب أبراج أكسفورد وقممها المدبَّبة، مستويةً ولكن ليست أعلى، وعلى الجانبين إلى الشَّرق والغرب ترتفع غابات شاتو ڤِرت ووايت هام الخضراء. في مكانٍ ما كانت طيور الرُّخ تنعب والأجراس تدقُّ، ومن طريق أوكسپنز أعلنَ هدير ثابت لمحرِّك غازٍ ارتفاع زيلن(6) البريد الملكي المتَّجه إلى لندن. شاهدَته لايرا يُحلِّق في السَّماء وراء قمَّة بُرج كنيسة سانت مايكل، كبيرًا في البداية كأُنملة خنصرها حين مدَّته عن آخِره، قبل أن يتضاءَل شيئًا فشيئًا حتى باتَ نُقطةً في السَّماء اللُّؤلؤيَّة.

التفتَت لايرا ونظرَت إلى الفِناء الظَّليل بالأسفل، حيث بدأ الباحثون المتَّشحون بالسَّواد يتحرَّكون فُرادَى ومثانيَ نحو المقصف، ومعهم قريناتهم ماشياتٍ أو طائراتٍ أو جاثماتٍ بسكينةٍ على أكتافهم. كانت القاعة قد بدأت تُضيء، ورأت لايرا النَّوافذ الزُّجاج الملوَّنة تبدأ في التَّوهُّج تدريجيًّا إذ تحرَّك خادم بطول الموائد يُشعل قناديل النَّفثة. ثم بدأ جرس الوكيل يدقُّ معلنًا أن العَشاء بعد نِصف ساعة.

هذا عالمها، وتُريده أن يبقى كما هو إلى الأبد، إلَّا أنه يتبدَّل بالفعل من حولها، لأن أحدًا ما يختطف الأطفال.

جلسَت على حافة السَّطح وذقنها بين يديها قائلةً: «أولى بنا أن نُنقِذه يا پانتالايمون».

أجابَها بصوت الرُّخِ من فوق المدخنة: «سيكون هذا خطرًا».

- «طبعًا! أعرفُ هذا».

- «تذكَّري ما قالوه في الاستراحة».

- «ماذا؟».

- «شيء ما عن طفلٍ في المناطق الأركتيكيَّة، ذلك الذي لا يجتذب (الغُبار)».

- «قالوا إنه طفل كامل... وماذا في هذا؟».

- «قد يكون ذلك ما سيفعلونه بروچر والچيپتيِّين وسائر الأطفال».

- «ماذا؟».

- «حسن، ما معنى «كامل»؟».

- «وما أدراني؟ على الأرجح يقطعونهم إلى أنصاف. أظنُّ أنهم يستعبدونهم، فهذا أفيد لهم. غالبًا عندهم مناجم هناك، مناجم يورانيوم لأشغال الذرَّة. أراهنُ أن هذا هو الغرض. وإذا أرسَلوا أناسًا كبارًا إلى المناجم فسيموتون، ولذا يستخدمون الأطفال بدلًا منهم لأنهم أقل تكلفةً. هذا هو ما يفعلونه بهم».

- «أظنُّ...».

لكن على ما يظنّه پانتالايمون أن ينتظر، لأن أحدهم بدأ يصيح من أسفل.

- «لايرا! لايرا! ادخُلي حالًا!».

وسمعَت لايرا دقَّاتٍ على إطار النَّافذة. إنها تعرف هذا الصَّوت ونبرته نافدة الصَّبر، صوت المسز لونزديل المدبِّرة التي لا سبيل إلى الاختباء منها.

بوجهٍ مشدود الملامح نزلَت لايرا من فوق السَّطح إلى المزراب، ثم دخلَت من النَّافذة. كانت المسز لونزديل تملأ حوض الاستحمام الصَّغير البالي بالماء، على خلفيَّةٍ من الصَّرير والدَّقِّ العظيميْن الصَّادريْن من الأنابيب.

- «مرارًا وتكرارًا قيلَ لكِ ألَّا تصعدي إلى السَّطح... انظُري إلى نفسكِ! انظُري إلى تنُّورتكِ القذرة! اخلعيها في الحال واغسلي نفسكِ فيما أبحثُ عن ثوبٍ لائقٍ لم تُمزِّقيه. لا أفهمُ أبدًا لِمَ لا تُحافِظين على نظافتكِ وهندامكِ...».

كانت لايرا أشد وجومًا من أن تسأل لِمَ عليها الاغتسال وتبديل ثيابها، ولا أحد من الكبار يشرح لك سبب ما يفعله من تلقاء نفسه أبدًا على كلِّ حال، وهكذا خلعَت فُستانها وألقَته على السَّرير الضيِّق وبدأت تغتسل كيفما اتَّفق، في حين أخذَ پانتالايمون -بتكوين عُصفور كناري الآن- يثب مقتربًا شيئًا فشيئًا من قرين المسز لونزديل -كلب رتريڤر بليد الطِّباع- محاولًا مضايقته عبثًا.

- «انظُري إلى حال الثِّياب في هذه الخزانة! ما علَّقتِ شيئًا منذ أسابيع! انظُري إلى التَّجاعيد في هذا الـ...».

انظُري إلى هذا، انظُري إلى ذاك... ولايرا لا تُريد أن تَنظُر. أغلقَت عينيها وهي تَفرُك وجهها بالمنشفة الخفيفة.

- «عليكِ أن ترتديه كما هو. لا وقت لكيِّه. ليرحمني الله يا فتاة، رُكبتاكِ... انظُري إلى شكلهما...».

غمغمَت لايرا: «لا أريدُ النَّظر إلى شيء».

ضربَتها المسز لونزديل على ساقها قائلةً بعُنف: «اغتسِلي، نظِّفي كلَّ هذه الأوساخ».

أخيرًا قالت لايرا: «لماذا؟ إنني لا أغسلُ رُكبتَي أبدًا عادةً. لا أحد سيَنظُر إلى رُكبتَي. لِمَ عليَّ أن أفعل كلَّ هذا؟ أنتِ أيضًا لا تُبالين بروچر، مثلكِ مثل الشِّيف. أنا الوحيدة التي...».

ضربة أخرى على السَّاق الأخرى.

- «كفى كلامًا فارغًا. أنا من عائلة پارسلو، تمامًا كوالد روچر. إنه ابن عمِّي الثَّاني. أراهنُ أنكِ لا تعرفين هذا لأني أراهنُ أنكِ لم تسألي قَطُّ يا آنسة لايرا. أراهنُ أن هذا لم يَخطُر لكِ ببال. لا تُؤنِّبيني على عدم الاهتمام بالصَّبي. الله يعلم أني أبالي بكِ أيضًا مع أنكِ تكادين لا تُعطينني سببًا ولا أسمعُ منكِ شكرًا».

وأطبقَت المرأة على قَماشة الاستحمام وفركَت بها رُكبتَي لايرا بشدَّةٍ خلّفت جِلدهما متورِّدًا لامعًا موجوعًا، لكنها نظَّفته.

- «سبب كلِّ هذا أنكِ ستتناوَلين العَشاء مع العميد وضيوفه. آملُ أن تُحسِني التَّصرُّف. لا تتكلَّمي إلَّا عندما يُوجَّه إليكِ كلام، وكوني هادئةً ومهذَّبةً، وابتسمي بلُطف، وإياكِ أن تقولي «وما أدراني؟» إذا سألكِ أحدهم سؤالًا».

أنزلَت أفضل فُستانٍ متاح على بدن لايرا النَّحيل وسوَّته، وحلَّت شريطًا أحمر من الشَّرائط المتشابكة في دُرج، ثم مشَّطت شعر لايرا بفرشاةٍ خشنة.

- «لو أبلغوني مسبقًا لغسلت شعركِ كما ينبغي. مؤسف. طيِّب، إذا لم يُمعِنوا النَّظر... هكذا. والآن شدِّي قامتكِ. أين الحذاء الممتاز ذو الجِلد اللمَّاع؟».

بعد خمس دقائق كانت لايرا تدقُّ باب مسكن العميد، المنزل الفخم الكئيب بعض الشَّيء الذي يُفتَح على فِناء ياكسلي وتطلُّ مؤخِّرته على حديقة المكتبة. حكَّ پانتالايمون -الآن قاقوم على سبيل التَّهذيب- نفسه في ساقها. فتحَ الباب خادم العميد المسمَّى كازنز، وهو عدوٌّ قديم للايرا، لكن كليهما يعلم أنهما في هُدنة.

قالت لايرا: «المسز لونزديل قالت أن آتي».

قال كازنز مفسحًا لها الطَّريق: «نعم. العميد في حُجرة الضُّيوف».

قادَها إلى الحُجرة الواسعة المطلَّة على حديقة المكتبة، ويتسلَّل إليها البصيص الأخير من ضوء الشَّمس من الفُرجة بين المكتبة وبُرج پالمر، منيرًا الصُّور الثَّقيلة والفضِّيَّات الكالحة التي يجمعها العميد. أنارَ ضوء الشَّمس الضُّيوف أيضًا، وأدركَت لايرا لماذا لن يتناوَلوا العَشاء في القاعة، فثلاثة من الضُّيوف نساء.

قال العميد: «آه، لايرا. يسرُّني للغاية أنكِ استطعتِ المجيء. كازنز، هلَّا جلبت لها مشروبًا مرطِّبًا؟ ديم هانا، لا أظنُّ أنكِ التقيتِ لايرا... إنها ابنة أخ اللورد آزريل».

الديم هانا رِلف رئيسة إحدى كلِّيَّات النِّساء، سيِّدة مسنَّة شائبة الشَّعر، لقرينها تكوين قرد قِشَّة. صافحَتها لايرا بما استطاعَته من تهذيب، ثم قُدِّمَت إلى الضُّيوف الآخَرين الذين -على غرار الديم هانا- كانوا باحثين من كلِّيَّاتٍ أخرى ولا يُثيرون الاهتمام على الإطلاق.

ثم وصلَ العميد إلى آخِر الضُّيوف، وقال: «مسز كولتر، هذه فتاتنا لايرا. لايرا، تعالي وألقي التَّحيَّة على المسز كولتر».

قالت المسز كولتر: «مرحبًا لايرا».

كانت امرأةً شابَّةً جميلةً، يصنع شعرها الأسود الأملس إطارًا حول وجنتيها، وقرينها قرد ذهبي.

(4) الأليثيوميتر

قالت المسز كولتر مفسحةً للايرا مكانًا على الأريكة: «آملُ أن تجلسي إلى جواري على العَشاء. لم أعتد فخامة مسكن عميد كلِّيَّة. عليكِ أن تُريني أيُّ سكِّين وشوكة أستخدمُ».

سألَتها: «أأنتِ باحثة؟». تَنظُر لايرا إلى الباحثين الإناث بازدراءٍ چورداني أصيل. إن لهن وجودًا بالطَّبع، لكن المسكينات لا يجدن أبدًا مَن يأخذهن بجدِّيَّةٍ أكثر من حيواناتٍ ترتدي ثيابًا تنكُّريَّةً وتُمثِّل في مسرحيَّة. إلَّا أن المسز كولتر لا تبدو كأيِّ باحثةٍ رأتها لايرا من قبل، وبالتَّأكيد ليست كالضَّيفتين الأخريَين، هاتين السيِّدتين المسنَّتين الجادَّتين. والحقيقة أن لايرا ألقَت السُّؤال متوقِّعةً جوابًا بالنَّفي، لأن للمسز كولتر سمتًا من الفتنة خلبَ لُبَّ الفتاة التي راحَت تتطلَّع إليها، تكاد لا تُزيح بصرها عنها.

أجابَت المسز كولتر: «لا. إنني عُضوة في كلِّيَّة الديم هانا، لكن معظم عملي خارج أكسفورد... كلِّميني عن نفسكِ يا لايرا. هل عشتِ طوال حياتكِ في كلِّيَّة چوردان؟».

في غضون دقائق خمس كانت لايرا قد حكَت لها كلَّ شيءٍ عن حياتها نِصف البرِّيَّة، عن طُرقها المفضَّلة فوق السُّطوح، ومعركة أحواض الصَّلصال، والمرَّة التي اصطادَت مع روچر رُخًّا وشوَياه، ونيَّتها الاستيلاء على قاربٍ ضيِّق من الچيپتيِّين والإبحار حتى آبينجدن، وما إلى ذلك، ولدرجة أنها -وقد تلفَّتت حولها وخفضَت صوتها- أخبرَت المسز كولتر بالحيلة التي لعبَتها مع روچر على الجماجم في السِّرداب.

- «وجاءَت تلك الأشباح، تمام؟ جاءَت إلى غُرفة نومي من دون رؤوسها! لم تتكلَّم لكنها أصدرَت أصواتًا مثل الحشرجة، لكنني عرفتُ ما تُريده، فنزلتُ في اليوم التَّالي وأعدتُ العُملات إلى مكانها. لو لم أفعل ذلك لقتلتني على الأرجح».

قالت المسز كولتر بإعجاب: «لستِ تخشين الخطر إذن؟». كانتا تتناوَلان العَشاء عندئذٍ، وقد جلسَتا متجاورتيْن كما أملَت لايرا، التي تجاهلَت تمامًا أمين المكتبة الجالس إلى جانبها الآخَر، وقضَت الوجبة كلَّها في الكلام مع المسز كولتر.

حين انسحبَت السيِّدات لاحتساء القهوة قالت الديم هانا: «أخبِريني يا لايرا، هل سيُرسِلونكِ إلى المدرسة؟».

رمقَتها لايرا بتعبيرٍ خاوٍ قائلةً: «وما أد... لا أدري»، ثم أضافَت على سبيل الأمان: «غالبًا لا»، وتابعَت بتواضُع: «لا أريدُ أن أسبِّب لهم متاعب أو أحمِّلهم تكاليف. الأفضل غالبًا أن أواصل العيش في چوردان وأتلقَّى تعليمي من الباحثين هنا متى سمحَ وقتهم. بما أنهم هنا بالفعل فغالبًا لا يُكلِّفون شيئًا».

سألَتها السيِّدة الثَّانية، الباحثة في كلِّيَّة النِّساء الأخرى: «وهل عند عمِّكِ اللورد آزريل خُطط لكِ؟».

قالت لايرا: «نعم، أتوقّعُ هذا. لكنها لا تخصُّ الدِّراسة. سيأخذني معه إلى الشَّمال حينما يذهب المرَّة التَّالية».

علَّقت المسز كولتر: «أذكرُ أنه أخبرَني بهذا».

حدَّقت إليها لايرا، واعتدلَت الباحثتان الأخريان في جلستيهما بعض الشَّيء، ولو أن قرينيهما -إمَّا لتهذيبهما وإمَّا لبلادتهما- لم يفعلا أكثر من تبادُل النَّظرات.

واصلَت المسز كولتر: «لقد التقيته في المعهد الأركتيكي الملكي. الحقيقة أن ذلك اللِّقاء جزء من سبب وجودي هنا اليوم».

تساءلَت لايرا: «أأنتِ أيضًا مستكشِفة؟».

- «بشكلٍ ما. لقد ذهبتُ إلى الشَّمال مرارًا. العام الماضي قضيتُ ثلاثة أشهُر في رصد الأورورا في جرينلاند».

قُضيَ الأمر. اختفى كلُّ شيءٍ وكلُّ شخصٍ آخَر من الوجود عند لايرا، وحملقَت إلى المسز كولتر بانبهارٍ وأنصتَت بانتشاءٍ صامت إلى حكاياتها عن الأكواخ المقبَّبة وصيد الفقمات والتَّفاوُض مع ساحرات لاپي. أمَّا الباحثتان فلم تملكا شيئًا مثيرًا تحكيانه، فجلستا بصمتٍ إلى أن دخلَ الرِّجال.

لاحقًا، في أثناء استعداد الضُّيوف للرَّحيل، قال العميد: «ابقي يا لايرا. أريدُ أن أكلِّمكِ دقيقةً أو اثنتين. اذهبي إلى مكتبي أيتها الصَّغيرة واجلسي هناك وانتظريني».

حائرةً متعبةً منتشيةً، فعلَت لايرا كما أخبرَها. أدخلَها الخادم كازنز متعمِّدًا أن يُبقي الباب مفتوحًا ليرى ما تفعله من الرَّدهة، حيث يُساعِد المغادرين على ارتداء معاطفهم. بحثَت لايرا بعينيها عن المسز كولتر لكنها لم ترَها، ثم إن العميد دخلَ المكتب وأغلقَ الباب.

جلسَ الرَّجل بجهدٍ على المقعد المجاور للمدفأة، وقفزَت قرينته على ظَهر المقعد وجلسَت عند رأسه رامقةً لايرا بعينيها العجوزيْن من تحت جفنيهما المتهدِّليْن. قال العميد والقنديل يُطلق هسيسه الخافت: «إذن يا لايرا، كنتِ تتكلَّمين مع المسز كولتر. هل استمتعتِ بما قالته؟».

- «نعم!».

- «إنها سيِّدة غير عاديَّة».

- «إنها رائعة، أروع شخصٍ قابلته في حياتي».

تنهَّد العميد. بحُلَّته السَّوداء ورباط عُنقه الأسود بدا شبيهًا للغاية بقرينته، وخطرَ للايرا فجأةً أن يومًا ما قريبًا جدًّا سيُدفَن العميد في السِّرداب تحت المصلَّى، ويَنقُش فنَّان صورة قرينته على لوحٍ نُحاسي يُوضَع على تابوته، ويُدوِّن اسمها إلى جوار اسمه.

بعد لحظاتٍ قال: «كان يجب أن أجد وقتًا قبل الآن للكلامِ معكِ يا لايرا. كانت هذه نيَّتي في جميع الأحوال، لكن يبدو أن عليَّ استعجال الأوان. لقد عشتِ آمنةً هنا في چوردان يا عزيزتي، وأظنُّ أنكِ عشتِ حياةً سعيدةً. لم تجدي طاعتنا سهلةً، لكننا مغرمون بكِ حقًّا، وأنتِ لم تكوني طفلةً سيِّئةً قَطُّ. في طبيعتكِ الكثير من الطِّيبة والعذوبة، والكثير من الإصرار أيضًا. سوف تحتاجين إلى كلِّ هذا. في العالم الخارجي الواسع أشياء أودُّ لو حميتكِ منها -أعني بإبقائكِ هنا في چوردان- إلَّا أن ذلك لم يَعُد ممكنًا».

اكتفَت بالتَّحديق إليه. هل سيصرفونها من هنا؟

تابعَ العميد: «كنتِ تعرفين أن عليكِ الذّهاب إلى المدرسة يومًا. صحيحٌ أننا علّمناكِ بعض الأشياء هنا، لكن ليس كما ينبغي وليس وفق منهج. إن معارفنا من نوعٍ آخَر، وأنتِ محتاجة إلى تعلُّم أشياء لا يستطيع رجال مسنُّون تعليمكِ إياها، خاصَّةً في سِنِّكِ الحاليَّة. مؤكَّد أنكِ تعين هذا. وأنتِ لستِ ابنة أحد الخدم كذلك، ولم نستطِع أن نُرسِلكِ إلى عائلةٍ في البلدة تُربِّيكِ. كانت لتعتني بكِ من بعض النَّواحي، لكن احتياجاتكِ مختلفة. كما ترين، ما أقوله لكِ يا لايرا إن الجزء الخاص بكلِّيَّة چوردان من حياتكِ على وشك الانتهاء».

قالت: «لا، لا. لا أريدُ أن أترك چوردان. إنني أحبُّ الحياة هنا وأريدُ أن أبقى إلى الأبد».

- «في صِغره يحسب المرء حقًّا أن الأشياء تدوم إلى الأبد، لكنها للأسف لا تدوم. لايرا، قبل وقتٍ لن يطول -عامين على الأكثر- ستُصبِحين امرأةً شابَّةً وتَترُكين طفولتكِ وراءكِ. ستُصبِحين سيِّدةً شابَّةً. وصدِّقيني، حينئذٍ ستجدين كلِّيَّة چوردان مكانًا بعيدًا كلَّ البُعد عن الرَّاحة».

- «لكنها بيتي!».

- «كانت بيتكِ، لكنكِ محتاجة إلى شيءٍ مختلف الآن».

- «ليس المدرسة. لن أذهب إلى المدرسة».

- «أنتِ محتاجة إلى صُحبة أنثى، إلى إرشاد أنثى».

لم تدلَّ كلمة «أنثى» للايرا إلَّا على الباحثين الإناث، ولا إراديًّا تقلَّصت ملامحها امتعاضًا من فكرة أن تُنفى من بهاء چوردان، وتُقصى عن مهابة معارفها وصيتها، إلى نُزلٍ حقير من القرميد بكلِّيَّةٍ في طرف أكسفورد الشَّمالي، لتقضي أيامها مع باحثاتٍ هرِمات تفوح منهن رائحة الكرنب وكُرات النَّفتالين كهاتين الاثنتين على العَشاء!

رأى العميد التَّعبير على وجهها، ورأى الأحمر يُومِض في عينَي الظَّربان الذي تحوَّل إليه پانتالايمون، فقال: «لكن ماذا لو ذهبتِ إلى المسز كولتر؟».

في لحظةٍ تبدَّل فرو پانتالايمون من البنِّي الخشن إلى الأبيض الزَّغِب النَّاعم، واتَّسعت عينا لايرا قائلةً: «حقًّا؟».

- «إنها على معرفةٍ باللورد آزريل، وعمُّكِ مهتمٌّ للغاية بمصلحتكِ، ولمَّا سمعَت المسز كولتر بأمركِ تطوَّعت من فورها بالمساعدة. ليس هناك مستر كولتر بالمناسبة. إنها أرملة. زوجها ماتَ في حادثةٍ مأساويَّة قبل بضعة أعوام. ضعي هذا في ذهنكِ قبل أن تسألي».

أومأَت لايرا برأسها بحماسة، وقالت: «وهل سـ... ستعتني بي حقًّا؟».

- «هل تودِّين ذلك؟».

- «نعم!».

استطاعَت الجلوس ثابتةَ بصعوبة، وابتسمَ العميد الذي نادرًا ما يبتسم، مع أن أيَّ أحدٍ يُشاهِد (بخلاف لايرا التي لم تكن في حالةٍ تسمح بأن تُلاحِظ) كان ليقول إن ما على وجهه تكشيرة حزنٍ لا ابتسامة.

قال: «حسن، الأفضل إذن أن ندعوها للدُّخول لنتكلَّم في الأمر».

غادرَ العميد الحُجرة، وحين عادَ بعد دقيقةٍ ومعه المسز كولتر كانت لايرا قد نهضَت من فرط الإثارة. ابتسمَت المسز كولتر، وكشفَ قرينها عن أسنانه البيضاء في ابتسامة جذلٍ واسعة، وبينما مرَّت بها في طريقها إلى المقعد مسَّت المسز كولتر شعر لايرا بخفَّة، لتَشعُر الفتاة بتيَّارٍ من الدِّفء يتدفَّق إليها، ويتورَّد وجهها.

عندما صبَّ لها العميد كأسًا من البرانتيڤين قالت المسز كولتر: «إذن يا لايرا، ستُصبِح لي مساعِدة على ما يبدو».

أجابَت لايرا ببساطة: «نعم». كانت لتقول نعم لأيِّ شيء.

- «عندي عمل كثير أحتاجُ فيه إلى مساعدة».

- «يُمكنني أن أعمل!».

- «وقد نضطرُّ إلى السَّفر».

- «ليس عندي مانع. سأذهبُ إلى أيِّ مكان».

- «ولكن قد يكون ذلك خطرًا. قد نضطرُّ إلى الذَّهاب إلى الشَّمال».

عجزَت لايرا عن النُّطق وهلةً، ثم لمَّا عثرَت على صوتها قالت: «قريبًا؟».

ضحكَت المسز كولتر قائلةً: «محتمَل. لكن اعلمي أن عليكِ العمل بجدٍّ شديد. وعليكِ أن تتعلَّمي الرِّياضيَّات والملاحة والجغرافيا الفلكيَّة».

- «هل ستُعلِّمينني؟».

- «نعم. وعليكِ مساعدتي بتدوين الملاحظات وترتيب أوراقي وإجراء العمليَّات الحسابيَّة المبدئيَّة وما إلى ذلك. ولأننا سنزور عددًا من النَّاس المهمِّين فيجب أن نجد لكِ بعض الملابس الأنيقة. أشياء كثيرة عليكِ تعلُّمها يا لايرا».

- «ليس عندي مانع. أريدُ أن أتعلَّمها كلَّها».

- «أنا واثقة بأنكِ ستفعلين. حينما تعودين إلى كلِّيَّة چوردان ستكونين رحَّالةً شهيرةً. سنرحل في الصَّباح الباكر، في زپلن الفَجر، فاذهبي إلى الفِراش مباشرةً. سأراكِ على الإفطار. تُصبِحين على خير!».

قالت لايرا: «تُصبِحين على خير»، ثم وقد تذكّرت الآداب القليلة التي تتمتّع بها وهي عند الباب، التفتَت قائلةً: «تُصبِح على خير أيها العميد».

أومأ برأسه قائلًا: «نومًا طيِّبًا».

أضافَت لايرا للمسز كولتر: «وأشكركِ».

***

نامَت أخيرًا، ولو أن پانتالايمون لم يثبت على تكوينٍ واحد حتى نهرَته، حين تحوَّل إلى قنفذٍ في خضمِّ استثارته.

كان الظَّلام لا يزال سائدًا عندما هزَّها أحدهم يُوقِظها.

- «لايرا، صهٍ، لا تفزعي، استيقظي أيتها الصَّغيرة».

وجدَتها المسز لونزديل حاملةً شمعةً، وقد مالَت عليها دون أن ترفع يدها الأخرى، وتكلَّمت بهدوء.

- «اسمعي، العميد يُريد رؤيتكِ قبل أن تنضمِّي إلى المسز كولتر على الإفطار. انهضي بسرعةٍ واجري إلى مسكنه حالًا. ادخُلي الحديقة وانقُري على النَّافذة الفرنسيَّة في مكتبه. مفهوم؟».

مستيقظةً تمامًا ومشتعلةً حيرةً، أومأَت لايرا برأسها ودسَّت قدميها الحافيتين في الحذاء الذي وضعَته لها المسز لونزديل.

- «لا عليكِ بالاغتسال... اغتسِلي لاحقًا. اذهبي مباشرةً وعودي مباشرةً. سأشرعُ في حزم أغراضكِ وأجدُ شيئًا ترتدينه. هيا، أسرِعي».

كان هواء اللَّيل البارد ما زالَ يُفعِم الفِناء المظلم، وبالأعلى النُّجوم الأخيرة ظاهرة، لكن السَّماء فوق القاعة بدأت تتشرَّب ضوء الشَّرق بالفعل. جرَت لايرا داخلةً حديقة المكتبة، ووقفَت لحظةً في السُّكون الجاثم رافعةً ناظريْها إلى أبراج الصَّومعة الحجريَّة، وقُبَّة مبنى شلدون بلونها الأخضر الياقوتي، وقنديل المكتبة المطلي بالأبيض. الآن، وقد حانَ الوقت لترك تلك المناظر، تتساءَل كم ستفتقدها.

تحرَّك شيء ما وراء نافذة المكتب وسطعَ وهج للحظة، فتذكَّرت ما عليها أن تفعله ونقرَت على الباب الزُّجاجي، الذي انفتحَ في الحال تقريبًا.

قال العميد: «فتاة طيِّبة. ادخُلي بسرعة. ليس لدينا وقت طويل»، وأسدلَ السِّتارة على الباب ما إن دخلَت. كان يرتدي كامل ثيابه السَّوداء المعتادة.

سألَته لايرا: «ألن أذهب؟».

أجابَ العميد: «بلى، فلا أستطيعُ أن أمنع هذا»، ولم تلحظ لايرا في ذلك الحين غرابة قوله هذا. «لايرا، سأعطيكِ شيئًا، وعليكِ أن تعدي بإبقائه طيَّ الكتمان. هل تُقسِمين على هذا؟».

- «أجل».

قطعَ الحُجرة إلى مكتبه، ومن أحد الأدراج أخرجَ شيئًا صغيرًا ملفوفًا بالمخمل الأسود، ولمَّا فضَّ القُماش رأت لايرا شيئًا يُشبِه ساعة يدٍ كبيرة أو ساعة حائطٍ صغيرة، قُرصًا سميكًا من الذَّهب والبلَّور، قد يكون بوصلةً أو شيئًا من هذا القبيل.

سألَته: «ما هذا؟».

- «إنه أليثيوميتر، واحد من ستَّة فقط صُنِعَت. لايرا، أستحلفكِ ثانيةً أن تُبقيه طيَّ الكتمان. الأفضل ألَّا تعرف المسز كولتر عنه شيئًا. إن عمَّكِ...».

- «لكن ماذا يفعل؟».

- «يُخبِركِ بالحقيقة. بالنِّسبة إلى طريقة قراءته فعليكِ أن تتعلَّميها بنفسكِ. والآن اذهبي. الضَّوء ينتشر في السَّماء. أسرِعي إلى غُرفتكِ قبل أن يراكِ أحد».

غلَّف العميد الأداة بالمخمل ودسَّها في يديها، لتجدها أثقل مما توقَّعت. ثم إنه وضعَ يديه على جانبَي رأسها وأمسكَه برفقٍ لحظةً.

حاولَت أن ترفع عينيها إليه قائلةً: «ماذا كنت ستقول عن عمِّي آزريل؟».

- «إن عمَّكِ قدَّمه إلى كلِّيَّة چوردان قبل بضعة أعوام، وقد...».

قبل أن يتمَّ عبارته سمعا طَرقةً خفيفةً لكن ملحَّةً على الباب، وشعرَت لايرا بيديه ترتجفان رغمًا عنه.

قال بصوتٍ خافت: «أسرِعي أيتها الصَّغيرة. إن قوى هذا العالم شديدة. الرِّجال والنِّساء تُحرِّكهم تيَّارات أعنف مما تتخيَّلين، تيَّارات تجترفنا جميعًا إلى المجرى. اذهبي في سلام يا لايرا. بُوركتِ أيتها الصَّغيرة، بُوركتِ. عليكِ بالحذر والكتمان».

قالت بطاعة: «أشكرك أيها العميد».

غادرَت حُجرة المكتب من باب الحديقة وقد ضمَّت الحزمة إلى صدرها، ناظرةً نظرةً واحدةً عابرةً وراءها، لترى قرينة العميد تُشاهِدها من عتبة النَّافذة. كان الضَّوء قد ازدادَ في السَّماء بالفعل، وثمَّة

مسحة من الطّزاجة في الهواء.

سألَتها المسز لونزديل وهي تُغلِق الحقيبة البالية بقوَّة: «ما هذا الذي معكِ؟».

- «العميد أعطاني إياه. ألا يُمكن وضعه في الحقيبة؟».

- «فاتَ الأوان. لن أفتحها ثانيةً. عليكِ أن تضعيه أيًّا كان في جيب معطفكِ. أسرِعي إلى المقصف، لا تدعيهم ينتظرونكِ...».

***

فقط بعد أن ودَّعت لايرا المسز لونزديل والخدم المستيقظين القلائل، تذكَّرت روجر، وعندها أحسَّت بالذَّنب لأنها لم تُفكِّر فيه ولو مرَّةً منذ قابلَت المسز كولتر. يا للسُّرعة التي حدثَ بها كلُّ شيء. لكن لا شكَّ أن المسز كولتر ستُساعِدها في البحث عنه، ومؤكَّد أن لها أصدقاءً ذوي نفوذ يستطيعون استعادته من المكان الذي اختفى فيه أيًّا كان. لا بُدَّ من أن يُعاوِد الظُّهور في النِّهاية.

والآن ها هي ذي في طريقها إلى لندن، جالسة إلى جوار النَّافذة على متن زيلن لا أقل، وقد انغرسَت كفَّا پانتالايمون القاقوم الخلفيَّتان في فخذها، فيما استراحَت كفَّاه الأماميَّتان على الزُّجاج الذي يَنظُر منه. على جانب لايرا الآخَر جلسَت المسز كولتر تعمل على بعض الأوراق، لكنها سرعان ما وضعَتها جانبًا وبدأت تتكلَّم، ويا لروعة كلامها! كانت لايرا منتشيةً... ليس بسبب الشَّمال هذه المرَّة، وإنما لندن وما فيها من مطاعم ومراقص، وحفلات السواريه في السِّفارات والوزارات، والمكايد بين وايت هول ووِستمينستر. كلُّ هذا كادَ يفتن لايرا أكثر من المشاهد المتغيِّرة تحت السَّفينة الجوِّيَّة، فما تقوله المسز كولتر بدا مصحوبًا بعطر النُّضوج، كشيءٍ مزعج لكن شائق في الآن نفسه.

كانت هذه رائحة السِّحر.

***

الهبوط في منتزهات فولكشول، رحلة القارب عبر النَّهر البنِّي العريض، كُتلة القصور العظيمة المطلَّة على الضفَّة المرتفعة، حيث يقف حاجب بدين (وهو مِثل الحمَّال تقريبًا، لكنه يُعلِّق أوسمةً) ألقى التَّحيَّة على المسز كولتر وغمزَ للايرا، التي قيَّمته في قرارة نفسها بلا تعبيرٍ على ملامحها.

ثم الشقَّة...

ما أمكنَ لايرا إلَّا أن تشهق.

في حياتها القصيرة رأت قدرًا وافرًا من الجَمال، لكنه جَمال كلِّيَّة چوردان، جَمال أكسفورد الحجري الذَّكري المهيب. في كلِّيَّة چوردان أشياء كثيرة فاخرة، لكن شيئًا منها لا يتَّسم بالحُسن، أمَّا في شقَّة المسز كولتر فكلُّ شيءٍ سمته الحُسن. يغمر الضَّوء المكان، فالنَّوافذ الواسعة تُواجِه الجنوب، والجُدران مغطَّاة بورق حائط رقيق مخطَّط بالذَّهبي والأبيض، وثمَّة صُور ساحرة في أُطر مذهَّبة، ومرآة أثريَّة، وحوامل أنيقة عليها مصابيح عنبريَّة ذات أغطيةٍ مزركشة بالشُّرَّابات (التي تُزيِّن

الوسائد أيضًا)، وزراكش منمَّقة بالأشكال الزّهريَّة فوق قضبان السَّتائر، وبساط أخضر ناعم عليه نقش أوراق شجر. بدا لعينَي لايرا البريئتين أن كلَّ سطحٍ مغطًّى بعُلبٍ أنيقة صغيرة من الخزف الصِّيني وتماثيل راعيات الغنم والبهلوانات البورسلين.

ابتسمَت المسز كولتر لمرأى إعجابها، وقالت: «نعم يا لايرا، هناك أشياء كثيرة سأريكِ إياها! اخلعي معطفكِ وسآخذكِ إلى الحمَّام. اغتسِلي، وبعدها سنتناوَل الغداء ونذهب للتَّسوُّق...».

وجدَت الحمَّام أعجوبةً أخرى. تعوَّدت لايرا الاستحمام بالصَّابون الأصفر الصُّلب في حوضٍ بالٍ، حيث يَخرُج الماء من الصَّنابير دافئًا في أفضل الأحوال، وفي دفقاتٍ متقطِّعة، وكثيرًا ما يحتوي على قشورٍ من الصَّدأ. أمَّا هنا فالماء ساخن، والصَّابون وردي عطِر، والمناشف سميكة ناعمة كالسَّحاب، وحول حافة المرآة الملوَّنة أضواء ورديَّة صغيرة، وحين نظرَت فيها لايرا رأت شكلًا مضاءً بنعومةٍ يختلف كثيرًا عن لايرا التي تعرفها.

قبعَ پانتالايمون، الذي يُحاكي الآن تكوين قرين المسز كولتر، على حافة الحوض صانعًا بملامحه تعبيراتٍ طريفةً، فدفعَته في الماء وفقاقيع الصَّابون. وفجأةً تذكَّرت الأليثيوميتر في جيب معطفها، الذي تركَته على مقعدٍ في الغُرفة الأخرى. لقد وعدَت العميد بإخفاء أمره عن المسز كولتر...

أوه، لكم يُربِكها هذا! المسز كولتر بالغة اللُّطف والحكمة، في حين أن لايرا رأت العميد يُحاوِل قتل العم آزريل بالسُّم. مَن منهما تدين له بطاعةٍ أكثر؟

جفَّفت نفسها على عجلٍ وأسرعَت عائدةً إلى غُرفة الجلوس، حيث وجدَت معطفها في مكانه دون أن يمسَّه أحد بالطَّبع.

قالت المسز كولتر: «جاهزة؟ فكَّرتُ أن نذهب لتناول الغداء في المعهد الأركتيكي الملكي. أنا واحدة من الأعضاء الإناث القلائل جدًّا، فلا بأس إذن بأن أستغلَّ هذا الامتياز».

أخذَتهما التَّمشية عشرين دقيقةً إلى مبنى منيف واجهته من الحجر، حيث جلسَتا في قاعة طعامٍ فسيحة، على موائدها مفارش بيضاء ناصعة وأدوات طعام فضِّيَّة لامعة، وأكلَتا كبد العجول واللَّحم المقدَّد.

أخبرَتها المسز كولتر: «كبد العجول جيِّدة، وكذا كبد الفقمات، لكن إذا وجدتِ نفسكِ تتضوَّرين جوعًا في المناطق القُطبيَّة فإياكِ وأكل كبد الدِّببة. إنها مليئة بالسُّموم التي ستَقتُلك في غضون دقائق».

بينما أكلَتا لفتَت المسز كولتر نظرها إلى بعض الأعضاء الجالسين إلى الموائد الأخرى.

- «هل ترين الچنتلمان المسن ذا ربطة العُنق الحمراء؟ إنه الكولونيل كاربورن الذي كان أول من طارَ بالمنطاد فوق القُطب الشَّمالي. والرَّجل الطَّويل عند النَّافذة الذي نهضَ الآن هو الدكتور بروكن آرو».

- «أهو سكريلينج؟».

- «نعم. إنه الرَّجل الذي رسمَ خريطة التيَّارات في المحيط الشَّمالي العظيم...».

نظرَت لايرا إلى هؤلاء الرِّجال العظام جميعًا بمزيجٍ من الفضول والرَّهبة. إنهم باحثون، لا شكَّ في هذا، لكنهم أيضًا مستكشِفون. مؤكَّد أن الدكتور بروكن آرو يعرف ما تجب معرفته عن حياة الدِّببة، لكنها تشكُّ في أن أمين المكتبة في كلِّيَّة جوردان يملك هذه المعرفة.

بعد الغداء أرَتها المسز كولتر بعض الآثار الأركتيكيَّة النَّفيسة في مكتبة المعهد؛ الحربون(7) الذي قُتِلَ به الحوت العظيم جريمسدور، والحجر المنقوشة عليه لُغة مجهولة وعُثِرَ عليه في يد المستكشِف اللورد روك الذي تجمَّد حتى الموت في عُزلة خيمته، والقدَّاحة التي استخدمَها الكابتن هدسن في رحلته البحريَّة الشَّهيرة إلى أرض ڤان تيرين. حكَت المسز كولتر قصَّة كلِّ أثر، وأحسَّت لايرا بقلبها يختلج إعجابًا بهؤلاء الأبطال العُظماء الشُّجعان البعيدين.

بعدها ذهبَتا للتَّسوُّق. كلُّ شيءٍ في هذا اليوم الاستثنائي كان تجربةً جديدةً على لايرا، لكن التَّسوُّق أكثر ما أدارَ رأسها. أن تَدخُل مبنى ضخمًا مليئًا بالأزياء الجميلة، حيث يدعك النَّاس تُجرِّبها وحيث تَنظُر إلى شكلك في مرآة... والثِّياب نفسها رائعة الجَمال حقًّا... كانت ثياب لايرا تأتيها من خلال المسز لونزديل، وكثير منها سبقَ أن عرفَ لابسين سابقين، ومرتوق في غير موضع، حتى إنها نادرًا ما ارتدَت شيئًا جديدًا، وكلُّ الجديد الذي ارتدَته اختيرَ لقوَّة احتماله لا لأناقته، كما أنها لم تنتقِ شيئًا لنفسها قَطُّ. والآن إذا بها تجد المسز كولتر تقترح هذا وتُثني على ذاك وتدفع ثَمن كلِّ شيءٍ وأكثر...

لدى فروغهما كانت لايرا محتقنة الوجه ملتمعة العينين من التَّعب. طلبَت المسز كولتر أن يُعبَّأ معظم الثِّياب ويُوصَّل إلى شقَّتها، واختارَت شيئًا أو شيئين أخذَتهما معها عندما بدأت ولايرا رحلة العودة.

ثم الاستحمام برغوةٍ كثيفة معطَّرة. دخلَت المسز كولتر الحمَّام لتغسل شَعر لايرا، لكنها لم تَفرُك وتحكَّ بخشونةٍ على غرار المسز لونزديل، بل تعاملَت بلُطفٍ ورفق، وقد راحَ پانتالايمون يُشاهِد بفضولٍ قوي إلى أن نظرَت إليه المسز كولتر، فأدركَ ما تعنيه النَّظرة وأشاحَ بوجهه غاضًّا بصره بخجلٍ عن تلك الغوامض الأنثويَّة كما فعلَ القرد الذَّهبي، وهذا على الرغم من أنه لم يضطرَّ إلى غضِّ بصره عن لايرا من قبل.

ثم، بعد الحمَّام، مشروب دافئ بالحليب والأعشاب، وقميص نومٍ جديد من الصُّوف المنسوج، مطبوعة عليه أشكال زهورٍ وله حاشية ذات نتوءات مدوَّرة، وخُفَّان من جِلد الغنم مصبوغان بالأزرق الهادئ، ثم الفِراش.

لشد ما هو وثير هذا الفِراش! لشد ما هو رقيق الضَّوء العنبري على المنضدة المجاورة له! وغُرفة النَّوم مريحة للغاية، بخزاناتها الصَّغيرة والتَّسريحة وصوان الأدراج الذي ستُوضَع فيه ملابسها الجديدة، والبساط الذي يكسو الأرض من الحائط إلى الحائط، والسَّتائر الجميلة المغطَّاة بالنُّجوم والأقمار والكواكب! استلقَت لايرا في الفِراش متخشِّبةً، أشد إرهاقًا من أن تنام، وأشد افتتانًا من أن ترتاب في شيء.

حين تمنّت لها المسز كولتر ليلةً طيّبةً برقّةٍ وخرجَت، شدَّ پانتالايمون شَعر لايرا فأزاحَته، لكنه همسَ: «أين الشَّيء؟».

عرفَت ما يقصده في الحال. كان معطفها القديم المهترئ معلَّقًا في الخزانة، وبعد ثوانٍ معدودة كانت قد عادَت إلى الفِراش وجلسَت مربِّعةً ساقيها في ضوء المصباح، وپانتالايمون يُشاهِد من كثبٍ إذ حلَّت الغلاف المخملي الأسود ونظرَت إلى ما أعطاه لها العميد.

تساءلَت همسًا: «بِمَ دعاه؟».

- «أليثيوميتر».

لم تكن هناك جدوى من السُّؤال عن معنى الاسم. استقرَّ الشَّيء الثَّقيل في يديها، ووجهه البلَّوري يلتمع وجسمه الذَّهبي مشغول بالآلات شديدة التَّنميق. يُشبِه هذا الأليثيوميتر ساعة الحائط أو البوصلة جدًّا، لأن هناك عقارب تُشير إلى نقاطٍ حول القُرص، لكن بدلًا من السَّاعات أو جهات البوصلة ثمَّة صُور صغيرة عديدة، وكلٌّ منها مرسوم بمنتهى الإتقان، كأنها رُسِمَت على قطعةٍ من العاج بأنعمِ وأرفعِ فرشاةٍ من فرو السَّمُّور في العالم. حرَّكت لايرا القُرص لتراها جميعًا، فرأت مرسًى، وساعةً رمليَّةً تعلوها جمجمة، وحرباء، وثورًا، وخليَّة نحل... ستٌّ وثلاثون صورةً إجمالًا، وليس بإمكانها أن تُخمِّن ما تعنيه ولو مجرَّد تخمين.

قال پانتالايمون: «هناك بكرة. انظُري إن كان يُمكنكِ تدويرها».

الحقيقة أن هناك ثلاث بكرات دوَّارة، يُحرِّك كلٌّ منها أحد العقارب القصيرة الثَّلاثة، التي تدور حول القُرص في سلسلةٍ من التكَّات النَّاعمة المُرضية، ويُمكنك ترتيبها بحيث تُشير إلى أيٍّ من الصُّور، وما إن تُصدِر العقاب التكَّة في موضعها وقد أشارَت إلى منتصَف كلِّ صورةٍ بالضَّبط، لا يعود تحريكها ممكنًا.

العقرب الرَّابع أطول وأرفع، ويبدو مصنوعًا من معدنٍ باهت على عكس ثلاثة العقارب الأخرى، وهو العقرب الذي لم تستطِع لايرا التَّحكُّم في حركته على الإطلاق، بل أخذَ يدور حيثما شاءَ كإبرة البوصلة، مع فرق أنه لم يستقرَّ في موضعٍ واحد.

قال پانتالايمون: «جزء «ميتر» يعني «مقياس»، كما في ثرموميتر (مقياس الحرارة). رئيس الصَّومعة أخبرَنا بهذا».

ردَّت هامسةً: «نعم، لكن هذا هو الجزء السَّهل. ما الذي تحسبه يفعله؟».

لم يستطِع أيُّهما التَّخمين، وقضَت لايرا وقتًا طويلًا في تدوير العقارب للإشارة إلى هذا الرَّمز أو ذاك (ملاك، خوذة، دولفين، كُرة أرضيَّة، آلة عود، بوصلات، شمعة، صاعقة برق، حصان)، وفي مشاهدة الإبرة الطَّويلة تدور بلا هدفٍ وبلا نهاية، وعلى الرغم من أنها لم تفهم شيئًا فقد أثارَها وسرَّها التَّعقيد والتَّفاصيل الدَّقيقة. تحوَّل پانتالايمون إلى فأرٍ ليدنو أكثر من الأليثيوميتر، وأراحَ كفَّيه الدَّقيقتين على الحافة، وقد برقَت عيناه السَّوداوان الصَّغيرتان فضولًا إذ شاهدَ الإبرة تدور.

سألَته: «ما الذي قصدَه العميد بخصوص العمِّ آزريل في رأيك؟».

- «قد يكون علينا الاحتفاظ به في أمانٍ وإعطائه له».

- «لكن العميد كان سيُسمِّمه! ربما قصدَ العكس، ربما كان سيقول ألَّا أعطيه له».

- «لا، بل هي مَن علينا الحفاظ عليه منها...».

قاطعَته طَرقة هادئة على الباب، وجاءَ صوت المسز كولتر يقول: «لايرا، لو كنتُ مكانكِ لأطفأت الضَّوء. أنتِ متعَبة، وعندنا مشاغل كثيرة غدًا».

قالت لايرا التي أسرعَت تُخفي الأليثيوميتر تحت الأغطية: «حسن أيتها المسز كولتر».

- «ليلةً طيِّبةً».

- «ليلةً طيِّبةً».

استقرَّت لايرا في وضع نومٍ مريح وأطفأت الضَّوء، وقبل أن تغيب في النَّوم دسَّت الأليثيوميتر تحت الوسادة على سبيل الاحتياط.

(5) حفلة الكوكتيل

خلال الأيام التَّالية أخذَتها المسز كولتر معها أينما ذهبَت، كأن لايرا نفسها قرينها. تعرف المسز كولتر أناسًا كثيرين جدًّا، وتلتقيهم في أماكن مختلفة شتَّى، ففي الصَّباح قد يكون هناك اجتماع للجغرافيِّين في المعهد الأركتيكي الملكي، حيث تجلس لايرا جانبًا وتُصغي، ثم قد تلتقي المسز كولتر سياسيًّا أو رجل دينٍ على الغداء في مطعمٍ أنيق، فيُؤخَذ هذا الشَّخص بلايرا للغاية ويَطلُب لها أصنافًا خاصَّةً، فتتعلَّم كيف تأكل الهليون أو تتعرَّف إلى مذاق حُلويات العجول. ثم قد تذهبان بعد الظُّهر للمزيد من التَّسوُّق، لأن المسز كولتر تُجهِّز لحملتها، وعليها شراء فراء ومعاطف من القُماش المشمَّع وأحذية مقاومة للماء، علاوةً على أكياس نومٍ وسكاكين وأدوات رسمٍ سرَّت قلب لايرا.

وبعدها قد تذهبان لشُرب الشَّاي ولقاء المزيد من السيِّدات اللاتي يرتدين ثيابًا لا تقلّ أناقةً عن ثياب المسز كولتر، وإن لم يتحلَّين بجَمالها أو نجاحها، نساء يختلفن تمامًا عن الباحثات أو أمَّهات القوارب الچيپتيَّات أو خادمات الكلِّيَّة، لدرجة أنهن يكدن يكن جنسًا جديدًا بالكامل، جنسًا يملك قُوى وسماتٍ خطرةً كالكياسة والفتنة والرَّونق. في تلك المناسبات ترتدي لايرا ملابسها الجميلة، وتُدلِّلها السيِّدات ويُشرِكنها في حديثهن اللَّطيف الرَّقيق، الذي يدور دومًا حول النَّاس؛ هذا الفنَّان، أو ذلك السِّياسي، أو هذين الحبيبيْن.

وعندما يأتي المساء قد تأخذها المسز كولتر إلى المسرح، حيث تجد هناك أيضًا أناسًا جذَّابين يُكلِّمونها ويُبدون إعجابهم بها، فعلى ما يبدو أن المسز كولتر تعرف كلَّ شخصٍ مهم في لندن.

وفي الفترات الفاصلة بين كلِّ هذه الأنشطة تُعلِّمها المسز كولتر مبادئ الجغرافيا والرِّياضيَّات. في معارف لايرا ثغرات واسعة، كخريطةٍ للعالم قرضَت الفئران أجزاء كبيرةً منها، ذلك أن تعليمها في چوردان كان متفرِّقًا غير مترابط، إذ يُكلَّف أحد صغار الباحثين بالإمساك بها وتلقينها كيت وكيت، وتدوم الدُّروس أسبوعًا ثقيلًا قبل أن «تنسى» لايرا الذَّهاب، وهو ما يتنفَّس الباحث له الصُّعداء، أو ينسى الباحث ما كان يُفترَض أن يُعلِّمها إياه ويشرع في تمرينها بإسهابٍ على موضوع بحثه الحالي أيًّا كان. لا عجب إذن أن معارفها معارف مرقَّعة. إنها تعرف أشياء عن الذرَّة والجُسيمات الأوليَّة والشِّحنات العنبرومغنطيسيَّة والقُوى الأساسيَّة الأربع، وشيء من هذا وشيء من ذاك عن اللَّاهوت التَّجريبي، لكنها تجهل كلَّ شيءٍ عن النِّظام الشَّمسي، والحقيقة أنه عندما اكتشفَت المسز كولتر هذا وشرحَت لها كيف تدور الأرض والكواكب الخمسة الأخرى حول الشَّمس، انفجرَت لايرا ضاحكةً من طرافة الدُّعابة.

على أنها كانت متحمِّسةً لأن تريها أن هناك أشياء تعرفها، ولمَّا أخبرَتها المسز كولتر عن الإلكترونات قالت لايرا بلهجة الخبير: «نعم، إنها جُسيمات مشحونة سالبة، مِثل (الغُبار) نوعًا، مع أن (الغُبار) ليس مشحونًا».

ما إن قالت هذا حتى رفعَ قرين المسز كولتر رأسه بحدَّةٍ يَنظُر إليها، وانتفشَ الفرو الذَّهبي على جسمه الصَّغير عن آخِره كأنه هو نفسه مشحون.

وضعَت المسز كولتر يدها على ظَهره مردِّدةً: «(الغُبار)؟».

- «نعم، ذلك الذي يأتي من الفضاء، ذلك (الغُبار)».

- «ماذا تعرفين عن (الغُبار) يا لايرا؟».

- «أوه، أنه يأتي من الفضاء، وأنه يُضيء النَّاس إن كانت لديكِ كاميرا خاصَّة ترينه بها. لكن ليس الأطفال، إنه لا يُؤثِّر في الأطفال».

- «أين تعلَّمتِ هذا؟».

الآن كانت لايرا تعي أن في الغُرفة توتّرًا قويًّا، لأن پانتالايمون زحفَ متّخذًا تكوين القاقوم إلى حِجرها وراحَ يرتجف بعُنف.

قالت لايرا بإبهام: «سمعته من أحدٍ في چوردان. نسيتُ مَن. أظنُّه أحد الباحثين».

- «أكان هذا في أحد دروسكِ؟».

- «نعم، ربما، أو ربما سمعته بشكلٍ عابر فقط. نعم، أظنُّ هذا. هذا الباحث، أظنُّ أنه من الدنمارك الجديدة، كان يتكلَّم مع رئيس الصَّومعة عن (الغُبار)، وكنتُ مارَّةً وبدا الكلام مثيرًا للاهتمام، فتوقَّفتُ رغمًا عني وأصغيتُ. هذا هو ما حدثَ».

قالت المسز كولتر: «مفهوم».

- «أما أخبرَني به صحيح؟ هل أخطأتُ فيه؟».

- «لا أدري. إنني واثقة بأنكِ تعرفين أكثر مني بكثير. لنرجع إلى الإكترونات...».

لاحقًا قال پانتالايمون: «أتعرفين عندما انتفشَ فرو قرينها؟ كنتُ وراءه لحظتها، وقد قبضَت على فرو ظَهره بشدَّةٍ حتى إن مفاصل أصابعها ابيضَّت تمامًا. لم تري من مكانكِ، لكن وقتًا طويلًا مرَّ قبل أن يرتخي فروه. حسبته سيثب عليكِ».

كان هذا غريبًا لا ريب، لكن أحدًا منهما لم يُدرِك معناه.

وأخيرًا كانت هناك دروس أخرى تلقَّتها برفقٍ وبراعةٍ بالغيْن فلم تَشعُر بأنها دروس من الأصل: كيف تغسل شعرها، كيف تختار الألوان التي تُناسِبها، كيف تقول لا بأسلوبٍ ساحر لا يُهين الطَّالب، كيف تضع طلاء الشِّفاه والمساحيق والعطور. صحيحٌ أن المسز كولتر لم تُعلِّمها تلك الفنون الأخيرة مباشرةً، لكنها علمَت أن لايرا تُراقِبها متى شرعَت تتأنَّق، وحرصَت على أن تدعها ترى أين تحتفظ بأدوات التَّجميل، وأن تُتيح لها وقتًا لاستكشافها وتجربتها بنفسها.

* * *

مرَّ الوقت، وبدأ الخريف يستحيل إلى شتاء. بين الحين والآخَر تُفكِّر لايرا في كلِّيَّة چوردان، وإن بدَت لها صغيرةً هادئةً مقارنةً بالحياة النَّشطة التي تحياها الآن. وكلَّ فترةٍ تُفكِّر في روچر أيضًا وتَشعُر بالقلق، لكن هناك أوپرا تذهب إليها، أو فُستانًا جديدًا ترتديه، أو زيارةً إلى المعهد الأركتيكي الملكي، ومن جديدٍ تنساه.

بعد أن عاشَت لايرا هناك ستَّة أسابيع أو نحوها، قرَّرت المسز كولتر أن تُقيم حفلة كوكتيل، وهو ما أعطى لايرا انطباعًا بأن هناك شيئًا ما يستحقُّ الاحتفال، ولو أن المسز كولتر لم تَذكُر ما هو. وهكذا طلبَت الزُّهور، وناقشَت الكاناپيه والمشروبات مع متعهِّد توريد الأطعمة، وقضَت أمسيَّةً كاملةً مع لايرا في تقرير المدعوِّين.

- «يجب أن ندعو رئيس الأساقفة. ليس بإمكاني أن أهمله، مع أنه عجوز مختال كريه للغاية. اللورد بوريل في المدينة، سيكون وجوده لطيفًا. والأميرة پوستنيكوڤا. أتظنّين أن دعوة إريك آندرسن فكرة جيِّدة؟ أتساءلُ إن كان الوقت قد حانَ لقبول عرضه...».

إريك آندرسن أحدث راقصٍ يتكرَّر ظهوره في مناسبات الطَّبقة العُليا. لم تفهم لايرا معنى «قبول عرضه»، لكنها استمتعَت بإعطاء رأيها رغم ذلك، وبطاعةٍ دوَّنت الأسماء التي اقترحَتها المسز كولتر، تتهجَّاها هجاءً شنيعًا ثم تشطبها إذا قرَّرت المسز كولتر عدم دعوتها.

حين دخلَت لايرا فِراشها همسَ پانتالايمون المستقرُّ على الوسادة: «لن تذهب إلى الشَّمال أبدًا! ستُبقينا هنا إلى الأبد. متى سنهرب؟».

ردَّت همسًا: «بل ستذهب. أنت فقط لا تحبُّها. طيِّب، هذه مشكلتك. أنا أحبُّها. ثم لِمَ تُعلِّمنا الملاحة وكلَّ هذا إن لم تكن ستأخذنا إلى الشَّمال؟».

- «لمنعكِ من الضَّجر، هذا هو السَّبب. لستِ تُريدين حقًّا أن تقفي في حفلة كوكتيل وتتصرَّفين بعذوبةٍ وحُسن. لقد جعلَتكِ حيوانها الأليف».

أولَته لايرا ظَهرها وأغلقَت عينيها. لكن ما قاله پانتالايمون صحيح. إنها تَشعُر منذ مُدَّةٍ بالحبسة والضِّيق من هذه الحياة المهذَّبة مهما كانت مترفةً، ومستعدَّة لدفع أيِّ ثمنٍ لقاء قضاء يومٍ مع روچر وأصدقاء أكسفورد الصَّعاليك، تخوض فيه معركةً في أحواض الصَّلصال وسباقًا على ضفَّة القناة. الشَّيء الوحيد الذي أبقاها مهذَّبةً منتبهةً إلى المسز كولتر هو الأمل القصي الدَّاني في الذَّهاب شمالًا، وهناك قد تلتقيان اللورد آزريل، وقد يقع في غرام المسز كولتر وتقع في غرامه، ومن ثَمَّ يتزوَّجان ويتبنَّيان لايرا، ويذهبون لإنقاذ روچر من الملتهِمين.

بعد الظُّهر يوم حفلة الكوكتيل، أخذَت المسز كولتر لايرا إلى صالون تجميل راقٍ، حيث نعَّموا شعرها الأشقر الدَّاكن اليابس وموَّجوه، وبردوا أظفارها وطلوها، ووضعوا أيضًا القليل من الطِّلاء على عينيها وشفتيها وأروها كيف تفعل هذا. ثم إنهما ذهبَتا لاستلام الفُستان الجديد الذي طلبَته المسز كولتر من أجلها، وشراء حذاءٍ من الجِلد اللمَّاع، ثم حانَ وقت العودة إلى الشقَّة لتفقُّد الزُّهور وتغيير ثيابهما.

عندما خرجَت لايرا من غُرفة نومها وقد توهَّج فيها الإحساس بحُسنها، قالت لها المسز كولتر: «ليس حقيبة الكتف يا عزيزتي».

كانت لايرا قد اعتادَت حمل حقيبة كتفٍ صغيرة من الجِلد الأبيض في كلِّ مكان، لأجل أن تحتفظ بالأليثيوميتر قريبًا منها.

بينما ترخي المسز كولتر باقةً من الورود المحشورة في مزهريَّة، لاحظَت أن لايرا لم تتحرَّك من مكانها، فأشارَت بعينيها إلى الباب مباشرةً.

- «أوه، أرجوكِ يا مسز كولتر، إنني أحبُّ هذه الحقيبة!».

- «ليس بالدَّاخل يا لايرا. منظركِ سخيف وأنتِ تحملين حقيبة كتفٍ داخل بيتكِ. اخلعيها في الحال، وتعالي وساعِديني على تفقُّد هذه الكؤوس...».

ليست نبرتها الحادَّة ما جعلَ لايرا تعصي الأمر بعناد، بقدر عبارة «داخل بيتكِ». حطَّ پانتالايمون على الأرض وتحوَّل في لحظةٍ إلى ظربان[(8)]، مقوّسًا ظَهره ليحتكَّ بجوربها الأبيض القصير، وقالت لايرا وقد شجَّعها هذا: «لكنها لن تعترض الطَّريق، وهي الشَّيء الوحيد الذي أحبُّ وضعه حقًّا. أظنُّ أنها تُناسِب جدًّا...».

لم تتمَّ الجُملة، لأن قرين المسز كولتر وثبَ فجأةً من فوق الأريكة في لمحةٍ خاطفة من الفرو الذَّهبي، وثبَّت پانتالايمون على الأرض قبل أن يستطيع الحركة. صرخَت لايرا مفزوعةً، ثم بخوفٍ وألم إذ راحَ پانتالايمون يتلوَّى في هذا الاتِّجاه وذاك، يَصرُخ ويُزَمجِر عاجزًا عن إرخاء قبضة القرد الذَّهبي. ثوانٍ معدودة وقهرَه القرد، إذ أطبقَ على حَلقه بكفٍّ سوداء قاسية وطوَّق طرفَي الظَّربان السُّفليَّيْن بساقيه، وقبضَ على أُذن پانتالايمون بكفِّه الأخرى وشدَّها كأنه يبغي اقتلاعها. لم يفعل هذا بغضب، وإنما بطاقةٍ باردة عجيبة، رؤيتها مرعبة والشُّعور بها أشنع.

وانتحبَت لايرا هلعًا.

- «لا! أرجوكِ! كُفِّي عن إيذائنا!».

رفعَت المسز كولتر عينيها عن زهورها قائلةً: «افعلي كما أخبركِ إذن».

- «أعدكِ!».

ابتعدَ القرد الذَّهبي عن پانتالايمون كأنما أصابَه الملل فجأةً، وهرعَ پانتالايمون من فوره إلى لايرا التي رفعَته إلى وجهها لتُقبِّله وتُملِّس عليه برفق.

قالت المسز كولتر: «الآن يا لايرا».

دارَت لايرا على عقبيها سريعًا واندفعَت إلى غُرفة نومها، لكنها لم تكد تصفق الباب وراءها حتى انفتحَ ثانيةً، ورأت المسز كولتر واقفةً على بُعد قدمٍ أو اثنين فحسب.

- «لايرا، إذا تصرَّفتِ بهذا الأسلوب السُّوقي الخشن فستَحدُث بيننا مواجهة، وسأكونُ أنا الغالبة. اخلعي هذه الحقيبة فورًا. تحكَّمي في هذه التَّكشيرة الكريهة. إياكِ أن تصفقي بابًا ثانيةً على مسمعٍ مني أو من دونه. والآن، سيبدأ الضُّيوف في الوصول خلال دقائق، وسيجدونكِ في قمَّة الأدب، سيجدونكِ عذبةً كيِّسةً بريئةً مراعيةً سارَّةً على كلِّ وجهٍ من الوجوه. أتمنَّى هذا تحديدًا يا لايرا، هل تفهمين؟».

- «نعم يا مسز كولتر».

- «قبِّليني إذن».

مالَت المسز كولتر بعض الشَّيء معطيةً لها خدَّها، واضطرَّت لايرا إلى الوقوف على أطراف أصابعها لتطبع القُبلة. لاحظَت لايرا نعومة خدِّها، والرَّائحة المربكة نوعًا المنبعثة من بشرة المسز كولتر، كأنه عطر لكنه معدنيٌّ بشكلٍ ما.

تراجعَت لايرا ووضعَت حقيبة الكتف على المنضدة قبل أن تتبع المسز كولتر إلى غُرفة الضُّيوف.

قالت المسز كولتر بعذوبةٍ كأن شيئًا لم يكن: «ما رأيكِ في الزُّهور يا عزيزتي؟ أظنُّ أن مع الورد لا مجال للخطأ، لكن الإنسان يُبالِغ أحيانًا في الأشياء الحُلوة... هل جلبَ متعهِّدو الطَّعام ثلجًا كافيًا؟ كوني لطيفةً واذهبي وسليهم. المشروبات الدَّافئة فظيعة...».

وجدَت لايرا التَّظاهُر بالمرح والكياسة في غاية السُّهولة، وإن ظلَّت واعيةً طوال الوقت لتقزُّز پانتالايمون، ولكراهيته القرد الذَّهبي أيضًا. في الحال رنَّ جرس الباب، وسرعان ما امتلأَت الغُرفة بالسيِّدات المتأنِّقات والرِّجال الوسيمين أو مميَّزي المظهر، وتحرَّكت لايرا بينهم تُقدِّم الكاناپيه أو تبتسم بعذوبةٍ وتُجيبهم بلُطفٍ إذا خاطَبوها. شعرَت كأنها حيوان الجميع الأليف، ولحظة أن أفصحَت عن هذا الخاطر لنفسها بسطَ پانتالايمون جناحَي طائر الحسُّون الذي صارَه وأطلقَ زقزقةً عاليةً، لتحسَّ لايرا بجذله لثبوت صحَّة ما سبقَ أن قاله لها، وتتصرَّف بمزيدٍ من الخجل.

سألَتها سيِّدة مسنَّة تُمعِن النَّظر إليها بمنظار مسرح: «وأين تذهبين إلى المدرسة يا عزيزتي؟».

ردَّت لايرا: «لستُ أذهبُ إلى المدرسة».

- «حقًّا؟ حسبتُ أن أمَّكِ ستُدخِلكِ مدرستها القديمة. مكان ممتاز للغاية...».

شعرَت لايرا بالحيرة لحظةً، إلى أن أدركَت خطأ السيِّدة المسنَّة، وقالت لها باعتداد: «أوه! إنها ليست أمِّي! إنني أساعدها فحسب. أنا مساعِدتها الشَّخصيَّة».

- «فهمتُ. ومَن أهلكِ؟».

مرَّةً أخرى تساءلَت لايرا عمَّا تعنيه السيِّدة، قبل أن تُجيب: «كانا كونت وكونتيسة. الاثنان ماتا في حادثةِ طيران في الشَّمال».

- «أي كونت؟».

- «الكونت بيلاكوا. كان أخا اللورد آزريل».

نقلَ قرين السيِّدة المسنَّة -وهو ببغاء مكاوْ قرمزي- ثقله من قدمٍ إلى قدمٍ بحركةٍ تُوحي بالضِّيق، في حين بدأت السيِّدة تُقطِّب وجهها فضولًا، فابتسمَت لها لايرا بعذوبةٍ وواصلَت الحركة.

في أثناء مرورها بمجموعةٍ تضمُّ عددًا من الرِّجال وامرأةً شابَّةً واحدةً، سمعَت كلمة (الغُبار). كانت قد رأت ما يكفي من المجتمع لأن تُدرِك الغزل بين الرِّجال والنِّساء حين تراه، وقد تفرَّجت على العمليَّة بافتتان، وإن فتنَها أكثر الإتيان على ذِكر (الغُبار)، فتلكَّأت لتُنصِت. من طريقة إلقاء الشَّابَّة الأسئلة عليهم بدا رجال المجموعة باحثين، أمَّا هي فعدَّتها لايرا طالبةً.

كان رجل في منتصَف العُمر يقول فيما تَرمُقه الشَّابَّة بإعجاب: «رجل موسكوفيتي هو من اكتشفَه. أوقِفوني إن كنتم تعرفون هذا بالفعل. كان اسم الرَّجل روساكوف، وعادةً ما تُسمَّى جُسيمات روساكوف باسمه. إنها جُسيمات أوليَّة لا تتفاعَل بأيِّ شكلٍ مع غيرها، رصدها صعب للغاية، لكن العجيب حقًّا أنها تنجذب إلى البشر على ما يبدو».

قالت الشَّابَّة بعينين متَّسعتين: «حقًّا؟».

واصلَ: «والأشد إثارةً للعجب أنها تنجذب إلى بعض البشر أكثر من غيرهم. البالغون يجتذبونها، ولكن ليس الأطفال. ليس كثيرًا على الأقل، وليس قبل سِنِّ المراهَقة. في الحقيقة، هذا هو السَّبب تحديدًا في...»، وانخفضَ صوته، ودنا من الشَّابَّة واضعًا يده بثقةٍ على كتفها، وتابعَ: «هذا هو السَّبب تحديدًا في إنشاء هيئة القرابين، كما قد تُخبِركِ مضيفتنا الكريمة».

- «حقًّا؟ ألها علاقة بهيئة القرابين؟».

- «عزيزتي، إنها هي هيئة القرابين. إنه مشروعها بالكامل...».

كان الرَّجل على وشك إخبارها بالمزيد عندما لحظَ لايرا، التي بادلَته النَّظر دون أن يطرف لها جفن. وربما شربَ الرَّجل أكثر من اللَّازم، أو ربما يتوق إلى إثارة إعجاب الشَّابَّة، لأنه قال: «إنني واثق بأن هذه السيِّدة الصَّغيرة تعرف كلَّ شيءٍ عن الأمر. أنتِ آمنة من هيئة القرابين، أليس كذلك يا عزيزتي؟».

قالت لايرا: «أوه، نعم. إنني آمنة من الجميع هنا. حيث اعتدتُ أن أقيم في أكسفورد كانت هناك أشياء خطرة عديدة. كان هناك چيپتيُّون يأخذون الأطفال ويبيعونهم للتَّرتار ليجعلوا منهم عبيدًا. وفي پورت مِدو وقت البدر التَّام يَخرُج مذؤوب من دير الرَّاهبات القديم في جودزتو. سمعته يعوي مرَّةً. وهناك الملتهِمون...».

قال الرَّجل: «هذا ما أعنيه. هكذا يُسمُّون هيئة القرابين، أليس كذلك؟».

شعرَت لايرا بپانتالايمون يرتجف فجأةً، لكنه ظلَّ ملتزمًا أقصى درجات الأدب، ولم يبدُ أن قرينَي الشَّخصين الكبيرين -قطَّة وفراشة- قد لاحَظا.

تساءلَت الشَّابَّة: «الملتهِمون؟ يا له من اسمٍ غريب! لماذا يُطلِقون عليهم هذا؟».

أوشكَت لايرا على إخبارها بواحدةٍ من القصص المروِّعة التي ابتكرَتها لإخافة أطفال أكسفورد، لكن الرَّجل كان يتكلَّم بالفعل.

- «إنه الاسم الشَّعبي للهيئة العامَّة للقرابين. الفكرة قديمة جدًّا في الحقيقة. في العصور الوُسطى كان النَّاس يُعطون أولادهم للكنيسة ليُصبِحوا رُهبانًا أو راهبات، وعُرِفَ هؤلاء الأطفال التُّعساء باسم القرابين. أي أنها تضحية، فداء، شيء من هذا القبيل. وهكذا اعتُمِدَت الفكرة نفسها عندما بدأوا يبحثون في مسألة (الغُبار) هذه... كما تعلم صديقتنا الصَّغيرة على الأرجح». ثم إنه أضافَ للايرا مباشرةً: «لِمَ لا تذهبين للكلام مع اللورد بوريل؟ إنني واثق بأنه يودُّ لقاء تلميذة المسز كولتر... ها هو ذا، الرَّجل الأشيب ذو القرينة الأفعى».

أدركَت لايرا بسهولةٍ أنه يُريد الخلاص منها ليتكلَّم بمزيدٍ من الخصوصيَّةٍ مع الشَّابَّة، وإن بدا أن الشَّابَّة ما زالَت مهتمَّةً بلايرا، وقد انسحبَت من صُحبة الرَّجل كي تُكلِّمها.

- «مهلًا... ما اسمكِ؟».

- «لايرا».

- «أنا آدل ستارمينستر. إنني صحافيَّة. هلَّا تكلَّمتِ معي على انفراد؟».

مفكِّرةً أن من الطَّبيعي أن يرغب النَّاس في الكلام معها، قالت لايرا ببساطة: «نعم».

ارتفعَ قرين المرأة ذَكر الفراشة في الهواء متحرِّكًا يمينًا ويسارًا، ثم انخفضَ هامسًا بشيءٍ ما، لتقول آدل ستارمينستر: «تعالي إلى مقعد النَّافذة».

هذه واحدة من بقاع لايرا المفضَّلة لأنها تطلُّ على النَّهر، وفي هذا الوقت من اللَّيل تتلألأ أضواء الضفَّة الجنوبيَّة ببريقٍ خلَّاب فوق انعكاساتها في مياه المدِّ العالي السَّوداء. كانت قاطرة تجرُّ طابورًا من الزَّوارق تتحرَّك في اتِّجاه المصب.

جلسَت آدل ستارمينستر وانزاحَت على المقعد المزوَّد بالوسائد لتُفسِح مكانًا للايرا، وقالت: «هل قال البروفسور دوكر إن لكِ علاقةً بالمسز كولتر؟».

- «نعم».

- «ما هي؟ أأنتِ ابنتها؟ أظنُّ أن المفترَض أن أعرف...».

قالت لايرا: «لا! بالطّبع لا. إنني مساعِدتها الشَّخصيَّة».

- «مساعِدتها الشَّخصيَّة؟ ألستِ صغيرةً بعض الشَّيء؟ حسبتكِ قريبتها أو ما شابهَ. كلِّميني عنها».

- «إنها ذكيَّة للغاية». قبل هذا المساء كانت لايرا لتقول أكثر كثيرًا، غير أن الظُّروف تتغيَّر.

بإصرارٍ قالت آدل ستارمينستر: «نعم، لكن من النَّاحية الشَّخصيَّة. أعني، أهي ودودة أم قليلة الصَّبر أم ماذا؟ هل تُقيمين هنا معها؟ ما طباعها بعيدًا عن الأنظار؟».

أجابَت لايرا بجمود: «إنها شديدة اللُّطف».

- «ما الأشياء التي تفعلينها؟ كيف تُساعِدينها؟».

- «الحسابات وما إلى ذلك، من أجل الملاحة».

- «آه، مفهوم... ومن أين أنتِ؟ ما اسمكِ ثانيةً؟».

- «لايرا، من أكسفورد».

- «لماذا اختارَتك المسز كولتر لـ...».

قطعَت سؤالها على حين غرَّة، لأن المسز كولتر نفسها ظهرَت على مقربةٍ منهما، ومن الطَّريقة التي نظرَت بها آدل ستارمينستر إليها، ودوران قرينها المضطرب حول رأسها، اتَّضح للايرا أن دعوةً لم تُوجَّه إلى الشَّابَّة لحضور الحفلة على الإطلاق.

بمنتهى الهدوء قالت المسز كولتر: «لستُ أعرفُ اسمكِ، لكنني سأعرفه خلال خمس دقائق، وعندها لن تعملي صحافيَّةً ثانيةً أبدًا. والآن انهضي بهدوءٍ من دون أن تُحدِثي ضجَّةً وغادِري. اعلمي أيضًا أن من أتى بكِ إلى هنا أيًّا كان سيدفع الثَّمن».

بدَت المسز كولتر مشحونةً بطاقةٍ عنبريَّة ما، حتى إن رائحتها بدَت مختلفةً أيضًا، إذ انبعثَت من جسدها رائحة ساخنة كمعدنٍ معرَّض إلى الحرارة. سبقَ للايرا الشُّعور بهذا، لكنها تراه الآن موجَّهًا إلى شخصٍ آخَر، ولم تملك المسكينة آدل ستارمينستر القُدرة على المقاومة. سقطَ قرينها مرتخيًا على كتفها، وخفقَ بجناحيه الفاتنيْن مرَّةً أو مرَّتين قبل أن يُغمى عليه، في حين بدَت المرأة نفسها غير قادرةٍ على الوقوف مشدودة القامة، ثم بدأت تتحرَّك بانحناءةٍ خرقاء شاقَّةً طريقها عبر زحام المدعوِّين الصَّاخبين وخرجَت من باب غُرفة الضُّيوف، وقد قبضَت بيدها على كتفها مثبِّتةً قرينها فاقد الوعي في مكانه.

خاطبَت المسز كولتر لايرا قائلةً: «إذن؟».

- «لم أخبرها بأيِّ شيءٍ مهم».

- «عمَّ سألتكِ؟».

- «عمَّا أفعله ومَن أنا وما إلى ذلك».

بينما قالت هذا لاحظَت لايرا أن المسز كولتر بمفردها من دون قرينها. كيف يُمكن ذلك؟ لكن بعد بُرهةٍ ظهرَ القرد الذَّهبي إلى جوارها، فمدَّت يدها إلى أسفل ورفعَته بخفَّةٍ إلى كتفها، وفي التَّوِّ واللَّحظة بدَت عليها الرَّاحة من جديد.

- «إذا قابلتِ أحدًا آخَر من الواضح أنه غير مدعو، فتعالي واعثُري عليَّ يا عزيزتي، اتَّفقنا؟».

بدأت الرَّائحة المعدنيَّة السَّاخنة تختفي. ربما تخيَّلتها لايرا التي عادَت تشمُّ عطر المسز كولتر مجدَّدًا، والورد ودُخان السيجارلُّو(9) وعطور النِّساء الأخريات. ابتسمَت المسز كولتر للايرا ابتسامةً لسان حالها: أنا وأنتِ نفهم هذه الأشياء، أليس كذلك؟ وابتعدَت لتُلقي التَّحيَّة على بعض الضُّيوف الآخَرين.

همسَ پانتالايمون في أُذن لايرا: «بينما كانت هنا خرجَ قرينها من غُرفة نومنا. كان يتلصَّص. إنه يعرف بأمر الأليثيوميتر!».

شعرَت لايرا بأن هذا صحيح غالبًا، لكنها لا تستطيع أن تفعل شيئًا حياله. ما الذي كان ذلك البروفسور يقوله عن الملتهِمين؟ تلفَّتت حولها لتجده ثانيةً، ولكن ما كادَت عيناها تقعان عليه حتى ربَّت الحاجب (الذي يرتدي ثياب الخدم هذا المساء) ورجل آخَر على كتفيه وخاطباه بصوتٍ خفيض، ليمتقع وجهه ويتبعهما إلى الخارج. لم يستغرِق هذا أكثر من ثانيتين، وحدثَ بكتمانٍ شديد حتى إن أحدًا تقريبًا لم يلحظه، وإن تركَ لايرا شاعرةً بالتَّوتُّر وبأنها مفضوحة.

تجوَّلت في الغُرفتين الكبيرتين المقامة فيهما الحفلة، نِصف مصغيةٍ إلى المحادثات الدَّائرة حولها ونِصف مهتمَّةٍ بمذاق الكوكتيلات غير المسموح لها بتجربتها، ويتزايد اضطرابها باطِّراد. لم تكن تُدرِك أن أحدًا يُراقِبها حتى ظهرَ الحاجب إلى جانبها ومالَ قائلًا: «آنسة لايرا، الچنتلمان الواقف عند المدفأة يرغب في الكلام معكِ. إنه اللورد بوريل إن لم تكوني تعلمين».

نظرَت لايرا عبر الغُرفة، لترى الرَّجل الأشيب الذي تبدو عليه القوَّة يَرمُقها مباشرةً، وإذ التقَت أعيُنهما أومأَ برأسه وأشارَ إليها بالاقتراب.

ودون رغبةٍ منها، ولو أن اهتمامها ازدادَ الآن، قطعَت لايرا الغُرفة إليه.

قال الرَّجل: «مساء الخير أيتها الصَّغيرة». تكلَّم بصوتٍ ناعم آمر، وقد التمعَ رأس قرينته الأفعى المدرَّع وعيناها الزُّمرُّديَّتان في الضَّوء الآتي من المصباح الزُّجاجي البلَّوري على الحائط القريب.

قالت لايرا: «مساء الخير».

- «كيف حال صديقي القديم عميد چوردان؟».

- «في خير حال، أشكرك».

- «أظنُّ أنهم حزنوا جميعًا لوداعكِ».

- «نعم، صحيح».

- «وهل تُشغِلكِ المسز كولتر؟ ماذا تُعلِّمكِ؟».

لأن لايرا تَشعُر بالتَّمرُّد والتَّوتُّر، فإنها لم تُجِب بالحقيقة أو بواحدةٍ من شطحات خيالها عن السُّؤال المترفِّع المتخفِّي باللُّطف، وبدلًا من ذلك قالت: «أتعلَّمُ أشياء عن جُسيمات روساكوف وهيئة القرابين».

لاحَ عليه التَّركيز من فوره، بالطَّريقة نفسها التي يُركِّز بها المرء على شُعاع فانوس عنبري، وانصبَّ انتباهه كلُّه عليها بقوَّة.

- «هلَّا أخبرتِني بما تعرفينه؟».

قالت لايرا التي تَشعُر بالنَّزق الآن: «إنهم يُجرون تجارب في الشَّمال، مِثل الدكتور جرومان».

- «أكمِلي».

- «عندهم نوع من الصُّور الفوتوجراميَّة يُريهم (الغُبار)، وحين ترى رجلًا فهناك ضوء شديد يتدفَّق إليه، لكن لا ضوء على الأطفال، ليس بالقدر نفسه».

- «هل أرَتكِ المسز كولتر صورةً كهذه؟».

تردَّدت لايرا، لأن هذا ليس كذبًا بل شيء آخَر، وهي ليست متمرِّسةً فيه.

بعد لحظةٍ قالت: «لا، رأيتها في كلِّيَّة چوردان».

- «مَن أراكِ إياها؟».

- «لم يكن يُريني إياها حقًّا. كنتُ مارَّةً فحسب ورأيتها. ثم أخذَت هيئة القرابين صديقي روچر، لكن...».

- «مَن أراكِ تلك الصُّورة؟».

- «عمِّي آزريل».

- «متى؟».

- «عندما كان في كلِّيَّة چوردان آخِر مرَّة».

- «مفهوم. وماذا تتعلَّمين أيضًا؟ هل سمعتكِ تَذكُرين هيئة القرابين؟».

- «نعم، لكنني لم أسمع بها منه، بل هنا».

وفكَّرت أن هذا صحيح تمامًا.

كان يَنظُر إليها مضيِّقًا عينيه، وبادلَته لايرا النَّظر بكلِّ ما لديها من براءة، وأخيرًا أومأَ برأسه قائلًا: «مؤكَّد إذن أن المسز كولتر قرَّرت أنكِ مستعدَّة لمساعدتها في ذلك العمل. مثير للاهتمام هذا. هل شاركتِ بعدُ؟».

قالت لايرا: «لا». عمَّ يتكلَّم؟ كان پانتالايمون متَّخذًا -بذكاء- أكثر تكوينٍ لا يُعبِّر عن شيء، تكوين العثَّة الذي لا يشي بمشاعرها، وهي نفسها واثقة بقُدرتها على الحفاظ على براءة ملامحها.

- «وهل أخبرَتكِ بما يَحدُث للأطفال؟».

- «لا، لم تُخبِرني بذلك. لا أعرفُ إلَّا أن للأمر علاقةً بـ(الغُبار)، وأن الأطفال تضحية ما».

مرَّةً أخرى فكَّرت أن هذه ليست كذبةً بالضَّبط، إذ لم تقل إن المسز كولتر نفسها أخبرَتها.

- «التَّضحية مصطلح درامي للغاية للتَّعبير عن الأمر. ما يَحدُث يَحدُث لصالحهم ولصالحنا أيضًا، وبالطَّبع يأتون المسز كولتر بإرادتهم جميعًا. لهذا السَّبب نعدُّها شخصًا ثمينًا للغاية. مؤكَّد أنهم يرغبون في المشاركة، وأي طفلٍ بإمكانه أن يُقاوِمها؟ وإذا كانت ستستخدمكِ أيضًا للإتيان بهم فهذا أفضل كثيرًا. إنني مسرور جدًّا».

ابتسمَ لها كما تبتسم المسز كولتر، كأن بين الاثنين سرًّا مشتركًا، وردَّت لايرا الابتسامة بأدبٍ قبل أن يلتفت الرَّجل ليُكلِّم شخصًا آخَر.

كانت تستشعِر رُعب پانتالايمون ويستشعِر رُعبها، وأرادَت أن تنفرد بنفسها وتتكلَّم معه، أن تُغادِر الشقَّة، أن ترجع إلى كلِّيَّة چوردان وغُرفتها الحقيرة الصَّغيرة على قمَّة السَّلالم 12، أن تجد اللورد آزريل...

ثم، كأنها استجابة لتلك الأمنيَّة الأخيرة، سمعَت لايرا اسمه يُذكَر، فدنَت من المجموعة الواقفة تتكلَّم على مقربة، بحُجَّة أن تتناوَل قطعةً من الكاناپيه من الطَّبق الموضوع على المائدة.

كان رجل يرتدي عباءة أسقف أرجوانيَّةً يقول: «... لا، لا أظنُّ أن اللورد آزريل سيُزعِجنا لفترةٍ طويلة».

- «وأين قلت إنه محتجَز؟».

- «في قلعة سڤالبارد بحسب ما قيلَ لي، تحت حراسة الپانزربيورنِه... الدِّببة المدرَّعين. مخلوقات مخيفة! لن يَهرُب منهم أبدًا ولو عاشَ ألف عام. الحقيقة أنني أظنُّ حقًّا أن الطَّريق واضح، أو قريب جدًّا من الوضوح...».

- «التَّجارب الأخيرة أكَّدت ما اعتقدته دومًا؛ أن (الغُبار) انبعاث من المبدأ المظلم نفسه، و...».

- «هل أستشمُّ الهرطقة الزرادشتيَّة إياها في هذا الكلام؟».

- «ما كان هرطقةً من قبل...».

- «وإذا استطعنا عزل المبدأ المظلم...».

- «هل قلت سڤالبارد؟».

- «الدِّببة المدرَّعون...».

- «هيئة القرابين...».

- «الأطفال لا يُعانون. إنني واثق بهذا...».

- «اللورد آزريل حبيس...».

سمعَت لايرا ما يكفي، فدارَت متحرِّكةً بهدوء پانتالايمون العثَّة ودخلَت غُرفة نومها مغلقةً الباب وراءها، لتنكتِم ضوضاء الحفلة في الحال.

همسَت: «إذن؟».

تحوَّل پانتالايمون إلى حسُّون على كتفها، وهمسَ: «هل سنَهرُب؟».

- «طبعًا. إذا فعلناها الآن في وجود كلِّ هؤلاء النَّاس فقد لا تلحظ غيابنا قبل فترة».

- «هو سيلحظ».

يقصد پانتالايمون قرين المسز كولتر، ولمَّا فكَّرت لايرا في جسمه الذَّهبي المرن أحسَّت بالغثيان من فرط الخوف.

قال پانتالايمون بجرأة: «سأقاتله هذه المرَّة. بإمكاني أن أتبدَّل، أمَّا هو فلا. سأتبدَّل بسرعةٍ تُعجِزه عن السَّيطرة عليَّ، وهذه المرَّة سأنتصرُ، سترين».

هزَّت لايرا رأسها بشرود. ماذا ترتدي؟ كيف يُمكنها الخروج دون أن يراها أحد؟

همسَت: «عليك أن تذهب وتتلصَّص. يجب أن نجري ما إن يخلو الطَّريق. تحوَّل إلى عُثَّة»، ثم أضافَت: «تذكَّر، بمجرَّد أن تجدهم لا يَنظُرون...».

واربَت الباب وخرجَ پانتالايمون متسلِّلًا، جسمه داكن في ضوء الرُّواق الوردي الدَّافئ.

في تلك الأثناء ألقَت أثقل ثيابٍ لديها على جسدها، ودسَّت المزيد في أحد أكياس الحرير الفحمي من المتجر الأنيق التي زارَته اليوم بعد الظُّهر. كانت المسز كولتر تُغدِق عليها بالمال كأنه حلوى، وعلى

الرغم من أنها أنفقَته ببذخٍ فما زالَ معها عدَّة سوفرنات[10] متبقِّية، وقد وضعَتها في جيب المعطف الدَّاكن المصنوع من فراء الذِّئاب، قبل أن تذهب إلى الباب على أطراف أصابعها.

وأخيرًا حزمَت الأليثيوميتر في غلافه المخملي الأسود. هل عثرَ عليه ذلك القرد البغيض؟ مؤكَّد أنه فعلَ، ومؤكَّد أنه أخبرَها. أوه، ليتها أحسنَت إخفاءه أكثر!

ذهبَت على أطراف أصابعها إلى الباب. من حُسن الحظِّ أن غُرفتها تنفتح على طرف الرُّواق الأقرب إلى الرَّدهة، ومعظم الضُّيوف في الغُرفتين الكبيرتين الأبعد. تناهَت إلى مسامعها أصوات عالية تتكلَّم، وضحك، وسيفون يُشدُّ بهدوء، ورنين كؤوس.

ثم قال صوت عُثَّةٍ خافت في أُذنها: «الآن! أسرِعي!».

خرجَت لايرا من الباب إلى الرَّدهة، وخلال أقل من ثوانٍ ثلاث فتحَت باب الشقَّة الأمامي، وبعد لحظةٍ كانت تجذبه برفقٍ وتُغلِقه، ومع پانتالايمون -الذي تحوَّل ثانيةً إلى حسُّون- جرَت إلى السَّلالم وفرَّت.

(6) **شباك الصَّيد**

بخُطى سريعة ابتعدَت عن النَّهر، فالضفَّة واسعة وجيِّدة الإضاءة. من هناك ثمة شبكة من الشَّوارع الضيِّقة تقود إلى المعهد الأركتيكي الملكي، وهو المكان الوحيد الذي تثق لايرا بقُدرتها على العثور عليه، وهكذا هرعَت تَدخُل المتاهة المظلمة.

ليتها تعرف لندن مِثلما تعرف أكسفورد! عندها كانت لتعلم أيُّ شوارع تتفادى، أو أين يُمكنها اختلاس القليل من الطَّعام، أو -وهو الأهم- أيُّ أبوابٍ تستطيع طرقها لتجد مأوًى. في هذه اللَّيلة الباردة تزخر الأزقَّة المظلمة المحيطة بها بالحركة والحياة السرِّيَّة، لكنها تجهل كلَّ شيءٍ عنها.

تحوَّل پانتالايمون إلى قطٍّ برِّي وجاسَ في الظُّلمة بعينين تَثقُبان اللَّيل، يتوقَّف كلَّ فترةٍ نافشًا فروه، فتعزف لايرا عن المدخل الذي تُوشِك لايرا على الخطو فيه. ترامَت إلى مسامعها الضَّوضاء التي تُفعِم اللَّيل؛ ضحك السَّكارى المتفجِّر، وصوتان مبحوحان يرتفعان بالغناء، وطقطقة وصرير ماكينةٍ تحتاج إلى تزييت في قبوٍ ما. وسارَت لايرا منتبهةً وسط كلِّ هذا، حواسُّها مشحوذة وممتزجة بحواس پانتالايمون، وقد لزِما الحركة في الظِّلال والأزقَّة الضيِّقة.

بين الحين والآخَر تضطرُّ إلى عبور شارعٍ أوسع وأحسن إضاءةً، حيث تطنُّ عربات الترام وتُصدِر الشَّرر تحت أسلاكها العنبريَّة. لعبور شوارع لندن قواعد، غير أنها لم تعبأ بها، ومتى صاحَ فيها أحدهم لاذَت بالفرار.

جميل أن تكون حُرَّةً من جديد، وتعلم أن پانتالايمون -الماضي على كفوف قطٍ برّي إلى جوارها- يحسُّ بنفس بهجتها لوجوده في الهواء المفتوح، حتى إذا كان هواء لندن القاتم المفعم بالعوادم والسُّخام والضَّوضاء. عليهما في وقتٍ ما قريب أن يُفكِّرا في معنى ما سمعاه في شقَّة المسز كولتر، ولكن ليس بعدُ. وعليهما في وقتٍ ما عاجلًا أو آجلًا أن يجدا مكانًا ينامان فيه.

عند تقاطُع طُرق، قُرب ناصية متجرٍ متعدِّد الأقسام تلتمع نوافذه بضوءٍ زاهٍ على الرَّصيف المبتل، رأت لايرا عربة قهوة، عبارة عن كُشكٍ صغير على عجلات، يضمُّ مشربًا تحت السَّديلة الخشبيَّة المرفوعة كالمظلَّة، ويتوهَّج ضوء أصفر بداخله، من حيث تأتي رائحة القهوة العطرة محمولةً على الهواء. كان المالك ذو المعطف الأبيض مائلًا على المشرب يُكلِّم زبائنه الذين لا يزيدون على اثنين أو ثلاثة.

أغراها المنظر. إنها تمشي منذ ساعةٍ على الأقل، والجوُّ بارد رطب، وهكذا ذهبَت مع پانتالايمون المتَّخذ تكوين عُصفورٍ إلى المشرب وشبَّت على قدميها لتلفت انتباه المالك، ثم قالت: «كوب قهوة وشطيرة لحم مملَّح من فضلك».

خاطبَها چنتلمان يعتمر قبَّعةً عاليةً ويضع وشاحًا من الحرير الأبيض: «أنتِ بالخارج في ساعةٍ متأخِّرة يا عزيزتي».

ردَّت ملتفتةً عنه لتفحص التَّقاطُع المزدحم بعينيها: «نعم». كان المتفرِّجون قد بدأوا الخروج لتوِّهم من مسرحٍ قريب، ويتجمَّعون في الباحة المضاءة لنداء سيَّارات الأجرة ووضع المعاطف على أكتافهم، وفي الاتِّجاه الآخَر حيث مدخل محطَّة القطارات الجوفيَّة، يتدفَّق مزيد من النَّاس على السَّلالم صعودًا ونزولًا.

قال صاحب عربة القهوة: «هاكِ يا حُلوتي. شِلِنان».

قال ذو القبَّعة: «دعيني أدفعُ الحساب».

فكَّرت لايرا: ولِمَ لا؟ يُمكنني الجري أسرع منه، وقد أحتاجُ إلى كلِّ ما معي من نقود لاحقًا. أسقطَ ذو القبَّعة عُملةً على المشرب وابتسمَ لها، وقد تشبَّثت قرينته أنثى اللَّيمور بطيَّة صدر معطفه محدِّقةً إلى لايرا بعينين مستديرتين.

قضمَت من شطيرتها وأبقَت عينيها على الشَّارع المزدحم. لأنها لم ترَ خريطةً للندن قَطُّ فإنها تجهل أين هي تمامًا، ولا تدري حتى كم تَبلُغ مساحة المدينة أو كم عليها أن تمشي حتى تصل إلى الرِّيف.

سألَها الرَّجل: «ما اسمكِ؟».

- «آليس».

- «اسم جميل. دعيني أضع قطرةً من هذا في كوبكِ... سيُدفِّئكِ...».

قالها وهو يحلُّ سدادة قنينة فضِّيَّة.

قالت لايرا: «لا أحبُّه. أحبُّ القهوة فقط».

- «أراهنُ أنكِ لم تشربي براندي مِثل هذا من قبل».

- «بل شربتُ، وتقيَّأتُ في كلِّ مكان. شربتُ زجاجةً كاملةً، أو أقل قليلًا».

صبَّ الرَّجل من القنينة في كوبه قائلًا: «كما تُريدين. إلى أين تذهبين وحدكِ هكذا؟».

- «سأقابلُ أبي».

- «ومَن هو؟».

- «إنه قاتل».

- «إنه ماذا؟».

- «قلتُ لكِ، إنه قاتل. هذه مهنته. إن عنده عمليَّةً اللَّيلة. معي في هذا الكيس ثيابه النَّظيفة، لأنه عادةً ما يعود مغطًّى بالدَّم بعد كلِّ عمليَّة».

- «آه! أنتِ تمزحين».

- «لا».

أطلقَت أنثى اللَّيمور صوتًا خفيضًا كالمواء وصعدَت لتقف وراء رأس الرَّجل مختلسةً النَّظر إليها من هناك، في حين شربَت لايرا قهوتها بلا اكتراثٍ وأكملَت شطيرتها.

ثم إنها قالت: «ليلةً طيِّبةً. أرى أبي مقبلًا الآن، ويبدو غاضبًا بعض الشَّيء».

تلفَّت ذو القبَّعة حوله، واتَّجهت لايرا صوب جمهور المسرح. بقدر ما كانت تودُّ رؤية القطارات الجوفيَّة (التي قالت المسز كولتر عنها إنها لا تُناسِب طبقتهما حقًّا)، فإنها تعي خطورة أن تصير حبيسةً تحت الأرض، والأفضل أن تبقى في أماكن مفتوحة حيث يُمكنها الهرب إذا دعَت الحاجة.

مشَت ومشَت، وأظلمَت الشَّوارع وخلَت أكثر. كان المطر يَسقُط رذاذًا، لكن حتى لو لم يكن هناك سحاب فالأضواء تنتشر في سماء المدينة حاجبةً النُّجوم. خمَّن پانتالايمون أنهما متَّجهان شمالًا، ولكن مَن يدري؟

شوارع بلا نهاية تصطفُّ فيها منازل صغيرة متماثلة من القرميد، ومصانع كالحة ضخمة وراء سوج من الأسلاك، وثمَّة مصباح عنبري واحد يبعث ضوءًا كئيبًا من موضعه العالي على جِدار، وخفير ليلي غافٍ إلى جوار مستوقَده، وهنا أو هناك مصلًّى بائس لا يُميِّزه عن المخزن إلَّا الصَّليب خارجه. في مرَّةٍ جرَّبت باب أحد تلك الأماكن، فقط لتسمع أنينًا من فوق الدِّكَّة التي تَبعُد عنها قدمًا واحدًا في الظَّلام، فأدركَت أن المدخل المسقوف مليء بالنَّائمين، وفرَّت.

قالت وهما يمضيان بتعبٍ في شارعِ محاله مغلقة: «أين سننام يا پان؟».

- «مدخل في مكانٍ ما».

- «لسنا نُريد أن يرانا أحد. كلُّها مفتوح».

- «ثمَّة قناة هناك...».

كان يَنظُر في طريقٍ جانبي إلى اليسار، وبالفعل أرَتها رُقعة من بريقٍ داكن المياه المفتوحة، ولمَّا ذهبا بحذرٍ يُلقيان نظرةً وجدا قناةً فيها دستة أو نحوها من الزَّوارق المربوطة إلى الأرصفة، بعضها مرتفع وبعضها منخفض مثقل بالرَّافعات الشَّبيهة بالمشانق. من نافذة كوخٍ خشبي كان ضوء خابٍ يأتي، ومن المدخنة المعدنيَّة يرتفع خيط من الدُّخان، لكن باستثناء هذا لا أضواء إلَّا تلك العالية على جِدار مخزنٍ أو جسر رافعة، أمَّا الأرض فمعتمة. على الأرصفة تتكوَّم براميل الكحول الفحمي، وصفوف من جذوع الأشجار المستديرة الضَّخمة، ولفائف الكابلات المغطَّاة بالكاوتشوك.

ذهبَت لايرا على أطراف أصابعها إلى الكوخ ونظرَت خلسةً من النَّافذة، لترى رجلًا عجوزًا يقرأ صحيفة قصصٍ مصوَّرة بصعوبةٍ ويُدخِّن الغليون، وقد تكوَّرت قرينته الكلبة السپانيِل على نفسها نائمةً فوق الطَّاولة. وإذ نظرَت لايرا نهضَ العجوز وجلبَ قِدرًا مسودَّةً من فوق الموقد الحديدي، وصبَّ القليل من الماء السَّاخن في كوبٍ فخَّاري متصدِّع، قبل أن يستقرَّ من جديدٍ ويعود إلى صحيفته.

همسَت: «هل نَطلُب منه أن يُدخِلنا يا پان؟»، إلّا أنها وجدَت انتباه قرينها مشتّتًا؛ الآن هو وطواط، والآن بومة، والآن قطٌّ برّي من جديد. تلفَّتت حولها وقد انتقلَ إليها ذُعره، ثم إنها رأتهما لحظة أن رآهما، رجلين يندفعان نحوها من الجانبين، أقربهما يحمل شبكة صيد.

أطلقَ پانتالايمون صرخةً حادَّةً، وألقى نفسه متَّخذًا تكوين نمرٍ على قرينة أقرب الرَّجلين، ثعلبة بادية الشَّراسة دفعَها بعُنفٍ إلى الوراء قبل أن يشتبك بساقَي الرَّجل، الذي ندَت منه سبَّة وتملَّص جانبًا، واندفعَت لايرا تتجاوَزه نحو الأرصفة المفتوحة. ما يجب أن تتلافاه هو أن تجد نفسها محاصَرةً في رُكن.

رفرفَ پانتالايمون الذي صارَ نسرًا إليها صائحًا: «إلى اليسار! إلى اليسار!».

انحرفَت في ذلك الاتِّجاه ورأت فتحةً بين براميل الكحول الفحمي وطرف كُشكٍ حديدي، فاندفعَت نحوه كطلقة الرَّصاص.

لكن الشِّباك!

سمعَت هسيسًا في الهواء، وطارَ شيء ما يحتكُّ بوجنتها مخلِّفًا ألمًا حادًّا، وجلدَتها خيوط بغيضة مغلَّفة بالقار على وجهها، وعلى ذراعيها، وعلى يديها، وتشابكَت حولها وقبضَت عليها، وسقطَت لايرا تُزَمجِر وتخمش وتُقاوِم عبثًا.

- «پان! پان!».

لكن القرينة الثَّعلبة انقضَّت على پانتالايمون القطِّ بمخالبها، وأحسَّت لايرا بالألم في لحمها، وخرجَ منها نحيب عظيم إذ سقطَت. كان أحد الرَّجلين يشدُّ الخيوط بسرعةٍ حولها، حول أطرافها، وحَلقها، وبدنها، ورأسها، يربطها عُقدةً بعد عُقدةٍ على الأرض المبتلَّة، وهي عاجزة، تمامًا كذُبابةٍ تُغلِّفها عنكبوت بخيوطها. رأت پانتالايمون الجريح المسكين يجرُّ نفسه نحوها فيما تنهش الثَّعلبة ظَهره، وقد خارَت قُواه ولم يَعُد قادرًا على مجرَّد التَّبدُّل، أمَّا الرَّجل الآخَر فساقط في بِركةٍ صغيرة وثمَّة سهم نافذ من عُنقه و...

خيَّم السُّكون على العالم بأكمله إذ رأى زميله هذا وهو يربط الشَّبكة.

اعتدلَ پانتالايمون، ثم سُمِعَت ضربة مكتومة، وخرَّ رجل الشَّبكة يشهق مختنقًا فوق لايرا مباشرةً، لتُطلِق صرخة رُعب، فهذا الذي يتدفَّق منه دم!

أقدام تَركُض، ثم أزاحَ أحدهم الرَّجل ومالَ فوقه، ورفعَت أيدٍ أخرى لايرا، وقطعَ سكِّين خيوط الشَّبكة لتَسقُط واحدًا تلو الآخَر، ومزَّقتها هي وبصقَت وألقَت نفسها على الأرض لتحتضن پانتالايمون.

وهي على رُكبتيها لوَت جذعها لتُلقي نظرةً على هؤلاء الوافدين الجُدد. ثلاثة رجال داكني البشرة، أحدهم مسلَّح بقوسٍ والآخَران بسكِّينيْن.

وبينما التفتَت احتبسَت أنفاس الرَّامي لحظةً، وقال: «أليست هذه لايرا؟».

صوت مألوف، لكنها لم تستطِع تذكُّر صاحِبه إلَّا عندما تقدَّم وسقطَ أقرب ضوءٍ على وجهه، وعلى القرينة أنثى الباز فوق كتفه. ثم تذكَّرت. إنه چيپتي! چيپتي حقيقي من أكسفورد!

قال: «توني كوستا. أتَذكُرين؟ لقد اعتدتِ اللَّعب مع أخي الصَّغير بيلي عند القوارب في چريكو، قبل أن يأخذه الملتهِمون».

قالت منتحبةً: «ربَّاه، پان، إننا آمنان!». إلَّا أن خاطرًا مرقَ في عقلها فجأةً، وتذكَّرت أن القارب الذي خطفَته في اليوم إياه كان ملك عائلة كوستا. ماذا لو أنه يَذكُر؟

- «يُستحسَن أن تأتي معنا. أأنتِ وحدكِ؟».

- «نعم. كنتُ هاربةً...».

- «طيِّب، لا تتكلَّمي الآن. الزمي الهدوء. چاكسر، انقل هاتين الجثَّتين إلى الظِّل. كيريم، انظُر في الجوار».

نهضَت لايرا مرتجفةً، تضمُّ القطَّ البرِّي پانتالايمون إلى صدرها. كان يلتوي ليَنظُر إلى شيءٍ ما، وتتبَّعت نظرته وقد فهمَت وانتابها الفضول فجأةً أيضًا. ماذا حدثَ لقرينتَي الرَّجلين الميتين؟ إنهما تتلاشَيان. هذه هي الإجابة. تتلاشَيان ويذروهما الهواء كذرَّات الدُّخان على الرغم من محاولتهما الجهيدة التَّشبُّث بإنسانيهما. أخفى پانتالايمون عينيه، ودون أن تُبصِر أسرعَت لايرا في أعقاب توني كوستا.

سألَت: «ماذا تفعلون هنا؟».

- «صمتًا يا بنت. لدينا ما يكفي من متاعب دون أن نُثير المزيد. سنتكلَّم على القارب».

قادَها فوق جسرٍ خشبي صغير إلى قلب حوض القناة، فيما مشى الرَّجلان الآخَران بصمتٍ وراءهما. انعطفَ توني على الضفَّة إلى مرسًى خشبي، ومنه خطا إلى متن قاربٍ ضيِّق وفتحَ باب قمرته قائلًا: «ادخُلي بسرعة».

فعلَت لايرا هذا مربِّتةً على كيسها (الذي لم تتخلَّ عنه حتى داخل الشَّبكة) لتتأكَّد من أن الأليثيوميتر لا يزال في مكانه.

في القمرة الطَّويلة الضيِّقة، وفي ضوء قنديل معلَّق من خُطَّاف، رأت امرأةً ممتلئةً قويَّةً شيباء جالسةً إلى طاولةٍ تقرأ جريدةً، وتعرَّفت لايرا أمَّ بيلي.

قالت المرأة: «مَن هذه؟ أليست هذه لايرا؟».

- «إنها هي. مَا، علينا أن نتحرَّك. لقد قتلنا رجلين. حسبناهما من الملتهِمين، لكنني أظنُّهما كانا تاجريْن تُركيَّيْن. لقد قبضا على لايرا. لا عليكِ بالكلام الآن. سنتكلَّم ونحن نتحرَّك».

قالت مَا كوستا: «تعالي يا بنيَّة».

أطاعَتها لايرا وقد امتزجَت بداخلها السَّعادة والتَّوجُّس، فمَا كوستا هذه لها يدان كهراوتيْن، والآن صارَت لايرا على يقينٍ بأن قارب عائلة كوستا هو الذي خطفَته مع روچر وأطفال الكلِّيَّة الآخَرين. على أن أمَّ القارب وضعَت يديها على جانبَي وجه لايرا، ومالَ قرينها الباز برفقٍ يلعق رأس القطِّ البرِّي پانتالايمون. ثم إن مَا كوستا طوَّقت لايرا بذراعيها الضَّخمتين وضمَّتها إلى صدرها.

- «لا أدري ماذا تفعلين هنا، لكنكِ تبدين منهَكةً. يُمكنكِ أن تنامي في سرير بيلي ما إن أسقيكِ مشروبًا ساخنًا. اجلسي هناك يا بنيَّة».

بدا كأنهم غفروا لها قرصنتها، أو على الأقل نسوها. استقرَّت لايرا على الدِّكَّة المزوَّدة بالوسائد وراء سطح طاولةٍ من خشب الصَّنوبر المصنفَر جيِّدًا، فيما بدأ هدير محرِّك الجاز يهزُّ القارب.

سألَت لايرا: «أين سنذهب؟».

وضعَت مَا كوستا قِدرًا صغيرةً من الحليب على الموقد الحديدي محرِّكةً قضبان الشَّبكة لتُذكي النَّار، وأجابَت: «بعيدًا عن هنا. لا كلام الآن. سنتكلَّم في الصَّباح».

لم تقل المزيد، ولمَّا فرغَت من تسخين الحليب ناولَت لايرا كوبًا، ثم رفعَت نفسها إلى السَّطح حين بدأ القارب يتحرَّك وتبادلَت بعض الهمسات العرَضيَّة مع الرِّجال. رشفَت لايرا من الحليب رافعةً طرف السِّتارة لتُشاهِد الأرصفة المظلمة تمرُّ، وبعد دقيقةٍ أو دقيقتين راحَت في سُباتٍ عميق.

***

استيقظَت في سريرٍ ضيِّق على صوت هدير المحرِّك المريح في عُمق القارب. اعتدلَت جالسةً ليصطدم رأسها بالعارضة، فأطلقت سبَّةً حانقةً وتحسَّست حولها، ثم نهضَت بمزيدٍ من الحذر. أراها خيط رفيع من الضَّوء الرَّمادي ثلاثة أسرَّة أخرى خالية ومرتَّبة بعناية، أحدها أسفلها والاثنان الآخَران قُبالتها عبر القمرة الصَّغيرة. نزلَت من فوق لتجد نفسها بملابسها الدَّاخليَّة، ورأت الفُستان ومعطف فرو الذِّئاب مطويَّيْن على طرف السَّرير ومعهما كيس التَّسوُّق، حيث وجدَت الأليثيوميتر في مكانه.

ارتدَت ثيابها بسرعةٍ وخرجَت من الباب في الطَّرف، لتجد نفسها في القمرة الأخرى حيث الموقد وحيث الجو دافئ. لم ترَ أحدًا هناك، ومن النَّوافذ أبصرَت دوَّاماتٍ من الضَّباب الرَّمادي على الجانبين، وأحيانًا أشكالًا داكنةً قد تكون مبانيَ أو أشجارًا.

قبل أن تصعد إلى السَّطح انفتحَ الباب الخارجي ونزلَت مَا كوستا مرتديةً معطفًا قديمًا من صوف التويد، استقرَّت عليه قطرات الرُّطوبة كألف لؤلؤةٍ ضئيلة.

قالت متناولةً المقلاة: «نمتِ جيِّدًا؟ والآن اجلسي بعيدًا عن الطَّريق وسأعدُّ لكِ الإفطار. لا تقفي في مكانكِ، ما هناك مساحة».

سألتها لايرا: «أين نحن؟».

- «في قناة جراند چنكشن. ابقي بعيدًا عن الأنظار يا بنيَّة. لا أريدُ رؤيتكِ على السَّطح. هناك متاعب».

قطَّعت شريحتين من اللَّحم المقدَّد في المقلاة، وكسرَت معهما بيضةً.

- «أي متاعب؟».

- «لا شيء نعجز عن التَّعامُل معه، إذا لم تعترضي الطَّريق».

ولم تقل المزيد حتى أكلَت لايرا. في مرَّةٍ تباطأت حركة القارب وارتطمَ شيء ما بالجانب، وسمعَت لايرا رجالًا يرفعون أصواتهم الغاضبة، إلَّا أن أحدهم ألقى دُعابةً أضحكَتهم، وابتعدَت الأصوات وواصلَ القارب الحركة.

نزلَ توني كوستا إلى القمرة حاليًّا. كأمِّه، كانت الرُّطوبة قد نثرَت لآلئها عليه، وقد نفضَ قبَّعته الصُّوف فوق الموقد لتئزَّ القطرات وتتواثَب في الهواء.

- «بِمَ سنُخبِرها يا مَا؟».

- «نسألها أولًا، ثم نُخبِرها».

صبَّ القليل من القهوة في كوبٍ من الصَّفيح وجلسَ. توني رجل قوي داكن الوجه، والآن إذ تراه لايرا في ضوء النَّهار فقد لاحظَت كآبةً حزينةً في التَّعبير على وجهه.

قال: «طيِّب، الآن عليكِ إخبارنا بما كنتِ تفعلينه في لندن يا لايرا. لقد حسبنا الملتهِمين أخذوكِ».

- «كنتُ مقيمةً مع تلك السيِّدة...».

استجمعَت لايرا قصَّتها استجماعًا أخرق وقلَّبتها مرتِّبةً إياها كأن بين يديها مجموعةً من أوراق اللَّعب جاهزةً للتَّوزيع، ثم أخبرَتهما بكلِّ شيءٍ باستثناء الأليثيوميتر.

- «ثم اكتشفتُ ليلة البارحة في الحفلة ما يفعلونه حقًّا. المسز كولتر نفسها واحدة من الملتهِمين، وكانت ستستغلُّني في القبض على المزيد من الأطفال. ما يفعلونه...».

غادرَت مَا كوستا القمرة وذهبَت إلى مقصورة القيادة، وانتظرَ تونى حتى انغلقَ الباب ليُقاطِع لايرا قائلًا: «نعرف ما يفعلونه، أو جزءًا منه على الأقل. نعرف أن الأطفال لا يعودون. هؤلاء الأطفال يُؤخَذون بعيدًا إلى الشَّمال، بعيدًا تمامًا عن الطَّريق، وتُجرى عليهم تجارب. في البداية حسبناهم يُجرِّبون عليهم أمراضًا وأدويةً مختلفةً، ولكن لا سبب يدعوهم لأن يشرعوا في فعل ذلك فجأةً قبل عامين أو ثلاثة. ثم فكَّرنا في التَّرتار. ربما أجروا اتِّفاقًا سرِّيًّا قُرب سيبيريا، لأن التَّرتار يُريدون التَّحرُّك شمالًا كالبقيَّة، من أجل الكحول الفحمي ومناجم النَّار، وثمَّة شائعات عن حربٍ دائرة من قبل

ظهور الملتهمين أنفُسهم. خطرَ لنا أن الملتهِمين يرشون زُعماء التّرتار بالأطفال، لأن التّرتار يأكلونهم، أليس كذلك؟ إنهم يخبزون الأطفال ويأكلونهم».

قالت لايرا: «على الإطلاق!».

- «بل يأكلونهم. هناك أشياء أخرى كثيرة يُحكى عنها. هل سمعتِ عن النَّالكايْنِن؟».

- «لا، ولا حتى عند المسز كولتر. ما هؤلاء؟».

- «إنهم أشباح يَسكُنون تلك الغابات. بعضهم بحجم طفل، وليس لهم رؤوس، فيمشون متحسِّسين طريقهم ليلًا، وإذا كنتِ نائمةً في الغابة وقبضوا عليكِ فما من شيءٍ سيجعلهم يَترُكونكِ. النَّالكايْنِ كلمة شماليَّة. ومصَّاصو الرِّيح خطرون أيضًا. إنهم يطفون في الهواء، وأحيانًا يُصادِف المرء كُتلًا منهم طافيةً معًا أو شيئًا من هذا القبيل، أو يجدهم عالقين على فرع شجرة. بلمسةٍ واحدة منهم تخور قُواكِ كلُّها، ولا يُمكنكِ رؤيتهم إلَّا كوميضٍ ما في الهواء. أمَّا معدومو الأنفاس...».

- «مَن هُم؟».

- «مُحاربون أنصاف قتلى. كون المرء حيًّا شيء، وكونه ميتًا شيء آخَر، لكن كونه نِصف قتيلٍ أسوأ من هذا أو ذاك. ليس بإمكانهم أن يموتوا، والحياة بالنِّسبة إليهم مستحيلة، وهكذا يجوبون الأنحاء إلى الأبد. يُسمُّونهم معدومي الأنفاس بسبب ما جرى لهم».

سألَته لايرا متَّسعة العينين: «ماذا؟».

- «ترتار الشَّمال يفتحون ضلوعهم وينتزعون رئاتهم. ثمَّة فنٌّ ما يُجرون به هذه العمليَّة، فيفعلون هذا دون قتلهم، لكن رئاتهم تكفُّ عن العمل ما لم تضخَّ قريناتهم الهواء فيها يدويًّا، والنَّتيجة أنهم عالقون في منتصَف الطَّريق بين الأنفاس وغيابها، بين الحياة والموت، أنصاف قتلى. وهذا ما تفعله قريناتهم طول اللّيل والنَّهار، تضخُّ وتضخُّ وإلَّا متن معهم. سمعتُ أنهم يُقابِلون فصائل كاملةً من معدومي الأنفاس في الغابة أحيانًا. ثم إن هناك الپانزربيورنِه. سمعتِ عنهم؟ الدِّببة المدرَّعون. إنهم دببة بيض عظام و...».

- «نعم! سمعتُ عنهم! أحد الرِّجال ليلة البارحة قال إن عمِّي اللورد آزريل سجين في قلعةٍ تحت حراسة الدِّببة المدرَّعين».

- «حقًّا؟ وماذا كان يفعل هناك؟».

- «يستكشِف. لكن من طريقة كلام الرَّجل، لا أظنُّ أن عمِّي في صفِّ الملتهِمين. أظنُّهم مسرورين لكونه سجينًا».

- «ولن يَخرُج إذا كان تحت حراسة الدِّببة المدرَّعين. إنهم كالمرتزِقة، أتفهمين ما أعنيه؟ يبيعون قوَّتهم لمن يدفع. إن لهم أيديَ كالبَشر، ومنذ زمنٍ طويلٍ تعلَّموا تطريق الحديد وتشكيله، الحديد النَّيزكي غالبًا، ويصنعون ألواحًا ضخمةً من المعدن يُغطُّون بها أنفُسهم. منذ قرون يُغيرون على السكريلينج. إنهم قتَلة متوحِّشون، لا يعرفون الشَّفقة البتَّة، لكنهم يفون بكلمتهم. إذا أجريتِ صفقةً مع الپانزربيورنِه فيُمكنكِ الاعتماد عليهم».

راحَت لايرا تُفكِّر في هذه الأهوال برهبة.

بعد لحظاتٍ قليلة تابعَ توني: «مَا لا تحبُّ سماع شيءٍ عن الشَّمال، بسبب بيلي وما قد يفعلونه به. إننا نعلم أنهم أخذوه إلى الشَّمال».

- «كيف علمتم ذلك؟».

- «قبضنا على أحد الملتهِمين وجعلناه يتكلَّم. هكذا عرفنا القليل عمَّا يفعلونه. هؤلاء الاثنان ليلة أمس لم يكونا ملتهِميْن، كان هذا واضحًا من خرَقهم الشَّديد. لو كانا ملتهِميْن لأخذناهما حيَّين. نحن شعب الچيپتيِّين نالَنا أشد الضَّرر من هؤلاء الملتهمين، والآن بنتجمَّع لنُقرِّر ماذا نفعل. هذا ما كنا نفعله على الضفَّة ليلة أمس؛ نجمع المؤن لأننا ذاهبون إلى اجتماعٍ كبير في الفينات[11]، وهو ما ندعوه بالآصِرة. وما أظنُّه أننا سنُرسِل فريق إنقاذ بعد أن نسمع ما يعرفه الچيپتيُّون الآخَرون ويستكمِل بعضنا معلوماته من بعض. هذا ما كنتُ لأفعله لو أني چون فا».

- «مَن چون فا؟».

- «ملك الچيپتيِّين».

- «وستُنقِذون الأطفال حقًّا؟ ماذا عن روچر؟».

- «مَن روچر؟».

- «صبي المطبخ في كلِّيَّة چوردان. هو أيضًا أخذوه مِثل بيلي قبل يومٍ من ذهابي مع المسز كولتر. أراهنُ أنهم لو أخذوني لأتى يُنقِذني. إذا كنتم ستُنقِذون بيلي فأريدُ أن آتي معكم وأنقذ روچر».

وفكَّرت: وعمِّي آزريل أيضًا، لكنها لم تَذكُر ذلك.

(7) چون فا

استراحَت لايرا كثيرًا بعد أن وضعَت نُصب عينيها هدفًا. لم يكن هناك بأس بمساعدتها المسز كولتر، لكن پانتالايمون على حقٍّ في أنها لم تُؤدِّ عملًا حقيقيًّا هناك، بل كانت مجرَّد حيوانٍ أليف جميل. أمَّا على قارب الچيپتيِّين فثمَّة عمل حقيقي، وقد حرصَت مَا كوستا على أن تُؤدِّيه كما يجب. وهكذا تُنظِّف لايرا وتمسح، وتُقشِّر البطاطس وتعدُّ الشَّاي، وتدهن محامل عمود المروحة الخلفيَّة بالشَّحم، وتُنقِّي الكوَّة فوق المروحة من الحشائش، وتغسل الأطباق، وتفتح بوَّابات الهويس، وتربط القارب إلى أعمدة المراسي... وخلال أيامٍ قليلة وجدَت أنها اعتادَت هذه الحياة الجديدة تمامًا، كأنها وُلِدَت چيپتيَّةً.

ما لم تُدرِكه، أن عائلة كوستا ظلَّت منتبهةً بمنتهى اليقظة لأيِّ علاماتٍ غير معتادة على اهتمام أهالي الضِّفاف بلايرا. حتى إذا لم تكن تُدرِك هذا، فإنها مهمَّة، ولا ريب أن المسز كولتر وهيئة القرابين تبحثان عنها في كلِّ مكان، وهو ما أكَّده سماع توني من نميمة البارات خلال الطَّريق أن رجال الشُّرطة يُداهِمون المنازل والمزارع والمصانع والتَّرسانات دون مبرِّر، ولو أن هناك شائعةً

عن بحثهم عن فتاةٍ مفقودة. وهذا في حدِّ ذاته غريب، بما أن الشَّرطة لم تبحث عن أيٍّ من الأطفال المفقودين الآخَرين.

بدأ التَّوتُّر والاضطراب ينتشران بين الچيپتيِّين وسُكَّان اليابسة على حدٍّ سواء.

وثمَّة سبب آخَر لاهتمام عائلة كوستا بلايرا، لكنها لن تعرفه قبل بضعة أيامٍ أخرى.

وهكذا التزموا إبقاءها تحت السَّطح عندما يمرُّون بكوخ حارس هويس أو حوض قناة أو أيِّ مكانٍ قد يكون فيه متسكِّعون. في مرَّةٍ مرُّوا من بلدةٍ يُفتِّش فيها رجال الشُّرطة كلَّ قاربٍ يأتي، معيقين حركة المرور في كلا الاتِّجاهين. على أن آل كوستا كانوا أندادًا لهم، فثمَّة مخبأ سرِّي تحت سرير مَا، حيث تمدَّدت لايرا محشورةً طيلة ساعتين، فيما راحَ الشُّرطيُّون يدقُّون على جُدران القارب وأرضيَّته من أوله إلى آخِره بلا طائل.

بعدها سألَت: «لِمَ لم تجدني قريناتهم؟»، وأرَتها مَا بطانة الجزء السرِّي المصنوعة من خشب الأرز، الذي له تأثير مخدِّر على القُرناء، وصحيحٌ بالفعل أن پانتالايمون أمضى الوقت كلَّه نائمًا بسعادةٍ عند رأس لايرا.

على مهل، وبعد كثيرٍ من التَّوقُّف والانحراف عن الطَّريق، دنا قارب عائلة كوستا أكثر فأكثر من الفينات، تلك البراري الشَّاسعة التي لم تُرسَم لها خارطة كاملة قَطُّ، بسماواتها الهائلة ومستنقعاتها اللا نهائيَّة في إيسترن آنجليا. يمتزج أبعد حدود الفينات بلا تمييزٍ بجداول البحر الضَّحل ومداخله المدِّيَّة، ويمتزج الجانب الآخَر من البحر بلا تمييزٍ بهولندا، وهناك بقاع من الفينات فرَّغها الهولنديُّون وحفروا فيها الخنادق، واستقرَّ بعضهم هناك، وهو ما أدَّى إلى تشرُّب لُغة الفينات الكثير من الهولنديَّة. لكن هناك بقاعًا أخرى لم تُفرَّغ مياهها أو تُزرَع أو يستوطِنها أحد على الإطلاق، وفي المناطق المركزيَّة الأشد قفرًا، حيث تسعى ثعابين الماء وتُحلِّق أسراب الطُّيور المائيَّة، وحيث تشتعل نيران المستنقعات الغريبة وتجتذب الكائنات المتربِّصة المسافرين الغافلين إلى حتفهم في المستنقعات والمياه الآسنة... هناك لطالما وجدَ شعب الچيپتيِّين الاجتماع أكثر أمنًا.

والآن عبر ألفٍ من القنوات والجداول والمجاري المائيَّة المتعرِّجة تمضي قوارب الچيپتيِّين صوب أرض الآصِرة، وهي الرُّقعة الوحيدة من الأرض المرتفعة بعض الشَّيء وسط مئاتٍ من الأميال المربَّعة من المستنقعات والمياه الآسنة. ثمَّة قاعة اجتماعاتٍ هناك، تُحيط بها مجموعة من المساكن الدَّائمة، علاوةً على المراسي والأرصفة وسوق ثعابين الماء. حينما يدعو الچيپتيُّون إلى الآصِرة -أي استدعاء العائلات أو اجتماعها- تملأ المجاري المائيَّة قوارب لا تُحصى، لدرجة أن بإمكانك أن تمشي ميلًا في أيِّ اتِّجاهٍ على أسطُحها، أو أن هذا ما يُقال. يَحكُم الچيپتيُّون الفينات، ولا أحد غيرهم يجرؤ على دخولها، وبينما يحفظ الچيپتيُّون السَّلام ويُتاجِرون بالعدل فإن أهل اليابسة يتجاهَلون ما يُمارِسونه من تهريبٍ متواصل والنِّزاعات التي تنشب بينهم أحيانًا، فإذا انجرفَت جثَّة چيپتي ما إلى السَّاحل أو علقَت بشبكة صيدٍ فـ... إنه مجرَّد چيپتي.

أصغَت لايرا مفتونةً إلى ما حُكِيَ لها عن ساكني الفينات، عن الكلب الشَّبح العظيم المسمَّى شَك الأسود، ونيران المستنقعات المشتعلة من فقاقيع نِفط السَّاحرات، وبدأت تُفكِّر في نفسها باعتبارها

چيپيتيَّةً من قبل بلوغهم الفينات، وسرعان ما عادَت تتكلّم بصوتها الأكسفوردي، والآن تكتسِب صوتًا چيپيتيًّا أيضًا، لا تَنقُصه كلمات الفينات الهولنديَّة.

مضطرَّةً، ذكَّرتها مَا كوستا ببضعة أشياء، فقالت لها: «أنتِ ما چيپيتيَّة يا لايرا. قد يعتبرونكِ چيپيتيَّةً مع المِران، لكن اللُّغة الچيپيتيَّة ليست سمتنا الوحيدة. إن فينا أعماقًا وتيَّاراتٍ قويَّة. إننا قوم مائيُّون حتى النُّخاع، وأنتِ ما كذلك. أنتِ شخص ناري، أكثر ما تُشبِهينه هو نيران المستنقعات. هذا هو مكانكِ في الخطَّة الچيپيتيَّة، لأن في روحكِ نِفط ساحرات. خدَّاعة أنتِ يا بنيَّة».

جرحَت كلماتها لايرا، التي ردَّت: «أنا ما خدعتُ أحدًا قَطُّ! سَلي...».

ولم يكن هناك من تسأله بالطَّبع، وضحكَت مَا كوستا ولكن بلُطفٍ قائلةً: «ألا ترين أنني أطري عليكِ أيتها السَّاذجة؟»، فهدأَت لايرا، ولو أنها لم تفهم.

عندما بلغوا أرض الآصِرة كان المساء يحلُّ، والشَّمس على وشك الغروب في لُطخةٍ من السَّماء الدَّامية. رأت لايرا الجزيرة الواطئة والزَّال(12) جاثميْن وقد صبغَهما الأسود في الضَّوء مِثل المباني المتكتِّلة حولهما، وخيوط الدُّخان ترتفع في الهواء السَّاكن، ومن القوارب المحتشدة كلِّها انبعثَت روائح السَّمك المقلي وورق الدُّخان والينيڤر.

ربطوا القارب على مقربةٍ من الزَّال نفسه، في مرسًى قال توني إن عائلته تستخدمه منذ أجيال، وفي الحال وضعَت مَا كوستا المقلاة على الموقد وألقَت فيها ثُعبانَي ماءٍ سمينيْن أخذا يُطَقطِقان ويُهَسهِسان، وسخَّنت قِدر الماء من أجل مسحوق البطاطس. دهنَ توني وكيريم شعريهما بالزَّيت، وارتدى كلٌّ منهما أفخم سُترةٍ جِلديَّة يملكها ولفَّ عُنقه بأفضل وشاحٍ أزرق مرقَّط وملأ أصابعه بالخواتم الفضِّيَّة، ثم ذهبا لتحيَّة بعض الأصدقاء القُدامى على القوارب المجاورة وشُرب كأسٍ أو اثنتين في أقرب بار.

ثم إنهما عادا بأخبارٍ مهمَّة.

قال توني: «وصلنا في الوقت المناسب تمامًا. الآصِرة اللَّيلة. ويقولون في البلدة -ما رأيك في هذا؟- يقولون في البلدة إن الطِّفلة المفقودة على متن قارب چيپيتي، وإنها ستظهر اللَّيلة خلال الآصِرة!»، ثم أطلقَ ضحكةً عاليةً ونفشَ شَعر لايرا. منذ دخولهم الفينات ومزاجه في تحسُّنٍ مستمر، كأن الكآبة الشَّديدة التي كسَت وجهه بالخارج كانت مجرَّد قناع.

شعرَت لايرا بحماسةٍ تنمو في صدرها إذ أكلَت سريعًا وغسلَت الأطباق، قبل أن تُمشِّط شعرها وتدسَّ الأليثيوميتر في جيب معطف فرو الذِّئاب، وتثب إلى اليابسة مع العائلات الأخرى التي تشقُّ طريقها على المنحدَر إلى الزَّال بالأعلى.

كانت تحسب أن توني يمزح، لكنها سرعان ما تبيَّنت أنه كان جادًّا، أو أنها تبدو أقل چيپيتيَّةً مما ظنَّت، لأن كثيرين حدَّقوا إليها، وراحَ الأطفال يُشيرون، ولدى وصولهم إلى بوَّابة الزَّال الضَّخمة كانوا يمشون وحدهم وقد تجمَّع الآخَرون على جانبيهم متراجعين ليَنظُروا ويُفسِحوا لهم الطَّريق.

ثم بدأت لايرا تحسُّ بتوتّرٍ حقيقي. ظلّت قريبةً من مَا كوستا، واتّخذ پانتالايمون أكبر تكوينٍ يقدر عليه متحوّلًا إلى فهدٍ كي يبثَّ فيها الطُّمأنينة. صعدَت مَا كوستا السَّلالم على مهلٍ كأن لا شيء في العالم بإمكانه أن يُوقِفها أو يجعلها تتحرَّك أسرع، وسارَ توني وكيريم على جانبيها كأميريْن.

وجدَت القاعة مضاءةً بقناديل النَّفثة السَّاطعة بما فيه الكفاية على وجوه الحاضرين وأبدانهم، وإن تركَت عوارض السَّقف الشَّامخة مخبَّأةً في الظَّلام. كافحَ الدَّاخلون للعثور على مكانٍ للجلوس على الدِّكك المزدحمة بالفعل، لكن العائلات ضغطَت أنفُسها لإفساح مكان، فجلسَ الأطفال في أحضان ذويهم وتكوَّر القُرناء تحت الأقدام أو جثموا على الجُدران الخشبيَّة الخشنة بعيدًا عن الطَّريق.

في مقدِّمة الزَّال منصَّة فوقها ثمانية مقاعد من الخشب المنقوش، وإذ وجدَت لايرا وعائلة كوستا بُقعةً للوقوف عند حافة القاعة، خرجَ ثمانية رجالٍ من الظِّلال عند مؤخِّرة المنصَّة ووقفوا أمام المقاعد، لتجتاح موجة من الإثارة الحاضرين، ويأمر بعضهم بعضًا بالصَّمت ويدسُّوا أنفُسهم على أقرب دِكَّة. وأخيرًا رانَ الصَّمت وجلسَ سبعة من الرِّجال.

الرَّجل الذي بقيَ واقفًا كان في السَّبعينيَّات من عُمره، لكنه طويل القامة ثخين العُنق وتبدو عليه القوَّة، ويرتدي سُترةً تقليديَّةً من قُماش القنَّب فوق قميصٍ مربَّع النَّقش ككثيرٍ من الرِّجال الچيپتيِّين. لا شيء يُميِّز الرَّجل إلَّا سمت القوَّة والنُّفوذ البادي عليه، وهو ما تعرَّفته لايرا ورأته من قبل في عمِّها آزريل وعميد چوردان. قرينة الرَّجل أنثى غُراب، تُشبِه أنثى الغُداف قرينة العميد كثيرًا.

همسَ لها توني: «هذا هو چون فا، سيِّد الچيپتيِّين الغربيِّين».

وبدأ چون فا يتكلَّم بصوتٍ عميق بطيء.

- «أيها الچيپتيُّون! مرحبًا بكم في الآصِرة. لقد جئنا نُصغي وجئنا نُقرِّر. كلُّكم يعلم السَّبب. ثمَّة عائلات كثيرة هنا فقدَت طفلًا، وبعضها فقدَ طفلين. أحدهم يختطِفهم. ومؤكَّد أن أهل اليابسة يفقدون أطفالهم أيضًا، ولسنا في خصومةٍ مع أهل اليابسة بهذا الصَّدد. والآن، هناك كلام دائر عن طفلةٍ مفقودة ومكافأة، وها هي ذي الحقيقة لنضع حدًّا للقيل والقال. الطِّفلة اسمها لايرا بيلاكوا، وشُرطة اليابسة تبحث عنها، وهناك مكافأة قيمتها ألف سوڤرن مقابل تسليمها. إنها من أولاد اليابسة، وحاليًّا في عنايتنا، وهكذا ستبقى، وعلى أيِّ شخصٍ تُغريه مكافأة الألف سوڤرن أن يبحث عن مكانٍ يختبئ فيه، مكانٍ لا في الماء ولا على اليابسة، فسوف لن نتخلَّى عنها».

أحسَّت لايرا بنفسها تتورَّد خجلًا من جذورِ شَعرها إلى أخمص قدميها، وتحوَّل پانتالايمون إلى عُثَّةٍ بنِّيَّة ليتوارى عن الأنظار. كانت الأعيُن كلُّها تلتفت إليهما، وما باليد حيلة إلَّا أن ترفع عينيها إلى مَا كوستا ناشدةً الطُّمأنينة.

لكن چون فا كان يُواصِل كلامه.

- «مهما تكلَّمنا فلن نُغيِّر شيئًا. علينا أن نتصرَّف إذا أردنا تغيير الأمور. وإليكم حقيقة أخرى: الملتهِمون، لصوص الأطفال إياهم، بيأخذون أسراهم إلى بلدةٍ في أقصى الشَّمال، بعيدًا في أرض الظَّلام. لا أدري ماذا يفعلون بهم هناك. بعضهم يقول إنهم يقتلونهم، وبعضهم يقول غير هذا. لسنا

نعلم. ما نعلمه أنهم يفعلون ما يفعلونه بمساعدة شُرطة اليابسة والأساقفة. كلَّ سُلطةٍ على اليابسة تُساعِدهم. تذكَّروا هذا. إنهم على درايةٍ بما يَحدُث وسيُعينونهم عليه متى استطاعوا، ولذا فما أقترحه ما سهل، وأحتاجُ إلى موافقتكم عليه. إنني أقترحُ أن نُرسِل فريقًا من المقاتلين إلى الشَّمال لإنقاذ الصِّغار وإعادتهم أحياء، أقترحُ أن نستثمر ذهبنا في هذه المهمَّة، وكلَّ ما نستطيع تدبيره من شجاعةٍ وحيلة. نعم، رايموند ڤان جيريت؟».

كان رجل بين الحاضرين قد رفعَ يده، وجلسَ چون فا ليدعه يتكلَّم.

- «أستميحك العُذر أيها اللورد فا. الأطفال الأسرى يتضمَّنون أولاد أهل اليابسة أيضًا علاوةً على الچيپتيِّين. هل تقول إن علينا إنقاذهم أيضًا؟».

نهضَ چون فا مجيبًا: «رايموند، هل تقول إن علينا القتال لنشقَّ طريقنا عبر مختلِف الأخطار، لنصل إلى مجموعةٍ صغيرة من الأطفال الخائفين، ثم نقول لبعضهم إن بإمكانهم العودة إلى الدِّيار، وللبقيَّة إن عليهم البقاء؟ لا، أنت أفضل من ذلك يا رجل. طيِّب، هل تُعطونني موافقتكم أيها الأصدقاء؟».

فاجأهم السُّؤال، إذ مرَّت وهلة من التَّردُّد، ولكن بعد مرورها دوَّى في القاعة هدير عنيف، وفي الهواء ارتفعَت الأيدي تُصفِّق والقبضات تهتزُّ والأصوات تهتف بجلبةٍ فائرة. ارتجَّت عوارض سقف الزَّال العالية، ومن مجاثمها في الظُّلمة استيقظَت الطُّيور النَّائمة مذعورةً وخفقَت بأجنحتها، لتتساقَط وابلات صغيرة من الغُبار على الرُّؤوس.

تركَ چون فا الصَّخب يمتدُّ دقيقةً أخرى، ثم عادَ يرفع يده طالبًا الصَّمت، وقال: «سيستغرق التَّنظيم وقتًا. أريدُ من زُعماء العائلات أن يجبوا ضريبةً ويحشدوا فِرقة مقاتلين. سنجتمع هنا ثانيةً بعد ثلاثة أيام، وحتى ذلك الحين سأتكلَّمُ مع الطِّفلة التي ذكرتها من قبل، ومع فاردر كورام، وسأضعُ أمامكم خطَّةً حين نلتقي. طابَت ليلتكم جميعًا».

على الرغم من اقتضابه ومظهره التَّقليدي، كان حضوره الطَّاغي كفيلًا بتهدئتهم، وإذ بدأ الحاضرون يَخرُجون من البوَّابة الضَّخمة إلى برودة المساء، ليذهبوا إلى قواربهم أو بارات المستوطنة الصَّغيرة المزدحمة، خاطبَت لايرا مَا كوستا متسائلةً: «مَن الرِّجال الآخَرون على المنصَّة؟».

- «زُعماء العائلات السِّت، والرَّجل الآخَر هو فاردر كورام».

رأت لايرا بسهولةٍ مَن تعني بالرَّجل الآخَر. إنه أكبر الجميع سِنًّا هنا، يمشي متَّكئًا على عُكَّاز، وطيلة جلوسه وراء چون فا كان يرتعش كالمحموم.

قال توني: «هلمِّي. الأفضل أن آخذكِ لتُقدِّمي فروض الاحترام إلى چون فا. عليكِ دعوته باللورد فا. لا أدري ما سيُلقيه عليكِ من أسئلة، لكن احرصي على قول الحقيقة».

تحوَّل پانتالايمون إلى عُصفور، وجثَمَ بحذرٍ على كتف لايرا وقد انغرسَت مخالبه في فرو معطفها إذ تبعَت توني عبر الزِّحام.

رفعَها توني إلى المنصَّة، ولأنها تعلم أن كلَّ مَن تبقَّى في القاعة يُحَملِق إليها، ولأنها تعي معنى أن قيمتها صارَت ألف سوڤرِن فجأةً، فقد تورَّد وجهها بحُمرة الخجل وتوقَّفت متردِّدةً. اندفعَ پانتالايمون إلى صدرها متحوِّلًا إلى قطٍّ برِّي، واستقرَّ بين ذراعيها مهسهسًا بخفوتٍ وهو يَنظُر حوله.

شعرَت لايرا بدَفعةٍ فتقدَّمت نحو چون فا، الذي بدا صارمًا عملاقًا بلا تعبيرٍ على وجهه، أقرب إلى عمودٍ صخري من رجل، لكنه حنى ظَهره ومدَّ يده ليُصافِحها، ولمَّا وضعَت يدها في يده كادَت تختفي عن نظرها تمامًا.

قال: «أهلًا بكِ يا لايرا».

من هذه المسافة الدَّانية شعرَت كأن لصوته قعقعة الأرض نفسها، وكان الاضطراب ليُصيبها لولا پانتالايمون، ولولا أن التَّعبير الحجري على وجه چون فا قد اكتسبَ شيئًا من الدِّفء.

رأت أنه يُعامِلها بلُطفٍ بالغ، وقالت: «أشكرك أيها اللورد فا».

- «تعالي إلى حُجرة المداولات وسنتكلَّم. هل يُحسِن آل كوستا إطعامكِ؟».

- «أوه، نعم. أكلنا ثعابين ماء على العَشاء».

- «ثعابين ماء أصيلة من الفينات على ما أظنُّ».

حُجرة المداولات مكان مريح يحوي مدفأةً كبيرةً، وأخونةً مثقلةً بالفضَّة والپورسلين، وطاولةً ثقيلةً صقلَتها السِّنون بالدُّكنة ويُحيط بها اثنا عشر مقعدًا.

كان الرِّجال الآخَرون الذين جلسوا فوق المنصَّة قد انصرَفوا، وإن ظلَّ الشَّيخ المرتعش معهما، وقد ساعدَه چون فا على الجلوس إلى الطَّاولة.

قال چون فا للايرا: «اجلسي هنا إلى يميني»، واتَّخذ لنفسه المقعد على رأس الطَّاولة.

وجدَت لايرا نفسها قُبالة فاردر كورام، وأخافَها قليلًا وجهه الشَّبيه بالجمجمة ورعشته المتواصلة. قرينته قطَّة جميلة ضخمة، ألوانها ألوان الخريف، وقد تحرَّكت بأناقةٍ بطول الطَّاولة رافعةً ذيلها،

وتفحَّصت پانتالايمون ماسَّةً أنفه بأنفها سريعًا، قبل أن تستقرَّ في حِجر فاردر كورام وتُغلِق عينيها جزئيًّا وتشرع في قرقرةٍ ناعمة.

خرجَت امرأة لم تلحظها لايرا من قبل من الظِّلال حاملةً صحفةً من الكؤوس، وضعَتها أمام چون فا ثم انحنَت وخرجَت، وصبَّ چون فا كأسين صغيرتين من الينيڤر من إبريقٍ حجري لنفسه ولفاردر كورام، ونبيذًا للايرا.

قال چون فا: «إذن فقد هربتِ يا لايرا».

- «نعم».

- «ومَن السيِّدة التي هربتِ منها؟».

- «اسمها المسز كولتر. حسبتها لطيفةً، لكنني اكتشفتُ أنها واحدة من الملتهِمين. سمعتُ أحدهم يقول مَن هُم الملتهِمون، إن اسمهم الهيئة العامَّة للقرابين، وإنها هي المسؤولة عن تلك الهيئة، إنها فكرتها. وكانوا يعملون على خطَّةٍ ما كلُّهم، لا أدري ما هي، أعرفُ فقط أنهم كانوا سيجعلونني أساعدها على جلب الأطفال إليهم. لكنهم لم يعلموا...».

- «لم يعلموا ماذا؟».

- «أولًا، لم يعلموا أني أعرفُ بعض الأطفال الذين اختُطِفوا. صديقي روچر صبي المطبخ في كلِّيَّة چوردان، وبيلي كوستا، وفتاة من السُّوق المغطَّاة في أكسفورد. وشيء آخَر... عمِّي، تمام؟ اللورد آزريل. سمعتهم يتكلَّمون عن رحلاته إلى الشَّمال، ولا أظنُّ أن له علاقةً بالملتهِمين. لأنني تجسَّستُ على عميد چوردان والباحثين، تمام؟ اختبأتُ في الاستراحة حيث لا يُفترَض أن يَدخُل أحد غيرهم، وسمعته يُخبِرهم بكلِّ شيءٍ عن حملته في الشَّمال، و(الغُبار) الذي رآه، وجاءَ معه برأس ستانيسلوس جرومان الذي صنعَ التَّرتار فيه ثقبًا. الدِّببة المدرَّعون يَحرُسونه، وأريدُ أن أنقذه».

بدَت لايرا قويَّةً عنيدةً إذ جلسَت هناك، صغيرةً أمام ظَهر المقعد العالي المنقوش، ولم يستطِع الرَّجلان المسنَّان إلَّا الابتسام، ولكن لئن كانت ابتسامة فاردر كورام تعبيرًا غنيًّا متردِّدًا ارتجفَ على وجهه كضوء الشَّمس إذا طاردَ الظِّلال في يومٍ مارسي عاصف، فإن ابتسامة چون فا ارتسمَت ببُطءٍ ودفءٍ ووضوحٍ وقد أفعمَتها الطِّيبة.

قال چون فا: «يَحسُن أن تُخبِرينا بما سمعتِ عمَّكِ يقوله تلك اللَّيلة. لا تُغفِلي شيئًا. أخبِرينا بكلِّ شيء».

وأذعنَت لايرا، وبتأنٍّ أكثر مما فعلَت حين حكَت لعائلة كوستا، وبمزيدٍ من الصَّراحة أيضًا. إنها تخشى چون فا، وأخشى ما تخشاه فيه طيبته.

حين فرغَت تكلَّم فاردر كورام أخيرًا، وكان صوته غنيًّا موسيقيًّا، متنوِّعة نغماته كتنوُّع ألوان فرو قرينته.

- «هذا (الغُبار)، هل دعوه بأسماء أخرى يا لايرا؟».

- «لا، (الغُبار) فقط. المسز كولتر قالت لي إنه جُسيمات أوليَّة، لكنها لم تدعُه باسمٍ آخَر».

- «ويحسبون أن بفعلهم شيئًا ما بالأطفال سيُمكنهم اكتشاف المزيد عنه؟».

- «نعم، لكنني لا أدري ماذا. ولو أن عمِّي... هناك شيء نسيتُ إخباركما به. عندما عرضَ عليهم شرائح الفانوس كانت معه واحدة أخرى، صورة للرورر...».

سألَ چون فا: «الماذا؟».

قال فاردر كورام: «الأورورا، أليس كذلك يا لايرا؟».

- «نعم، هي. وفي أضواء الرورر كان هناك ما يُشبِه مدينةً، أبراج وكنائس وقباب وكلُّ هذا. كانت تُشبِه أكسفورد قليلًا. هذا ما خطرَ لي على الأقل. وعمّي آزريل كان مهتمًّا أكثر بهذا على ما أظنُّ، لكن العميد والباحثين الآخَرين كانوا أكثر اهتمامًا بـ(الغُبار)، مِثل المسز كولتر واللورد بوريل والآخَرين».

قال فاردر كورام: «مفهوم. هذا مثير جدًّا للاهتمام».

قال چون فا: «سأخبركِ بشيءٍ الآن يا لايرا. فاردر كورام رجل حكيم. إنه نبي، وكان يُتابِع كلَّ ما يجري بشأن (الغُبار) والملتهِمين واللورد آزريل وما إلى ذلك، ويُتابِعكِ أيضًا. متى ذهبَ آل كوستا إلى أكسفورد، أو غيرهم من العائلات، كانوا يعودون ببعض الأخبار... عنكِ يا بنيَّة. أكنتِ تعلمين هذا؟».

هزَّت لايرا رأسها نفيًا وقد بدأت تخاف. كان پانتالايمون يُزَمجِر بصوتٍ أعمق من أن يُسمَع، وإن شعرَت به أناملها الغائصة في فروه.

قال چون فا: «أوه، نعم، كلُّ ما تفعلينه يَبلُغ فاردر كورام».

ولم تستطِع لايرا الكتمان، فاندفعَت تصيح: «لم نُتلِفه! حقًّا! كان القليل من الطَّمي فقط! ولم نبتعد كثيرًا...».

- «عمَّ تتكلَّمين يا بنيَّة؟».

ضحكَ فاردر كورام، ولمَّا ضحكَ كفَّ عن الارتعاش وصارَ وجهه شابًّا مشرقًا.

غير أن لايرا لم تضحك، وبشفتين راجفتين قالت: «وحتى لو عثرنا على السِّدادة فلم نكن لنخلعها! كانت مزحةً فقط. لم نكن لنُغرِقه أبدًا!».

عندها بدأ چون فا يضحك بدوره، وبيده العريضة ضربَ الطَّاولة بقوَّةٍ رنَّت لها الكؤوس، واهتزَّت كتفاه الهائلتان إذ ضحكَ وضحكَ حتى اضطرَّ إلى تجفيف عينيه من الدُّموع. لم ترَ لايرا منظرًا كهذا

قَطّ أو تسمع هديرًا مشابهًا، كأن جبلًا يضحك.

عندما استطاعَ الكلام ثانيةً قال: «أوه، نعم، سمعنا عن هذا أيضًا أيتها البنت الصَّغيرة! لا أظنُّ أن أقدام آل كوستا وطئَت مكانًا منذ ذلك الحين دون أن يُذكِّرهم أحدهم بهذا. الأفضل أن تَترُك حراسةً على قاربكِ يا توني، كما يقول النَّاس. ثمَّة بنت صغيرة شرسة في الجوار! أوه، هذه القصَّة انتشرَت في جميع أنحاء الفينات يا بنيَّة. لكننا سوف لن نُعاقِبكِ عليها. لا، لا! هدِّئي روعكِ». ثم إنه نظرَ إلى فاردر كورام، وضحكَ الرَّجلان ثانيةً ولكن بمزيدٍ من الرِّفق، وأحسَّت لايرا بالرِّضا والأمان.

أخيرًا هزَّ چون فا رأسه وعادَت إليه جدِّيَّته.

- «كما كنتُ أقولُ يا لايرا، إننا نعرف بأمركِ منذ صِغركِ، منذ كنتِ رضيعةً. مفروض أن تعرفي ما نعرفه. لا يُمكنني أن أخمِّن ما أخبروكِ به في كلِّيَّة چوردان عن أصولكِ، لكنهم لا يعلمون الحقيقة كاملةً. هل أخبروكِ مَن كان والداكِ؟».

الآن كانت لايرا تحسُّ بارتباكٍ تام.

أجابَت: «نعم. قالوا إنني... قالوا إنهما... قالوا إن اللورد آزريل وضعَني هناك لأن أمِّي وأبي ماتا في حادثة طيران. هكذا أخبروني».

- «آه، حقًّا؟ طيِّب يا بنيَّة، سأخبركِ الآن بقصَّة، قصَّة حقيقيَّة، وأعلمُ أنها حقيقيَّة لأن امرأةً چيپتيَّةً حكَتها لي، وكلُّهم يقول الحقيقة لچون فا وفاردر كورام. هذه هي حقيقتكِ يا لايرا. أبوكِ لم يمُت في حادثة طيران، لأن أباكِ هو اللورد آزريل».

ولم تستطِع لايرا إلَّا الجلوس في مكانها وقد ملأَها العجب.

تابعَ چون فا: «إليكِ كيف جرى ما جرى. في شبابه ذهبَ اللورد آزريل للاستكشاف في جميع أنحاء الشَّمال، وعادَ بثروةٍ عظيمة. كان رجلًا مقدامًا سريع الغضب، رجلًا عاطفيًّا. وكانت أمُّكِ عاطفيَّةً أيضًا. لم تكن ابنة عائلةٍ كبيرة مِثله، وإن تحلَّت بالذَّكاء. كانت باحثةً كذلك، ومَن رأوها قالوا إنها رائعة الجَمال، وقد وقعَت هي وأبوكِ في الحُبِّ بمجرَّد لقائهما. المشكلة أن أمَّكِ كانت متزوِّجةً بالفعل بسياسيٍّ كان عضوًا في حزب الملك، وأحد أقرب مستشاريه. كان نجمًا صاعدًا. ثم عندما وجدَت أمُّكِ نفسها حُبلى خافَت أن تُخبِر زوجها بأن مَن في بطنها ليس طفله، ولمَّا وضعَت -وضعَتكِ أنتِ يا بنت- كان واضحًا من شكلكِ أنكِ لا تُشبِهين الزَّوج، بل أبوكِ الحقيقي، ففكَّرت أمُّكِ أن الأفضل أن تُخفيكِ بعيدًا وتُعلِن أنكِ مُتِّ. وهكذا أُخِذتِ إلى أكسفوردشاير حيث أملاك أبيكِ، ووُضِعتِ في عناية امرأةٍ چيپتيَّة تُرضِعكِ. لكن أحدهم وشى لزوج أمِّكِ بما حدثَ، فطارَ إلى هناك وفتَّش الكوخ الذي تَسكُنه المرأة الچيپتيَّة، لكنها كانت قد فرَّت إلى المنزل الكبير، وتبعَها الزَّوج إلى هناك وقد تملَّكه انفعال قاتل. كان اللورد آزريل يصطاد وقتها، لكنهم أبلَغوه فعادَ في الوقت المناسب ليجد زوج أمِّكِ عند قدم السَّلالم الكبيرة. لحظة أخرى وكان ليقتحم الخزانة التي اختبأَت فيها المرأة الچيپتيَّة بكِ، لكن اللورد آزريل تحدَّاه للقتال، وتقاتَلا في التَّوِّ واللَّحظة، وقتلَه اللورد آزريل. المرأة الچيپتيَّة سمعَت ورأت كلَّ شيءٍ يا لايرا، وهكذا علمنا نحن. وكانت العاقبة قضيَّةً كُبرى. أبوكِ ما بالرَّجل الذي يُنكِر الحقيقة أو يُخفيها، وهو ما تركَ القُضاة في مشكلة. لقد قتلَ وأراقَ الدِّماء، لكنه كان يُدافِع عن بيته

وطفلته ضد مقتحِم. ومن ناحيةٍ أخرى يُتيح القانون لأيّ رجلٍ أن يثأر لانتهاك زوجته، وقد دفعَ محامو الرَّجل الميت بأن هذا هو ما أرادَ فِعله بالضَّبط. استمرَّت القضيَّة عدَّة أسابيع، ودارَت المرافعات جيئةً وذهابًا، وفي النِّهاية عاقبَ القُضاة اللورد آزريل بمصادرة جميع أملاكه وأراضيه، وتركوه رجلًا فقيرًا بعد أن كان أغنى من ملك. أمَّا أمُّكِ فلم تُرِد أن تكون لها صلة بالقضيَّة أو بكِ، وأولَت الأمر كلَّه ظَهرها. المرضِعة الچيپتيَّة أخبرَتني بأنها كثيرًا ما خشيَت الطَّريقة التي ستُعامِلكِ بها أمُّكِ، لأنها امرأة متكبِّرة تحتقر الآخَرين، أي لا يُعوَّل عليها. ثم أنتِ. لو اختلفَ مجرى الأمور يا لايرا فلربما كنتِ قد نشأتِ چيپتيَّةً، لأن المرضِعة توسَّلت إلى المحكمة أن تدعها تُربِّيكِ، غير أن الچيپتيّين لا يحظون إلَّا بأهميَّةٍ محدودة في القانون، وقضَت المحكمة أن تُوضَعي في ديرٍ للرَّاهبات، وقد كان، ووُضِعتِ في دير أخوات الطَّاعة في واتلينجتن. لن تَذكُري ذلك. على أن اللورد آزريل رفضَ هذا، لكراهيته الأديرة والرُّهبان والرَّاهبات، ولكونه رجلًا مستبدًّا فقد دخلَ الدَّير على متن حصانه ذات يومٍ وأخذكِ وخرجَ، ولكن ليس ليعتني بكِ بنفسه أو ليُعطيكِ للچيپتيّين، بل أخذكِ إلى كلِّيَّة چوردان وتحدَّى القانون أن يُبطِل هذا. تركَ القانون الوضع على ما هو عليه، وعادَ اللورد آزريل إلى استكشافاته، ونشأتِ أنتِ في كلِّيَّة چوردان. الشَّيء الوحيد الذي قاله أبوكِ، الشَّرط الوحيد الذي وضعَه، ألَّا يُسمَح لأمِّكِ برؤيتكِ، وإذا حاولَت فعليهم منعها وإبلاغه، ذلك أن كلَّ ما في طبيعته من غضبٍ كان قد انقلبَ عليها هي. وعدَه العميد بالتزام شرطه بإخلاص، ومرَّ بعض الوقت، ثم وقعَت تلك التَّوتُّرات الخاصَّة بـ(الغُبار)، وفي جميع أنحاء البلاد، في جميع أنحاء العالم، بدأ الحُكماء رجالًا ونساءً يقلقون بشأنه. لم يكن أمره يُمثِّل للچيپتيّين شيئًا إلى أن بدأوا يختطفون أطفالنا، وعندها بدأنا نهتمُّ بدورنا. ونحن لنا صلات في مختلِف الأماكن التي لا يُمكنكِ تخيُّلها، بما فيها چوردان. لستِ تعلمين هذا، لكن هناك مَن كان يَحرُسكِ ويُخبِرنا بما تفعلينه منذ وصولكِ إلى هناك، لأننا مهتمُّون بكِ، وتلك المرأة الچيپتيَّة التي أرضعتكِ لم تكفَّ قَطُّ عن القلق عليكِ».

سألَته: «مَن هذا الذي كان يَحرُسني؟». كانت تحسُّ بأهميَّةٍ وغرابةٍ عظيمتين لأن أفعالها موضوع اهتمامٍ عند قومٍ بعيدين عنها للغاية.

- «عامل مطبخ، برني چوهانسن طاهي المعجنات. إنه نِصف چيپتي. أراهنُ أنكِ لم تعلمي هذا قَطُّ».

برني رجل طيِّب يُؤثِر العُزلة، وواحد من البشر النَّادرين الذين يشتركون مع قُرنائهم في الجنس نفسه. كان برني هو من زعقَت فيه في خضمِّ يأسها عند اختطاف روچر، وبرني هو من يُخبِر الچيپتيّين بكلِّ شيء!

غمرَتها الدَّهشة الشَّديدة، فيما واصلَ چون فا: «على كلِّ حال، لقد سمعنا بمغادرتكِ كلِّيَّة چوردان، وكيف حدثَ هذا في الوقت الذي حُبِسَ فيه اللورد آزريل ولم يستطِع منعه، وتذكَّرنا ما قال للعميد ألَّا يفعله أبدًا، وتذكَّرنا أن الرَّجل الذي تزوَّجته أمُّكِ، السِّياسي الذي قتلَه اللورد آزريل، كان اسمه إدوارد كولتر».

مبهوتةً قالت لايرا: «المسز كولتر... إنها ليست أمِّي، أليس كذلك؟».

- «بل هي أمُّكِ، ولو كان اللورد آزريل حُرًّا لما جروَت على تحدِّيه أبدًا، ولظللتِ في كلِّيَّة چوردان دون أن تعلمي شيئًا. لكن لِمَ تركَكِ العميد ترحلين فهذا لُغز لا يُمكنني تفسيره. لقد كُلِّفَ برعايتكِ. كلُّ ما يُمكنني تخمينه أنها تملك سُلطةً ما عليه».

استوعبَت لايرا فجأةً سلوك العميد الغريب صبيحة رحيلها، وقالت محاولةً التَّذكُّر بالضَّبط: «لكنه لم يُرِد أن... إنه... لقد ذهبت لأراه ذلك الصَّباح، وكان لازمًا ألَّا أخبر المسز كولتر... كأنه أرادَ أن يحميني منها...». توقَّفت وتطلَّعت إلى الرَّجلين بحذر، ثم قرَّرت أن تُخبِرهما بالحقيقة الكاملة عن الاستراحة. «كان هناك شيء آخَر. ذلك المساء عندما اختبأتُ في الاستراحة، رأيتُ العميد يُحاوِل تسميم اللورد آزريل. رأيته يضع مسحوقًا ما في النَّبيذ، وأخبرتُ عمِّي فأسقطَ الدورق من فوق الطَّاولة وسكبَه. لقد أنقذتُ حياته. لم أفهم قَطُّ لِمَ أرادَ العميد أن يُسمِّمه لأنه كان طيِّبًا جدًّا دومًا. ثم في الصَّباح الذي رحلتُ فيه استدعاني إلى مكتبه، وذهبتُ إليه في السِّرِّ كي لا يعرف أحد، وقال...». اعتصرَت لايرا ذهنها في محاولة تذكُّر ما قاله العميد تحديدًا، ولا فائدة، فهزَّت رأسها وأردفَت: «الشَّيء الوحيد الذي فهمته أنه أعطاني شيئًا عليَّ أن أخفيه عنها، عن المسز كولتر. أظنُّ أن لا بأس بإخباركما...».

تحسَّست جيب معطفها وأخرجَت الحزمة المخمليَّة، ووضعَتها على الطَّاولة مستشعرةً فضول چون فا العارم البسيط وذكاء فاردر كورام المتوهِّج المتذبذب، وقد سدَّد كلاهما نظراته إلى الحزمة كالأضواء الكشَّافة.

ولمَّا كشفَت الأليثيوميتر كان فاردر كورام أول مَن تكلَّم.

- «لم أحسب قَطُّ أن تقع عيناي على واحدٍ آخَر ثانيةً. إنه قارئ رموز. هل أخبركِ بأيِّ شيءٍ عنه يا بنيَّة؟».

- «لا. قال فقط إن عليَّ أن أكتشف كيف أقرأه بنفسي، وإن اسمه أليثيوميتر».

التفتَ چون فا إلى رفيقه متسائلًا: «بمعنى ماذا؟».

قال فاردر كورام: «إنها كلمة يونانيَّة. أظنُّ أنها مشتقَّة من «أليثيا»، أي «الحقيقة». إنه مقياس حقيقة». ثم سألَ لايرا: «هل اكتشفتِ طريقة قراءته؟»

- «لا. يُمكنني فقط أن أجعل الثَّلاثة عقارب الصَّغيرة تُشير إلى صُورٍ مختلفة، لكنني لا أستطيعُ أن أفعل شيئًا بالكبير. لكن أحيانًا، تمام؟ أحيانًا عندما أركِّزُ نوعًا، يُمكنني أن أحرِّك الإبرة الطَّويلة في هذا الاتِّجاه أو ذاك بمجرَّد التَّفكير».

سألَ چون فا: «ما الذي يفعله يا فاردر كورام؟ وكيف يُقرأ؟».

أجابَ فاردر كورام رافعًا إياه برفقٍ إلى عينَي چون فا بنظراتهما القويَّة الجافَّة: «كلُّ هذه الصُّور حول الحافة، إنها رموز، وكلُّ واحدٍ يُعبِّر عن سلسلةٍ كاملة من الأشياء. خُذ المرساة مثلًا. أول معنى لها هو الأمل، لأن الأمل يُثبِّتك كالمرساة كي لا تجنح. المعنى الثَّاني هو الجَلَد، والثَّالث هو العقبات

الخفيَّة، أو المنع. المعنى الرَّابع هو البحر. وهكذا وحتى عشرة معانٍ أو اثني عشر، وربما سلسلة لا نهائيَّة من المعاني».

- «وأنت تعرفها جميعًا؟».

- «أعرفُ بعضها، لكن لأقرأها بالكامل فسأحتاجُ إلى الكتاب. لقد رأيتُ الكتاب وأعرفُ أين هو، لكنه ما معي».

قال چون فا: «سنرجع إلى هذا لاحقًا. أكمِل كيف تقرأه».

شرحَ فاردر كورام: «عندك ثلاثة عقارب يُمكنك التَّحكُّم فيها، وتستخدمها للسُّؤال. بالإشارة إلى ثلاثة رموز يُمكنك أن تسأل أيَّ سؤالٍ تتخيَّله، لأن هناك مستوياتٍ كثيرةً جدًّا لكلِّ رمز. ما إن تنتهي من تكوين سؤالك يدور العقرب الآخَر ويُشير إلى رموزٍ أخرى تُعطيك الإجابة».

- «لكن كيف يعرف المستوى الذي تُفكِّر فيه عندما تُكوِّن السُّؤال؟».

- «آه. إنه لا يعرف من تلقاء نفسه، ولا يعمل إلَّا إذا وضعَ السَّائل المستويات في عقله. عليك أن تعرف المعاني كلَّها أولًا، ولا بُدَّ أن هناك ألفًا منها أو أكثر. ثم عليك أن تضعها في عقلك من دون توتُّرٍ ومن دون أن تُحاوِل الدَّفع إلى إجابةٍ بعينها، وتُشاهِد فقط فيما تدور الإبرة. عندما تدور دورتها كاملةً ستعرف الإجابة. أعرفُ كيف يعمل لأنني ذات مرَّةٍ رأيتُ رجلًا حكيمًا يفعلها في أوپسالا، وهذه هي المرَّة الوحيدة التي رأيتُ فيها واحدًا كهذا. هل تعلمين كم هي نادرة هذه الأشياء؟».

قالت لايرا: «العميد قال لي إن ستَّةً منها فقط صُنِعَت».

- «أيًّا كان العدد فهو ما كبير».

سألَها چون فا: «وأخفيتِه عن المسز كولتر كما أخبركِ العميد؟».

- «نعم، لكن قرينها، تمام؟ قرينها اعتادَ دخول غُرفتي، وأنا متأكِّدة من أنه وجدَه».

- «مفهوم. طيِّب يا لايرا، لا أدري إن كنا سنفهم الحقيقة كاملةً أبدًا، لكن هذا هو أفضل تخمينٍ عندي. اللورد آزريل كلَّف العميد برعايتكِ وحمايتكِ من أمِّكِ، ولقد فعلَ هذا طوال عشرة أعوامٍ أو أكثر. ثم إن أصدقاء المسز كولتر في الكنيسة ساعَدوها على إنشاء هيئة القرابين إياها، لأيِّ غرضٍ لا ندري، وهكذا أصبحَت صاحبة سطوةٍ بالغة على طريقتها كما كان اللورد آزريل على طريقته. والداكِ، كلاهما من أقوياء العالم، وكلاهما طموح، وعميد چوردان يضعكِ في الميزان بينهما. طيِّب، العميد عنده مئة شيءٍ عليه الاهتمام به، وهمُّه الأول هو كلِّيَّته والدِّراسة فيها، وهكذا إذا رأى ما يُهدِّد هذا فعليه أن يتحرَّك ضده. والكنيسة في الآونة الأخيرة يا لايرا تزداد تسلُّطًا. مجالس لهذا ومجالس لذاك، وهناك كلام عن إحياء مكتب التَّفتيش لا قدَّر الله. وعلى العميد أن يخطو بحذرٍ بين كلِّ هذه السُّلطات، عليه أن يقي كلِّيَّة چوردان شرَّ الكنيسة وإلَّا خربَت. ومن هموم العميد الأخرى أنتِ يا بنيَّة. لطالما كان برني چوهانسن واضحًا في هذا الصَّدد. عميد چوردان والباحثون الآخَرون أحبُّوكِ كأنكِ ابنتهم، وكانوا ليفعلوا أيَّ شيءٍ ليُحافِظوا على سلامتكِ وأمنكِ، ليس فقط لأنهم وعدوا اللورد

آزريل، بل لأجلكِ أنتِ أيضًا. لذا ما دامَ العميدِ قد أعطاكِ للمسز كولتر بعدما وعدَ اللورد آزريل بأنه لن يفعل، فمؤكَّد أنه حسبَ أنكِ ستكونين آمنةً أكثر معها من كلِّيَّة چوردان على الرغم من كلِّ ما تقوله المظاهر. وعندما حاولَ تسميم اللورد آزريل، مؤكَّد أنه فكَّر أن ما كان اللورد آزريل بيفعله سيضعهم جميعًا في خطر، أو يضعنا جميعًا أيضًا، أو ربما العالم بأكمله. إنني أرى العميد رجلًا أمامه خياراتٍ فظيعة، وأيًّا كان خياره فسوف يُسبِّب ضررًا، لكن إذا فعلَ الصَّواب فقد يقع ضرر أخف من ضرر الخيار الخطأ. ليحمني الله من الاضطرار إلى اختيارٍ كهذا. ولمَّا بلغَ الأمر أن يتخلَّى عنكِ مضطرًّا أعطاكِ قارئ الرُّموز وسألكِ أن تحفظيه سرًّا. أتساءلُ عمَّا أرادكِ أن تفعلي به بما أنكِ لم تكوني تستطيعين قراءته. يُحيِّرني حقًّا ما كان يُفكِّر فيه».

قالت لايرا مكافحةً للتَّذكُّر: «قال إن العمَّ آزريل قدَّم الأليثيوميتر إلى كلِّيَّة چوردان قبل سنوات. كان سيقول شيئًا آخَر، لكن أحدهم طرقَ الباب فصمتَ. خطرَ لي أنه ربما أرادني أن أخفيه عن اللورد آزريل أيضًا».

علَّق چون فا: «أو العكس».

سألَه فاردر كورام: «ماذا تعني يا چون؟».

- «ربما أرادَ أن يَطلُب من لايرا أن تُعيده إلى اللورد آزريل على سبيل التَّعويض عن محاولة تسميمه. ربما فكَّر أن الخطر الذي يُشكِّله اللورد آزريل قد مرَّ، أو أن باستطاعة اللورد آزريل أن يقرأ حكمةً ما في هذه الأداة فيتراجع عن هدفه. إذا كان اللورد آزريل أسيرًا الآن فقد يُساعِد هذا على تحريره. طيِّب يا لايرا، الأفضل أن تأخذي قارئ الرُّموز هذا وتُحافِظي عليه. ما دمتِ قد حافظتِ عليه حتى الآن فما يُقلِقني أن أتركه معكِ. لكن قد يأتي وقت نحتاج فيه إلى استشارته، وعندها سنَطلُبه».

غلَّف فاردر كورام الأليثيوميتر بالمخمل ودفعَه إليها على سطح الطَّاولة. أرادَت لايرا أن تُلقي أسئلةً شتَّى، غير أنها شعرَت فجأةً بالخجل من هذا الرَّجل العملاق، بعينيه الصَّغيرتين بالغتَي الحدَّة بالغتَي اللُّطف وسط طيَّات وجهه وتجاعيده.

لكن هناك سؤالًا واحدًا كان يجب أن تُلقيه.

- «مَن كانت المرأة الچيپتيَّة التي أرضعَتني؟».

- «أمُّ بيلي كوستا طبعًا. إنها لم تُخبِركِ لأني ما سمحتُ لها، لكنها تعرف ما نتكلَّم عنه هنا ليكون كلُّ شيءٍ واضحًا. والآن الأفضل أن ترجعي إليها. لديكِ أشياء كثيرة عليكِ التَّفكير فيها يا بنيَّة. بعد مرور ثلاثة أيام ستنعقِد آصِرة أخرى ونُناقِش كلَّ ما يجب أن نفعله. كوني فتاةً طيِّبةً. تُصبِحين على خير يا لايرا».

قالت بأدب: «تُصبِح على خير أيها اللورد فا. تُصبِح على خير يا فاردر كورام»، وضمَّت الأليثيوميتر إلى صدرها بيدٍ ورفعَت پانتالايمون بالأخرى.

ابتسمَ لها كلا الرَّجلين المسنّين بدماثة، وخارج حُجرة المداوَلات كانت مَا كوستا في انتظارها. ثم وكأن شيئًا لم يَحدُث منذ وُلِدَت لايرا، احتوَتها أمُّ القارب بذراعيها العظيمتين وقبَّلتها قبل أن تحملها إلى الفِراش.

(8) الإحباط

على لايرا أن تتكيَّف مع إحساسها الجديد بقصَّتها، ولن يَحدُث ذلك في يومٍ وليلة. أن ترى اللورد آزريل باعتباره أباها شيء، لكن قبولها المسز كولتر باعتبارها أمَّها ليس بهذه السُّهولة على الإطلاق. قبل شهورٍ معدودة كانت لتفرح بالطَّبع، وهو ما تعيه أيضًا، ويُشعِرها بالحيرة.

لكن لأنها لايرا فإنها لم تشغل بالها طويلًا بالأمر، فهناك بلدة الفينات لتستكشفها، والعديد من الأطفال الچيپتيِّين لتُذهِلهم. قبل انقضاء الأيام الثَّلاثة كانت قد صارَت خبيرةً في قيادة قوارب البنط (من وجهة نظرها على الأقل)، وجمعَت عصابةً من الصِّغار حولها بحكاياتٍ عن أبيها القدير الذي وقعَ ظُلمًا في الأسر.

- «ثم ذات مساءٍ حلَّ السَّفير التركي ضيفًا على العَشاء في چوردان، وكان يحمل أمرًا من السُّلطان بنفسه بقتل أبي، تمام؟ وكان على إصبعه خاتم فيه حجر أجوف مليء بالسُّم. وحين قدَّموا النَّبيذ تظاهرَ بمدِّ يده فوق كأس أبي ورشَّ فيها السُّم. فعلها بمنتهى السُّرعة فلم يرَه أحد آخَر، ولكن...».

سألَتها فتاة نحيلة الوجه: «أيُّ نوعٍ من السُّم؟».

قالت لايرا ملفِّقةً جوابًا: «سُم من أفعى تركيَّة خاصَّة، يقبضون عليها بالعزف على المزمار لاستدراجها للخروج، ثم يُلقون إليها إسفنجةً مشبَّعةً بالعسل، فتعضُّها الحيَّة ولا تستطيع انتزاع أنيابها، ويُمسِكونها ويستقطِرون منها الزُّعاف. على كلِّ حال، يرى أبي ما فعلَه التركي، فيقول: أيها السَّادة، لنشرب نخب الصَّداقة بين كلِّيَّة چوردان وكلِّيَّة إزمير، وهي الكلِّيَّة التي كان السَّفير التركي ينتمي إليها. ولنُعرِب عن رغبتنا في الصَّداقة، يقول أبي، سنُبادِل الكؤوس ويشرب كلٌّ منا نبيذ الآخَر. وعندها وجدَ السَّفير نفسه في ورطة، لأنه لا يستطيع أن يَرفُض الشُّرب دون أن يُوجِّه إهانةً بالغةً، ولا يستطيع أن يشرب لأنه يعلم أن الشَّراب مسموم. امتقعَ وجهه وفقدَ الوعي وهو جالس إلى المائدة، ولمَّا أفاقَ وجدَهم ما زالوا جالسين هناك، ينتظرون وينظرون إليه، وكان إمَّا أن يشرب السُّم أو يعترف بفعلته».

- «وماذا فعلَ؟».

- «شربَه، واستغرقَ خمس دقائق كاملةً حتى ماتَ، وتعذَّب طول الوقت».

- «هل رأيتِ هذا بنفسكِ؟».

- «لا، لأن الفتيات ما مسموح لهن بالجلوس إلى المائدة العالية، لكنني رأيتُ جثّته بعدها. كان جِلده متجعِّدًا تمامًا كتُفَّاحةٍ قديمة، وعيناه بارزتين من رأسه. في الحقيقة اضطرُّوا إلى دفعهما ثانيةً داخل محجريهما...».

وهكذا دواليك.

في تلك الأثناء، حول أطراف ريف الفينات، كانت الشُّرطة تَطرُق الأبواب وتُفتِّش العلِّيَّات والمراحيض الخارجيَّة وتفحص الأوراق وتستجوب كلَّ مَن يَزعُم أنه رأى فتاةً صغيرةً شقراء. وفي أكسفورد كان البحث أعنف وأعنف، فخضعَت كلِّيَّة چوردان للتَّفتيش، بما في ذلك المخازن المغبَّرة والأقبية المظلمة، وكذا كلِّيَّتا جابريِل وسانت مايكل، إلى أن أصدرَ رؤساء الكلِّيَّات كلِّها شكوى مشتركةً يُؤكِّدون فيها حقوقهم الضَّاربة في القِدم. الفكرة الوحيدة التي بلغَت لايرا عن البحث عنها كانت من طنين السُّفن الجوِّيَّة المتعاقب إذ تقطع السَّماء جيئةً وذهابًا، وإن لم ترَها لايرا بعينيها لأن السُّحب منخفضة، كما أن القانون ينصُّ على التزام السُّفن الجوِّيَّة ارتفاعًا معيَّنًا فوق ريف الفينات، ولكن مَن يدري أيَّ أدوات تجسُّسٍ خبيثة تحملها هذه السُّفن؟ الأفضل إذن أن تبقى مستترةً حينما تسمعها، أو تضع القلنسوة الصَّفراء المصنوعة من المشمَّع لتُخفي شَعرها الزَّاهي المميَّز.

وسألَت لايرا مَا كوستا عن كلِّ تفصيلةٍ من قصَّة مولدها، ونسجَت التَّفاصيل في لوحةٍ عقليَّة أوضح وأبلغ من القصص التي تختلقها، ومرَّةً تلو المرَّة عاشَت لحظات الهرب من الكوخ والاختباء في الخزانة والتَّحدِّي الخشن وتقارُع السُّيوف...

قاطعَتها مَا كوستا: «سيوف؟ بحقِّ الله العظيم، هل تَحلُمين يا بنت؟ المستر كولتر كان يحمل مسدَّسًا، واللورد آزريل أسقطَه من يده وأجهزَ عليه بضربةٍ واحدة، ثم سُمِعَت طلقتان. غريب أنكِ لا تَذكُرين. المفترَض أن تَذكُري على الرغم من صِغركِ حينها. الطَّلقة الأولى كانت من إدوارد كولتر الذي استلَّ مسدَّسه وأطلقَ النَّار، والثَّانية كانت من اللورد آزريل الذي انتزعَه من قبضته مرَّةً ثانيةً وصوَّبه إليه. أصابَه بين عينيه مباشرةً وفجَّر مخَّه. ثم إنه قال بمنتهى الهدوء: اخرُجي أيتها المسز كوستا واجلبي الرَّضيعة، لأنكِ كنتِ منفجرةً في العويل، أنتِ وقرينكِ هذا. وأخذكِ اللورد آزريل وهدهدَكِ وأجلسَكِ على كتفيه وراحَ يتمشَّى بكِ بمزاجٍ طيِّب جدًّا والرَّجل الميت عند قدميه، وطلبَ نبيذًا وأمرَني بمسح الأرض».

مع نهاية تكرار القصَّة للمرَّة الرَّابعة باتَت لايرا مقتنعةً تمامًا بأنها تَذكُر ما حدثَ، بل وتطوَّعت بإضافة تفاصيل عن لون معطف المستر كولتر والثِّياب المعلَّقة في الخزانة، وهو ما أضحكَ مَا كوستا.

ومتى انفردَت لايرا بنفسها أخرجَت الأليثيوميتر وتأمَّلت فيه كحبيبةٍ تتطلَّع إلى صورة حبيبها. لكلِّ صورةٍ عدَّة معانٍ إذن، أليس كذلك؟ ما الذي يمنعها من اكتشافها؟ أوليست ابنة اللورد آزريل؟

متذكِّرةً ما قاله فاردر كورام، حاولَت لايرا تركيز عقلها على ثلاثة رموزٍ عشوائيَّة ودوَّرت العقارب لتُشير إليها، فوجدَت أنها إذا حملَت الأليثيوميتر ببساطةٍ في راحتَي يديها ونظرَت إليه بطريقةٍ كسول معيَّنة فيما تُفكِّر في سؤالها، فإن الإبرة الطَّويلة تبدأ في الحركة بمزيدٍ من القصد،

وبدلًا من شططها الجامح حول القُرص تتحرَّك بنعومةٍ من صورةٍ إلى أخرى. أحيانًا تتوقّف عند ثلاث صُور، وأحيانًا عند صورتين، وأحيانًا عند خمسٍ أو أكثر، وعلى الرغم من أن لايرا لم تفهم شيئًا فقد اكتسبَت من الأمر متعةً هادئةً عميقةً لا تُشبِه شيئًا خبرَته في حياتها على الإطلاق.

في تلك الأوقات يقبع پانتالايمون فوق القُرص -بتكوين قطٍّ حينًا وبتكوين فأرٍ حينًا- مدوِّرًا رأسه وراء الإبرة، ومرَّةً أو مرَّتين أدركَ الاثنان معًا لمحةً من معنى كانت بمثابة خيطٍ من ضوء الشَّمس اخترقَ السُّحب منيرًا سلسلةً مهيبةً من التِّلال العظيمة في الأُفق، كشيءٍ بعيد بعيد لم يَخطُر قَطُّ ببال أحد. في تلك الأوقات تَشعُر لايرا بالإثارة نفسها التي اعترَتها طيلة حياتها متى سمعَت كلمة «الشَّمال».

وهكذا مرَّت الأيام الثَّلاثة التي شهدَت الكثير من الذَّهاب والإياب بين القوارب العديدة والزَّال. ثم جاءَ مساء الآصِرة الثَّانية، وامتلأَت القاعة أكثر من المرَّة السَّابقة (إن كان هذا ممكنًا). وصلَت لايرا وآل كوستا في الوقت المناسب للجلوس في الصَّفِّ الأمامي، وما إن أرَت الأضواء المتذبذة أن المكان ازدحمَ عن آخِره، صعدَ چون فا وفاردر كورام إلى المنصَّة وجلسا وراء الطَّاولة، ولم يضطرَّ چون فا إلى الإشارة بالصَّمت هذه المرَّة، بل اكتفى ببسط راحتَي يديه الضَّخمتين على سطح الطَّاولة، ونظرَ إلى النَّاس أسفله ليسود الهدوء.

بدأ چون فا يتكلَّم قائلًا: «طيِّب، لقد فعلتم ما طلبته، وأفضل مما أملتُ. الآن سأطلبُ من زُعماء العائلات السِّت أن يصعدوا ليُسلِّموا ذهبهم ويُقدِّموا وعودهم. نيكولاس روكبي، أنت أولًا».

صعدَ رجل سمين أسود الشَّعر إلى المنصَّة، ووضعَ جوالًا جِلديًّا ثقيلًا على الطَّاولة، وقال: «ها هو ذا ذهبنا، ونُقدِّم ثمانيةً وثلاثين رجلًا».

قال چون فا: «أشكرك يا نيكولاس».

دوَّن فاردر كورام الأرقام، ووقفَ الرَّجل الأول في مؤخِّرة المنصَّة فيما نادى چون فا التَّالي والتَّالي، وجاءَ كلٌّ منهم واضعًا جوالًا على الطَّاولة، ثم أعلنَ عدد الرِّجال الذين استطاعَ حشدهم. آل كوستا جزء من عائلة ستفانسكي، وبطبيعة الحال كان توني من أول المتطوِّعين، وقد لاحظَت لايرا قرينته أنثى الباز تنتقل من قدمٍ إلى قدمٍ وتبسط جناحيها إذ قُدِّمَ مال عائلة ستفانسكي والوعد بثلاثةٍ وعشرين رجلًا إلى چون فا.

وحين صعدَ زُعماء العائلات السِّت جميعًا، عرضَ فاردر كورام ورقته على چون فا، الذي وقفَ يُخاطِب الحاضرين ثانيةً.

- «أيها الأصدقاء، هذا حشد من مئةٍ وسبعين رجلًا. بكلِّ فخرٍ أشكركم. بالنِّسبة إلى الذَّهب، فلا شكَّ لديَّ من وزنه في أنكم أخرجتم كلَّ ما تقدرون عليه من خزائنكم، ولكم شكري الحار على هذا أيضًا. إليكم خطوتنا التَّالية. سنستأجر سفينةً ونُبحِر شمالًا ونَعثُر على أولئك الصِّغار ونُحرِّرهم. مما نعلمه، قد يقع شيء من القتال. لن تكون تلك المرَّة الأولى ولن تكون الأخيرة، لكننا لم نضطرَّ قَطُّ إلى قتال أناسٍ يختطفون الأطفال، وعلينا أن نتوخَّى أقصى درجات الحذر والحيلة. لكننا سوف لن نعود من دون أطفالنا. نعم، ديرك ڤرايس؟».

نهضَ رجل قائلًا: «لورد فا، هل تعلم لِمَ اختطفوا أولئك الأطفال؟».

- «سمعنا أنها مسألة لاهوتيَّة. إنهم يُجرون تجربةً ما، لكننا لا ندري طبيعتها. أصدقكم القول جميعًا، لسنا ندري حتى إن كان سوء ما يُصيبهم. لكن أيًّا كان ما يفعلونه، خيرًا كان أم شرًّا، فليس لهم الحق في التَّسلُّل في جوف اللَّيل وانتزاع الأطفال الصِّغار من قلوب ذويهم. نعم، رايموند ڤان جيريت؟».

نهضَ الرَّجل الذي تكلَّم في الاجتماع الأول، وقال: «تلك الطِّفلة أيها اللورد فا، التي ذكرت أنهم يبحثون عنها، الجالسة في الصَّفِّ الأمامي الآن. سمعتُ أن جميع السَّاكنين حول أطراف الفينات يتعرَّضون إلى تفتيش منازلهم وقلبها رأسًا على عقب بسببها. وسمعتُ أن هناك حركةً في البرلمان اليوم تحديدًا لإلغاء امتيازاتنا العتيقة بسبب هذه الطِّفلة»، وأضافَ رافعًا صوته فوق ثرثرة المتهامسين المصدومة: «أجل أيها الأصدقاء، سيُمرِّرون قانونًا يسلبنا حقَّنا في دخول الفينات والخروج منها بحرِّيَّة. والآن أيها اللورد فا، هذا هو ما نُريد أن نعرفه: مَن هذه الطِّفلة التي قد يجري لنا هذا بسببها؟ إنها ليست چيپتيَّةً حسب ما سمعتُ، فكيف تضعنا طفلة من أولاد اليابسة جميعًا في خطر؟».

رفعَت لايرا عينيها إلى هيكل چون فا العملاق، يدقُّ قلبها بعُنفٍ بالغ يكاد يصمُّ أُذنيها عن الكلمات الأولى من ردِّه.

- «قُلها بصراحةٍ يا رايموند، لا تخجل. إنك تُريدنا أن نُسلِّم الطِّفلة إلى من فرَّت منهم، أليس كذلك؟».

وقفَ الرَّجل مقطِّبًا وجهه بعناد، وإن لم يقل شيئًا.

تابعَ چون فا: «ربما تُريدنا أن نفعل ذلك، وربما لا، لكن إن كان أيُّ رجلٍ أو امرأةٍ هنا في حاجةٍ إلى سببٍ لفعل الخير، فتفكَّروا في هذا. هذه الفتاة الصَّغيرة ابنة اللورد آزريل لا أقل. لمَن نسيَ، اللورد آزريل هو مَن توسَّط لدى الأتراك لإنقاذ حياة سام بروكمان. اللورد آزريل هو مَن سمحَ لقوارب الچيپتيِّين بالمرور بحريَّةٍ في القنوات عبر أملاكه. اللورد آزريل هو مَن أفشلَ مشروع قانون المجاري المائيَّة في البرلمان، وهو ما أفادَنا فائدةً كُبرى دائمةً. واللورد آزريل هو مَن كدحَ ليل نهار في فيضانات عام 53 وقفزَ في الماء بلا تردُّدٍ مرَّتين لإنقاذ روود الصَّغير ونِلي كوپمان. هل

نسيت هذا؟ عار، عار عليك، عار. والآن هذا اللورد آزريل نفسه حبيس في أبعد وأبرد منطقةٍ من البراري، أسير في قلعة سڤالبارد. هل عليَّ أن أخبركم أيُّ مخلوقاتٍ تَحرُسه هناك؟ وهذه ابنته الصَّغيرة في عنايتنا، ورايموند ڤان جيريت يُريد أن يُسلِّمها إلى السُّلطات مقابل القليل من السَّلام والهدوء. أليس كذلك يا رايموند؟ قِف وأجِب يا رجل».

لكن رايموند ڤان جيريت كان قد تهاوى على مقعده، وما من شيءٍ كان ليجعله يقف، وانتشرَ في القاعة الكُبرى هسيس خفيض من الاستهجان، واستشعرَت لايرا الخزي الذي من المؤكَّد أنه يَشعُر به، علاوةً على وهجٍ عميق من الفخر بأبيها الشُّجاع.

التفتَ چون فا ناظرًا إلى الرِّجال الآخَرين فوق المنصَّة، وقال: «نيكولاس روكبي، سأولِّيك مسؤوليَّة العثور على سفينةٍ وقيادتها عندما نُبحِر. آدم ستفانسكي، أريدك أن تتولَّى أمر الأسلحة والذَّخيرة وقيادة القتال. روچر ڤان پوپل، عليك بجميع المؤن الأخرى من الطَّعام إلى الملابس الثَّقيلة. سايمون هارتمان، ستكون أنت أمين المال وتحسب لنا جميعًا الاستغلال السَّليم لذهبنا. بنچامين دو رويتر، أريدك أن تتولَّى أمر التَّجسُّس. ثمَّة أشياء كثيرة علينا معرفتها، وسأجعلك مسؤولًا عن هذا، وستُقدِّم تقاريرك إلى فاردر كورام. مايكل كانزونا، ستكون مسؤولًا عن تنسيق أعمال القادة الأربعة الأوائل وتُقدِّم تقاريرك إليَّ، وإذا مِتُّ فستنوب عني وتتولَّى القيادة. والآن وقد اتَّخذتُ تدابيري وفقًا للأعراف، إذا كان لدى أيِّ رجلٍ أو امرأةٍ اعتراض فلكم الحرِّيَّة في إبدائه».

بعد لحظةٍ نهضَت امرأة قائلةً: «لورد فا، ألن تأخذ أيَّ نساءٍ في تلك الحملة للعناية بالأطفال بعد أن نجدهم؟».

- «لا يا نِل. المساحة ستكون ضيِّقةً بالفعل. أي أطفالٍ نُنقِذهم سيكونون أفضل حالًا في عنايتنا مما كانوا».

- «لكن ماذا لو وجدتم أنكم لا تستطيعون إنقاذهم دون امرأةٍ ما متنكِّرة في هيئة حارسة أو ممرِّضة أو غير ذلك؟».

ردَّ چون فا: «الحقيقة أنني لم أفكِّر في هذا. سندرس هذه النُّقطة بأقصى درجات الاعتبار حينما نذهب إلى حُجرة المداوَلات، أعدكِ».

جلسَتِ المرأة، ونهضَ رجل ليقول: «لورد فا، سمعتك تقول إن اللورد آزريل أسير. هل إنقاذه جزء من خطَّتك؟ لأنه إن كان كذلك، وإن كان الرَّجل تحت رحمة هؤلاء الدِّببة الذين أظنُّك ذكرتهم، فسيحتاج ذلك إلى أكثر من مئةٍ وسبعين رجلًا. وعلى الرغم من كون اللورد آزريل صديقًا صدوقًا لنا فلا أظنُّ أن هناك ما يدعونا للتَّمادي إلى ذلك الحد».

- «لستَ مخطئًا يا إدريان براكس. ما فكَّرتُ أن نفعله، أن نُبقي أعيُننا وآذاننا مفتوحةً ونرى ما نستطيع جمعه من معرفةٍ ونحن في الشَّمال. قد نتمكَّن من فعل شيءٍ لمساعدته، وقد لا نستطيع، لكن لكم أن تثقوا بأني لن أستغلَّ ما زوَّدتموني به من رجالٍ وذهبٍ في أي غرضٍ غير ما أعلنَّاه عن العثور على أطفالنا والعودة بهم».

نهضَت امرأة أخرى، وقالت: «لورد فا، إننا لا نعلم ما قد يفعله هؤلاء الملتهِمون بأطفالنا. كلٌّ منا سمع شائعاتٍ وقصصًا عن أشياء مخيفة. سمعنا عن أطفالٍ بلا رؤوس، أو أطفالٍ قُطِعوا أنصافًا ثم خيطوا ثانيةً، أو أشياء أشنع من أن تُذكَر. آسفةٌ حقًّا لإزعاجي أيَّ أحد، لكننا جميعًا سمعنا تلك الأشياء، وأريدُ أن أطرح الأمر على الملأ. في حال عثوركم على شيءٍ ما شنيع أيها اللورد فا، آملُ أن تُنزِل بهم انتقامًا عنيفًا، آملُ أنك لن تدع أفكار الرَّحمة والرَّأفة تمنعك من البطش بهم وتوجيه ضربةٍ قاصمة إلى قلب ذلك الشَّر الجهنَّمي. أنا واثقة بأنني أتكلَّمُ بلسان كلِّ أمٍّ نال الملتهِمون من طفلها».

ارتفعَت همهمة مؤيِّدة إذ جلسَت المرأة، وفي جميع أرجاء الزَّال أومأَت الرُّؤوس استحسانًا.

انتظرَ جون فا حتى سادَ الصَّمت، ثم قال: «لا شيء سيمنعني يا مارجريت إلَّا حُسن التَّقدير. إذا امتنعتُ عن توجيه ضربةٍ في الشَّمال فلن يكون ذلك إلَّا لتوجيه واحدةٍ أعنف في الجنوب. أن نضرب ضربتنا يومًا أبكر من اللَّازم يُعادِل في السُّوء أن نضربها على بُعد مئة ميلٍ من الهدف. لكن إذا استسلمتم لتلك العاطفة أيها الأصدقاء، فإنكم بتفعلون ما حذَّرتكم منه دومًا: بتضعون إشباع مشاعركم فوق ما عليكم من عمل. عملنا الأول هو الإنقاذ، ثم العقاب. إنها ما مداواة للمشاعر الجريحة. مشاعرنا لا تهمُّ. إذا أنقذنا الأطفال ولم نستطِع عقاب الملتهِمين فقد تمَّت مهمَّتنا الأساسيَّة، لكن إن اخترنا عقاب الملتهِمين أولًا وبهذا أضعنا فُرصة إنقاذ الأطفال فقد فشلنا. لكن تأكَّدي من هذا يا مارجريت. حينما يأتي وقت العقاب فسنضربهم ضربةً تُلقي في قلوبهم الرُّعب، ضربةً تخور لها قُواهم. سنتركهم مدمَّرين مبدَّدين، مكسورين محطَّمين، ممزَّقين إربًا إربًا مشتَّتين في كلِّ اتِّجاه. لا يُقلِقنَّكم أن قلب جون فا أرق من أن يُوجِّه ضربةً عندما يأتي الوقت، والوقت سيأتي من حُسن التَّقدير وليس العاطفة. أهناك أحد آخَر يرغب في الكلام؟ تكلَّموا إذا أردتم».

لكن أحدًا لم يتكلَّم، وفي الحال مدَّ جون فا يده إلى جرس رفع الجلسة ودقَّه بقوَّة بالغة، ليُجَلجِل بصخبٍ ملأ القاعة وتردَّدت أصداؤه على عوارض السَّقف.

تركَ جون فا والرِّجال الآخَرون المنصَّة إلى حُجرة المداوَلات، وشعرَت لايرا بشيءٍ من خيبة الأمل. ألا يُريدون أن يسمعوها أيضًا؟

ضحكَ توني قائلًا: «إن عندهم خططًا يضعونها. لقد أدَّيتِ دوركِ يا لايرا، والآن يرجع الأمر إلى جون فا والمجلس».

تبعَت لايرا الآخَرين على مضضٍ إلى خارج القاعة حيث الطَّريق المعبَّد الذي يقود إلى المرسى، وقالت محتجَّةً: «لكنني ما فعلتُ شيئًا بعدُ! لم أفعل إلَّا الهرب من المسز كولتر. إنها مجرَّد بداية. أريدُ أن أذهب شمالًا!».

قال توني: «اسمعي، سأجلبُ لكِ ناب فظٍّ، سأفعلُ هذا».

عبسَت لايرا، ومن ناحيته راحَ پانتالايمون يغيظ قرينة توني بتعبيرات وجهه، فأغلقَت عينيها السَّمراوين المصفرَّتين امتعاضًا. سارَت لايرا إلى المرسى وتسكَّعت مع رفاقها الجُدد، وهناك علَّقت

بعض القناديل على خيوطٍ فوق المياه السَّوداء، لاجتذاب الأسماك جاحظة الأعيُن التي تسبح إلى السَّطح ببُطء، في محاولةٍ فاشلة لاقتناصها.

على أن أفكارها كانت مركَّزةً على چون فا وحُجرة المداوَلات، ولم يمضِ وقت طويل قبل أن تصعد الطَّريق المعبَّد مجدَّدًا إلى الزَّال. رأت ضوءًا في نافذة الحُجرة، وإن كانت أعلى من أن تَنظُر منها، لكنها سمعَت همهمةً خفيضةً من الدَّاخل.

وهكذا ذهبَت إلى الباب وطرقَته بحزمٍ خمس مرَّات، فصمتَت الأصوات واحتكَّ مقعد بالأرض، قبل أن ينفتح الباب وينصبَّ ضوء النَّفثة الدَّافئ على العتبة الرَّطبة.

قال الرَّجل الذي فتحَ الباب: «نعم؟».

وراءه رأت لايرا الرِّجال الآخَرين جالسين حول الطَّاولة التي رُصَّت عليها أجولة الذَّهب بعناية، إضافةً إلى أوراق وأقلام وكؤوس وإبريق ينيڤر.

قالت لايرا بصوتٍ عالٍ ليسمعوا جميعًا: «أريدُ أن آتي معكم إلى الشَّمال، أريدُ أن آتي وأساعد على إنقاذ الأطفال. هذا ما نويتُ أن أفعله عندما فررتُ من المسز كولتر، بل ومن قبلها. أردتُ أن أنقذ صديقي روچر صبي المطبخ في چوردان الذي أخذوه. أريدُ أن آتي وأساعد. بإمكاني الملاحة وقراءة الشِّحنات العنبرومغنطيسيَّة من الأورورا، وأعرفُ أيُّ أجزاء الدِّببة صالح للأكل، ومختلِف الأشياء المفيدة. ستأسفون إذا ذهبتم ثم وجدتم أنكم تحتاجون إليَّ لكنكم تركتموني. وكما قالت تلك المرأة، قد تحتاجون إلى نساءٍ يلعبن دورًا... طيِّب، قد تحتاجون إلى أطفال أيضًا. لستم تعلمون. عليك إذن أن تأخذني أيها اللورد فا، ومعذرةً على مقاطعة كلامكم».

كانت داخل الحُجرة الآن، وجميع الرِّجال وقريناتهم يُشاهِدونها، بعضهم باستمتاعٍ وبعضهم بضيق، إلَّا أنها ألقَت نظرات عينيها على چون فا وحده، وقد رفعَ پانتالايمون نفسه بين ذراعيها وتوهَّجت عيناه عينا القطِّ البرِّي بالأخضر.

قال چون فا: «لايرا، أخذكِ إلى الخطر ما وارد على الإطلاق، فلا تُوهمي نفسكِ يا بنيَّة. انتظِري هنا وساعِدي مَا كوستا وابقي في أمان. هذا ما عليكِ أن تفعليه».

- «لكنني أتعلَّمُ كيف أقرأ الأليثيوميتر أيضًا. الأمر يزداد وضوحًا كلَّ يوم! مؤكَّد أنكم ستحتاجون إليه، مؤكَّد!».

هزَّ رأسه نفيًا، وقال: «لا. أعلمُ أنكِ كنت تتمنِّين من صميم قلبكِ أن تذهبي شمالًا، لكنني أعتقدُ أن المسز كولتر نفسها لم تكن ستأخذكِ. إذا أردتِ رؤية الشَّمال فيجب أن تنتظري حتى تنتهي هذه المتاعب. والآن اذهبي».

أصدرَ پانتالايمون هسيسًا خافتًا، لكن قرينة چون فا وثبَت في الهواء من مكانها على ظَهر مقعده وطارَت إليهما بجناحين أسودين، لا تُهدِّدهما وإنما تُذكِّرهما بحُسن السُّلوك، ودارَت لايرا على عقبيها مغادرةً إذ مرَّت أنثى الغُراب فوق رأسها ثم عادَت إلى چون فا.

وانغلقَ الباب وراء لايرا بتكّةٍ حاسمة.

قالت لپانتالايمون: «سنذهب. فليُحاوِلوا منعنا. سنذهب!».

(9) الجواسيس

خلال الأيام القليلة التَّالية وضعَت لايرا عشرات الخُطط وصرفَت نظرها عنها جميعًا بصبرٍ نافد، فكلُّها تلخَّص في فكرة الاختباء، وكيف يُمكنك الاختباء على متن قاربٍ ضيّق؟ صحيحٌ أن الرِّحلة الحقيقيَّة ستكون على سفينة، ولايرا تعرف ما يكفي من القصص لأن تتوقَّع مختلِف أماكن الاختباء على مركبٍ كبير، مِثل قوارب النَّجاة والمخزن والأجواف (أيًّا كانت تلك)، لكن عليها أولًا أن تصعد إلى متن السَّفينة، ومغادرة الفينات تعني السَّفر على طريقة الچيپتيِّين.

وحتى إذا بلغَت السَّاحل بمفردها، فوارد أن تختبئ على متن السَّفينة الخطأ، ولكم سيكون رائعًا أن تختبئ في قارب نجاةٍ وتستيقظ لتجد نفسها في الطَّريق إلى البرازيل العُليا!

في تلك الأثناء، كان العمل المثير الخاص بالتَّجهيز للحملة يدور ليل نهار. هامَت لايرا على مقربةٍ من آدم ستفانسكي وشاهدَت إذ اختارَ رجالًا من المتطوِّعين للقوَّة المقاتلة، وأثقلَت على روچر ڤان پوپل باقتراحات المؤن التي عليهم أخذها معهم. هل تذكَّر نظَّارات الثَّلج؟ هل يعرف أفضل مكانٍ يَحصُل منه على خرائط المنطقة القُطبيَّة؟

أكثر رجلٍ أرادَت مساعدته هو بنچامين دو رويتر، الجاسوس، لكنه غادرَ في ساعةٍ مبكِّرة من الصَّباح التَّالي للآصِرة الثَّانية، وبطبيعة الحال لم يُمكن لأحدٍ أن يقول أين ذهبَ أو متى سيعود.

وهكذا، لعدم وجود خياراتٍ أخرى، ألصقَت لايرا نفسها بفاردر كورام، وقالت له: «أظنُّ أن الأفضل أن أساعدك يا فاردر كورام، لأن معرفتي بالملتهِمين أكثر من أيِّ أحدٍ آخَر على الأرجح، بما أنني كدتُ أصبحُ واحدةً منهم. غالبًا ستحتاج إليَّ لمساعدتك على فهم رسائل المستر دو رويتر».

أشفقَ الرَّجل على الصَّغيرة اليائسة العنيدة ولم يصرفها، وبدلًا من ذلك تكلَّم معها وأصغى إلى ذكرياتها عن أكسفورد والمسز كولتر، وشاهدَها تقرأ الأليثيوميتر.

ذات يومٍ سألَته: «أين ذلك الكتاب الذي يحوي الرُّموز؟».

- «في هايدلبرج».

- «وليس هناك إلَّا كتاب واحد؟».

- «قد تكون هناك كُتب أخرى، لكني لم أرَ إلَّا واحدًا».

- «أراهنُ أن في مكتبة بودلي بأكسفورد واحدًا».

بصعوبةٍ استطاعَت لايرا أن ترفع عينيها عن قرينة فاردر كورام، أجمل القُرناء الذين رأتهم على الإطلاق. حين يتحوَّل پانتالايمون إلى قطٍّ يكون نحيلًا خشنًا أشعث الفرو، أمَّا سوفوناكس -وهذا اسمها- فذهبيَّة العينين وأنيقة أناقة لا تُوصَف، يَبلُغ حجمها ضِعفَي حجم القِطط الحقيقيَّة دُفعةً واحدةً، وفروها غزير جدًّا. حين يمسُّها ضوء الشَّمس يُضيء درجات ألوانٍ أكثر من قُدرة لايرا على الإحصاء، درجاتٍ من الأسمر المصفر والبنِّي وورق الشَّجر والبندق والذُّرة والخريف والماهوجني. تاقَت لايرا إلى لمس هذا الفرو وتمسيد وجنتيها به، إلَّا أنها لم تفعل ذلك بالطَّبع، فلمس قرينِ شخصٍ آخَر يُعَدُّ أشنع انتهاكٍ للأصول يَخطُر ببال. يستطيع القُرناء أن يلمس بعضهم بعضًا بالطَّبع، أو يتقاتَلوا، لكن تحريم التَّلامُس بين الإنسان وقرين غيره راسخ لدرجة أن حتى المُحاربين في المعركة يُحجِمون عن لمس قُرناء أعدائهم. ذلك محظور تمامًا. لا تَذكُر لايرا أن أحدهم أخبرَها بهذا، لكنها تعرفه بالغريزة مِثلما تعرف أن الغثيان سيِّئ والرَّاحة جيِّدة. ولذا على الرغم من إعجابها بفرو سوفوناكس، بل وتخمينها ملمسه أيضًا، فإنها لم تُحاوِل لمسها بأيِّ شكل، ولن تُحاوِل أبدًا.

سوفوناكس رشيقة نميرة جميلة، وفاردر كورام منهَك ضعيف، وقد يكون مريضًا، أو أنه أصيبَ بضربةٍ ما أعجزَته، لكن النَّتيجة أنه لا يستطيع المشي دون الاتِّكاء على عُكَّازين، ويرتجف باستمرارٍ كورقةٍ على شجرةٍ من الحور الرَّجراج. على أن عقله حادٌّ صافٍ قوي، وسرعان ما أحبَّته لايرا لمعارفه والطَّريقة الحازمة التي يُوجِّهها بها.

في صباحٍ مشرق على متن قاربه، والأليثيوميتر معها، سألَته: «ما الذي تعنيه السَّاعة الرَّمليَّة يا فاردر كورام؟ الإبرة تعود إليها باستمرار».

- «غالبًا ما يكون هناك دليل إذا دقَّقتِ النَّظر. ما هذا الشَّيء الصَّغير فوقها؟».

ضيَّقت عينيها بشدَّةٍ ونظرَت، ثم قالت: «إنها جمجمة!».

- «وما معناها في رأيكِ؟».

- «الموت... أهو الموت؟».

- «صحيح. الموت من مختلِف معاني السَّاعة الرَّمليَّة. الحقيقة أن بعد الوقت، وهو المعنى الأول، الموت هو المعنى الثَّاني».

- «أتعلم ما لاحظته يا فاردر كورام؟ الإبرة تتوقَّف هناك في الدَّورة الثَّانية! في الدَّورة الأولى ترتعش نوعًا، وفي الثَّانية تتوقَّف. هل يُشير هذا إذن إلى المعنى الثَّاني؟».

- «غالبًا. ماذا تسألينه يا لايرا؟».

قالت: «أفكِّرُ في...»، وبترَت إجابتها إذ أدهشَها أن تجد أنها كانت تُلقي سؤالًا بالفعل دون أن تُدرِك هذا، قبل أن تُردِف: «لقد وضعتُ ثلاث صُورٍ معًا لأنني... كنتُ أفكِّرُ في المستر دو رويتر... ووضعتُ الأفعى والبُوتقة وخليَّة النَّحل، لأسأل عمَّا يفعله في تجسُّسه، و...».

- «لماذا هذه الرُّموز الثَّلاثة؟».

- «لأنني فكَّرتُ أن الأفعى ماكرة كما ينبغي أن يكون الجاسوس، والبُوتقة قد تعني المعرفة، ما تستخرجه بالتَّقطير أو ما شابهَ، وخليَّة النَّحل هي العمل الشَّاق مِثلما يعمل النَّحل دومًا. إذن من العمل الشَّاق والمكر تأتي المعرفة، وهذا هو عمل الجاسوس. أشرتُ إلى الصُّور وفكَّرتُ في السُّؤال في عقلي، وتوقَّفت الإبرة عند الموت... أتظنُّه يعمل حقًّا يا فاردر كورام؟».

- «إنه يعمل جيِّدًا يا لايرا، لكن ما نجهله إن كنا نقرأه قراءةً سليمةً. إنه فنٌّ رفيع. تُرى هل...».

قبل أن يتمَّ عبارته سمعا طَرقةً حادَّةً على الباب، ودخل شاب چيپتي قائلًا: «معذرةً يا فاردر كورام، لكن چيكوب هويزمانز عادَ لتوِّه مصابًا بجرحٍ بليغ».

قال فاردر كورام: «چيكوب كان مع بنچامين دو رويتر. ماذا حدثَ؟».

أجابَ الشَّاب: «لم يتكلَّم. الأفضل أن تأتي يا فاردر كورام، لأنه لن يحتمل طويلًا. إنه يبنزف من الدَّاخل».

تبادلَ فاردر كورام ولايرا نظرة ارتياع واستغراب، ولكن للحظةٍ واحدةٍ فقط، ثم راحَ فاردر كورام يحجل على عُكَّازيه بأقصى سرعةٍ ممكنةٍ وقد سبقَته قرينته، وتبعَته لايرا متواثبةً بصبرٍ نافد.

قادَهما الشَّاب إلى قاربٍ مربوط عند مرسى بنجر السُّكَّر، حيث فتحَت لهم الباب امرأة ترتدي مئزرًا من الصُّوف الأحمر، ولمَّا رأى فاردر كورام نظرة الارتياب التي رمقَت بها لايرا قال: «من المهم أن تسمع الفتاة ما لدى چيكوب من أقوال يا سيِّدتي».

تركَتهما المرأة يَدخُلان وتراجعَت، وقد قبعَ قرينها السِّنجاب فوق ساعة الحائط الخشبيَّة.

على سريرٍ تحت غطاءٍ مرقّع كان رجل ممدَّدًا، وجهه الشَّاحب مبلّل بالعَرق وفي عينيه لمعة زُجاجيَّة.

قالت المرأة بصوتٍ راجف: «لقد أرسلتُ في طلب الطَّبيب يا فاردر كورام. أرجوك، لا تستثيره. إنه في ألمٍ ممض. لقد جاءَ على قارب پيتر هوكر قبل دقائق قليلة».

- «أين پيتر الآن؟».

- «يربط القارب. هو مَن قال أن أرسل في طلبك».

- «حسن. چيكوب، هل تسمعني؟».

دارَت عينا چيكوب في محجريهما لتَنظُرا إلى فاردر كورام الجالس على السَّرير المواجه الذي يَبعُد قدمًا أو اثنين، وتمتمَ: «أهلًا يا فاردر كورام».

نظرَت لايرا إلى قرينته ابنة مِقرض المستلقية بثباتٍ تام إلى جوار رأسه، متكوِّرةً على نفسها ولكن ليست نائمةً، فعيناها مفتوحتان ومزجَّجتان كعينيه.

سألَ فاردر كورام: «ماذا حدثَ؟».

وأتَت الإجابة: «بنچامين ماتَ، ماتَ، وچيرارد قُبِضَ عليه». تكلَّم بصوتٍ مبحوح وخرجَت أنفاسه ضعيفةً، ولمَّا صمتَ فردَت قرينته جسمها بألمٍ ولعقَت وجنته، فتابعَ وقد استمدَّ شيئًا من القوَّة من هذا: «كنا نقتحم وزارة اللَّاهوت، لأن بنچامين سمعَ من أحد الملتهِمين الذين قبضنا عليهم أن المقرَّ الرَّئيس هناك، أن الأوامر كلَّها تأتي من هناك...».

صمتَ ثانيةً، فقال فاردر كورام: «قبضتم على بعض الملتهِمين؟».

أومأ چيكوب برأسه إيجابًا، وصوَّب نظراته إلى قرينته. من غير المعتاد أن يُكلِّم القُرناء إنسانًا غير إنسانهم، لكن ذلك يَحدُث أحيانًا، والآن تكلَّمت القرينة قائلةً: «قبضنا على ثلاثة ملتهِمين في كلركنوِل، وجعلناهم يقولون لحساب مَن يعملون ومن أين تأتي أوامرهم وما إلى ذلك، لكنهم لم يعرفوا شيئًا عن المكان الذي يُؤخَذ إليه الأطفال إلَّا أنه شمال لاپي...». توقَّفت رغمًا عنها ولهثَت قليلًا وصدرها الصَّغير يعلو ويهبط بقوَّة، قبل أن تُواصِل: «وهكذا أخبرَنا هؤلاء الملتهِمون عن وزارة اللَّاهوت واللورد بوريل. قال بنچامين إن عليه وچيرارد هوك أن يقتحما الوزارة، وعلى فرانز بروكمان وتوم مندهام أن يذهبا ويعرفا ما يُمكن معرفته عن اللورد بوريل».

- «وفعلوا هذا؟».

- «لا ندري. لم يرجعا. فاردر كورام، كان الأمر كأنهم عرفوا بكلِّ شيءٍ سنفعله قبل أن نفعله، وعلى حدِّ علمنا ابتُلِعَ فرانز وتوم حيَّيْن ما إن اقتربا من اللورد بوريل».

قال فاردر كورام: «عُد إلى بنچامين». كان بإمكانه سماع أنفاس چيكوب تزداد خشونةً، ورؤية عينيه تنغلقان ألمًا.

أطلقَت قرينة چيكوب مواء قلقٍ وحُبٍّ قصيرًا، وتقدَّمت المرأة خطوةً أو خطوتين وقد رفعَت يديها إلى فمها، لكنها لم تتكلَّم، وواصلَت القرينة بوهن: «ذهبنا نحن وبنچامين وچيرارد إلى الوزارة في وايت هول ووجدنا بابًا جانبيًّا صغيرًا تحت حراسةٍ خفيفة، وبقينا بالخارج فيما حلَّا القفل ودخلا. بعد أقل من دقيقةٍ من دخولهما سمعنا صرخة خوف، وطارَت قرينة بنچامين إلى الخارج وأشارَت إلينا بأن نَدخُل ونُساعِد ثم عادَت إلى الدَّاخل، فأخذنا سكِّيننا وهرعنا وراءها. لكننا وجدنا المكان مظلمًا ومليئًا بالأجسام الضَّارية والأصوات المربكة المخيفة في حركتها. بحثنا في المكان، لكننا سمعنا جلبةً من أعلى وصرخةً خائفةً، وسقطَ بنچامين وقرينته من فوق سلالم مرتفعة أعلانا، وقرينته بتشدُّ وبتضرب بجناحيها محاولةً الإمساك به لكن عبثًا، وارتطمَ الاثنان بالأرض الحجريَّة وماتا في لحظة. ولم نرَ أثرًا لچيرارد، لكننا سمعنا صرخةً بصوته من أعلى، وأعجزَنا الخوف والذُّهول عن الحركة، ثم أصابَ سهم من أعلى كتفنا وانغرسَ عميقًا...».

ازدادَ صوت القرينة وهنًا، وصدرَ أنين من الرَّجل الجريح. مالَ فاردر كورام إلى الأمام وبرفقٍ أزاحَ الغطاء، وبارزًا من كتف چيكوب كان طرف السَّهم ذو الرِّيشة في كُتلةٍ من الدَّم المتخثِّر، وقد انغرسَ الرَّأس والقناة على عُمقٍ بالغ في صدر الرَّجل المسكين، حتى إن ستَّ بوصاتٍ فقط أو نحوها تبقَّت فوق الجِلد، وهو المنظر الذي أصابَ لايرا بالدُّوار.

سمعوا وقع خُطوات أقدامٍ تُصاحِبه أصوات بالخارج على المرسى، فاعتدلَ فاردر كورام قائلًا: «الطَّبيب وصلَ يا چيكوب. سنَترُكك الآن ونتكلَّم أكثر عندما تتحسَّن».

ربَّت فاردر كورام على كتف المرأة في طريقه إلى الخارج، وظلَّت لايرا قريبةً منه على المرسى، لأن النَّاس كانوا قد بدأوا يتجمَّعون بالفعل ويتهامَسون ويُشيرون. أعطى فاردر كورام أوامر بذهاب پيتر هوكر إلى چون فا على الفور، ثم قال: «لايرا، علينا أن نتكلَّم ثانيةً عن الأليثيوميتر بمجرَّد أن نعرف إن كان چيكوب سيعيش أم يموت، لكن اذهبي الآن واشغلي نفسكِ بشيءٍ آخر يا بنيَّة. سنُرسِل في استدعائكِ».

مشَت لايرا مبتعدةً وحدها، وذهبَت إلى الضفَّة النَّامية عليها أعواد البوص، حيث جلسَت وأخذَت ترمي كُتل الطَّمي في الماء. شيء واحد تعرفه: إنها ليست مسرورةً أو فخورةً بقُدرتها على قراءة الأليثيوميتر... بل خائفة. أيًّا كانت القوَّة التي تجعل تلك الإبرة تدور وتتوقَّف، فإنها على علمٍ بالأشياء كأنها كيان عاقل.

قالت لايرا: «أظنُّها روحًا»، وللحظةٍ أغرَتها فكرة أن تقذف الشَّيء الصَّغير في قلب المستنقع.

قال پانتالايمون: «لو كانت بداخله روح لرأيتها، كذلك الشَّبح القديم في جودزتو. أنا رأيته وأنتِ لم تريه».

ردَّت بتأنيب: «هناك أكثر من نوع واحد من الأرواح. لا يُمكنك أن تراها جميعًا. وعلى كلِّ حال، ماذا عن الباحثين القُدامى مقطوعي الرُّؤوس؟ تذكَّر أني رأيتهم».

- «كان مجرَّد جاثوم».

- «لم يكن كذلك. كانت أرواحًا حقيقيَّةً وأنت تعرف هذا. لكن أيًّا كانت الرُّوح التي تُحرِّك تلك الإبرة السَّخيفة فإنها ما من ذلك النَّوع».

قال بعناد: «قد لا تكون روحًا».

- «حسن، ماذا قد تكون غير ذلك؟».

أجابَ: «قد تكون... قد تكون جُسيماتٍ أوليَّةً»، فلمَّا ضحكَت ساخرةً قال بإصرار: «قد تكون كذلك! أتَذكُرين طاحونة الصُّور في كلِّيَّة جابريل؟ طيِّب...».

في كلِّيَّة جابريل أداة بالغة القداسة يحتفظون بها على المذبح العالي في المصلَّى، ومغطَّاة (كما تذكَّرت لايرا الآن) بقُماشٍ مخملي أسود كالذي يُغلِّف الأليثيوميتر. كانت قد رأتها عندما ذهبَت مع أمين مكتبة چوردان إلى قُدَّاسٍ هناك، وفي ذُروة الصَّلاة رفعَ المحقِّق القُماش ليكشف في العتمة عن قُبَّةٍ زُجاجيَّة، في داخلها شيء ما أبعد من أن تراه لايرا، إلى أن جذبَ خيطًا مربوطًا بمصراعٍ بالأعلى، تاركًا شُعاعًا من ضوء الشَّمس يَسقُط على القُبَّة مباشرةً. عندها وضحَ الشَّيء الصَّغير الذي يُشبِه دوَّارة الرِّيح، وله أربع أرياش سوداء على جانبٍ وبيضاء على الآخَر، وقد بدأت تدور لحظة أن سقطَ عليها الضَّوء. قال المحقِّق إن هذا يُصوِّر درسًا أخلاقيًّا وشرعَ يشرحه، وبعد دقائق خمس كانت لايرا قد نسيَت ذلك المغزى الأخلاقي، وإن لم تنسَ الأرياش الصَّغيرة الدَّائرة في شُعاع الضَّوء المشوب بذرَّات الغُبار. كانت مبهجةً أيًّا كان معناها، وقال أمين المكتبة وهما في طريق العودة إلى چوردان إنها تدور بطاقة الفوتونات.

قد يكون پانتالايمون محقًّا إذن. إذا كان بإمكان الجُسيمات الأوليَّة تدوير طاحونة الصُّور فلا شكَّ أن بإمكانها تحريك إبرةٍ بسهولة، وعلى الرغم من ذلك لا تزال المسألة تُزعِجها.

- «لايرا! لايرا!».

كان توني كوستا يُلوِّح لها من المرسى، ويُنادي: «تعالي. يجب أن تذهبي لرؤية چون فا في الزَّال يا فتاة. الأمر عاجل».

وجدَت چون فا مع فاردر كورام والقادة الآخَرين وقد بدا عليهم الاضطراب.

تكلَّم چون فا قائلًا: «لايرا يا بنيَّة، فاردر كورام أخبرَني بقراءتكِ الأداة. ويُؤسِفني أن أقول إن چيكوب المسكين ماتَ قبل قليل. أظنُّ أن علينا أخذكِ معنا رغم كلِّ شيء، ورغم تعارُض هذا مع رغباتي. الفكرة تُزعِج عقلي، لكن لا يبدو أن هناك بديلًا. حالما يُدفَن چيكوب حسب التَّقاليد سنتحرَّك. افهميني يا لايرا، أنتِ آتية أيضًا، لكنها ليست مناسبةً للفرح أو المرح، ففي انتظارنا جميعًا متاعب وأخطار. سأضعكِ تحت جناح فاردر كورام. لا تُعرِّضيه إلى مشكلاتٍ أو مخاطر وإلَّا شعرتِ بفداحة غضبتي. والآن اذهبي واشرحي لمَا كوستا، وجهِّزي نفسكِ للرَّحيل».

***

مرَّ الأسبوعان التّاليان مشحونيْن أكثر من أيِّ وقتٍ في حياة لايرا حتى الآن... مشحونيْن ولكن ليس سريعًا، إذ احتوَيا على فتراتٍ طويلة مضجرة من الانتظار، ومن الاختباء في خزاناتٍ ضيّقة رطبة، ومن مشاهدة المناظر الخريفيَّة الكئيبة الغارقة في المطر من النَّافذة، ومن الاختباء ثانيةً، ومن النَّوم قُرب عوادم وقود المحرِّك والاستيقاظ بصُداع مغثٍ، والأسوأ منعها تمامًا من الخروج إلى الهواء الطَّلق ولو مرَّةً، لتجري على الضفَّة أو تصعد إلى السَّطح أو تفتح بوَّابات الهويس أو تُمسِك حبل مرساةٍ ملقى من اليابسة.

لأن عليها بالطَّبع أن تبقى مختبئةً. أخبرَها توني كوستا عن النَّميمة الدَّائرة التي سمعَها في البارات على الضِّفاف، عن البحث القائم بطول المملكة عن فتاةٍ صغيرة شقراء، والمكافأة الكبيرة مقابل اكتشاف مكانها والعقاب القاسي لأيِّ أحدٍ يُخفيها. وثمَّة شائعات غريبة أيضًا، إذ يقول النَّاس إنها الطِّفلة الوحيدة التي فلتَت من الملتهمين، وإن بحوزتها أسرارًا رهيبةً. وتقول شائعة أخرى إنها ليست طفلةً بشريَّةً على الإطلاق، بل روحان تتَّخذان هيئة طفلةٍ وقرين، أرسلَتهما إلى هذا العالم القُوى الجهنَّميَّة في سبيل أن تُنزِل به خرابًا عظيمًا. ثم إن هناك شائعةً غيرها تقول إنها ليست طفلةً بل امرأة بالغة قلَّص السِّحر حجمها وتعمل لحساب التَّرتار، وجاءَت للتَّجسُّس على الشَّعب الإنجليزي الكريم توطئةً لغزو التَّرتار البلاد.

سمعَت لايرا تلك الحكايات بابتهاجٍ أولًا ثم بقنوط. كلُّ هؤلاء النَّاس يكرهونها ويخشونها! ولشد ما تتوق إلى الخروج من هذه القمرة الضيِّقة الخانقة، تتوق إلى بلوغ الشَّمال والثُّلوج مترامية الأطراف تحت أضواء الأورورا المتَّقدة. وأحيانًا تشتاق إلى العودة إلى كلِّيَّة چوردان، تتسلَّق الأسطُح مع روچر، وتسمع جرس الوكيل يدقُّ قبل نِصف ساعةٍ من العَشاء، والجلبة والصِّياح وأصوات الطَّهو من المطبخ... ثم إنها تمنَّت بكلِّ جوارحها أن شيئًا لم يتغيَّر، ألَّا يتغيَّر شيء أبدًا، أن تبقى لايرا فتاة كلِّيَّة چوردان إلى الأبد.

الشَّيء الوحيد الذي يُخرِجها من مللها وضيقها هو الأليثيوميتر الذي تقرأه كلَّ يوم، مع فاردر كورام حينًا وبمفردها حينًا، وقد وجدَت أنها تستطيع الغوص بنفسها باستعدادٍ أكثر في الحالة الهادئة التي تُوضِّح بها معاني الرُّموز أنفُسها، لتلوح سلاسل الجبال العظيمة إياها التي يمسُّها ضوء الشَّمس وتتَّضح لنظرها.

غير أنها وجدَت صعوبة في شرح هذا الإحساس لفاردر كورام.

- «كأنك تتكلَّم مع أحدهم، لكنك لا تستطيع سماعه جيِّدًا، وتَشعُر بشيءٍ من الغباء لأنه أذكى منك، لكنه لا يغضب منك أو شيء كهذا... كما أنه يعرف الكثير جدًّا يا فاردر كورام! كأنه يعرف كلَّ شيءٍ تقريبًا! المسز كولتر كانت ذكيَّةً وعرفَت الكثير، أمَّا هذا فنوع مختلف من المعرفة... إنه كالفهم على ما أظنُّ...».

أحيانًا يُلقي عليها أسئلةً محدَّدةً، وتبحث عن الأجوبة.

يسألها: «ما الذي تفعله المسز كولتر الآن؟»، فتتحرَّك يداها في الحال، ويقول لها: «أخبِريني بما تفعلينه».

- «السيِّدة العذراء هي المسز كولتر، وحين أضعُ العقرب هناك أفكِّر في «أمِّي». والنَّملة معناها «مشغول»... هذا سهل لأنه المعنى الأساسي. والسَّاعة الرَّملية من معانيها «الوقت»، وجزء من هذا «الآن»، وهذا ما أركِّزُ عقلي عليه».

- «وكيف تعرفين أين تُوجَد هذه المعاني؟».

- «إنني أراها نوعًا، أو أشعرُ بها بالأحرى... مِثل نزول سُلَّمٍ ليلًا؛ تضع قدمك فتجد درجةً أخرى. هذا هو ما أفعله، أضعُ عقلي وأجدُ معنًى آخَر، وبشكلٍ ما أشعرُ به. ثم إنني أضعها كلَّها معًا. في الأمر حيلة أشبه بتركيز عينيك».

- «افعلي هذا إذن وانظُري ماذا يقول».

وفعلَت لايرا. بدأت الإبرة الطَّويلة تتحرَّك على الفور ثم توقَّفت، ثم تحرَّكت وتوقَّفت ثانيةً في سلسلةٍ دقيقة من الدَّوران والتَّوقُّف. كان إحساسًا بالسُّمو والقوَّة، وإذ شاركَته لايرا أحسَّت كأنها طائر صغير يتعلَّم الطَّيران. جالسًا قُبالتها إلى الطَّاولة يُراقِب، لاحظَ فاردر كورام الرُّموز التي توقَّفت عندها الإبرة، وشاهدَ الفتاة الصَّغيرة تُزيح شَعرها عن وجهها وتعضُّ شفتها السُّفليَّة قليلًا، تُتابِع عيناها الإبرة أولًا ثم -عندما استقرَّت- تَنظُر إلى بُقعةٍ أخرى على القُرص... ولكن ليس عشوائيًّا، ذلك أن فاردر كورام لاعب شطرنج، ويعلم كيف يَنظُر لاعبو الشَّطرنج إلى مباراةٍ دائرة. اللَّاعب الخبير يرى خطوط القوَّة والنُّفوذ على الرُّقعة، ويَنظُر إلى الخطوط المهمَّة ويتجاهَل الضَّعيفة. وهذه هي الطَّريقة التي تتحرَّك بها عينا لايرا، طبقًا لحقلٍ مغنطيسي ما تراه هي ولا يراه.

توقَّفت الإبرة عند الصَّاعقة، والرَّضيع، والأفعى، والفيل، وعند مخلوقٍ لم تجد لايرا له اسمًا، سحليَّة ما كبيرة العينين يلتفُّ ذيلها حول الغُصين الذي تقف عليه. كرَّرت الإبرة التَّسلسُل مرَّةً بعد مرَّةٍ فيما شاهدَت لايرا.

تساءلَ فاردر كورام مقتحمًا تركيزها: «ما معنى هذه السِّحليَّة؟».

- «غير معقول... إنني أرى ما يقوله ولكن مؤكَّد أنني أسيء قراءته. الصَّاعقة هي الغضب على ما أظنُّ، والطِّفل... أظنُّه أنا... كنتُ بدأتُ أحصلُ على معنى من السِّحليَّة، لكنك كلَّمتني يا فاردر كورام وفقدته. انظُر، الإبرة تدور في اتِّجاهاتٍ عشوائيَّة».

- «نعم، أرى هذا. آسفٌ يا لايرا. أأنتِ متعَبة؟ هل تُريدين التَّوقُّف؟».

أجابَت: «لا»، إلَّا أن وجنتيها كانتا محتقنتين وعينيها ملتمعتين. لحظتها كانت تبدو عليها جميع أعراض التَّهيُّج والعصبيَّة، وزادَ الأمر سوءًا حبسها الطَّويل في القمرة الضيِّقة.

نظرَ فاردر كورام من النَّافذة. كان الظَّلام قد حلَّ تقريبًا، ويقطعون المنطقة الأخيرة من المياه الدَّاخليَّة قبل بلوغهم السَّاحل. تحت السَّماء الكئيبة مساحات بنِّيَّة واسعة من الغُثاء تُمثِّل المصبَّ، تمتدُّ

إلى مجموعةٍ كبيرة من خزّانات الكحول الفحمي الصَّدئة التي تتقاطَع عليها أنابيب التّوصيل، إلى جوار مصفاةٍ تتصاعَد منها لطخة من الدُّخان منضمَّةً بكسلٍ إلى السُّحب.

قالت لايرا: «أين نحن؟ أيُمكنني الخروج ولو قليلًا يا فاردر كورام؟».

- «إنها مياه كولبي، مصبُّ نهر الكول. حين نَبلُغ البلدة سنربط القارب عند سوق الدُّخان ونذهب إلى المرفأ سيرًا على الأقدام. سنصل في غضون ساعةٍ أو اثنتين...».

لكن الظَّلام يهبط، وفي وحشة المجرى الواسعة لا شيء يتحرَّك إلَّا قاربهم ومركب فحمٍ بعيد يمضي بجهدٍ صوب المصفاة، ولايرا متعَبة للغاية محتقنة الوجه، وقضَت وقتًا طويلًا جدًّا بالدَّاخل.

وهكذا قال فاردر كورام: «طيِّب، لا أظنُّ أن هناك مشكلةً في قضائكِ بضع دقائق في الهواء الطَّلق. لن أقول إنه هواء نقي، لأنه لا يكون نقيًّا إلَّا عندما يهبُّ من البحر، لكن يُمكنكِ أن تجلسي بالأعلى وتتفرَّجي حتى نقترب».

بلهفةٍ صعدَت لايرا إلى السَّطح، ومن فوره تحوَّل پانتالايمون إلى نورسٍ مشتاقًا إلى بسط جناحيه في الهواء الطَّلق. وجدَت الجوَّ باردًا بالخارج، وعلى الرغم من ارتدائها ثيابًا ثقيلةً فسرعان ما بدأت ترتجف، أمَّا پانتالايمون فقد وثبَ في الهواء مطلقًا صيحة فرحةٍ عاليةً، ودارَ ومرَّ من فوقها بسرعةٍ شديدة، في لحظةٍ يسبق القارب وفي لحظةٍ يتخلَّف وراءه. انتشَت لايرا بالإحساس الذي شاركَته إياه، وحثَّته في عقلها على استفزاز قرينة الملَّاح العجوز -وهي أنثى طائر غاق- لتُسابِقه، لكنها تجاهلَته وجثمَت ناعسةً فوق ذراع الدفَّة قُرب رجلها.

ليست هناك حياة في هذه المنطقة البنِّيَّة الموحشة، ولم يكسر الصَّمت الرَّتيب إلَّا قرقرة المحرِّك الثَّابتة وصوت تناثُر المياه الخافت، وقد علقَت السُّحب الثَّقيلة في السَّماء دون أن ينزل منها مطر، وكدَّر الدُّخان الكثيف الهواء تحتها. وحدها طلاوة پانتالايمون إذ انطلقَ من هنا إلى هناك حملَت شيئًا من الحياة والسُّرور.

ولكن بينما غاصَ ثم حلَّق إلى أعلى باسطًا جناحيه الأبيضين تحت السَّماء الرَّماديَّة، انقضَّ عليه شيء ما أسود وارتطمَ به، ليَسقُط إلى الجانب منتفضًا من الصَّدمة والألم، وصرخَت لايرا التي شعرَت بألمه بمنتهى الحدَّة. ثم انضمَّ شيء أسود صغير آخَر إلى الأول، وتحرَّك الاثنان ليس كالطُّيور بل كخنافس طائرة، ثقيلَيْن مباشريْن ويَصدُر منهما طنين.

سقطَ پانتالايمون محاولًا التَّملُّص والاندفاع نحو القارب وحضن لايرا اليائس، وظلَّ الشَّيئان يصطدمان به، يطنَّان ويئزَّان بوحشيَّةٍ قاتلة، وكادَت لايرا تُجَنُّ من خوف پانتالايمون الممتزج بخوفها، لكن شيئًا ما مرقَ مارًّا بها وإلى أعلى.

قرينة الملَّاح، ورغم أنها تبدو خرقاء ثقيلةً فقد طارَت بقوَّةٍ وسرعة. تحرَّك رأسها بحدَّةٍ في هذا الاتِّجاه وذاك، وخفقَت الأجنحة السَّوداء وارتعشَ الجناحان الأبيضان، ثم سقطَ شيء أسود صغير فوق سطح القمرة المطلي بالقار عند قدمَي لايرا في اللَّحظة التي حطَّ فيها پانتالايمون بين ذراعيها الممدودتين.

قبل أن تُواسيه تحوَّل پانتالايمون إلى تكوين القطِّ البرِّي وانقضَّ على الكائن الأسود، وضربَه مزيحًا إياه عن حافة السَّطح حيث كان يزحف سريعًا محاولًا الهرب. ثبَّته پانتالايمون بإحكامٍ بكفٍّ مليئة بالمخالب، ورفعَ عينيه إلى السَّماء التي يزحف عليها الظَّلام، حيث ارتفعَت أنثى الغاق بجناحيها الأسودين إلى أعلى فأعلى بحثًا عن الكائن الآخَر.

ثم هبطَت أنثى الغاق بسرعةٍ ونعبَت بشيءٍ ما للملَّاح، الذي قال: «اختفى. لا تَترُكي الآخَر يهرب. هاكِ...»، وسكبَ الثُّمالة من الكوب الصَّفيح الذي يشرب منه وألقاه إلى لايرا، فقلبَته في الحال فوق الكائن، وراحَ هذا يئزُّ ويهدر كماكينةٍ صغيرة.

قال فاردر كورام من ورائها: «ثبِّتيه»، ثم ركعَ يدسُّ قطعةً من الورق المقوَّى تحت الكوب.

سألَته راجفةً: «ما هذا يا فاردر كورام؟».

- «لننزل ونُلقي نظرةً. خُذي حذركِ يا لايرا، أحكِمي قبضتكِ عليه».

نظرَت إلى قرينة الملَّاح إذ مرَّت بنيَّة أن تَشكُرها، لكنها وجدَت عينيها العجوزين مغلقتين، فشكرَت الرَّجل بدلًا من ذلك، واكتفى هو بقول: «كان عليكِ البقاء بالأسفل».

أخذَت الكوب الصَّفيح إلى القمرة، حيث وجدَ فاردر كورام كأس بيرة، وقلبَ الكوب فوقها ثم سحبَ الورقة من بينهما ليَسقُط الكائن في الكأس، ثم رفعَها ليتمكَّنا من رؤية الشَّيء الصَّغير الغاضب بوضوح.

وجدا أنه يُقارِب إبهام لايرا طولًا، وأن لونه أخضر داكن وليس أسود، وقد انبسطَ جُنيحاه الغِمديَّان كخُنفساء مرقَّطة على وشك الطَّيران، وداخلهما يضرب الجناحان الهواء بسرعةٍ بالغة جعلَتهما كمجرَّد غشاوة، فيما تخدش سيقانه السِّت ذات المخالب الزُّجاج الأملس.

قالت لايرا: «ما هذا؟».

قبعَ پانتالايمون بتكوين القطِّ البرِّي على الطَّاولة على بُعد ستِّ بوصات، تُتابِع عيناه حركة الكائن داخل الكأس.

قال فاردر كورام: «إذا شققتِه وفتحتِه فلن تجدي شيئًا حيًّا بداخله، لا حيوان ولا حشرة على الأقل. لقد رأيتُ واحدًا من هذه الأشياء من قبل، ولم أحسب أني سأرى مِثله ثانيةً على هذا البُعد شمالًا. هذا الشَّيء إفريقي. ثمَّة آليَّة ما تعمل بالدَّاخل، والمثبَّت بزُنبركه روح سيِّئة في قلبها تعويذة».

- «لكن مَن أرسلَه؟».

- «لستِ في حاجةٍ إلى قراءة الرُّموز لتعرفي يا لايرا. يُمكنكِ التَّخمين بسهولةٍ مِثلي».

- «المسز كولتر؟».

- «بالطّبع. إنها ما استكشفَت في الشّمال فحسب، فهناك العديد من الأشياء الغريبة في براري الجنوب أيضًا. حين رأيتُ واحدًا مِثله كنتُ في المغرب. إنها أشياء خطرة لدرجةٍ مميتة، وما دامَت الرُّوح فيها فإنها لا تتوقَّف أبدًا، وعندما تُطلِقينها تجدينها غاضبةً غضبةً عارمةً حتى إنها تَقتُل أول شيءٍ تجده أمامها».

- «لكن إلامَ يسعى؟».

- «يتجسَّس. كنتُ أحمق لعينًا عندما تركتكِ تصعدين إلى السَّطح، وكان عليَّ أن أتركَكِ تُكمِلين تفكيركِ في الرُّموز دون أن أقاطعكِ».

صاحَت لايرا بحماسةٍ مباغتة: «الآن أفهم! تلك السِّحليَّة معناها «الهواء». رأيتُ هذا لكني لم أدرك السَّبب، فحاولتُ أن أستنتجه لكنه فلتَ مني».

قال فاردر كورام: «آه، أرى هذا الآن أيضًا. إنها ما سحليَّة، هذا هو السَّبب، بل حرباء، وترمز للهواء. تلك الأشياء لا تأكل أو تشرب، بل تعيش على الهواء فقط».

- «والفيل...».

قال: «إفريقيا»، ثم أضافَ: «آها».

تبادَلا النَّظر. مع كلِّ قوَّةٍ جديدة يبوح بها الأليثيوميتر يزدادان تهيُّبًا منه.

قالت لايرا: «كان الأليثيوميتر يُخبِرنا عن هذين الشَّيئين طوال الوقت، وكان علينا أن نُصغي. لكن ماذا نفعل بشأن هذا الكائن يا فاردر كورام؟ هل يُمكننا أن نقتله؟».

- «لا أدري إن كان يُمكننا أن نفعل شيئًا. علينا فقط أن نُبقيه حبيسًا في عُلبةٍ محكمة الغلق ولا نفتحها أبدًا. ما يُقلِقني أكثر هو الآخَر الذي فرَّ. مؤكَّد أنه طائر في طريقه إلى المسز كولتر الآن، حاملًا خبر رؤيتكِ. اللَّعنة عليَّ يا لايرا، إنني أحمق».

نقَّب في صوانٍ حتى وجدَ عُلبة ورق دُخانٍ من الصَّفيح، قُطرها نحو ثلاث بوصات. كان يستخدمها لحفظ بعض البراغي، لكنه أفرغَها منها ومسحَها من الدَّاخل بخرقةٍ وقلبَ الكأس فوقها دون أن يُزيل قطعة الورق المقوَّى عن الفتحة، وبعد لحظةٍ صعبة تملَّصت فيها إحدى سيقان الكائن وضربَت العُلبة الصَّفيح بقوَّةٍ مدهشة، قبضا عليه وأحكَما إغلاق الغطاء.

قال فاردر كورام: «ما إن نصل إلى السَّفينة سألحمُ الحافة لأضمن إغلاقها».

- «لكن ألن تتوقَّف الآليَّة؟».

- «الآليَّات العاديَّة نعم، لكن كما قلتُ، هذا الكائن يظلُّ يتحرَّك بلا توقُّفٍ من خلال الرُّوح المثبَّتة بطرفه. كلَّما قاومَ اشتدَّ التفاف الزُّنبرك وازدادَت قوَّته. والآن لنُبعِد هذا الشَّيء عن الطَّريق...».

لفَّ فاردر كورام العُلبة بقطعةٍ من الصُّوف ليكتم الطّنين والأزيز المتواصليْن، ثم دسَّها تحت حشيَّة فِراشه.

كان الظَّلام قد حلَّ، وشاهدَت لايرا من النَّافذة إذ دنَت أضواء كولبي. بدأ الضَّباب يتكاثَف في الهواء الثَّقيل، ولدى ربطهم القارب بالمرسى عند سوق الدُّخان كان كلُّ شيءٍ على مدى البصر يبدو ناعمًا مشوَّشًا. ألقى الظَّلام على المستودعات والأوناش ظلالًا كستائر لؤلؤيَّة لونها رمادي ضارب إلى الفضِّي، وعلى أكشاك السُّوق الخشبيَّة والمبنى الجرانيتي ذي المداخن العديدة الذي اكتسبَت السُّوق اسمها منه، حيث تُعلَّق الأسماك ليل نهار لتُقدَّد في دُخان خشب السَّنديان العطر. كانت المداخن تُساهِم بدُخانها في الهواء الرَّطب، وبدا كأن رائحة أسماك الرِّنجة والإسقمري والحدوق المدخَّنة تنبعث من حجارة الرَّصف ذاتها.

لفَّت لايرا نفسها بمعطفٍ من المشمَّع وغطَّت شَعرها المميّز بقلنسوة، وسارَت بين فاردر كورام والملَّاح، وقد انتبهَ قُرناؤهم الثَّلاثة لكلِّ شيءٍ حولهم، يستكشفون الأركان أمامهم ويَنظُرون وراءهم ويُرهِفون السَّمع إلى أخف خُطوة قدم.

لكنهم الوحيدون بالخارج، أمَّا مواطنو كولبي فجميعهم بالدَّاخل، وعلى الأرجح يشربون الينيڤر إلى جوار نار مواقدهم المستعرة. لم يروا أحدًا حتى بلغوا الرَّصيف، وأول رجلٍ وقعَت عليه أعيُنهم هناك هو توني كوستا الذي يَحرُس البوَّابة.

بهدوءٍ قال توني إذ أدخلَهم: «حمدًا لله أنكم وصلتم. سمعنا لتوِّنا أن ﭼاك ڤرهوڤن ضُرِبَ بالنَّار وغرقَ قاربه، ولا أحد سمعَ أين كنتم. ﭼون فا على متن السَّفينة بالفعل، ويستعجل الرَّحيل».

بدَت السَّفينة هائلةً للايرا. حُجرة عجلة قيادة ومدخنة في المنتصَف، وسلوقيَّة عالية ورافعة قويَّة فوق بابٍ أفقي مغطَّى بقُماش الأشرعة، وضوء أصفر ساطع في الكُوى ومقصورة القيادة وضوء أبيض أعلى الصَّاري، وعلى السَّطح ثلاثة أو أربعة رجال يعملون بجدٍّ على شيءٍ ما لا تراه.

أسرعَت تقطع المعبر الخشبي سابقةً فاردر كورام، وتطلَّعت حولها شاعرةً بالإثارة، وتحوَّل پانتالايمون إلى قردٍ وخلال لحظةٍ تسلَّق المدخنة، لكنها نادَته وأمرَته بالنُّزول. أرادَهما فاردر كورام بالدَّاخل، أو بالأسفل كما يقولون على متون السُّفن.

بعد نزول سُلَم -أو درج كما يُسمُّونه هنا- وجدا صالونًا يتكلّم فيه چون فا بهدوءٍ مع نيكولاس روكبي، الچيپتي المسؤول عن السَّفينة. لا يفعل چون فا شيئًا باستعجال. انتظرَت لايرا أن يُحيِّيها، لكنه فرغَ أولًا من ملاحظاته عن التيَّار وإرشادات الملاحة قبل أن يلتفت إلى الوافدين قائلًا: «مساء الخير أيها الأصدقاء. ربما سمعتم أن چاك ڤرهوڤن المسكين ماتَ، وصِبيته قُبِضَ عليهم».

قال فاردر كورام: «لدينا أخبار سيِّئة أيضًا»، وأخبرَه بمواجهتهم مع الرُّوحين الطَّائرتين.

هزَّ چون فا رأسه الكبير، لكنه لم يُوبِّخهما، بل قال: «أين الكائن الآن؟».

أخرجَ فاردر كورام صفيحة ورق الدُّخان ووضعَها على الطَّاولة، وصدرَ منها أزيز عنيف حتى إن الصَّفيحة نفسها تحرَّكت ببُطءٍ فوق الخشب.

قال چون فا: «لقد سمعتُ عن تلك الشَّياطين الآليَّة، وإن لم أحسب أني سأرى أحدها أبدًا. ما من طريقة لترويضه وإثنائه عن مهمَّته، هذا ما أعرفه. ولا فائدة من إثقاله بالرَّصاص وإلقائه في المحيط، لأن الصَّدأ سيأكل العُلبة يومًا ما ويَخرُج الشَّيطان ويسعى إلى الطِّفلة أينما كانت. لا، علينا أن نُبقيه معنا ونتوخَّى الحرص».

لأن لايرا الأنثى الوحيدة على متن السَّفينة (فقد قرَّر چون فا بعد الكثير من التَّفكير ألَّا يأخذوا معهم نسوةً)، فقد نزلَت في قمرةٍ لها وحدها. ليست القمرة فاخرةً بالطَّبع، والواقع أنها أكبر قليلًا من خزانةٍ مزوَّدة بسريرٍ وكُوَّة (وهو اسم النَّافذة على السَّفينة). وضعَت أغراضها القليلة في الدُّرج تحت السَّرير، ثم أسرعَت تصعد بحماسةٍ لتميل على الحاجز وتُشاهِد إنجلترا تتلاشى وراءهم، فقط لتجد أن معظم إنجلترا قد اختفى في الضَّباب بالفعل قبل أن تصل.

لكن اندفاع الماء بالأسفل، والحركة في الهواء، وأضواء السَّفينة المتوهِّجة بشَجاعةٍ في الظُّلمة، وهدير المحرِّك، وروائح اليود والسَّمك والكحول الفحمي-كلُّ هذا يكفيها، ولم يمضِ وقت طويل قبل أن ينتابها إحساس آخَر إذ بدأت السَّفينة تَمخُر عباب المحيط الألماني الفسيح.

حين نادى أحدهم لايرا لتناوُل العَشاء وجدَت أنها أقل جوعًا مما حسبَت، وما لبثَت أن قالت لنفسها إنها فكرة طيِّبة أن تستلقي لأجل خاطر پانتالايمون، فالمخلوق المسكين يَشعُر باضطرابٍ محزن.

وهكذا بدأت رحلتها إلى الشَّمال.

القسم الثَّاني

بولڤانجار

(10) القُنصل والدُّب

قرَّر چون فا والقادة الآخَرون التَّوجُّه إلى ترولسند، ميناء لاپي الرَّئيس، فللسَّاحرات قُنصليَّة في البلدة، وچون فا يعلم أن دون مساعدتهن، أو حيادهن الودِّي على الأقل، سيكون إنقاذ الأطفال الأسرى مستحيلًا.

شرحَ فكرته للايرا وفاردر كورام في اليَّوم التَّالي، عندما خفَّ دُوار البحر الذي أصابها بعض الشَّيء، وكانت الشَّمس ساطعةً والموج الأخضر يتكسَّر على جانبَي السَّفينة مخلِّفًا سيَّالاتٍ بيضاء من الرَّغوة. فوق السَّطح، والنَّسيم يهبُّ والبحر كلُّه يتلألأ بالضَّوء والحركة، أحسَّت لايرا بالقليل جدًّا من الغثيان، والآن وقد اكتشفَ پانتالايمون كم هو مبهجٌ أن يتَّخذ تكوين النَّورس ثم تكوين النَّوء العاصف ويخترق قمم الأمواج، فقد استغرقَت لايرا في مسرَّته لدرجةٍ حالَت دون انغماسها في بؤس من لم يعتادوا البحر.

جلسَ چون فا وفاردر كورام واثنان أو ثلاثة من الآخَرين في مؤخِّرة السَّفينة، حيث تُلقي الشَّمس أشعَّتها عليهم مباشرةً، وانهمكوا في الحديث عن الخُطوة التَّالية.

قال چون فا: «فاردر كورام يعرف ساحرات لاپي، وإن ما كنتُ مخطئًا فهناك التزام».

قال فاردر كورام: «صحيح يا چون. كان ذلك منذ أربعين عامًا، لكن هذا لا شيء بالنِّسبة إلى ساحرة. بعضهن يعيش أضعاف هذا الرَّقم».

سألَ آدم ستفانسكي المسؤول عن الفِرقة المقاتلة: «وما الذي حدثَ وأدَّى إلى هذا الالتزام يا فاردر كورام؟».

فسَّر فاردر كورام: «أنقذتُ ساحرةً من الموت، عندما سقطَت من الهواء فيما يُطارِدها طائر أحمر عظيم لا يُشبِه شيئًا رأيته من قبل. سقطَت جريحةً في المستنقع وذهبتُ أبحثُ عنها. كانت على وشك الغرق، ورفعتها إلى قاربي وأسقطتُ ذلك الطَّائر، لكنه سقطَ في بِركةٍ للأسف. كان كبيرًا كالواق، وأحمر كاللَّهب».

همهمَ الرِّجال الآخَرون: «آه»، وقد استحوذَت قصَّة فاردر كورام على انتباههم.

تابعَ: «حين رفعتها إلى القارب أصابَتني أعنف صدمةٍ عرفتها في حياتي كلِّها، لأن تلك الشَّابَّة كانت بلا قرين».

كأنه قال: كانت بلا رأس. مجرَّد الفكرة بغيض لأقصى درجة. ارتجفَ الرِّجال، وانتفشَ ريش قريناتهم أو ارتجفن أو نعبن بخشونة، في حين دسَّ پانتالايمون نفسه بين ذراعَي لايرا وراحَ قلباهما ينبضان معًا.

قال فاردر كورام: «هذا ما بدا على الأقل. سقوطها من الهواء جعلَني شِبه واثقٍ بكونها ساحرةً. لم يختلف شكلها عن شكل امرأةٍ شابَّة، أنحف من بعض النِّساء وأجمل من أكثرهن، لكن عدم رؤيتي ذلك القرين أورثَني شعورًا رهيبًا».

تساءلَ الرَّجل الآخَر مايكل كانزونا: «أما لهن قُرناء إذن هؤلاء السَّاحرات؟».

قال آدم ستفانسكي: «قُرناؤهن خفيُّون على ما أظنُّ. كان القرين موجودًا، لكن فاردر كورام لم يرَه».

قال فاردر كورام: «لا، أنت مخطئ يا آدم. لم يكن موجودًا على الإطلاق. للسَّاحرات القُدرة على فصل أنفُسهن عن قُرنائهن مسافاتٍ أبعد كثيرًا جدًّا مما نستطيع، وإذا دعَت الحاجة فبإمكانهن إرسال قُرنائهن على السَّحاب أو الرِّيح إلى بقاعٍ بعيدة، أو إلى أعماق المحيط. وتلك السَّاحرة التي وجدتها لم تكن قد استراحَت ساعةً عندما جاءَ قرينها طائرًا، لأنه أحسَّ بخوفها وإصابتها بالطَّبع. اعتقادي، رغم أنها لم تقرَّ بهذا قَطُّ، أن الطَّائر الأحمر العظيم الذي أسقطته كان قرين ساحرةٍ أخرى يُطارِدها. ربَّاه! حين فكَّرتُ في هذا ارتعدتُ. لو عادَ بي الزَّمن لامتنعت عن إطلاق النَّار، لفعلت أيَّ شيءٍ يُمكن فعله في البحر أو على اليابسة، لكن ما باليد حيلة. على كلِّ حال، لم يكن هناك شك في إنقاذي حياتها، وقد أعطَتني أمارةً على هذا وقالت أن أطلب مساعدتها إذا احتجتُ إليها في أيِّ وقت، وفي مرَّةٍ أرسلَت إليَّ العون عندما أصابَني السكريلينج بسهمٍ مسموم. كانت بيننا صلات أخرى أيضًا... منذ ذلك الحين لم أرَها، لكنها ستَذكُر».

- «وهل تعيش تلك السَّاحرة في ترولسند؟».

- «لا، لا. إنهن يعشن في الغابات وسهول التندرا، وليس في ميناءٍ بحري بين الرِّجال والنِّساء. عملهن في البريَّة، لكن لهن قُنصلًا هنا، وسأبعثُ إليها برسالة. لكم أن تعتمدوا على هذا».

امتلأَت لايرا توقًا إلى معرفة المزيد عن السَّاحرات، لكن حديث الرِّجال تحوَّل إلى الوقود والمؤن، وفي الحال وجدَت نفسها راغبةً بشدَّة في رؤية بقيَّة السَّفينة. تجوَّلت على السَّطح في اتِّجاه المقدِّمة، وسرعان ما تعرَّفت إلى بحَّارٍ ماهر عن طريق قذفه بالبذور التي احتفظَت بها من التُّفَّاحة التي أكلَتها على الإفطار. وجدَته رجلًا متينًا هادئًا، ولمَّا شتمَها، ولمَّا ردَّت الشَّتيمة بالشَّتيمة، صارا صديقين مقرَّبين. اسمه چري، وتحت إرشاده وجدَت أن انشغالها بشيءٍ ما يحول دون إصابتها بدُوار البحر، وأن عملًا ولو كان تنظيف السَّطح من شأنه أن يكون مُرضيًا إذا أدَّته على غرار البحَّارة. استغرقَتها هذه الفكرة كثيرًا، ولاحقًا طوَت الأغطية على سريرها كما يفعل البحَّارة، ووضعَت أغراضها في الخزانة كما يفعل البحَّارة، واستخدمَت كلمة «تعبئة» بدلًا من «ترتيب» وصفًا لهذه العمليَّة.

بعد يومين في البحر قرَّرت لايرا أن هذه هي الحياة الصَّالحة لها. لقد استكشفَت السَّفينة بأكملها من حُجرة المحرِّك إلى مقصورة القيادة، وسريعًا أصبحَت تعرف جميع أسماء أفراد الطَّاقم الأولى، وتركَها القُبطان روكبي تُرسِل إشارةً إلى فِرقاطة هولنديَّة بجذب مقبض صفَّارة البُخار، وسمحَ الطَّاهي لها بمساعدته في خلط عجين حلوى الفواكه المجفَّفة، لكن كلمةً صارمةً فقط من چون فا منعَتها من تسلُّق الصَّاري لاستقصاء الأُفق من بُرج المراقبة.

طوال الوقت كانوا يتحرَّكون شمالًا، وكلَّ يومٍ تشتدُّ البرودة. بحثوا في مؤن السَّفينة عن قُماشٍ مشمَّع يَصلُح للتَّفصيل على مقاسها، وعلَّمها چري الخياطة، ذلك الفن الذي تعلَّمته منه طواعيةً بعدما اعتادَت السُّخرية منه في چوردان وتحاشَت تعليمات المسز لونزديل. معًا فصَّلا كيسًا مضادًّا للماء للأليثيوميتر لتضعه حول خصرها (في حال سقوطها في البحر كما قالت)، وبعد أن وضعَته في مكانه بأمانٍ تمسَّكت بالحاجز وقد ارتدَت معطفها وقلنسوتها المشمَّع، فيما يتكسَّر الرَّذاذ اللَّاسع على جانبَي السَّفينة ويتناثَر على السَّطح. ما زالَ دُوار البحر ينتابها أحيانًا، خاصَّةً عندما تندفع السَّفينة بقوَّةٍ فوق قمم الأمواج الخضراء الرَّماديَّة، وحينها تكون مهمَّة پانتالايمون أن يُلهيها بالغوص بين الأمواج بتكوين النَّوء العاصف، لأنها تَشعُر ببهجته بحيويَّة الرِّيح والماء وتنسى الغثيان. وبين الحين والآخَر يُجرِّب پان التَّحوُّل إلى سمكة، وفي مرَّةٍ انضمَّ إلى سربٍ من الدَّلافين مثيرًا دهشة هذه المخلوقات البحريَّة وسرورها، ووقفَت لايرا فوق السَّلوقيَّة ترتجف وتضحك فرحةً إذ أخذَ پانتالايمون حبيبها يثب من الماء برشاقةٍ وقوَّة في صُحبة عددٍ من الأجسام الرَّماديَّة السَّريعة الأخرى. كان عليه البقاء قريبًا من السَّفينة بالطَّبع، بما أنه لا يستطيع الابتعاد عنها أبدًا، لكنها أحسَّت برغبته في الابتعاد أكبر مسافةٍ ممكنة وبأقصى سرعةٍ ممكنة من فرط نشوته الخالصة. شاركَته لايرا سروره، لكنه بالنِّسبة إليها لم يكن سرورًا محضًا، لأن شيئًا من الألم والخوف أيضًا صاحبَه. ماذا لو أنه أحبَّ كونه دُلفينًا أكثر من حُبِّه البقاء معها على اليابسة؟ ماذا تفعل عندئذٍ؟

كان صديقها البحَّار الماهر قريبًا، وقد توقَّف فيما يُعدِّل قُماش الأشرعة فوق الباب الأفقي الأمامي، ليَنظُر إلى قرين الفتاة الصَّغيرة الذي يتواثَب ويلعب مع الدَّلافين. كانت قرينته أنثى النَّورس تدسُّ رأسها تحت جناحها فوق الرَّحويَّة، وبدا أنه يعلم ما تحسُّ به لايرا.

قال الرَّجل: «أذكرُ عندما ذهبتُ إلى البحر أول مرَّة، لم تكن قرينتي بليساريا قد استقرَّت على تكوينٍ واحد. كنتُ في تلك السِّنِّ الصَّغيرة. أحبَّت هي أن تتحوَّل إلى خنزيرة بحر، وخفتُ أن تستقرَّ على ذلك التَّكوين. على مركبي الأول عرفتُ بحَّارًا عجوزًا لم يكن بإمكانه الذَّهاب إلى اليابسة إطلاقًا، لأن قرينته استقرَّت على تكوين دُلفين، فلم يستطِع ترك الماء قَطُّ. كان بحَّارًا عظيمًا، أفضل ملَّاحٍ عرفته، وكان يُمكنه أن يجني ثروةً من الصَّيد، لكنه لم يكن سعيدًا بتلك الحياة، ولم يَشعُر بالسَّعادة حقًّا إلَّا عندما ماتَ ودُفِنَ في البحر».

قالت لايرا: «لماذا يجب أن يستقرَّ القُرناء؟ أريدُ أن يظلَّ پانتالايمون يستطيع التَّبدُّل إلى الأبد، وهو كذلك».

- «آه، لطالما استقرَّ القُرناء ودائمًا سيستقرُّون. إنه جزء من النُّضج. سيأتي وقت تتعبين فيه من تبدُّله المستمر، وستُريدين له أن يستقرَّ على تكوينٍ واحد».

- «لن أريد ذلك أبدًا!».

- «أوه، بل ستُريدينه، ستُريدين أن تكبري كبقيَّة الفتيات. وعلى كلِّ حالٍ ثمَّة تعويضات يتضمَّنها استقرار القرين».

- «ما هي؟».

- «معرفة أيُّ نوعٍ من النَّاس أنتِ. خُذي بليساريا العجوز على سبيل المثال. إنها نورس، ومعنى هذا أنني بشكلٍ ما نورس أيضًا. إنني لستُ مهيبًا أو مبهرًا أو جميلًا، لكنني شديد البأس وأستطيعُ العيش في أيِّ مكانٍ ويُمكنني دومًا العثور على القليل من الطَّعام. شيء كهذا يستأهل المعرفة حقًّا. ولمَّا يستقرُّ قرينكِ ستعرفين أيُّ نوعٍ من النَّاس أنتِ».

- «لكن لنفترض أن يستقرَّ قرين المرء على تكوينٍ لا يُعجِبه».

- «عندها سيبقى ناقمًا، أليس كذلك؟ كثيرون يرغبون في أن يكون قرينهم أسدًا لكن المطاف ينتهي بهم مع كلب پودل، ولن يُفارِقهم الاضطراب إلى أن يتعلَّموا أن يرضوا عن حقيقتهم. إنها مضيعة للمشاعر».

ومع ذلك لم يبدُ للايرا أنها ستكبر أبدًا.

***

ذات صباحٍ انتشرَت رائحة مختلفة في الهواء، وبدأت السَّفينة تتحرَّك حركةً غريبةً أشد حدَّةً في ارتجاجها من الجانب إلى الجانب بدلًا من الاندفاع والارتفاع. بعد دقيقةٍ لا أكثر من استيقاظها صعدَت لايرا إلى السَّطح رامقةً اليابسة بشراهة، ويا له من منظرٍ غريب بعد كلِّ هذا الماء، فعلى الرغم من أنهم قضوا أيامًا معدودةً مبحرين شعرَت لايرا كأنهم في المحيط منذ شهور. أمام السَّفينة مباشرةً ارتفعَ جبل أخضر المناكب مكلَّلًا بالثَّلج، وعند سفحه بلدة صغيرة وميناء، ورأت لايرا منازل خشبيَّةً ذات أسطُحٍ منحدرة، وبُرج كنيسة، ورافعاتٍ في الميناء، وسُحبًا من النَّوارس تدور وتصيح. الرَّائحة في الهواء رائحة أسماك، وإن اختلطَت بها روائح من اليابسة أيضًا، كالتُّربة وصمغ الصَّنوبر وشيءٍ ما حيواني عطري، علاوةً على شيءٍ آخَر بارد أبيض ضارٍ لعلَّه الثَّلج. إنها رائحة الشَّمال.

تواثبَت الفقمات حول السَّفينة مبديةً وجوهها المضحكة فوق الماء قبل أن تغوص فيه دون أن تَنثُره، وكانت الرِّيح التي ترفع قطرات الرَّذاذ من الأمواج المكلَّلة بالأبيض قارسة البرودة، وبحثَت عن كلِّ ثغرةٍ في معطف لايرا الثَّقيل لتتسلَّل منها، وسرعان ما أوجعَتها يداها وشعرَت بالخدر في وجهها. متَّخذًا تكوين القاقوم، دفَّأ پانتالايمون عُنقها، إلَّا أن الجوَّ أبرد من أن تبقى بالخارج طويلًا بلا عملٍ تقوم به، ولو حتى لمشاهدة الفقمات، وهكذا نزلَت لايرا لتأكل ثريد الإفطار وتَنظُر من كُوَّة الصَّالون.

داخل الميناء المياه هادئة، وإذ تجاوَزوا حواجز الأمواج الضَّخمة بدأت لايرا تَشعُر بالقلقلة من جرَّاء غياب الحركة. تفرَّجت هي وپانتالايمون بتوقٍ إذ دنَت السَّفينة بثقلٍ من الرَّصيف، وخلال

السَّاعة التّالية خفتَ هدير المحرّك مستحيلًا إلى دمدمةٍ هادئة في خلفيَّة السَّمع، وارتفعَت الأصوات تصيح بالأوامر أو الاستفسارات، وأُلقيَت الحبال، وأُنزلَت المعابر، وفُتِحَت الأبواب.

قال فاردر كورام: «هلمِّي يا لايرا. هل حزمتِ كلَّ شيء؟».

كانت لايرا قد حزمَت أغراضها القليلة منذ استيقظَت ورأت اليابسة، وما عليها إلَّا الإسراع إلى قمرتها لتأخذ كيس التَّسوُّق، وهكذا تكون على أهبة الاستعداد.

أول شيءٍ فعلَته هي وفاردر كورام على اليابسة هو زيارة منزل قُنصل السَّاحرات. لم يستغرقا طويلًا في العثور عليه، فالبلدة الصَّغيرة متكتِّلة حول الميناء، وليست فيها بنايات يلفت حجمها الانتباه إلَّا الكنيسة ومنزل العُمدة. يُقيم قُنصل السَّاحرات في منزلٍ خشبي مطلي بالأخضر يطلُّ على البحر، ولمَّا دقَّا الجرس ارتفعَ رنينه في الشَّارع الهادئ.

قادَهما خادم إلى ردهةٍ صغيرة وقدَّم إليهما القهوة، وعلى الفور أتى القُنصل نفسه يُحيِّيهما، وهو رجل بدين متورِّد الوجه يرتدي بدلةً سوداء باهتةً، اسمه مارتن لانسليوس، وقرينته أفعى صغيرة لونها لون عينيه الأخضر اليانع العميق، وهذا هو الشَّيء الوحيد فيه الذي يمتُّ بصلةٍ إلى السِّحر، ولو أن لايرا لم يكن لديها توقُّع معيَّن عن مظهر السَّاحرات.

قال الرَّجل: «كيف أساعدك يا فاردر كورام؟».

- «بطريقتين يا دكتور لانسليوس. أولًا، إنني في أمس الحاجة إلى الاتِّصال بسيِّدةٍ ساحرة التقيتها قبل أعوام في ريف الفينات بإيسترن آنجليا. اسمها سيرافينا پكالا».

دوَّن الدكتور لانسليوس ملاحظةً بالاسم بقلمٍ فضِّي، ثم سألَه: «منذ متى كان لقاؤك بها؟».

- «لا بُدَّ أن أربعين عامًا مرَّت، لكنني أظنُّ أنها ستَذكُر».

- «وما الطَّريقة الأخرى التي تُريد مساعدتي بها؟».

- «إنني أمثِّلُ عددًا من العائلات الجيپتيَّة التي فقدَت أطفالًا. لدينا ما يدعونا إلى الاعتقاد بوجود منظَّمةٍ تقبض على هؤلاء الأطفال، أطفالنا وأطفال غيرنا، وتأتي بهم إلى الشَّمال لغرضٍ غير معلوم. أودُّ أن أعرف إن كنت أو قومك على علمٍ بحدوث شيءٍ كهذا».

رشفَ الدكتور لانسليوس من قهوته بهدوء، وقال: «ليس مستحيلًا أن نكون قد لاحظنا شيئًا من هذا القبيل. إنك تُدرِك أن العلاقات بين قومي وأهل الشَّمال وُدِّيَّة للغاية، وسيستعصي عليَّ أن أبرِّر تعكير صفوها».

أومأَ فاردر كورام برأسه كأنما يفهم تمام الفهم، وردَّ: «بالتَّأكيد. ولن يكون ضروريًّا أن أسألك إن كان يُمكنني الحصول على المعلومات بوسيلةٍ أخرى. لهذا سألتُ عن السيِّدة السَّاحرة أولًا».

وبدوره أومأَ الدكتور لانسليوس برأسه كأنه يفهم، وراقبَت لايرا هذه اللُّعبة بحيرةٍ واحترام. ثمَّة أشياء عديدة تجري تحت السَّطح، وقد رأت أن قُنصل السَّاحرات قد اتَّخذ قراره.

قال الرَّجل: «ليكن. هذا صحيح بالطَّبع. عليك أن تُدرِك أن اسمك ليس مجهولًا لنا يا فاردر كورام. سيرافينا پكالا ملكة على عشيرةٍ من السَّاحرات في منطقة بحيرة إينارا. وبالنِّسبة إلى سؤالك الثَّاني، فمفهوم طبعًا أن هذه المعلومات لم تَبلُغك عن طريقي».

- «تمامًا».

- «حسن، في هذه البلدة فرع لمنظَّمةٍ اسمها شركة النَّهضة الشَّماليَّة للاستكشاف، تتظاهَر بالتَّنقيب عن المعادن، لكن ما يتحكَّم فيها في الواقع شيء اسمه الهيئة العامَّة للقرابين بلندن، ويتصادَف أنني أعرفُ أن هذه المنظَّمة تستورد الأطفال. ليست هذه معرفةً عامَّةً في البلدة، ورسميًّا لا تعلم حكومة النورويج شيئًا عن هذا النَّشاط. الأطفال لا يبقون هنا طويلًا، بل يأخذونهم إلى مكانٍ ما أكثر توغُّلًا».

- «هل تعلم أين يا دكتور لانسليوس؟».

- «لا. كنت لأخبرك لو أني أعلمُ».

- «وهل تعلم ما يَحدُث لهم هناك؟».

للمرَّة الأولى نظرَ الدكتور لانسليوس إلى لايرا، التي بادلَته النَّظر مباشرةً.

رفعَت القرينة الأفعى الخضراء الصَّغيرة رأسها عن ياقة القُنصل وهمسَت بشيءٍ ما في أُذنه ولسانها يختلج.

قال القُنصل: «سمعتُ عبارة «عمليَّة مايشتادت» تُذكَر بصدد هذه المسألة. أظنُّ أنهم يستخدمونها لتلافي دعوة ما يفعلونه باسمه الحقيقي. سمعتُ أيضًا كلمة «الفصل»، لكنني لا أدري إلامَ تُشير».

سألَ فاردر كورام: «وهل هناك أيُّ أطفالٍ في البلدة حاليًّا؟».

كان يُملِّس على فرو قرينته التي جلسَت منتبهةً في حِجره، ولاحظَت لايرا أنها كفَّت عن القرقرة.

أجابَ الدكتور لانسليوس: «لا، لا أظنُّ. منذ أسبوعٍ وصلَت مجموعة من اثني عشر تقريبًا، وغادرَت أول من أمس».

- «آه! مؤخَّرًا هكذا؟ في هذا شيء من الأمل لنا إذن. بأيِّ وسيلةٍ سافَروا يا دكتور لانسليوس؟».

- «بالمزلجة».

- «ولا تملك فكرةً عن وجهتهم؟».

- «أقل القليل. إنه ليس موضوعًا يهمُّنا».

- «صحيح. لقد أجبت عن جميع أسئلتي بكلِّ رحابةٍ يا سيِّدي، وإليك واحدًا آخَر. لو أنك في مكاني، فما السُّؤال الذي كنت لتُوجِّهه إلى قُنصل السَّاحرات؟».

ابتسمَ الدكتور لانسليوس للمرَّة الأولى، وقال: «كنتُ لأسأل أين أحصل على خدمة دُبٍّ مدرَّع».

اعتدلَت لايرا في جلستها، وشعرَت بقلب پانتالايمون ينتفض بين يديها.

بدهشةٍ قال فاردر كورام: «حسبتُ أن الدِّببة المدرَّعين يعملون في خدمة هيئة القرابين. أعني شركة النَّهضة الشَّماليَّة أو أيًّا كان الاسم الذي يُطلِقونه على أنفُسهم».

- «هناك واحد على الأقل ليس كذلك. ستجده في محطَّة المزالج في نهاية شارع لانجلوكر. إنه يكسب رزقه هناك حاليًّا، لكن مع مزاجه العكر والخوف الذي يبثُّه في الكلاب فقد لا يدوم عمله هناك طويلًا».

- «أهو مارق إذن؟».

- «على ما يبدو. اسمه يوريك برنيسن. لقد سألتني عمَّا كنتُ لأسأله، وقد أخبرتك. والآن إليك ما كنتُ لأفعله. كنتُ لأقتنص فُرصة استخدام دُبٍّ مدرَّع حتى إذا كانت ضعيفةً للغاية».

استطاعَت لايرا الجلوس ساكنةً بالكاد، أمَّا فاردر كورام فيعرف أصول اللِّياقة المطلوبة في لقاءاتٍ كهذه، وهكذا تناولَ كعكة عسلٍ متبَّلةً أخرى من الطَّبق، وبينما أكلَها التفتَ الدكتور لانسليوس إلى لايرا.

قال القُنصل: «بلغَني أن هناك أليثيوميتر بحوزتكِ»، وهو ما أدهشَها دهشةً غامرةً، فأنّى له أن يعرف؟

قالت: «نعم»، ثم أضافَت وقد حثَّتها قَرصة من پانتالايمون: «هل تودُّ رؤيته؟».

- «أودُّ هذا جدًّا».

بخرقٍ أخرجَت الكيس المصنوع من المشمَّع وناولَته الحزمة المخمليَّة، ليحلَّها الرَّجل ويرفع الأليثيوميتر بعنايةٍ بالغة، محدِّقًا إلى وجهه كما يُحدِّق باحث إلى مخطوطةٍ نادرة، قبل أن يقول: «يا للرَّوعة! لقد رأيتُ واحدًا آخَر من قبل، لكنه لم يكن ممتازًا كهذا. وهل بحوزتكِ كتاب القراءات؟».

بدأت لايرا تُجيب: «لا»، لكن قبل أن تقول المزيد كان فاردر كورام يتكلَّم.

- «لا. لدواعي الأسف الشَّديد أن على الرغم من حيازة لايرا الأليثيوميتر نفسه فليست هناك وسيلة على الإطلاق لقراءته. إنه لُغز يُعادِل بِرك الحبر التي يستخدمها الهندوس لاستقراء المستقبل، وأقرب كتاب قراءاتٍ أعرفه موجود بمجمَّع كنائس سانت يوهان في هايدلبرج».

رأت لايرا لِمَ قال هذا، لأنه لا يُريد أن يعلم الدكتور لانسليوس بقُدرتها. على أنها رأت شيئًا آخَر لم يلحظه فاردر كورام، وهو انفعال قرينة الدكتور لانسليوس، وعرفَت في الحال أن لا جدوى من الادِّعاء.

وهكذا قالت موجِّهةً كلامها إلى الرَّجلين في آنٍ واحد: «في الواقع يُمكنني قراءته».

واستجابَ القُنصل قائلًا: «هذه حكمة منكِ. كيف حصلتِ عليه؟».

- «عميد كلِّيَّة چوردان في أكسفورد أعطاني إياه. دكتور لانسليوس، هل تعرف مَن صنعَ هذه الأشياء؟».

أجابَها القُنصل: «يُقال إن أصلها يرجع إلى مدينة پراج. الباحث الذي اخترعَ الأليثيوميتر الأول كان يُحاوِل على ما يبدو أن يكتشف طريقةً لقياس تأثيرات الكواكب طبقًا لأفكار التَّنجيم. كانت نيَّته أن يصنع أداةً تستجيب لفكرة المريخ أو الزُّهرة كما تستجيب البوصلة لفكرة الشَّمال، وقد فشلَ في هذا، لكن كان واضحًا أن الآليَّة التي اخترعَها تستجيب لشيءٍ ما، حتى إذا كان الجميع يجهلون ماهيته».

- «ومن أين حصلوا على الرُّموز؟».

- «أوه، كان هذا في القرن السَّابع عشر، عندما كانت الرُّموز والشِّعارات في كلِّ مكان، والمباني والصُّور مصمَّمةً بحيث تُقرأ كالكُتب. كان كلُّ شيءٍ يرمز إلى شيءٍ آخَر، وكان بإمكانكِ إن حصلتِ على القاموس المناسب قراءة الطَّبيعة نفسها. لم يكن مدهشًا أن تجدي الفلاسفة يستخدمون رمزيَّات زمانهم لترجمة المعارف الآتية من مصادر غامضة، لكن الحقيقة أنها لم تُستخدَم بجدِّيَّةٍ منذ قرنين أو نحو ذلك».

أعادَ الرَّجل الأداة إلى لايرا، وأتبعَ: «هل تسمحين بسؤال؟ من دون كُتب القراءات، كيف تقرئينه؟».

قالت: «أصغِي عقلي فحسب، وعندها يُشبِه الأمر النَّظر في الماء نوعًا ما. عليك أن تدع عينيك تجدان المستوى الصَّحيح، لأنه الوحيد الذي عليه تركيز. شيء كهذا».

- «هل يُمكنني أن أراكِ تفعلين هذا يا تُرى؟».

نظرَت إلى فاردر كورام راغبةً في قول نعم ولكن منتظرةً موافقته، فأومأ العجوز برأسه إيجابًا.

قالت لايرا: «ماذا أسألُ؟».

- «ما نيَّة التَّرتار بخصوص كامشاتكا؟».

لم يكن سؤالًا صعبًا. دوَّرت لايرا العقارب نحو الجمل (الذي يعني آسيا، التي تعني التَّرتار)، ونحو قرن الوفرة[13] (الذي يعني كامشاتكا حيث مناجم الذَّهب)، ونحو النَّملة (التي تعني النَّشاط، الذي يعني الهدف والنِّيَّة). ثم إنها جلسَت ساكنةً تاركةً عقلها يُركِّز على ثلاثة المعاني معًا واسترخَت منتظرةً الإجابة، التي أتَت في الحال تقريبًا. ارتجفَت الإبرة الطَّويلة عند الدُّلفين والخوذة والرَّضيع والمرساة، راقصةً بينها ثم متَّجهةً إلى البُوتقة في نمطٍ معقَّد تتبَّعته عينا لايرا بلا تردُّد، وإن عجزَ الرَّجلان تمامًا عن إدراكه.

حين أتمَّت الإبرة حركتها عدَّة مرَّاتٍ رفعَت لايرا عينيها، ورمشَت مرَّةً أو مرَّتين كأنها خارجة من غشية، وقالت: «سيتظاهَرون بالهجوم عليها، لكنهم لن يفعلوا حقًّا، لأنها بعيدة جدًّا وسيضطرُّون إلى نشر قُوَّاتهم على مساحةٍ كبيرة للغاية».

- «هلَّا أخبرتِني كيف قرأتِ هذا؟».

شرحَت: «الدُّلفين، أحد معانيه العميقة اللَّعب، كأن يكون المرء ألعبانًا. أعرفُ أنه المعنى الخامس عشر لأن الإبرة توقَّفت خمس عشرة مرَّةً والمعنى اتَّضح عند هذا المستوى لا غير. والخوذة تعني الحرب، والاثنان معًا معناهما التَّظاهُر بشنِّ الحرب ولكن ليس حقًّا. والرَّضيع معناه... معناه الصُّعوبة... سيكون صعبًا عليهم للغاية أن يُهاجِموا كامشاتكا. والمرساة تقول السَّبب، لأنهم سيَنشُرون أنفُسهم ويكونون مشدودين كحبل المرساة. كلُّ هذا أراه هكذا».

أومأ الدكتور لانسليوس برأسه، وقال: «مذهل. أنا في غاية الامتنان. لن أنسى هذا»، ثم إنه رمقَ فاردر كورام بنظرةٍ غريبة، وعادَ يَنظُر إلى لايرا قائلًا: «هل لي أن أطلب عرضًا آخَر؟ إذا نظرتِ من هذه النَّافذة فسترين سقيفةً معلَّقًا على جِدارها أربعون فرعًا أو أكثر من الصَّنوبر السَّحابي. أحد هذه الفروع استخدمَته سيرافينا پكالا من قبل، والبقيَّة لم تستخدمها. هل بإمكانكِ أن تُخبِريني أيُّها فرعها؟».

قالت لايرا المستعدَّة دومًا لاستعراض قُدرتها: «أجل!»، وأخذَت الأليثيوميتر وهرعَت إلى الخارج متحمِّسةً لرؤية الصَّنوبر السَّحابي الذي تستخدمه السَّاحرات في الطَّيران، لأنها لم ترَه من قبل قَطُّ.

وقفَ الرَّجلان عند النّافذة وشاهَدا إذ شقّت طريقها راكلةَ الثّلج وأخذَ پانتالايمون يتواثَب إلى جوارها بتكوين أرنبٍ برّي. توقَّفت عند السَّقيفة الخشبيَّة وخفضَت رأسها معالجةً الأليثيوميتر، وبعد ثوانٍ قليلة مدَّت يدها وبلا تردُّدٍ التقطَت واحدًا من فروع الصَّنوبر العديدة ورفعَته، ليُومئ الدكتور لانسليوس برأسه.

مفتونةً وتوَّاقةً إلى الطَّيران، رفعَت لايرا الفرع فوق رأسها وقفزَت، وشرعَت تجري هنا وهناك في الثَّلج محاولةً أن تُصبِح ساحرةً.

التفتَ القُنصل إلى فاردر كورام قائلًا: «هل تُدرِك مَن هذه الطِّفلة؟».

- «إنها ابنة اللورد آزريل، وأمُّها المسز كولتر من هيئة القرابين».

- «وبخلاف هذا؟».

هزَّ الشَّيخ الچيپتي رأسه، وقال: «لا، لستُ أعرفُ المزيد. لكنها مخلوقة بريئة غريبة، ولن أسمح أبدًا بأن يُصيبها أذى. لا يُمكنني أن أخمِّن كيف تقرأ الأداة، لكنني أصدِّقها حين تتكلَّم عنها. لماذا يا دكتور لانسليوس؟ ماذا تعرف عنها؟».

قال القُنصل: «السَّاحرات يتكلَّمن عن هذه الطِّفلة منذ قرون. لأنهن يعشن على مقربةٍ شديدة من المكان الذي يُصبِح فيه السِّتار بين العوالم رقيقًا، فإنهن يسمعن بين الحين والآخَر همساتٍ سرمديَّةً بأصوات الكائنات التي تمرُّ بين العوالم. لقد تكلَّمن عن طفلةٍ كهذه، أمامها مصير عظيم لا يُمكن تحقيقه إلَّا في مكانٍ آخَر... ليس في هذا العالم، وإنما بعيدًا عنه. من دون هذه الطِّفلة سنموت جميعًا. هكذا تقول السَّاحرات. لكن عليها أن تُحقِّق ذلك المصير وهي تجهل ما تفعله، لأن في جهلها وحده يَكمُن خلاصنا. هل تستوعِب هذا يا فاردر كورام؟».

- «لا، لا يُمكنني أن أقول إنني أستوعبه».

- «المعنى أنه لا بُدَّ من أن تُترَك لها حرِّيَّة ارتكاب الأخطاء. علينا أن نأمل ألَّا ترتكبها، لكننا لا نستطيع إرشادها. إنني سعيد لرؤيتي هذه الطِّفلة قبل موتي».

- «لكن كيف أدركت أنها تلك الطِّفلة تحديدًا؟ وماذا تعني بالكائنات التي تمرُّ بين العوالم؟ إنني عاجزٌ عن فهمك يا دكتور لانسليوس، على الرغم من تقديري أنك رجل صادق...».

لكن قبل أن يُجيبه القُنصل انفتحَ الباب ودخلَت لايرا حاملةً غُصنًا صغيرًا من الصَّنوبر، وقالت: «هو ذا! لقد اختبرتها جميعًا، وهذا هو المقصود، إنني واثقة. لكنه لا يطير بي».

قال القُنصل: «مذهل يا لايرا. إنكِ محظوظة بأداةٍ كهذه، وأتمنَّى لكِ الخير معها. أودُّ أن أعطيكِ شيئًا تأخذينه معكِ...»، وأخذَ الفرع وكسرَ لها غُصينًا صغيرًا.

سألَته لايرا: «هل طارَت بهذا حقًّا؟».

- «نعم، طارَت به. لكنها ساحرة وأنتِ لا. لن يُمكنني أن أعطيكِ إياه كاملًا لأن عليَّ الاتِّصال بها، لكن هذه القطعة ستكفي. اعتني بها».

قالت: «سأفعلُ. أشكرك»، ودسَّت الغُصين في الكيس إلى جوار الأليثيوميتر.

مسَّ فاردر كورام فرع الصَّنوبر كأنه يستمدُّ منه الحظَّ السَّعيد، وعلى وجهه تعبير لم ترَه لايرا من قبل، تعبير أقرب إلى الحنين.

قادَهما القُنصل إلى الباب، حيث صافحَ فاردر كورام وصافحَ لايرا أيضًا، وقال: «آملُ أن تجدوا النَّجاح»، ووقفَ على عتبة بابه في البرد القارس ليُشاهِدهما يقطعان الشَّارع الصَّغير.

أخبرَت لايرا فاردر كورام: «كان يعرف إجابة سؤال التَّرتار قبل أن أعرفها. الأليثيوميتر أخبرَني، لكنني لم أتكلَّم. البُوتقة قالت هذا».

- «أظنُّ أنه كان يختبركِ يا بنيَّة، لكنكِ أحسنتِ التَّصرُّف عندما تعاملتِ بتهذيب، لأننا لسنا نعلم يقينًا ما يعرفه بالفعل. وتلك المعلومة عن الدُّب مفيدة. لا أدري أين كنا بنسمع عنه لولاه».

وجدا طريقهما إلى محطَّة المزلجات، التي تتكوَّن من بضعة مستودعاتٍ من الخرسانة في منطقةٍ قذرة أرضُها ملأى بالنُّفايات، تنبت فيها الحشائش الرَّفيعة بين الصُّخور الرَّماديَّة وبِرك الوحل المتجلِّد. قال لهما رجل كئيب جالس في مكتبٍ إنهما سيجدان الدُّب في فترة راحته بعد السَّاعة السَّادسة، ولكن عليهما أن يُسرِعا لأنه عادةً يذهب مباشرةً إلى السَّاحة وراء بار إينارسن، حيث يسقونه الشَّراب.

ثم أخذَ فاردر كورام لايرا إلى أفضل محلِّ ملابس في البلدة، وابتاعَ لها بعض الثِّياب المناسبة للطَّقس البارد. اشتريا معطف پاركا من جِلد الرنَّة لأن شَعر الرنَّة أجوف ويعزل الحرارة جيِّدًا، والقلنسوة مبطَّنة بفرو الوولڤرين، لأنه يُذيب الجليد الذي يتكوَّن عندما تتنفَّس. اشتريا أيضًا ثيابًا تحتيَّةً وبطانة حذاءٍ من جِلد صغار الرنَّة، وقُفَّازين من الحرير يُوضَعان داخل قُفَّازين كبيرين مبطَّنين بالفرو. الحذاء طويل العُنق والقُفَّازان الكبيران من جِلد سيقان الرنَّة الأماميَّة لأنه أمتن، ونعل الحذاء من جِلد الفقمات الملتحية المتين كجِلد الفظِّ ولكن أخف. وأخيرًا اشتريا معطفًا مضادًّا للماء مصنوعًا من أمعاء الفقمات شِبه الشفَّافة، وقد احتوى جسد لايرا بالكامل.

مع ارتدائها كلَّ هذه الأشياء، وقد لفَّت عُنقها بلفاعٍ حريري وغطَّت أُذنيها بقُبَّعةٍ من الصُّوف وأنزلَت القلنسوة، شعرَت لايرا بدفءٍ غير مريح، إلَّا أنهم ذاهبون إلى أصقاعٍ أبرد من هنا بكثير.

كان چون فا يُشرِف على إفراغ السَّفينة، وكان متحمِّسًا لسماع ما قاله قُنصل السَّاحرات، وأشد حماسةً ليسمع عن الدُّب.

- «سنذهب إليه هذا المساء. هل تكلَّمت مع مخلوقٍ كهذا من قبل يا فاردر كورام؟».

- «نعم، وقاتلتُ واحدًا أيضًا، ولكن ليس بمفردي ولله الحمد. يجب أن نكون مستعدِّين للتَّفاوُض معه يا چون. لا شكَّ لديَّ في أنه سيطلُب الكثير، وسيكون متعكِّر المزاج ومن الصَّعب التَّعامُل معه، لكن

لا بُدَّ من أن نحظى به».

- «أوه، بالتَّأكيد. وماذا عن ساحرتك؟».

- «إنها بعيدة جدًّا، وملكة على عشيرة الآن. كنتُ آملُ أن بالإمكان أن تصل إليها رسالة، لكن انتظار الرَّدِّ سيستغرق وقتًا طويلًا جدًّا».

- «آه، طيِّب. والآن دعني أخبرك بما وجدته أنا يا صديقي القديم».

كان چون فا يتململ بصبرٍ نافد لكي يُخبِرهما بشيء. لقد التقى منقِّبًا عن الذَّهب على رصيف الميناء، دنماركيًّا جديدًا من دولة تكساس، ومن بين الأشياء كلِّها يملك هذا الرَّجل منطادًا. كانت الحملة التي أملَ الانضمام إليها قد فشلَت نتيجة لعجزٍ في التَّمويل قبل أن تَخرُج من أمستردام، وهكذا فهو عالق هنا.

قال چون فا وهو يَفرُك يديه الضَّخمتين معًا: «فكِّر في ما يُمكننا أن نفعله بمساعدة ملَّاحٍ جوِّي يا فاردر كورام! لقد عرضتُ عليه الانضمام إلينا. يبدو لي أن الحظَّ حالفَنا بمجيئنا إلى هنا».

علَّق فاردر كورام: «نكون أحسن حظًّا لو أن لدينا فكرةً واضحةً عن وجهتنا»، إلَّا أن شيئًا لم يكن ليحدَّ من سرور چون فا بخروجه في حملةٍ من جديد.

***

بعد هبوط الظَّلام، وعندما أُنزلَت جميع المؤن والمعدَّات من السَّفينة بأمانٍ ورُصَّت على الرَّصيف، مشى فاردر كورام ولايرا على الضفَّة وبحثا عن بار إينارسن، وبسهولةٍ وجدا الكوخ البسيط المبني بالخرسانة، وفوق بابه لافتة نيون تُومِض بلا انتظام، وسمعا الأصوات الصَّاخبة تأتي من النَّوافذ المتكاثف عليها الصَّقيع.

قادَهما زُقاق محقَّر مجاور للبار إلى بوَّابةٍ معدنيَّة في ساحةٍ خلفيَّة، حيث تقف سقيفة مائلةً فوق أرضيَّةٍ من الوحل المتجلِّد، ويُبيِّن الضَّوء الأصفر الخافت الآتي من نافذة البار الخلفيَّة جسمًا ضخمًا شاحبًا يقبع مستقيمًا، ويقضم من فخذٍ من اللَّحم يحملها بكلتا يديه، مصدرًا أصوات زمجرةٍ وسحقٍ وامتصاصٍ شنيعةً. تكوَّن لدى لايرا انطباع عن خطمٍ ووجهٍ ملوَّثين بالدَّم، وعينين سوداوين صغيرتين ممتلئتين غلًّا، وفروٍ غزير مصفر وملبَّد بالوسخ.

وقفَ فاردر كورام عند البوَّابة، ونادى: «يوريك برنيسن!».

توقَّف الدُّب عن الأكل، وعلى حدِّ ما تبيَّنا نظرَ إليهما مباشرةً، وإن كان من المستحيل أن يقرآ أيَّ تعبيرٍ على ملامحه.

ناداه فاردر كورام ثانيةً: «يوريك برنيسن، هل لي أن أتكلَّم معك؟».

كان قلب لايرا يدقُّ بعُنف، لأن شيئًا ما في حضور الدُّب جعلَها تَشعُر بدنوِّها البالغ من البرد والخطر والقوَّة الغاشمة. لكنها قوَّة يتحكَّم فيها ذكاء، وإن لم يكن ذكاءً بشريًّا، ولا شيء بشريًّا فيه،

لأن الدِّببة لا قَرناء لهم بالطّبع. ليس هذا الحضور الهائل الغريب الذي يقضم اللّحم كشيءٍ تخيَّلته على الإطلاق، وانتابَها إحساس عميق بالإعجاب والشَّفقة نحو هذا المخلوق الوحيد.

أسقطَ الدُّب ساق الرئَّة على الأرض المتَّسخة وتحرَّك بثقلٍ على أربع صوب البوَّابة، ثم إنه بسطَ قامته المديدة المرتفعة أقدامًا عشرةً أو أكثر، كأنه يُريهما مبلغ قوَّته ويُذكِّرهما بأن البوَّابة المعدنيَّة لن تحول بينه وبينهما. من ذلك الارتفاع خاطبَهما سائلًا: «حسن، مَن أنتما؟».

تكلَّم بصوتٍ بالغ العُمق بدا كأنه يُزَلزِل الأرض، ومن جسمه انبعثَت رائحة زنخة تكاد تكون طاغيةً.

- «أنا فاردر كورام، من شعب الچيپتيِّين في إيسترن آنجليا. وهذه الفتاة الصَّغيرة لايرا بيلاكوا».

- «ماذا تُريدان؟».

- «نُريد أن نعرض عليك وظيفةً يا يوريك برنيسن».

- «لديَّ وظيفة».

عادَ الدُّب يحطُّ على أربع ثانيةً. كان رصد أيِّ نبراتٍ معبِّرة في صوته عسيرًا، سواء أكانت سخريةً أم غضبًا، لأن صوتَه شديد العُمق ومحايد تمامًا.

سألَه فاردر كورام: «ماذا تفعل في محطَّة المزلجات؟».

- «أصلحُ الماكينات التَّالفة وأقومُ بأشغال الحديد وأرفعُ الأشياء الثَّقيلة».

- «أيُّ عملٍ هذا لپانزربيورنِه؟».

- «عمل مقابل أجر».

وراء الدُّب انفتحَ باب البار قليلًا ووضعَ رجل جرَّةً كبيرةً من الخزف على الأرض، قبل أن يرفع عينيه ويُحَملِق إليهم متسائلًا: «مَن هذان؟».

أجابَ الدُّب: «غريبان».

بدا أن السَّاقي يُوشِك على إلقاء سؤالٍ آخَر، لكن الدُّب اندفعَ نحوه فجأةً، فأغلقَ الرَّجل الباب مفزوعًا. دسَّ الدُّب مخلبًا في فتحة مقبض الجرَّة ورفعَها إلى فمه، وإذ تناثرَت قطرات الشَّراب ترامَت إلى أنف لايرا رائحة الكحول الخام اللَّاذعة.

بعد أن عبَّ عدَّة مرَّات، وضعَ الدُّب الجرَّة وعادَ يقضم من اللَّحم متجاهلًا فاردر كورام ولايرا، لكنه بعد قليلٍ تكلَّم من جديد: «أيُّ عملٍ تعرضان؟».

قال فاردر كورام: «القتال على الأرجح. سوف نتوغَّل شمالًا حتى نجد مكانًا يحتجزون فيه بعض الأطفال، وحين نجده سيكون علينا أن نُقاتِل لإطلاق سراحهم، وبعدها سنعود بهم».

- «وماذا ستدفعون؟».

- «لا أدري ماذا أعرضُ عليك يا يوريك برنيسن. إن كنت راغبًا في الذَّهب فعندنا ذهب».

- «لا يَصلُح».

- «ماذا يدفعون لك في محطَّة المزلجات؟».

- «أجري هنا لحم وشراب».

صمتٌ من الدُّب، ثم إنه أفلتَ العظمة المهشَّمة ورفعَ الجرَّة إلى خطمه مجدَّدًا ليجرع الكحول القوي كأنه ماء.

قال فاردر كورام: «سامحني على السُّؤال يا يوريك برنيسن، لكن بإمكانك أن تعيش حياةً حرَّةً أبيَّةً على الجليد، تصطاد الفقمات والأفظاظ، أو بإمكانك الذَّهاب إلى الحرب والظَّفر بغنائم عظيمة. ما الذي يربطك بترولسند وبار إينارسن؟».

اقشعرَّ جِلد لايرا على جسدها كلِّه. كانت لتحسب أن سؤالًا كهذا -سؤالًا يُداني الإهانة- كفيل بأن يُثير في هذا المخلوق غضبةً عارمةً، وتعجَّبت من شَجاعة فاردر كورام في إلقائه.

غير أن يوريك برنيسن وضعَ جرَّته ودنا من البوَّابة ليَنظُر إلى العجوز في وجهه، ولم ترتجف لفاردر كورام خلجة.

قال الدُّب: «أعرفُ النَّاس الذين تبحثون عنهم، قاطعي الأطفال. لقد تركوا البلدة أول من أمسٍ ليذهبوا شمالًا بالمزيد من الأطفال. لا أحد هنا سيُخبِركم بشيءٍ عنهم. إنهم يتغافَلون عن الرُّؤية لأن قاطعي الأطفال يدرُّون عليهم المال والعمل. أنا لا أحبُّ قاطعي الأطفال هؤلاء، ولذا سأجيبُ بتهذيب. إنني باقٍ هنا لأشرب لأن أهل هذه البلدة أخذوا درعي، ومن دونها يُمكنني أن أصطاد الفقمات ولكن لا يُمكنني الذَّهاب إلى الحرب. وأنا دبٌّ مدرَّع؛ الحرب هي البحر الذي أسبحُ فيه والهواء الذي أتنفَّسه. أهل هذه البلدة أعطوني الشَّراب وتركوني أتجرَّعه حتى غبتُ في النَّوم، ثم أخذوا درعي مني. لو عرفتُ أين يحتفظون بها لسوَّيت بهذه البلدة الأرض لأستعيدها. إن كنتم تُريدون خدماتي فهذا هو الثَّمن: أعيدوا لي درعي. افعلوا هذا وسأخدمكم في حملتكم إلى أن أموت أو تنالوا النَّصر. الثَّمن درعي. أريدُ استردادها، وحينها لن أحتاج إلى الشَّراب ثانيةً أبدًا».

(11) الدِّرع

بعد رجوعهما إلى السَّفينة قضى فاردر كورام وجون فا وسائر القادة وقتًا طويلًا يتشاوَرون في الصَّالون، وذهبَت لايرا إلى قمرتها لتستشير الأليثيوميتر، وخلال خمس دقائق عرفَت أين درع الدُّب بالضَّبط، ولِمَ ستكون استعادتها عسيرةً.

تساءلت إن كان عليها الذّهاب إلى الصَّالون لإخبار چون فا والآخَرين، لكنها قرَّرت أنهم سيسألونها إذا أرادوا أن يعرفوا، ولعلَّهم يعرفون بالفعل.

استلقَت على سريرها مفكِّرةً في ذلك الدُّب الوحشي العظيم، واللا مبالاة التي جرعَ بها الشَّراب الحارق، ووحشته في سقيفته القذرة. شتَّان بينه وبين الإنسان الذي يجد قرينه قُربه دومًا ليُكلِّمه! في صمت السَّفينة السَّاكنة، دون صرير المعدن أو الخشب المتواصل أو هدير المحرِّك أو تدفُّق الماء على جانبَي السَّفينة، غابَت لايرا شيئًا فشيئًا في النَّوم، ونامَ پانتالايمون أيضًا على وسادتها.

كانت تَحلُم بأبيها القدير السَّجين عندما استيقظَت فجأةً وبلا سببٍ على الإطلاق. لم تدرِ كم السَّاعة، وقدَّرت من النُّور الشَّاحب المترقرق في المكان أنه نور القمر، وقد أراها ثياب الطَّقس البارد الجديدة الموضوعة بجمودٍ في رُكن القمرة، فلم تكد تراها حتى اشتاقَت إلى تجربة ارتدائها من جديد.

وما إن ارتدَت ثيابها حتى وجدَت نفسها مدفوعةً إلى الصُّعود إلى السَّطح، وبعد دقيقةٍ فتحَت الباب عند قمَّة الدَّرج وخرجَت.

في الحال رأت أن شيئًا غريبًا يَحدُث في السَّماء، شيئًا حسبَته السَّحاب يتحرَّك ويرتعش بإثارة، إلَّا أن پانتالايمون همسَ: «الأورورا!».

بلغَ انبهارها مبلغًا حدا بها إلى التَّشبُّث بالحاجز كي لا تَسقُط.

ملأَ المنظر سماء الشَّمال، تكاد ضخامته تكون عصيَّةً على الإدراك. كأنها نازلة من الجنَّة ذاتها، تعلَّقت مرتجفةً في السَّماء حُجب عظيمة من الضَّوء الرَّقيق، خضراء شاحبة وقرنفليَّة كالورد وشفَّافة كأخف نسيجٍ في العالم، وعند حافتها السُّفليَّة قرمزيَّة ملتهبة كنيران الجحيم، تتأرجح وتُومِض بحرِّيَّةٍ تامَّة ورشاقةٍ أشد من أبرع الرَّاقصين. خطرَ للايرا أن بإمكانها سماعها أيضًا، وتناهى إلى أُذنيها هفيف هامس هائل بعيد. في هذه الرَّهافة المتلاشية تملَّكها إحساس عميق كالذي انتابَها على مقربةٍ من الدُّب، شيء حرَّكها، من جماله يكاد يكون ربانيًّا. شعرَت بالدُّموع تخز عينيها، وشظَّت الدُّموع الضَّوء محيلةً إياه إلى أقواس قزح برَّاقة. لم يمضِ وقت طويل قبل أن تجد نفسها تَدخُل في الغشية التي تستحوذ عليها عندما تلجأ إلى الأليثيوميتر، وبهدوءٍ فكَّرت أن أيًّا كان ما يُحرِّك إبرة الأليثيوميتر قد يكون هو ما يمنح الأورورا وهجها أيضًا. قد يكون (الغُبار) ذاته. فكَّرت في هذا دون أن تُدرِك تفكيرها فيه، وسرعان ما نسيَته ولم تتذكَّره إلَّا بعد وقتٍ طويل.

إذ رنَت بعينيها إلى الأورورا بدا لها أن صورة مدينةٍ تُكوِّن نفسها تكوينًا وراء ستائر الألوان شِبه الشَّفَّافة، ورأت أبراجًا وقبابًا، ومعابد بلون العسل وأروقةً تصطفُّ على جوانبها الأعمدة، وجاداتٍ عريضةً ومنتزهاتٍ تُضيئها الشَّمس. بثَّ فيها النَّظر إحساسًا بالدُّوار، كأنها تَنظُر إلى أسفل لا إلى أعلى، وعبر خليجٍ شديد الاتِّساع لا يستطيع شيء أن يَعبُره أبدًا. كانت المدينة تَبعُد كونًا كاملًا.

على أن شيئًا ما يتحرَّك عبرها بالفعل، وإذ حاولَت لايرا تركيز نظرها على الحركة أحسَّت بالضَّعف والدُّوار، لأن الشَّيء الصَّغير المتحرِّك ليس جزءًا من الأورورا ولا من الكون الآخَر ورائها، بل في السَّماء فوق أسطُح البلدة، ولمَّا رأته بوضوحٍ أخيرًا كانت قد أفاقَت بالكامل واختفَت المدينة.

دنا الشَّيء الطَّائر ودارَ فوق السَّفينة باسطًا جناحيه، ثم إنه بدأ يهبط ضاربًا الهواء بسرعةٍ بجناحيه القويَّين، وحطَّ على السَّطح الخشبي على بُعد ياردات قليلة من لايرا.

في ضوء الأورورا رأت طائرًا عظيمًا، إوزًّا رماديًّا جميلًا يُكلِّل رأسه بياض ناصع لامع. ومع ذلك فهو ليس طائرًا، بل قرين، رغم أن لا شخص آخَر على مدى البصر غير لايرا نفسها، وقد ملأَتها الفكرة بخوفٍ مغثٍ.

قال الطَّائر: «أين فاردر كورام؟».

وفجأةً أدركَت لايرا مَن هذا. إنه قرين سيرافينا پكالا، ملكة العشيرة وصديقة فاردر كورام السَّاحرة.

أجابَت بتلعثُم: «إنني... إنه... سأذهبُ وأحضره...».

دارَت ونزلَت الدَّرج إلى القمرة التي يشغلها فاردر كورام، وفتحَت الباب لتقول في الظَّلام: «فاردر كورام! قرين السَّاحرة جاءَ! إنه منتظر على السَّطح! لقد طارَ إلى هنا وحده... رأيته يأتي من السَّماء...».

قال العجوز: «اطلُبي منه أن ينتظر على السَّطح الخلفي يا بنيَّة».

شقَّ الإوز طريقه بشموخٍ إلى مؤخِّرة السَّفينة، حيث تطلَّع حوله بأناقةٍ وضراوةٍ في آنٍ واحد، ملقيًا خوفًا ممزوجًا بالافتتان في قلب لايرا، التي شعرَت كأنها تستضيف شبحًا.

ثم وصلَ فاردر كورام متدثِّرًا بملابس الطَّقس البارد، يتبعه من قُربٍ چون فا، وباحترامٍ انحنى كلا العجوزان، وحيَّت قرينتاهما الزَّائر.

قال فاردر كورام: «تحيَّةً طيِّبةً، ومن دواعي سعادتي وفخري أن أراك ثانيةً يا كايزا. هل تودُّ الدُّخول أم تُفضِّل البقاء هنا في مكانٍ مفتوح؟».

- «أودُّ البقاء بالخارج. أشكرك يا فاردر كورام. أأنتم متدفِّئون بما فيه الكفاية للبقاء هنا مدَّةً؟».

لا تَشعُر السَّاحرات وقُرناؤهن بالبرد، لكنهم يُدرِكون أن البشر الآخَرين يَشعُرون به. أكَّد له فاردر كورام أنهم يرتدون ثيابًا ثقيلةً جميعًا، ثم قال: «كيف حال سيرافينا پكالا؟».

- «تُرسِل إليك تحيَّاتها يا فاردر كورام، وإنها بخيرٍ وقوَّة. مَن هذان الشَّخصان؟».

قدَّمهما فاردر كورام، وحدَّق القرين الإوز إلى لايرا بحدَّةٍ قائلًا: «سمعتُ عن هذه الطِّفلة. السَّاحرات يتكلَّمن عنها. هل جئتم لشنِّ الحرب؟».

- «ليس الحرب يا كايزا. سنُطلِق سراح الأطفال الذين سُرِقوا منا، وآملُ أن تُساعِدنا السَّاحرات».

- «ليس جميعهن. بعض العشائر يعمل مع صيَّادي (الغُبار)».

- «أهذا ما تُطلِقونه على هيئة القرابين؟».

- «لستُ أدري ما تلك الهيئة. إنهم صيَّادو (غُبار) أتوا إلى أنحائنا قبل عشرة أعوامٍ ومعهم أدوات فلسفيَّة، ودفعوا لنا لنسمح لهم بإقامة محطَّاتٍ على أراضينا، وتعامَلوا معنا بكياسة».

- «ما هذا (الغُبار)؟».

- «إنه يأتي من السَّماء. بعضهم يقول إنه كان موجودًا دومًا، وبعضهم يقول إنه بدأ يتساقَط حديثًا. المؤكَّد أنه عندما يُدرِك النَّاس وجوده فإن خوفًا عظيمًا يعتريهم ولا يحول بينهم وبين اكتشاف كنهه شيء. لكن المسألة لا تهمُّ السَّاحرات بأيِّ شكل».

- «وأين صيَّادو (الغُبار) هؤلاء الآن؟».

- « على بُعد أربعة أيام في الشَّمال الشَّرقي من هنا، في مكانٍ اسمه بولڤانجار. عشيرتنا لم تُجرِ أيَّ اتِّفاقاتٍ معهم، وبسبب التزامنا القائم نحوك يا فاردر كورام جئتُ لأريكم كيف تجدون صيَّادي (الغُبار) هؤلاء».

ابتسمَ فاردر كورام، وصفَّق چون فا بيديه الضَّخمتين برضا، وقال للإوز: «شكرًا جزيلًا يا سيِّدي. لكن أخبِرنا، هل تعرف المزيد عن صيَّادي (الغُبار) هؤلاء؟ ماذا يفعلون في بولڤانجار تلك؟».

- «لقد أقاموا مبانيَ من المعدن والخرسانة، وبعض الحُجرات تحت الأرض، وهناك يُحرِقون الكحول الفحمي الذي يجلبونه بتكلفةٍ باهظة. إننا نجهل ما يفعلونه، لكن فوق المكان وعلى مدى أميالٍ حوله هناك طابعًا من الخوف والكراهية. باستطاعة السَّاحرات رؤية أشياء لا يراها البشر الآخَرون. الحيوانات أيضًا باقية بمنأى عن المكان. لا طيور تُحلِّق هناك، والقوارض والثَّعالب فرَّت. ومن ثم اسم بولڤانجار، أي حقول الشَّر. إنهم لا يدعونه بهذا الاسم، بل بـ«المحطَّة»، لكنه عند الآخَرين جميعًا بولڤانجار».

- «وما دفاعاتهم؟».

- «لديهم جماعة مسلَّحة بالبنادق من التَّرتار الشَّماليِّين. إنهم جنود صالحون، لكنهم يفتقرون إلى المران، لأن أحدًا لم يُهاجِم المستوطنة قَطُّ منذ إنشائها. ثم إن هناك سياجًا من السِّلك مشحونًا بالطَّاقة العنبريَّة حول الأبنية. قد تكون هناك وسائل أخرى للدِّفاع لا ندري عنها شيئًا، لأنهم -كما قلتُ- لا يهمُّوننا».

كانت لايرا تتحرَّق شوقًا إلى إلقاء سؤال، وقد أدركَ القرين الإوز هذا ونظرَ إليها كأنه يُعطيها الإذن.

سألَته: «لماذا تتكلَّم السَّاحرات عني؟».

أجابَ القرين: «بسبب أبيكِ ومعرفته بالعوالم الأخرى».

فاجأتهم الإجابة جميعًا، ونظرَت لايرا إلى فاردر كورام الذي بادلها النّظر بشيءٍ من العجب، وإلى چون فا الذي لاحَت على قسماته الحيرة.

قال چون فا: «عوالم أخرى؟ أستميحك العُذر يا سيِّدي، لكن ما تلك العوالم؟ أتعني النُّجوم؟».

- «بالتَّأكيد لا».

قال فاردر كورام: «عالم الأرواح إذن؟».

- «ليس ذلك أيضًا».

قالت لايرا: «أهي المدينة التي في الأضواء؟ إنها هي، أليس كذلك؟».

التفتَ إليها الإوز برأسه الشَّامخ، عيناه سوداوان محاطتان بخطٍّ رفيع من الأزرق السَّماوي الخالص، ونظرتهما بالغة القوَّة.

قال: «نعم. السَّاحرات يعلمن بوجود العوالم الأخرى منذ آلاف السِّنين. أحيانًا رؤيتها ممكنة في أضواء الشَّمال. إنها ليست جزءًا من كوننا هذا على الإطلاق، فحتى أبعد النُّجوم جزء من هذا الكون، لكن الأضواء تُرينا كونًا مختلفًا تمامًا، ليس أبعد وإنما متداخل مع هذا الكون. هنا على سطح هذه السَّفينة ملايين الأكوان الأخرى، لا يُدرِك بعضها وجود غيره...»، ورفعَ القرين جناحيه وبسطهما، قبل أن يطويهما ثانيةً مردفًا: «ها قد مسستُ عشرة ملايين عالمٍ آخَر، ولم يَشعُر أحدها بشيء. إننا قريبون منها كنبض القلب، لكننا عاجزون عن لمس تلك العوالم الأخرى أو رؤيتها أو سماعها إلَّا في أضواء الشَّمال».

تساءلَ فاردر كورام: «ولماذا هناك تحديدًا؟».

- «لأن الجُسيمات المشحونة في الأورورا لها خاصيَّة ترقيق مادَّة هذا العالم، بحيث نستطيع الرُّؤية من خلالها لفترةٍ وجيزة. لطالما عرفَت السَّاحرات هذا، لكننا نادرًا ما نتكلَّم عنه».

قالت لايرا: «أبي يُؤمن به. أعرفُ هذا لأنني سمعته يتكلَّم عن الأورورا ويعرض صُورًا لها».

قال چون فا: «ألهذا علاقة ما بـ(الغُبار)؟».

ردَّ القرين: «مَن يدري؟ كلُّ ما يُمكنني إخباركم به أن صيَّادي (الغُبار) يخافونه كأنه سُمٌّ قاتل، ولهذا احتجَزوا اللورد آزريل».

قالت لايرا: «لكن لماذا؟».

- «يظنُّون أنه ينوي استخدام (الغُبار) بطريقةٍ ما لمدِّ جسرٍ بين هذا العالم والعالم الآخَر وراء الأورورا».

أحسَّت لايرا بدوخة، وسمعَت فاردر كورام يسأل: «أهكذا ينوي بالفعل؟».

- «نعم. إنهم لا يعتقدون أنه يستطيع، لأنهم يحسبونه مجنونًا لإيمانه بوجود العوالم الأخرى من الأصل، لكن هذا صحيح، إنها نيَّته بالفعل. واللورد آزريل شخصيَّة شديدة القوَّة لدرجةٍ أخافتهم من إفساده خُططهم، ولذا اتَّفقوا مع الدِّببة المدرَّعين على القبض عليه وحبسه في قلعة سڤالبارد بعيدًا عن طريقهم. بوسيلةٍ ما ساعَدوا ملك الدِّببة الجديد على الظَّفر بعرشه كجزءٍ من الصَّفقة».

قالت لايرا: «هل تُريده السَّاحرات أن يصنع هذا الجسر؟ أهن في صفِّه أم ضده؟».

- «سؤال إجابته معقَّدة للغاية. أولًا، السَّاحرات لسن متَّحدات، وثمَّة اختلافات في الرَّأي بيننا. ثانيًا، سيكون لجسر اللورد آزريل أثر على حربٍ قائمة حاليًّا بين السَّاحرات وقُوى أخرى عديدة، بعضها في عالم الأرواح. إذا وُجِدَ ذلك الجسر فستمنح حيازته أفضليَّةً هائلةً لمَن يُسيطر عليه أيًّا كان. ثالثًا، عشيرة سيرافينا پكالا -عشيرتي- ليست جزءًا من أيِّ تحالُفٍ بعدُ، ولو أن علينا ضغطًا عظيمًا لإعلان تأييدنا هذا الطَّرف أو ذاك. كما ترون، إنها أسئلة تنتمي إلى عالم السِّياسة العُليا، وليست الإجابة عنها سهلةً».

سألَته لايرا: «وماذا عن الدِّببة؟ في صفِّ مَن هُم؟».

- «في صفِّ مَن يدفع لهم. الدِّببة غير مهتمِّين بهذه الأسئلة بتاتًا. إنهم بلا قُرناء، ومشكلات البشر لا تعنيهم. على الأقل هذا ما اعتدناه من الدِّببة، لكننا سمعنا أن ملكهم الجديد عازم على تغيير عاداتهم القديمة... على كلِّ حال، صيَّادو (الغُبار) دفعوا له مقابل سَجن اللورد آزريل، وسيحتجزونه في سڤالبارد حتى آخِر قطرةٍ من دم آخِر دُبٍّ حي».

صاحَت لايرا: «ليس جميع الدِّببة! هناك واحد ليس في سڤالبارد على الإطلاق. إنه دبٌّ منفي، وسيأتي معنا».

رمقَ الإوز لايرا بواحدةٍ أخرى من نظراته الثَّاقبة، وهذه المرَّة شعرَت بدهشته الباردة.

اعتدلَ فاردر كورام في وقفته بتوتُّرٍ قائلًا: «الحقيقة يا لايرا أنني لا أظنُّ أنه سيأتي. لقد سمعنا أنه يقضي مُدَّة عقوبةٍ باعتباره عاملًا بالسُّخرة. إنه ما حُر كما حسبناه، بل يُنفِّذ حُكمًا، وحتى إطلاق سراحه لن يكون حُرًّا ليأتي معنا بدرعٍ أو من دونها، كما أنه لن يستعيدها أبدًا».

- «لكنهم خدعوه! أسكَروه وسرقوها!».

قال چون فا: «سمعنا قصَّةً مختلفةً. ما سمعناه أنه مارق خطِر».

بعاطفةٍ مشبوبة جعلَتها تكاد تعجز عن الكلام من فرط السَّخط قالت لايرا: «إذا... إذا قال الأليثيوميتر شيئًا فأنا أعلمُ أنه صحيح. ولقد سألته، وقال إن الدُّب يقول الحقيقة، إنهم خدعوه وإنهم هُم الكاذبون لا هو. إنني أصدِّقه يا چون فا! فاردر كورام... أنت أيضًا رأيته وتُصدِّقه، أليس كذلك؟».

- «حسبتني أصدِّقه يا بنيَّة. إنني ما واثق بالأشياء مِثلكِ».

- «لكن ماذا يخشون؟ أيحسبونه سيدور هنا وهناك مقتِّلًا النَّاس ما إن يضع درعه؟ إنه يستطيع قتل العشرات منهم الآن!».

قال چون فا: «لقد قتلَ فعلًا، ليس العشرات ولكن البعض. حين أخذوا درعه اشتعلَت ثورته وراحَ يبحث عنها مهتاجًا، وحطَّم قسم الشُّرطة والبنك ولا أدري ماذا أيضًا، وماتَ رجلان على الأقل. لقد امتنعوا عن إطلاق النَّار عليه بنيَّة القتل لسببٍ وحيد، هو براعته المبهرة في التَّعامُل مع المعادن، وأرادوا استخدامه ليعمل لصالحهم».

بحرارةٍ قالت لايرا: «بصفته عبدًا! ليس لهم الحق!».

- «بغضِّ النَّظر عن هذا، كان بإمكانهم إطلاق النَّار عليه لما ارتكبَه من قتل، لكنهم لم يفعلوا، وقيَّدوه بالعمل لصالح البلدة إلى أن يُسدِّد ثمن الأضرار ويدفع ضريبة الدَّم».

قال فاردر كورام: «چون، لا أدري شعورك، لكنني أعتقدُ أنهم لن يدعوه يستعيد تلك الدِّرع أبدًا. كلَّما طالَت مُدَّة احتفاظهم به هنا تفاقمَ غضبه حينما يستعيدها».

قالت لايرا: «لكن إذا استعدنا نحن درعه فسيأتي معنا ولن يُزعِجهم ثانيةً أبدًا. أعدك أيها اللورد فا».

- «وكيف سنفعل ذلك؟».

- «أنا أعرفُ مكانها!».

رانَ صمت صارَ ثلاثتهم خلاله مدركين حضور قرين السَّاحرة ونظرته المسلَّطة على لايرا. التفتَ الثَّلاثة إليه، وكذا قُرناؤهم الذين ظلُّوا حتى الآن ملتزمين الأدب الشَّديد وغاضِّين أبصارهم بتواضُعٍ عن هذا المخلوق الفريد الموجود هنا دون جسده.

قال الإوز: «لن يُدهِشكم هذا، لكن الأليثيوميتر سبب آخَر لاهتمام السَّاحرات بكِ يا لايرا. لقد أخبرَنا قُنصلنا بزيارتكِ هذا الصَّباح. أعتقدُ أن الدكتور لانسليوس هو مَن ذكرَ الدُّب».

قال چون فا: «نعم، وهي وفاردر كورام ذهبا بنفسيهما للكلام معه. أجسرُ على القول إن ما تقوله لايرا صحيح، لكن إذا ذهبنا وخالفنا قوانين هؤلاء القوم فسنتورَّط معهم في نزاعٍ لا أكثر، في حين أن ما علينا فعله هو التَّقدُّم نحو بولڤانجار تلك بدُبٍّ أو من دونه».

قال فاردر كورام: «آه، لكنك ما رأيته يا چون. وأنا أصدِّقُ لايرا. قد يُمكننا أن نقطع وعدًا نيابةً عنه. قد يصنع هذا الدُّب أكبر فرق».

سألَ چون فا قرين السَّاحرة: «ما رأيك يا سيِّدي؟».

- «إن تعامُلاتنا مع الدِّببة محدودة للغاية. رغباتهم غريبة علينا غرابة رغباتنا عليهم. إن كان هذا الدُّب منفيًّا فمحتمَل أنه لا يُعتمَد عليه بالقدر المعروف عنهم. عليكم أن تتَّخذوا قراركم بأنفُسكم».

قال چون فا بحزم: «سنفعل. لكن الآن يا سيِّدي، هلَّا أخبرتنا بكيفيَّة الوصول إلى بولڤانجار من هنا؟».

بدأ القرين الإوز يشرح، وتكلَّم عن وديانٍ وتلال، وعن خطِّ الأشجار والتندرا ومشاهدات النُّجوم. أنصتَت لايرا بعض الوقت، ثم استلقَت على كُرسي السَّطح وقد التفَّ پانتالايمون حول عُنقها، وفكَّرت في الرُّؤيا العظيمة التي جلبَها القرين الإوز معه. جسر بين عالمين... لكم هذا أروع من أيِّ شيءٍ كانت لتأمله! ووحده أبوها العظيم استطاعَ مجرَّد تصوُّره. حالما يُنقِذون الأطفال ستذهب مع الدُّب إلى سڤالبارد وتأخذ الأليثيوميتر إلى اللورد آزريل وتستخدمه لمساعدتها على إطلاق سراحه، وسيبنيان الجسر معًا ويكونان أول مَن يَعبُره...

***

استيقظَت لايرا لتجد نفسها على سريرها، فلا شكَّ إذن أن چون فا حملَها إليه في وقتٍ ما خلال اللَّيل. بدَت الشَّمس الشَّاحبة في أعلى نُقطةٍ لها في السَّماء، ترتفع فوق الأُفق مسافةً قصيرةً للغاية، أي أنها الظَّهيرة الآن بالتَّأكيد. قريبًا، حينما يتوغَّلون شمالًا، لن تظهر الشَّمس إطلاقًا.

بدَّلت ثيابها سريعًا وهرعَت إلى السَّطح لتجد أن شيئًا لا يَحدُث تقريبًا. المؤن كلّها على الرَّصيف بالفعل، والمزلجات وفِرق الكلاب استُئجِرَت وتنتظر الرَّحيل. كلُّ شيءٍ جاهز ولا شيء يتحرَّك، والچيپتيُّون معظمهم في مقهى مليء بالدُّخان قُبالة الماء، يأكلون الكعك المتبَّل ويشربون القهوة المحلَّاة القويَّة وقد جلسوا إلى المائدة الخشبيَّة الطَّويلة تحت أزيز وطقطقة بعض المصابيح العنبريَّة العتيقة.

جلسَت مع توني كوستا وأصدقائه متسائلةً: «أين اللورد فا؟ وفاردر كورام؟ هل ذهبا يستعيدان درع الدُّب؟».

- «يتكلَّمان مع السيسلمان، أي العُمدة باللُّغة النورويجيَّة. هل رأيتِ ذلك الدُّب يا لايرا؟».

قالت: «نعم!»، وأفصحَت بكلِّ ما لديها عنه.

بينما تتكلَّم سحبَ شخص آخَر مقعدًا وانضمَّ إلى المجموعة الجالسة إلى المائدة قائلًا: «تكلَّمتِ مع يوريك العجوز إذن؟».

نظرَت إلى الوافد الجديد مندهشةً، ورأته رجلًا طويلًا نحيلًا، له شارب أسود رفيع وعينان زرقاوان ضيّقتان، وعلى ملامحه تعبير دائم من الاستمتاع السَّاخر البارد. انتابَ لايرا شعور قوي فوري نحوه، وإن لم تدرِ يقينًا إن كان شعورًا بالوُدِّ أم النُّفور. قرينته أرنبة برِّيَّة منفوشة الفرو، تبدو نحيلةً خشنة المظهر مِثله.

مدَّ الرَّجل يده لتُصافِحها لايرا بحذر، وقال: «لي سكورزبي».

صاحَت: «الملَّاح الجوِّي! أين منطادك؟ هل يُمكنني أن أركبه؟».

- «إنه محزوم الآن يا آنسة. مؤكَّد أنكِ لايرا الشَّهيرة. كيف كان لقاؤكِ بيوريك برنيسن؟».

- «هل تعرفه؟».

أجابَها: «لقد قاتلتُ إلى جواره في حملة تنجسكا. بحقِّ الجحيم، إنني أعرفُ يوريك منذ سنوات. الدِّببة مخلوقات صعبة مهما كان الموقف، لكنه مشكلة فعلًا ولا ريب. حسن، مَن منكم أيها السَّادة في مزاجٍ للُعبة حظ؟»، وظهرَت في يده مجموعة من ورق اللَّعب كأنه أتى بها من العدم، وشرعَ يخلطها عشوائيًّا بصوتٍ حاد.

بيدٍ واحدة راح لي سكورزبي يقطع الورق ويطويه مرَّةً وراء مرَّة، وبالأخرى أخرجَ سيجارًا من جيب صدره وهو يقول: «لقد سمعتُ عن براعة قومكم في لعب الورق، وفكَّرتُ أنكم لن تعترضوا على إعطاء مسافرٍ تكساسي بسيط فُرصة خوض نزالٍ مع مهارتكم وجرأتكم في ميدان قتال الورق المقوَّى. ما رأيكم أيها السَّادة؟».

يفخر الچيپتيُّون بقُدرتهم الفائقة على لعب الورق، وهكذا بدا الاهتمام على عددٍ كبير من الرِّجال، وسحبَ بعضهم المقاعد للاشتراك في اللُّعبة.

وبينما اتّفقوا مع لي سكورزبي على نوع اللَعبة والمكسب، حرَّكت قرينته أذنيها في اتِّجاه پانتالايمون، الذي فهمَ ووثبَ يقف إلى جانبها بتكوين سنجاب.

تكلَّمت القرينة مخاطبةً أُذنَي لايرا أيضًا بالطَّبع، وسمعَتها الفتاة تقول بهدوء: «اذهبي مباشرةً إلى الدُّب وأخبِريه بصراحة. ما إن يَبلُغهم ما يَحدُث سينقلون درعه إلى مكانٍ آخَر».

نهضَت لايرا آخذةً كعكتها المتبَّلة معها، ولم يلحظ أحد. كان لي سكورزبي يُوزِّع الورق بالفعل، وكلُّ عينٍ شكَّاكة على يديه.

في الضَّوء الباهت الذي يتلاشى في لا نهائيَّة ما بعد الظُّهر شقَّت لايرا طريقها إلى محطَّة المزلجات، عالمةً أن عليها أن تفعل ما ستفعله، ومع ذلك شعرَت بالتَّوتُّر منه، وبالخوف أيضًا.

وجدَت الدُّب الجسيم يعمل خارج أكبر المستودعات الخرسانيَّة، ووقفَت عند البوَّابة المفتوحة تُشاهِده. كان يوريك برنيسن يُفكِّك جرَّارًا يعمل بمحرِّك غاز، ويبدو أنه ارتطمَ بشيءٍ ما لأن غطاء المحرِّك المعدني ملتوٍ ومنبعج، وأحد الأنابيب مثني إلى أعلى. رفعَ الدُّب المعدن كأنه ورق مقوًّى، وبيديه الضَّخمتين لواه في هذا الاتِّجاه وذاك، على ما يبدو ليختبر خاصيَّةً أو أخرى فيه، قبل أن يضع إحدى كفَّيه الخلفيَّتين على طرفٍ ويثني اللَّوح كلَّه بطريقةٍ استوَت بها الانبعاجات واستعادَ المعدن شكله الأصلي. ثم إنه أسندَ الغطاء إلى الحائط، وبكفٍّ واحدة رفعَ وزن الجرَّار الهائل وأمالَه على جانبه، وانحنى ليفحص الأنبوب التَّالف.

وبينما يفعل الدُّب هذا لمحَ لايرا، التي شعرَت بصاعقةٍ من الخوف البارد تضربها من حجمه العملاق وشكله الغريب. كانت تَنظُر عبر السِّياج المشبَّك من بُعد أربعين ياردةً تقريبًا، وفكَّرت أن باستطاعته قطع هذه المسافة بوثبةٍ أو وثبتين وإزاحة السِّلك كأنه شبكة عنكبوت، وقد كادَت تدور على عقبيها وتلوذ بالفرار لولا أن پانتالايمون قال: «توقَّفي! دعيني أذهبُ وأكلِّمه».

تحوَّل پانتالايمون إلى خَطَّاف بحر، وقبل أن تردَّ طارَ من فوق السِّياج وحطَّ على الأرض الجليديَّة وراءه. بعد مسافةٍ قصيرة ثمَّة بوَّابة مفتوحة، وكان بإمكان لايرا أن تتبعه، لكنها ظلَّت في مكانها شاعرةً بالاضطراب، ونظرَ پانتالايمون إليها ثم تحوَّل إلى غُرير.

أدركَت ما يفعله. لا يستطيع القُرناء الابتعاد أكثر من ياردات قليلة عن أناسهم، وإذا وقفَت عند السِّياج وظلَّ هو طائرًا فلن يتمكَّن من الدُّنو من الدُّب، وهكذا عليه أن يُوسِّع المسافة.

أحسَّت بالغضب والبؤس، وانغرسَت مخالب الغُرير في الأرض وتقدَّم. إحساس غريب معذِّب أن يُحاوِل قرينك شدَّ الرَّابط بينكما، جزء منه ألم جسماني في أعماق الصَّدر، وجزء منه حُزن وحُبٌّ عارمان. ولقد علمَت لايرا أنه يُشارِكها الإحساس، فالجميع يختبرونه في أثناء نشأتهم ليروا المدى الذي يستطيعون ابتعاده عن قُرنائهم، ويعودون إليهم متنفِّسين الصُّعداء.

وشدَّ پانتالايمون أكثر.

- «پان، لا!».

لكنه لم يتوقَّف، وشاهدَ الدُّب من دون أن يتحرَّك. ازدادَ الألم في قلب لايرا غلظةً، وارتفعَ في حَلقها نحيب اشتياق.

- «پان...».

ثم إذا بها تمرُّ من البوَّابة وتتعثَّر فوق الوحل المتجلِّد في الطَّريق إليه، وتحوَّل پانتالايمون إلى قطٍّ برِّي ووثبَ بين ذراعيها، وتشبَّث كلاهما بالآخَر وأصوات تعاسةٍ صغيرة راجفة تَخرُج منهما معًا.

- «حسبتك حقًّا...».

- «لا...».

- «لم أصدِّق كم آلمَ هذا».

ثم إنها مسحَت دموعها بغضبٍ وتنشَّقت بقوَّة، واستكانَ هو بين ذراعيها، وعلمَت لايرا أنها تُؤثِر الموت على أن يفترقا ويُواجِها هذا الحُزن مرَّةً أخرى، فهو كفيل بأن يُصيبها بالجنون من فرط الحسرة والرُّعب. لكن إذا ماتَت فسيبقيان معًا، مِثل الباحثين في سراديب چوردان.

رفعَت الفتاة وقرينها أعيُنهما إلى الدُّب المنفرد. إنه بلا قرين، وحيد، دائمًا وحيد.

أحسَّت نحوه بشفقةٍ وعطفٍ عظيمين لدرجة أنها كادَت تمدُّ يدها لتلمس فروته الملبَّدة، ولم يمنعها إلَّا إحساس بالكياسة نحو هاتين العينين الباردتين الشَّرستين.

قالت: «يوريك برنيسن».

- «إذن؟».

- «اللورد فا وفاردر كورام ذهبا يُحاوِلان استعادة درعك».

لم يتحرَّك أو يردَّ، وكان واضحًا ما يظنُّه عن فُرص نجاحهما.

أضافَت: «لكنني أعرفُ أين هي، وإذا أخبرتك فقد تستطيع استعادتها بنفسك، لا أدري».

- «وكيف عرفتِ مكانها؟».

- «لديَّ قارئ رموز. أظنُّ أن عليَّ إخبارك يا يوريك برنيسن، بما أنهم خدعوك لتخلعها. ليس هذا فعلًا سليمًا في رأيي، وما كان يجب أن يُقدِموا عليه. سيتناقَش اللورد فا مع السيسلمان، لكنهم لن يدعوك تسترجعها على الأرجح مهما قال. إذا أخبرتك فهل ستأتي معنا وتُساعِدنا على إنقاذ الأطفال من بولڤانجار؟».

- «نعم».

- «إنني...». لم تقصد أن تكون متطفِّلةً، غير أنها لم تستطِع منع فضولها، وهكذا قالت: «لِمَ لا تصنع درعًا أخرى من المعدن الموجود هنا يا يوريك برنيسن؟».

أجابَها: «لأنه عديم القيمة. انظُري»، ورفعَ غطاء المحرِّك بكفٍّ وأبرزَ مخلبًا من الأخرى وشقَّ به المعدن كفتَّاحة العُلب، ثم أردفَ: «درعي مصنوعة من الحديد السَّماوي، مصنوعة لي أنا. درع الدُّب روحه، تمامًا كقرينكِ الذي هو روحكِ»، وأشارَ إلى پانتالايمون متابعًا: «كأنكِ تتخلَّصين منه وتستبدلينه بدُميةٍ محشوَّة بنُشارة الخشب. هذا هو الفرق. والآن أين درعي؟».

- «اسمع، عليك أن تعدني بأنك لن تنتقم. لقد أخطأوا بأخذها، لكن عليك أن تتغاضى عن هذا».

- «ليكن. لا انتقام بعدها. ولكن لا تسامُح وأنا آخذها كذلك. إن قاوَموا ماتوا».

أخبرَته: «الدِّرع مخبَّأة في منزل القس. إنه يحسب أن فيها روحًا ويُحاوِل استحضارها. لكن هذا هو مكانها».

وقفَ مرتفعًا على ساقيه الخلفيَّتين ونظرَ غربًا لتُلوِّن أشعَّة الشَّمس الأخيرة وجهه بالأبيض المصفر الزَّاهي في هذه العتمة، وشعرَت لايرا بقوَّة هذا المخلوق العظيم تنبعث منه كموجات الحرارة.

قال: «يجب أن أعمل حتى الغروب. لقد أعطيتُ الرَّئيس هنا كلمتي هذا الصَّباح، وما زلتُ مدينًا ببضع دقائق من العمل».

عقَّبت: «الشَّمس غربَت حيث أقفُ»، لأن من موقعها كانت الشَّمس قد غابَت وراء لسان الأرض الصَّخري إلى الجنوب الغربي.

نزلَ الدُّب على أربعٍ قائلًا ووجهه في الظِّل الآن كوجهها: «صحيح. ما اسمكِ أيتها الصَّغيرة؟».

- «لايرا بيلاكوا».

- «إذن فأنا مدين لكِ يا لايرا بيلاكوا».

ودارَ الدُّب واندفعَ يعدو على الأرض المتجمِّدة بسرعةٍ لم تستطِع لايرا مجاراتها حتى وهي تجري. لكنها جرَت، وحلَّق پانتالايمون النَّورس ليرى الجهة التي ذهبَ فيها الدُّب، ثم ناداها من أعلى ليُخبِرها أين تتبعه.

انطلقَ يوريك برنيسن من المحطَّة قاطعًا الشَّارع الضيِّق، قبل أن ينعطف إلى شارع البلدة الرَّئيس مارًّا بفِناء منزل السيسلمان، حيث يتهدَّل عَلم في الهواء السَّاكن ويمشي حارس بجمودٍ جيئةً وذهابًا، ثم نزلَ التَّل بعد طرف الشَّارع حيث يقطن قُنصل السَّاحرات. كان الحارس عندئذٍ قد أدركَ ما يَحدُث ويُحاوِل استعادة رباطة جأشه، لكن يوريك برنيسن كان قد انعطفَ عند ناصيةٍ قُرب الميناء بالفعل.

توقَّف بعض النَّاس للمشاهدة، وأسرعَ بعضهم يبتعد عن طريق غضبته، في حين أطلقَ الحارس عيارين ناريَّين في الهواء وهرعَ نازلًا التَّل وراء الدُّب، فقط ليُفسِد أثر فعلته بالانزلاق على المنحدَر الجليدي، ثم إنه لم يستعِد توازُنه إلَّا عندما تمسَّك بأقرب حاجز. أمَّا لايرا فلم تتخلَّف كثيرًا، وإذ مرَّت بمنزل السيسلمان انتبهَت إلى عددٍ من الأشخاص الذين خرجوا إلى الفِناء ليروا ما يَحدُث، وخُيِّلَ إليها أنها لمحَت فاردر كورام بينهم، لكنها سرعان ما تجاوزَتهم منطلقةً إلى طرف الشَّارع حيث النَّاصية التي انعطفَ عندها الحارس بالفعل في أعقاب الدُّب.

منزل القس أقدم من أكثريَّة منازل البلدة، ومبني بالقرميد باهظ الثَّمن. تقود ثلاث درجاتٍ إلى الباب الأمامي الذي تحوَّل الآن إلى شظايا صغيرة كأعواد الثِّقاب، ومن داخل المنزل ارتفعَ صُراخ وأصوات تحطيم وتمزيق المزيد من الخشب، وهو ما جعلَ الحارس يقف متردِّدًا بالخارج شاكًّا بندقيَّته، لكن لمَّا بدأ المارَّة يتجمَّعون والنَّاس يَنظُرون من نوافذهم عبر الشَّارع، وجدَ الرَّجل أن عليه أن يتصرَّف، وأطلقَ عيارًا في الهواء قبل أن يجري إلى الدَّاخل.

وبعد لحظةٍ بدا كأن المنزل بأكمله يرتجُّ. تحطّم زُجاج ثلاث نوافذ، وانزلقَ لوح من البلاط من فوق السَّطح، ثم خرجَت خادمة مذعورة مسرعةً ووراءها قرينتها الدَّجاجة تنقُّ وتضرب الهواء بجناحيها.

سُمِعت طلقة أخرى داخل المنزل، ثم خوار هادر جعلَ الخادمة تَصرُخ، ثم قُذِفَ القس نفسه إلى الخارج كأنما من مدفع، وبعده مباشرةً قرينته البجعة في دوَّامةٍ عنيفة من الرِّيش والكبرياء الجريحة. سمعَت لايرا من يرفع عقيرته بالأوامر، فالتفتَت لترى فرقةً من رجال الشُّرطة المسلَّحين تهرع آتيةً من النَّاصية، بعضهم مسلَّح بالمسدَّسات وبعضهم بالبنادق، وعلى مسافةٍ ليست بالطَّويلة من ورائهم رأت چون فا والسيسلمان بمظهره البدين المبهرج.

جعلَهم صوت تحطيمٍ مدوٍّ يَنظُرون جميعًا إلى المنزل ثانيةً. كانت نافذة في الطَّابق الأرضي -من الواضح أنها تُفتَح على قبو- تُنتزَع من مكانها ليتهشَّم زُجاجها ويَصرُخ خشبها الممزَّق، ثم إن الحارس الذي تبعَ يوريك إلى الدَّاخل اندفعَ إلى الخارج ووقفَ يُواجِه نافذة القبو رافعًا بندقيَّته إلى كتفه، قبل أن تتحطَّم النَّافذة بالكامل ويَخرُج منها يوريك برنيسن مرتديًا درعه.

من دونها كان مهيبًا، أمَّا بها فصارَ مرعبًا. درعه حمراء حُمرة الصَّدأ، قِطعها مثبَّتة معًا بخشونة، ألواح وصفائح ضخمة من المعدن المنبعج حائل اللَّون تُطَقطِق وتصرُّ مع احتكاك بعضها ببعض، والخوذة مدبَّبة كخطمه، فيها فتحتان للرُّؤية وتَترُك الجزء السُّفلي من فكِّه مكشوفًا لتُتيح له العضَّ والتَّمزيق.

أطلقَ الحارس عدَّة أعيرة، وصوَّب رجال الشُّرطة أسلحتهم أيضًا، إلَّا أن يوريك برنيسن نفضَ الطَّلقات كأنها قطرات مطر، وانقضَّ ومعدنه يصرُّ ويُخَشخِش قبل أن يتمكَّن الحارس من الفرار وطرحَه أرضًا، لتَهجُم قرينته الكلبة الهسكي على حَلق الدُّب، لكن يوريك لم يُعِرها اهتمامًا كأنها مجرَّد ذُبابة، وجرَّ الحارس إليه بكفِّه الضَّخمة ومالَ مطبقًا على رأسه بفكَّيه. ورأت لايرا ما سيَحدُث بالضَّبط: سيسحق الدُّب رأس الرَّجل كأنه بيضة، وسيتبع هذا قتال دامٍ والمزيد من الموت والمزيد من التَّأخير، ولن يَخرُجوا من هنا أبدًا، لا بالدُّب ولا من دونه.

دون تفكيرٍ اندفعَت إلى الأمام ووضعَت يدها على البُقعة المكشوفة الوحيدة في درع الدُّب، الثَّغرة التي ظهرَت بين الخوذة وواقي الكتفين الضَّخم حين حنى رأسه، حيث رأت لمحةً من الفرو الأبيض المصفر بين حواف المعدن الصَّدئة. في هذا الفرو غرسَت أصابعها، وفي لحظةٍ طارَ پانتالايمون إلى البُقعة نفسها وتحوَّل إلى قطٍّ برِّي وجثمَ توطئةً للدِّفاع عنها، لكن يوريك برنيسن لم يُقدِم على حركةٍ أخرى، وامتنعَ رجال الشُّرطة عن إطلاق النَّار.

قالت لايرا بنبرةٍ قويَّة خافتة: «يوريك! اسمع! إن عليك لي دينًا، تمام؟ حسن، الآن يُمكنك أن تُسدِّده. افعل كما أطلبُ، لا تُقاتِل هؤلاء النَّاس، دُر وابتعِد معي. إننا نُريدك يا يوريك. لا يُمكنك البقاء هنا. تعالَ معي إلى الميناء ولا تَنظُر وراءك. فاردر كورام واللورد فا، دعهما يتولَّيان الكلام وسيُصحِّحان الأمور. تخلَّ عن هذا الرَّجل وتعالَ معي...».

ببُطءٍ فتحَ الدُّب فكّيه، وسقطَ رأس الحارس أرضًا، داميًا مبلّلًا بالعَرق شاحبًا كالرَّماد إذ فقدَ الرَّجل وعيه، وقبعَت قرينته إلى جواره تُهدِّئه وتُلاطِفه فيما تراجعَ الدُّب ليقف إلى جانب لايرا.

لم يتحرَّك أحد من الآخَرين، وشاهَدوا الدُّب يبتعد عن ضحيَّته بأمر الفتاة ذات القرين القِط، ثم أفسَحوا الطَّريق إذ مرَّ يوريك برنيسن بينهم بخُطى ثقيلة إلى جوار لايرا وتوجَّه إلى الميناء.

كان عقلها مركَّزًا عليه وحده فلم ترَ البلبلة وراءها، الخوف والغضب اللذين ارتفعا بأمانٍ ما إن ابتعدَ الدُّب. سارَت إلى جواره، وخطا پانتالايمون سابقًا إياهما كأنما يُخلي لهما الطَّريق.

عندما بلغوا الميناء حنى يوريك برنيسن رأسه وحلَّ خوذته بمخلبٍ تاركًا إياها تَسقُط على الأرض المتجمِّدة، وخرجَ الجيپتيُّون من المقهى لمَّا استشعَروا أن شيئًا ما يَحدُث، وفي ضوء المصابيح العنبريَّة على سطحِ السَّفينة شاهَدوا الدُّب يخلع بقيَّة درعه ويَترُكها مكوَّمةً على جانب الرَّصيف، ودون أن يُوجِّه كلمةً إلى أحدٍ تحرَّك صوب الماء ونزلَ فيه من دون أن يُموِّجه، وهناك اختفى.

- «ماذا حدثَ؟». ألقى توني كوستا السُّؤال وقد سمعَ الأصوات السَّاخطة من الشَّارع بالأعلى فيما شقَّ أهل البلدة ورجال الشُّرطة طريقهم نحو الميناء.

حكَت له بما استطاعَت من وضوح، فقال: «لكن أين ذهبَ الآن؟ هل تركَ درعه على الأرض؟ سيأخذونها ثانيةً بمجرَّد وصولهم!».

كانت لايرا تخشى ذلك أيضًا، خاصَّةً عندما ظهرَ الشُّرطي الأول عند النَّاصية، ثم تبعَه المزيد، ثم السيسلمان والقس وعشرون أو ثلاثون من المتفرِّجين، ورأت أيضًا چون فا وفاردر كورام يُحاوِلان اللَّحاق بهم.

لكنهم توقَّفوا حين رأوا المجموعة الواقفة على الرَّصيف، لأن شيئًا آخَر حدثَ. جالسًا على درع الدُّب، وقد أراحَ كاحله على رُكبة ساقه الأخرى، كان جسد لي سكورزبي طويل الأطراف، وفي يده أطول مسدَّسٍ رأته لايرا على الإطلاق، مصوَّبًا باستخفافٍ إلى بطن السيسلمان الكبير.

بنبرة من يخوض محادثةً تقليديَّةً قال التكساسي: «يبدو لي أنكم لم تُحسِنوا العناية بدرع صديقي. انظُروا إلى هذا الصَّدأ! ولن يُدهِشني أن أجد فيها عُثًّا أيضًا. والآن، قفوا في أماكنكم ثابتين هادئين، ولا يتحرَّكن منكم أحد حتى يعود الدُّب بالقليل من الشَّحم. أو يُمكنكم العودة جميعًا إلى منازلكم وقراءة الجرائد. القرار لكم».

- «ها هو ذا!»، صاحَ توني كوستا مشيرًا إلى المنحدَر عند أقصى الرَّصيف، حيث يَخرُج يوريك برنيسن من الماء جارًّا شيئًا داكنًا، وما إن صعدَ إلى الرَّصيف نفضَ جسمه ناثرًا مياهًا غزيرةً في كلِّ اتِّجاه، إلى أن انتفشَ فروه الكثيف ثانيةً. ثم إنه انحنى ليقبض على الشَّيء الأسود بأسنانه وجرَّه إلى كومة درعه، ورأوا أن ما معه فقمة ميتة.

قال الملّاح الجوّي ناهضًا بكسلٍ دون أن يُبعِد مسدَّسه المصوَّب بإحكامٍ إلى السيسلمان: «يوريك. هاودي!».

رفعَ الدُّب عينيه وأطلقَ زمجرةً قصيرةً، قبل أن يشقَّ جسم الفقمة بمخلبٍ واحد، وشاهدَت لايرا مأخوذةً إذ فردَ الجِلد ومزَّق شرائط من الشَّحم وراحَ يَفرُك درعه كلَّها بها، داسًّا إياها بعنايةٍ في البقاع التي يحتكُّ فيها بعض الصَّفائح ببعض. وبينما يعمل خاطبَ الدُّب لي سكورزبي قائلًا: «أأنت مع هؤلاء القوم؟».

- «بالتَّأكيد. أظنُّ أن كلينا أجير الآن يا يوريك».

سألَت لايرا التكساسي: «أين منطادك؟».

- «محزوم على مزلجتين. ها هو ذا الزَّعيم».

نزلَ چون فا وفاردر كورام إلى الرَّصيف ومعهما السيسلمان وأربعة من رجال الشُّرطة المسلَّحين، وبصوتٍ خشن مرتفع قال السيسلمان: «أيها الدُّب! في الوقت الحالي مسموح لك بالرَّحيل في صُحبة هؤلاء القوم، لكن دعني أقول لك، إذا ظهرت داخل حدود هذه البلدة ثانيةً فسوف تُعامَل بلا رحمة».

لم يُعِره يوريك برنيسن أدنى انتباه، واستمرَّ في فرك درعه بشحم الفقمة. ذكَّر الحرص والعناية اللذين يعمل بهما لايرا بإخلاصها لپانتالايمون، فكما قال الدُّب، هذه روحه بحق. انسحبَ السيسلمان ورجال الشُّرطة، وببُطءٍ التفتَ أهل البلدة وتفرَّقوا، ولو أن بعضهم ظلَّ ليتفرَّج.

وضعَ چون فا يديه حول فمه، ونادى: «أيها الچيپتيُّون!».

كانوا مستعدِّين للحركة جميعًا، وجميعًا يتشوَّقون إلى الرَّحيل منذ ترجَّلوا من السَّفينة. المؤن محزومة على المزلجات، والكلاب مربوطة.

قال چون فا: «حانَ وقت الرَّحيل أيها الأصدقاء. جميعنا محتشدون الآن، والطَّريق أمامنا مفتوح. مستر سكورزبي، حاجياتك جاهزة؟».

- «مستعدٌّ للذَّهاب أيها اللورد فا».

- «وأنت يا يوريك برنيسن؟».

قال الدُّب: «حين أرتدي درعي».

كان قد فرغَ من تشحيم الدِّرع، ولأنه لا يُريد أن يُبدِّد لحم الفقمة فقد رفعَ الجثَّة بأسنانه وألقاها على ظَهر مزلجة لي سكورزبي الأكبر قبل أن يرتدي درعه. مدهشةٌ حقًّا رؤية الخفَّة التي تعاملَ بها معها، لا سيَّما أن صفائح وألواح المعدن تَبلُغ قُرابة البوصة سُمكًا في بعض المواضع، ومع ذلك ألقاها في أماكنها على جسمه كأنها من الحرير. استغرقَ في هذا أقل من دقيقة، وهذه المرَّة لم يَصدُر من المعدن صريخ الصَّدأ الخشن.

وهكذا خلال أقل من نِصف السَّاعة بدأت الحملة طريقها شمالًا، وتحت سماءٍ عامرة بملايين النّجوم تقدَّمت المزلجات متخبِّطةً مخشخشةً فوق الحُفرِ والحجارة إلى أن بلغَت الثُّلوج الصَّافية على حافة البلدة، وعندها استحالَ الصوت إلى انسحاق الثَّلج الهادئ وصرير الخشب، وبدأت الكلاب تتحرَّك بنشاط، وصارَت الحركة سريعةً ناعمةً.

دثَّرت لايرا نفسها تمامًا في مؤخِّرة مزلجة فاردر كورام حتى لم يَعُد ظاهرًا منها إلَّا العينان، وهمسَت لپانتالايمون: «هل ترى يوريك؟».

نظرَ القرين وراءه وقد اتَّخذ تكوين القاقوم وتمسَّك بقلنسوة فرو الوولڤرين، وأجابَها: «يتحرَّك إلى جوار مزلجة لي سكورزبي».

أمامهم، فوق الجبال الواقعة شمالًا، بدأت أقواس أضواء الشَّمال وحلقاتها الشَّاحبة تتوهَّج وترتعش، ورأتها لايرا بعينين نِصف مغمضتين شاعرةً بإثارةٍ ناعسة من السَّعادة المطلقة، مبعثها الإسراع شمالًا تحت الأورورا. قاومَ پانتالايمون رغبتها في النوم، لكنه وجدَها أقوى منه، فتكوَّر على نفسه بتكوين فأرٍ داخل قلنسوتها. حين يستيقظان سيُخبِرها، وعلى الأرجح هو سمُّور أو حُلم أو روح محليَّة لا أذى منها، لكن شيئًا ما كان يتبع قافلة المزلجات، يتأرجَح بخفَّةٍ من فرعٍ إلى فرعٍ على أشجار الصَّنوبر الكثيفة، شيئًا جعلَه يُفكِّر بقلقٍ في قرد.

(12) الصَّبي الضَّائع

قضوا ساعاتٍ عدَّةً في الحركة ثم توقَّفوا ليأكلوا، وفيما عكفَ الرِّجال على إشعال النَّار وإذابة الثَّلج للحصول على الماء، وجلسَ يوريك برنيسن يُشاهِد لي سكورزبي يشوي لحم الفقمة على مقربة، خاطبَ چون فا لايرا قائلًا: «هل يُمكنكِ رؤية الأداة لقراءتها؟».

كان القمر نفسه قد غابَ منذ ساعاتٍ طويلة، أمَّا ضوء الأورورا فأسطع من ضوء القمر، لكنه متقلِّب. غير أن عينَي لايرا حادَّتان، وهكذا نقَّبت داخل ثيابها الفرو وأخرجَت الكيس المخملي الأسود مجيبةً: «نعم، يُمكنني الرُّؤية بوضوح، لكنني أعرفُ مكان أكثر الرُّموز الآن على كلِّ حال. ماذا أسأله أيها اللورد فا؟».

- «أريدُ أن أعرف المزيد عن دفاعاتهم في ذلك المكان، بولڤانجار».

دون حاجةٍ إلى مجرَّد التَّفكير، وجدَت أصابعها تُحرِّك العقارب لتُشير إلى الخوذة والجريفين[14] والبُوتقة، وأحسَّت بذهنها يستقرُّ على المعاني الصَّحيحة كرسمٍ بياني معقَّد ثُلاثي الأبعاد، وعلى الفور بدأت الإبرة تدور وتعود وتدور أكثر كأنها نحلة تشرح رسالةً لخليَّتها رقصًا. شاهدَتها لايرا

بهدوء، قانعةً بألّا تعرف في البدء ولكن عالمةً أن في الطّريق معنًى، ثم إنه بدأ يتّضح بالفعل، فتركَت الإبرة تَرقُص إلى أن تأكَّد هذا المعنى.

- «تمامًا كما قال قرين السَّاحرة أيها اللورد فا. المحطَّة تَحرُسها فِرقة من التَّرتار، وتُحيط بها الأسلاك. إنهم لا يتوقَّعون هجومًا حقًّا. هكذا يقول قارئ الرُّموز. لكن، لورد فا...».

- «ماذا يا بنيَّة؟».

- «إنه يُخبِرني بشيءٍ آخَر. في الوادي التَّالي قرية مطلَّة على بحيرة، يُعاني أهلها إزعاجًا من شبح».

هزَّ چون فا رأسه بنفاد صبر، وقال: «لا يهمُّنا ذلك الآن. مؤكَّد أن هناك أرواحًا من جميع الأنواع في هذه الغابات. أخبِريني بالمزيد عن هؤلاء التَّرتار. كم عددهم على سبيل المثال؟ ما تسليحهم؟».

سألَت لايرا بطاعة، ثم أبلغَته بالجواب: «ستُّون رجلًا مسلَّحًا بالبنادق، ومعهم نوع أكبر من السِّلاح، نوع ما من المدافع. ومعهم قاذفات لهبٍ أيضًا، و... قريناتهم جميعًا من الذِّئاب. هكذا يقول».

أفضى هذا إلى اضطرابٍ بين الچيپتيِّين الأكبر سِنًّا الذين خرجوا في حملاتٍ من قبل، وعلَّق أحدهم: «رجال الفِرق السيبيرسكيَّة المُحاربة قريناتهم ذئبات».

قال چون فا: «لم أقابل قَطُّ مخلوقاتٍ أشرس. علينا أن نُقاتِل بضراوة البَبِر، وأن نستشير الدُّب. إنه مُحارب محنَّك».

قالت لايرا بتبرُّم: «لكن، لورد فا، هذا الشَّبح... أظنُّه شبح أحد الأطفال!».

- «طيِّب، حتى إذا كان كذلك يا لايرا، فلا أدري ما يُمكن أن يفعله أيُّ أحد. ستُّون سيبيرسكيًّا مسلَّحًا بالبنادق، وقاذفات لهب... مستر سكورزبي، تعالَ هنا لحظةً من فضلك».

وبينما دنا الملَّاح الجوِّي من المزلجة، ابتعدَت لايرا لتُكلِّم الدُّب.

- «يوريك، هل سافرت في هذه الأنحاء من قبل؟».

أجابَها بصوته الجامد العميق: «مرَّةً».

- «هناك قرية قريبة، أليس كذلك؟».

قال ناظرًا عبر الأشجار غير الكثيفة: «وراء سلسلة التِّلال».

- «أهي بعيدة؟».

- «بالنِّسبة إليكِ أم إليَّ؟».

- «إليَّ».

- «بعيدة جدًّا، وليست بعيدةً على الإطلاق بالنِّسبة إليَّ».

- «كم يلزمك للوصول إلى هناك؟».

- «أستطيعُ الذَّهاب والعودة ثلاث مرَّاتٍ قبل طلوع القمر التَّالي».

- «لأن، اسمع يا يوريك، كما ترى، إن معي قارئ الرُّموز هذا، الذي يُخبِرني بأشياء، ولقد أخبرَني بأن هناك شيئًا مهمًّا عليَّ أن أفعله في تلك القرية، واللورد فا يَرفُض السَّماح لي بالذَّهاب. إنه يُريد مواصلة الطَّريق بسرعة، وأعرفُ أن هذا أيضًا مهمٌّ، لكن ما لم أذهب وأكتشف ما يَحدُث فقد لا نعرف ما يفعله الملتهِمون حقًّا».

لم يقل الدُّب شيئًا. كان جالسًا كإنسان، واضعًا يديه الضَّخمتين في حِجره، وعيناه الدَّاكنتان تَنظُران في عينيها من فوق خطمه الطَّويل، وبدا عليه أنه يُدرِك أنها تُريد شيئًا.

تكلَّم پانتالايمون سائلًا يوريك: «هل يُمكنك أخذنا إلى هناك ثم اللَّحاق بالقافلة لاحقًا؟».

- «يُمكنني، لكنني أعطيتُ اللورد فا كلمتي بطاعته هو وليس غيره».

سألَته لايرا: «وإذا حصلتُ على إذنه؟».

- «في هذه الحالة نعم».

دارَت لايرا وجرَت على الثَّلج، وبإلحاحٍ قالت: «لورد فا! إذا أخذَني يوريك برنيسن فوق سلسلة التِّلال إلى القرية فيُمكننا أن نعرف ما يَحدُث هناك ثم نلحق بالقافلة بعدها. إنه يعرف الطَّريق. ولم أكن لأطلب هذا لولا أن الأمر كما فعلتُ من قبل. هل تَذكُر الحرباء يا فاردر كورام؟ لم أفهمها في أوانها، لكن ما قاله الرَّمز كان صحيحًا، وسرعان ما اكتشفنا هذا. الإحساس نفسه يُراوِدني الآن. لا أفهمُ ما تقوله الأداة بالضَّبط، لكنني أعلمُ أنه مهمٌّ. ويوريك برنيسن يعرف الطَّريق، ويقول إنه يستطيع الذَّهاب والعودة ثلاث مرَّاتٍ قبل طلوع القمر التَّالي، ومعه سأكونُ في أقصى درجات الأمان، أليس كذلك؟ لكنه لن يذهب ما لم يأذن له اللورد فا».

سادَ الصَّمت. تنهَّد فاردر كورام، وقطَّب چون فا وجهه وزمَّ فمه داخل قلنسوته الفرو بعبوس.

لكن قبل أن يتكلَّم تدخَّل الملَّاح الجوِّي بقوله: «لورد فا، إذا أخذَ يوريك برنيسن هذه الفتاة الصَّغيرة فستكون آمنةً معه مِثلما هي معنا. الدِّببة كلُّهم مخلصون، لكنني أعرفُ يوريك منذ سنوات، ولا شيء تحت السَّماء سيجعله يخلُّ بكلمته. أعطِه الأمر بالعناية بها وثِق بأن هذا ما سيفعله. وبالنِّسبة إلى السُّرعة فبإمكانه الرَّكض ساعاتٍ دون أن يتعب».

قال چون فا: «لكن لِمَ لا يذهب بعض رجالنا؟».

علَّقت لايرا: «عليهم أن يمشوا، لأنك لا تستطيع عبور سلسلة التِّلال هذه بالمزلجة. يوريك برنيسن أسرع من أيِّ رجلٍ في منطقةٍ كهذه، وأنا خفيفة بما فيه الكفاية ولن أبطئ حركته. وأعدك أيها اللورد

فا، أعدك بأنني لن أستغرق وقتًا أطول من اللّازم، وأنني لن أبوح بأيٍّ شيءٍ عنا أو أضع نفسي في خطر».

- «متأكِّدة من أن عليكِ أن تفعلي هذا؟ وأن قارئ الرُّموز ما يستغفلكِ؟».

- «ذلك شيء لا يفعله أبدًا أيها اللورد فا، ولا أظنُّه باستطاعته».

فركَ ذقنه قائلًا: «طيِّب، إن مرَّ كلُّ شيءٍ على خير فسيزداد قدر ما نعرفه الآن»، ثم إنه نادى: «يوريك برنيسن، ألأنت مستعدٌّ لتنفيذ أوامر هذه الصَّغيرة؟».

- «إنني أنفِّذُ أوامرك أنت أيها اللورد فا. قُل لي أن آخذ الطِّفلة وسآخذها».

- «ليكن. ستأخذها إلى حيث تُريد الذَّهاب وستفعل كما تأمر. لايرا، أنا قائدكِ الآن، هل تفهمين؟».

- «نعم أيها اللورد فا».

- «اذهبي وابحثي عمَّا تُريدين البحث عنه، ولمَّا تَعثُرين عليه دوري وعودي بلا إبطاء. يوريك برنيسن، سنكون بنتحرَّك وقتها، لذا عليك اللَّحاق بنا».

أومأَ الدُّب برأسه الضَّخم، وقال للايرا: «أهناك جنود في القرية؟ هل سأحتاجُ إلى درعي؟ سنتحرَّك أسرع من دونها».

قالت: «لا. إنني واثقة بهذا يا يوريك. أشكرك أيها اللورد فا، وأعدك بأن أفعل كما تقول بالضَّبط».

أعطاها توني كوستا شريحةً من لحم الفقمات المجفَّف لتمضغها، وبعد أن تحوَّل پانتالايمون إلى فأرٍ واستقرَّ داخل قلنسوتها، ركبَت لايرا الدُّب العظيم متشبِّثةً بفروه بقُفَّازيها السَّميكين، ووضعَت رُكبتيها على جانبَي ظَهره العضلي الضيِّق. وجدَت فروه كثيفًا لدرجةٍ عجيبة، وغمرَها الشُّعور بالقوَّة الهائلة المنبعثة منه. ثم، كأن لا وزن لها على الإطلاق، دارَ الدُّب وبدأ يَركُض بخُطى طويلة متمايلة نحو خطِّ التِّلال وإلى الأشجار الواطئة.

استغرقَت بعض الوقت حتى اعتادَت الحركة، ثم إن نشوةً لا تُوصَف استحوذَت عليها. إنها تركب دُبًّا! والأورورا تتأرجَح فوقهما بأقواسٍ وحلقاتٍ من ذهب، وفي كلِّ اتِّجاهٍ حولهما البرد القُطبي القارس وصمت الشَّمال الرَّهيب.

لم تُصدِر كفوف يوريك برنيسن صوتًا تقريبًا إذ ركضَ في الثَّلج. الأشجار رفيعة قصيرة هنا، لأنهما على حافة التندرا، لكن في طريقهما حشائش شائكةً وشُجيراتٍ ناتئةً، ولقد اخترقَها الدُّب ببساطةٍ كأنها شباك عنكبوت.

صعدا التَّل المنخفض بين بروزات الصَّخر الأسود، وسرعان ما غابا عن أنظار المجموعة خلفهما. أرادَت لايرا أن تتكلَّم مع الدُّب، ولو كان إنسانًا لأصبحَت على معرفةٍ وُدِّيَّة به بالفعل... لكنه شديد الغرابة والضَّراوة والبرودة إلى حدٍّ أصابَها بالخجل، ربما للمرَّة الأولى في حياتها. وهكذا تركَته يَركُض على قوائمه الضَّخمة المتمايلة بلا كلل، وجلسَت مستكينةً إلى الحركة ولم تنبس بكلمة، مفكِّرةً أنه قد يُفضِّل هذا، فمؤكَّد أنها تبدو له كديسمٍ صغير ثرثار، أنها في نظر دُبٍّ مدرَّع مخلوقة تجاوزَت بالكاد سِنَّ الرِّضاعة.

نادرًا ما انتبهَت لايرا إلى نفسها حقًا، ووجدَت التّجربة مثيرةً ولكن غير مريحة، شبيهةً للغاية بركوب الدُّب في الحقيقة.

تحرَّك يوريك برنيسن بسرعةٍ محرِّكًا كلتا السَّاقين على جانبَي جسمه في الوقت نفسه، ومتأرجحًا من جانبٍ إلى جانبٍ بإيقاعٍ قويٍّ ثابت، ووجدَت لايرا أنها لا تستطيع الجلوس فحسب، بل عليها الرُّكوب كما لو أنها تقوده.

كانا يتحرَّكان منذ ساعةٍ أو أكثر، ولايرا متيبِّسة الجسد متألِّمة ولكن تَشعُر بسعادةٍ غامرة، عندما تباطأ يوريك برنيسن ثم توقَّف قائلًا: «انظُري إلى أعلى».

رفعَت لايرا عينيها ومسحَتهما مضطرَّةً بباطن معصمها، فمن شدَّة البرد شوَّش الدَّمع بصرها، ولمَّا رأت بوضوحٍ شهقَت للمشهد في السَّماء. كانت الأورورا قد استحالَت إلى ألقٍ باهتٍ راجف، لكن النُّجوم تتلألأ كالماس، وعبر القُبَّة المرصَّعة بالماسات تُحلِّق مئات ومئات من الأجسام السَّوداء الصَّغيرة من الشَّرق والجنوب في اتِّجاه الشَّمال.

سألَته: «أهذه طيور؟».

أخبرَها الدُّب: «إنهن ساحرات».

- «ساحرات! ماذا يفعلن؟».

- «طائرات إلى الحرب ربما. لم أرَ كلَّ هذه الأعداد منهن في وقتٍ واحدٍ من قبل».

- «هل تعرف أيَّ ساحراتٍ يا يوريك؟».

- «خدمتُ بعضهن، وقاتلتُ بعضهن أيضًا. هذا المشهد كفيل بإلقاء الخوف في نفس اللورد فا. إذا كنَّ ذاهباتٍ لمؤازرة أعدائكم فعليكم جميعًا أن تخافوا».

- «اللورد فا لن يخاف. وأنت ما خائف، أليس كذلك؟».

- «ليس بعدُ، وحينما أخافُ سأقهرُ خوفي. لكن الأفضل أن نُخبِر اللورد فا بشأن السَّاحرات، فربما لم يرهن الرِّجال».

استأنفَ الدُّب الحركة بمزيدٍ من البُطء، وظلَّت لايرا تُراقِب السَّماء إلى أن أغشَت دموع البرد عينيها ثانيةً، ولم ترَ نهايةً للسَّاحرات اللاتي لا حصر لهن الطَّائرات شمالًا.

وأخيرًا توقَّف يوريك قائلًا: «ها هي ذي القرية».

كانا يَنظُران من أعلى منحدَرٍ وعر نحو كُتلةٍ من المباني الخشبيَّة المجاورة لمساحةٍ واسعة من الثَّلج المنبسط عن آخِره. قدَّرت لايرا أن هذه بحيرة متجمِّدة، وأراها مرسى خشبي أنها محقَّة. الآن لا يفصلهما أكثر من دقائق خمس عن المكان.

سألها الدُّب: «ماذا تُريدين أن تفعلي؟».

ترجَّلت لايرا من فوق ظَهره لتجد الوقوف صعبًا. كان وجهها متيبِّسًا من البرد وساقاها مهزوزتين، لكنها تمسَّكت بفروه ودقَّت الأرض بقدميها حتى أحسَّت بأنها أقوى.

قالت: «في هذه القرية طفل أو شبح أو شيء ما، أو ربما قُربها، لا أعلمُ يقينًا. أريدُ أن أذهب وأعثر عليه وأعود به إلى اللورد فا والآخَرين إذا استطعتُ. لقد حسبته شبحًا، لكن قارئ الرُّموز يُخبِرني بشيءٍ لا أستوعبه».

- «إن كان بالخارج فخيرٌ له أن يكون قد وجدَ مأوًى».

قالت لايرا: «لا أظنُّه ميتًا»، إلَّا أنها بعيدة كلَّ البُعد عن اليقين، فقد أشارَ الأليثيوميتر إلى شيءٍ غير مألوف وغير طبيعي، وهذا مفزع. لكن مَن هي؟ ابنة اللورد آزريل. ومَن تحت أمرها؟ دُبٌّ جبَّار. أنَّى لها إذن أن تُبدي خوفًا على الإطلاق؟ وهكذا قالت: «لنذهب ونرَ».

صعدَت على ظَهره مجدَّدًا وبدأ ينزل المنحدَر الوعر، يمشي بثباتٍ ولا يَركُض.

شمَّتهما كلاب القرية أو سمعَتهما أو شعرَت بهما وبدأت تعوي بأصواتٍ مروِّعة، وتحرَّكت الرنَّة في حظيرتها بتوتُّر، تتصادَم قرونها كالعِصِي الجافَّة. في هذا الهواء السَّاكن من شأن كلِّ حركةٍ أن تُسمَع من مسافةٍ بعيدة.

عندما بلغا أول المنازل نظرَت لايرا يمينًا ويسارًا محاولةً اختراق العتمة بناظريها، فالأورورا تذوي وطلوع القمر ما زالَ بعيدًا. هنا وهناك يتذبذَب ضوء تحت سقفٍ مكسو بالثَّلج السَّميك، وخطرَ للايرا أنها رأت وجوهًا شاحبةً وراء بعض ألواح النَّوافذ، وتخيَّلت دهشة أصحابها لمرأى طفلةٍ تمتطي دُبًّا أبيض عظيمًا.

في مركز القرية الصَّغيرة مساحة مفتوحة تُجاوِر المرسى، حيث تتجمَّع القوارب المدفونة تحت الثُّلوج. كانت ضوضاء الكلاب تصمُّ الآذان، وفي اللَّحظة التي فكَّرت فيها لايرا أنها أيقظَت الجميع بكلِّ تأكيد انفتحَ باب وخرج رجل حاملًا بندقيَّةً، ووثبَت قرينته أنثى الوولڤرين لتقف فوق كومة الأخشاب المجاورة للباب ناثرةً الثَّلج.

نزلَت لايرا في الحال ووقفَت بينه وبين يوريك برنيسن، واعيةً حقيقة أنها قالت للدُّب إن لا داعي لجلب درعه.

تكلَّم الرَّجل بلُغةٍ لم تفهمها، وردَّ يوريك برنيسن باللُّغة نفسها، ليُطلِق الرَّجل أنين خوفٍ قصيرًا.

أخبرَها يوريك: «يحسبنا شيطانين. ماذا أقولُ؟».

- «قُل له إننا لسنا شيطانين، لكن لنا أصدقاءً شياطين. وإننا نبحث عن... مجرَّد طفل، طفل غريب. أخبِره بهذا».

ما إن قال الدُّب هذا حتى أشارَ الرَّجل إلى اليمين نحو مكانٍ أبعد قليلًا، وتكلَّم بسرعة.

قال يوريك برنيسن: «يسأل إن كنا قد جئنا لأخذ الطِّفل. إنهم خائفون منه. لقد حاوَلوا طرده لكنه ما ينفكُّ يعود».

- «قُل له إننا سنأخذه معنا، لكنها وضاعة منهم أن يُعامِلوه هكذا. أين هو؟».

شرحَ الرَّجل مشيرًا ومومئًا بخوف، وخشيَت لايرا أن يُطلِق بندقيَّته خطأً، لكنه بمجرَّد أن فرغَ من الكلام أسرعَ يَدخُل منزله ويُغلِق الباب.

سألَت لايرا رائيةً وجوهًا وراء كلِّ نافذة: «أين الطِّفل؟».

قال الدُّب: «في سقيفة السَّمك»، ودارَ متحرِّكًا نحو المرسى.

تبعَته لايرا المتوتِّرة لدرجةٍ فظيعة، واتَّجه الدُّب إلى سقيفةٍ خشبيَّة ضيِّقة وقد رفعَ رأسه يتشمَّم الهواء في هذا الاتِّجاه وذاك، ولمَّا بلغَ الباب توقَّف قائلًا: «بالدَّاخل».

كان قلب لايرا يخفق بسرعةٍ جعلَتها تتنفَّس بصعوبة. رفعَت يدها لتدق الباب، ثم -وقد شعرَت بسخافة هذا- أخذَت نفسًا عميقًا لتُنادي، فقط لتُدرِك أنها تجهل ما يُمكن أن يُقال. أوه، الظَّلام دامس الآن! كان عليهما أن يجلبا قنديلًا...

ليس هناك خيار، ولايرا على كلِّ حالٍ لا تُريد أن يراها الدُّب خائفةً. لقد تكلَّم عن قهر خوفه، وهذا ما يجب أن تفعله. رفعَت الحزام المصنوع من جِلد الرنَّة الذي يُثبِّت التِّرباس، وبقوَّةٍ أزاحَت الصَّقيع الذي جمَّد الباب في مكانه، لينفتح بصوتٍ حاد، ثم إنها ركلَت الثَّلج المتكوِّم على العتبة قبل أن تدفع الباب. لم يُساعِدها پانتالايمون الذي راحَ يجري جيئةً وذهابًا متَّخذًا تكوين القاقوم، ظلٌّ أبيض على الأرض البيضاء يُصدِر أصوات خوفٍ خفيضة.

قالت: «پان، بالله عليك! تحوَّل إلى وطواط، ادخُل وانظُر...».

لكنه لم يفعل، ولم يتكلَّم كذلك. لم ترَه لايرا على هذه الحال إلَّا مرَّةً واحدةً، عندما كانت مع روچر في سراديب چوردان ونقلَت عُملات القرينات إلى الجماجم الخطأ، والآن تراه أشد خوفًا منها بكثير. أمَّا يوريك برنيسن فراقد على مقربةٍ في الثَّلج ويُشاهِد بصمت.

بأعلى صوتٍ جرؤَت عليه نادَت لايرا: «اخرُج، اخرُج!».

ولا صوت أجابَها. فتحَت الباب فُرجةً أكبر قليلًا، ووثبَ پانتالايمون بين ذراعيها يدفعها ويدفعها بتكوين القطِّ ويقول: «ابتعدي! لا تبقي هنا! أوه، لايرا، ارحلي الآن! ارجعي!».

محاولةً حمله بثبات، انتبهَت إلى نهوض يوريك برنيسن، فالتفتَت لترى شخصًا يُسرِع قاطعًا الدَّرب من القرية وفي يده قنديل، ولمَّا اقتربَ بما فيه الكفاية للكلام رفعَ القنديل ليُريهما وجهه، فرأيا رجلًا

هرِمًا ذا وجهٍ عريض متغضِّن وعينين تكادان تغيبان وسط آلاف التّجاعيد، ومعه قرينته الثّعلبة القُطبيَّة.

تكلَّم الرَّجل، وترجمَ يوريك: «يقول إنه ليس الطِّفل الوحيد من هذا النَّوع، إنه رأى آخَرين في الغابة. أحيانًا يموتون سريعًا وأحيانًا لا يموتون. يظنُّ أن هذا الطِّفل قوي الاحتمال، لكن الموت أفضل له».

قالت لايرا: «سله إن كان يُمكننا استعارة قنديله».

تكلَّم الدُّب، وناولَها الرَّجل القنديل من فوره مومئًا برأسه بقوَّة، فأدركَت أنه أتى ليُعطيها إياه وشكرَته. أومأ الرَّجل برأسه ثانيةً وتراجعَ بعيدًا عنها وعن السَّقيفة وعن الدُّب.

فجأةً فكَّرت لايرا: ماذا لو أن هذا الطِّفل هو روجر؟ وبكلِّ جوارحها دعَت ألَّا يكون هو. كان پانتالايمون متشبِّثًا بها وقد عادَ إلى تكوين القاقوم، وانغرسَت مخالبه الصَّغيرة بشدَّةٍ في فرو معطفها.

رفعَت القنديل عاليًا وأخذَت خُطوةً داخل السَّقيفة، وعندها رأت ما تفعله هيئة القرابين، وطبيعة التَّضحية التي على الأطفال تقديمها.

كان الصَّبي الصَّغير متكوِّرًا على نفسه عند حامل التَّجفيف الخشبي، المعلَّقة عليه صفوف وصفوف من الأسماك منزوعة الأحشاء، كلُّها يابس كألواح الخشب، ويضمُّ الطِّفل إلى صدره سمكةً كما تضمُّ لايرا پانتالايمون بيدها اليُسرى إلى قلبها بقوَّةٍ شديدة.

لكن هذا هو كلُّ ما معه، سمكة مجفَّفة، لأنه بلا قرينةٍ على الإطلاق. الملتهِمون قطعوها عنه.

هذا هو الفصل، وهذا طفل مبتور.

(13) المبارزة

أول ما اعتراها كان فكرة الدَّوران على عقبيها والفرار، أو الرَّغبة في القيء. الإنسان من دون قرينٍ كالإنسان بلا وجه، أو كشخصٍ مكشوفة ضلوعه ممزَّقٌ قلبه، شيء شاذ منافٍ للطَّبيعة، ينتمي إلى عالم الجواثيم وليس عالم الحواس اليقِظة.

تمسَّكت لايرا بپانتالايمون شاعرةً برأسها يدور، وبعُصارة معدتها ترتفع في حَلقها، وعلى الرغم من برودة اللَّيل بلَّل عَرق مغثٍ جِلدها بشيءٍ أبرد.

قال الصَّبي: «راتر. هل معكِ راتر؟».

لم يتطرَّق إلى لايرا شكٌّ في مَن يعني بسؤاله، وبصوتٍ واهن خائف مِثلها أجابَت: «لا»، ثم سألَته: «ما اسمك؟».

- «توني مكاريوس. أين راتر؟».

بدأت تُجيبه: «لا أدري...»، وابتلعَت ريقها بقوَّةٍ لتقهر غثيانها، وأردفَت: «الملتهِمون...»، لكنها لم تقوَ على إنهاء عبارتها. رغمًا عنها خرجَت من السَّقيفة لتجلس وحدها في الثَّلج، ولو أنها ليست

وحدها بالطّبع، ليست وحدها أبدًا، لأن پانتالايمون إلى جانبها على الدَّوام. أوه، أن تُقطَع عنه كما فُصِلَ هذا الصَّبي الصَّغير عن قرينته راتر! أسوأ شيءٍ في الدُّنيا! وجدَت نفسها تبكي، وپانتالايمون ينتحب أيضًا، في كليهما شفقة حارَّة وأسًى بالغ نحو هذا النِّصف صبي.

ثم إنها عادَت تنهض، وبنبرةٍ مرتعشة نادَت: «هيا بنا. توني، هلمَّ. سنأخذك إلى مكانٍ آمن».

سمعَت حركةً داخل سقيفة السَّمك، ثم ظهرَ الصَّبي عند الباب دون أن يتخلَّى عن سمكته المجفَّفة. رأته يرتدي ثيابًا ثقيلةً بما فيه الكفاية، معطفًا سميك البطانة من الحرير الفحمي له قلنسوة، وحذاءً من الفرو، ولكن يبدو عليهما استعمال سابق ولا يُناسِبان مقاسه. بالخارج، في الضَّوء الأوسع الآتي من ذيول الأورورا الباهتة والأرض المكسوَّة بالثَّلج، بدا الصَّبي أشد ضياعًا وإثارةً للشَّفقة من قبل وهو قابع في ضوء القنديل عند حامل تجفيف السَّمك.

كان القروي الذي جلبَ القنديل قد تراجعَ بضع ياردات، وناداهم صائحًا بشيءٍ ما.

ترجمَ يوريك برنيسن: «يقول إن عليكِ دفع ثمن هذه السَّمكة».

راودَت لايرا رغبة في أن تقول للدُّب أن يَقتُله، لكنها ردَّت: «سنأخذ الطِّفل بعيدًا عنهم. بإمكانهم أن يدفعوا سمكةً واحدةً ثمنًا لهذا».

تكلَّم الدُّب، وهمهمَ الرَّجل لكنه لم يعترِض. وضعَت لايرا قنديله على الثَّلج وأخذَت يد النِّصف صبي لتقوده إلى الدُّب، فأتى منساقًا لا يُبدي دهشةً أو خوفًا لمرأى الدُّب الأبيض العظيم الواقف على مقربة. وعندما ساعدَته لايرا على الجلوس فوق ظَهر يوريك لم يقل إلَّا: «لا أدري أين راتر».

«ولا نحن يا توني، لكننا سـ... سنُعاقِب الملتهِمين. سنفعل هذا، أعدك. يوريك، هل يَصلُح أن أجلس بالأعلى أيضًا؟».

ردَّ: «درعي أثقل كثيرًا من طفلين».

وهكذا تسلَّقت لتجلس وراء توني وجعلَته يتمسَّك بالفرو الأبيض الطَّويل، واستقرَّ پانتالايمون داخل قلنسوتها دافئًا دانيًا مفعمًا بالشَّفقة. علمَت لايرا أن پانتالايمون بغريزته يُريد أن يمدَّ يديه ويحتضن النِّصف صبي، أن يلعقه ويُلاينِه ويُدفِّئه كما كانت قرينته لتفعل، إلَّا أن التابو العظيم يمنع هذا بالطَّبع.

ركبا عبر القرية في اتِّجاه التِّلال، وقد تجسَّد على وجوه السُّكَّان الرُّعب الممزوج بنوعٍ من الارتياح المتوتِّر لرؤية هذا المخلوق المشوَّه الفظيع يرحل في صُحبة فتاةٍ ودُبٍّ أبيض عظيم.

في قلب لايرا اصطرعَ النُّفور والتَّعاطُف، وانتصرَ التَّعاطُف، وبذراعيها طوَّقت الجسد الصَّغير المهزول لتُؤمِّنه في جلسته.

كانت رحلة العودة إلى القافلة أبرد وأشق وفي ظُلمةٍ أشد، لكنها مرَّت سريعًا على الرغم من هذا، فيوريك برنيسن لا يكلُّ، وصارَ ركوب لايرا إياه آليًّا، فلم تتعرَّض إلى خطر السُّقوط قَطُّ. الجسد

البارد بين ذراعيها شديد الخفّة، جاعلًا التّعامُل معه سهلًا من ناحية، لكنه هامد كذلك، جالس بجمودٍ لا يتحرَّك مع حركة الدُّب، وقد جعلَه هذا من ناحيةٍ أخرى صعبًا.

بين الحين والآخَر تكلَّم النِّصف صبي.

سألَته لايرا: «ماذا قلت؟».

- «قلتُ هل ستعرف أين أنا؟».

- «نعم، ستعرف، وستجدك ونجدها. تمسَّك جيدًا يا توني، المكان ما بعيد عن هنا...».

تباطأَت حركة الدُّب، ولم تُدرِك لايرا كم هي متعَبة حتى لحقوا بالچيپتيِّين. كانت المزلجات قد توقَّفت لتستريح الكلاب، وفجأةً ها هُم أولاء، فاردر كورام واللورد فا ولي سكورزبي، كلُّهم يندفع إلى الأمام لمساعَدتها ثم يتراجَع صامتًا بعد رؤية الجسد الآخَر مع لايرا. كانت متيبِّسةً لدرجة أنها لم تستطِع حلَّ ذراعيها عن جسده، حتى جاءَ چون فا نفسه يفتحهما برفقٍ ويرفعها عن ظَهر الدُّب.

- «ما هذا بحقِّ الله الرَّحيم؟! لايرا يا بنيَّة، علامَ عثرتِ؟».

تمتمَت بشفتين متجمِّدتين: «اسمه توني. لقد فصلوا عنه قرينته. هذا هو ما يفعله الملتهِمون».

أحجمَ الرِّجال عن الدُّنو خائفين، لكن الدُّب تكلَّم فجأةً لذهول لايرا المرهَقة، وقال يُوبِّخهم: «عارٌ عليكم! فكِّروا في ما فعلَته هذه الطِّفلة! قد لا تملكون المزيد من الشَّجاعة، لكن عليكم أن تخجلوا من إبدائكم شَجاعةً أقل!».

قال چون فا: «يوريك برنيسن، أنت محق»، والتفتَ يُعطي رجاله الأوامر: «قوُّوا هذه النَّار وسخِّنوا حساءً للطِّفلة، لكلا الطِّفلين. فاردر كورام، مأواك، أهو منصوب؟».

- «نعم يا چون. اجلبها وسنُدفِّئها...».

قال أحد آخَر: «والصَّبي الصَّغير، يُمكنه أن يأكل ويتدفَّأ حتى إذا...».

حاولَت لايرا إخبار چون فا بأمر السَّاحرات، لكنهم كانوا مشغولين جميعًا، وهي متعَبة للغاية. وبعد بضع دقائق مربكة ملأى بضوء القناديل ودُخان الحطب والأشخاص المندفعين جيئةً وذهابًا، شعرَت بعضَّةٍ رقيقة في أُذنيها من أسنان پانتالايمون القاقوم، وفتحَت عينيها لتجد وجه الدُّب على بُعد بوصاتٍ قليلة من وجهها.

همسَ پانتالايمون: «السَّاحرات. لقد ناديتُ يوريك».

غمغمَت: «آه، نعم. يوريك، شكرًا لأخذي إلى هناك والعودة بي. قد لا أتذكَّرُ أن أخبر اللورد فا بشأن السَّاحرات، والأفضل أن تُخبِره بدلًا مني».

وسمعَت الدُّب يُوافِقها، ثم غابَت في النَّوم.

***

حين استيقظَت وجدَت الضَّوء في أقرب درجاته إلى النَّهار، تحت سماءٍ شاحبة إلى الجنوب الشَّرقي، وفي هواءٍ مشبَّع بضبابٍ رمادي يتحرَّك فيه الچيپتيُّون كأشباحٍ ضخمة إذ يُحمِّلون أغراضهم على المزلجات ويربطون الكلاب بحبال الجرّ.

رأت كلَّ هذا من المأوى المنصوب على مزلجة فاردر كورام، المستلقية داخله تحت كومةٍ من الفراء. كان پانتالايمون قد سبقَها إلى اليقظة التَّامَّة، مجرِّبًا تكوين ثعلبٍ قُطبي قبل العودة إلى تكوين القاقوم المفضَّل لديه.

رأت يوريك برنيسن نائمًا في الثَّلج على مقربة، وقد أراحَ رأسه على كفَّيه الأماميَّتين الضَّخمتين، لكن فاردر كورام مستيقظ ومشغول، وما إن ظهرَ پانتالايمون تحرَّك يعرج على عُكَّازيه ليُوقِظ لايرا.

رأته قادمًا، فاعتدلَت جالسةً وقالت: «فاردر كورام، الآن أعرفُ ما لم أفهمه وقتها. الأليثيوميتر ظلَّ يقول «طائر» و«لا»، ولم يبدُ ذلك معقولًا، لأنه يعني «لا قرين»، ولم أرَ كيف يُمكن ذلك و... ما الخطب؟».

- «لايرا، يُؤسِفني أن أخبركِ بهذا بعد ما فعلتِ، لكن الصَّبي ماتَ منذ ساعة. لم يستطِع الاستقرار أو البقاء في مكانٍ واحد، وظلَّ يسأل عن قرينته، أين هي وإن كانت ستأتي قريبًا وما إلى ذلك، وظلَّ متشبِّثًا بكلِّ قوَّته بتلك السَّمكة المجفَّفة كأن... أوه، لا أقدرُ على الكلام عن هذا يا بنيَّة، لكنه أغلقَ عينيه أخيرًا وهمدَت حركته، وكانت هذه أول مرَّةٍ يبدو عليه السَّلام، لأنه كان حينها كأيِّ شخصٍ ميت غابَ قرينه في مجرى الطَّبيعة. الرِّجال حاوَلوا أن يَحفُروا له قبرًا، لكن التُّربة المتجمِّدة صُلبة كالحديد، لذا أمرَ چون فا بإشعال نار، وسيُحرِقون جثَّته كي لا تنهشها الحيوانات آكلة الجيف. اسمعي يا بنيَّة، لقد عملتِ عملًا صالحًا شُجاعًا، وأنا فخور بكِ. الآن نعلم الشَّر المريع الذي يرتكبه هؤلاء القوم، ونرى واجبنا بوضوحٍ غير مسبوق. عليكِ الآن أن تستريحي وتأكلي، لأنكِ غبتِ في النَّوم قبل أن تستعيدي قُواكِ ليلة البارحة، وفي درجات الحرارة هذه يجب أن تأكلي لتحولي دون إصابتكِ بالضَّعف...».

كان يتكلَّم ويداه مشغولتان؛ يُثبِّت الفراء في مكانها، ويُحكِم حبل الشَّد حول جسم المزلجة، ويُمرِّر حبال الكلاب بين يديه ليحلَّها.

سألَته لايرا: «أين الصَّبي الآن يا فاردر كورام؟ هل أحرَقوه؟».

- «لا يا لايرا، إنه ممدَّد هناك».

- «أريدُ أن أذهب وأراه».

لم يستطِع أن يأبى عليها هذا، فقد سبقَ أن رأت ما هو أسوأ من جثَّةٍ ميتة، وقد يُهدِّئها مرآه. وهكذا تحرَّكت وپانتالايمون يتواثَب بخفَّةٍ إلى جوارها بتكوين أرنبٍ برِّي أبيض، ومشَت بخُطى ثقيلة بمحاذاة خطِّ المزلجات إلى حيث يُكوِّم بعضِ الرِّجال الأغصانِ المقطوعة.

وجدَت الصَّبي ممدَّدًا تحت دثارٍ مربَّع النّقش على جانب الطّريق، فركعَت إلى جواره رافعةً الغطاء بيديها المقفَّزتين، وكان أحد الرِّجال على وشك إيقافها، لولا أن الآخَرين منعوه بهزِّ رؤوسهم.

دنا پانتالايمون إذ تطلَّعت لايرا إلى الوجه المهزول المسكين، قبل أن تُخرِج يدًا من قُفَّازها وتتحسَّس العينين، لتجدهما باردتين كالرُّخام. وكان فاردر كورام مصيبًا، فتوني مكاريوس الصَّغير المسكين لا يبدو مختلفًا الآن عن أيِّ بشريٍّ آخَر فارقَه قرينه في الموت. أوه، لو أخذوا پانتالايمون منها! التقطَته لايرا ورفعَته ضامَّةً إياه إلى صدرها كأنها تُريد أن تحتويه داخل قلبها، وكلُّ ما لدى توني هو سمكته الصَّغيرة المثيرة للشَّفقة...

أين هي؟

أزاحَت لايرا الدِّثار، ولم تجدها.

في لحظةٍ عادَت تنهض، تُومِض عيناها سخطًا في وجوه الرِّجال القريبين.

- «أين سمكته؟».

توقَّفوا حائرين غير متأكِّدين مما تعنيه، ولو أن قرينات بعضهم فهمن وتبادَلن النَّظر، وبدأ أحد الرِّجال يبتسم بارتباك.

- «إياك أن تجرؤ على الضَّحك! سأنتزعُ رئتيك إذا ضحكت منه! لم يكن لديه إلَّاها يتمسَّك به، مجرَّد سمكةٍ مجفَّفة، هذا هو كلُّ ما كان لديه على سبيل قرينةٍ يحبُّها ويعطف عليها! مَن أخذَها منه؟ أين ذهبَت؟».

كان پانتالايمون يُزَمجِر الآن وقد تحوَّل إلى نمر ثلوجٍ كقرينة اللورد آزريل، لكنها لم ترَ ذلك لأنها في تلك اللَّحظة لم تكن ترَ إلَّا الصَّواب والخطأ.

قال أحد الرِّجال: «اهدئي يا لايرا، اهدئي يا بنيَّة».

ثانيةً صرخَت: «مَن أخذَها؟»، وتراجعَ الچيپتي خُطوةً عن غضبتها المتَّقدة.

خاطبَها رجل آخَر معتذرًا: «لم أكن أعلمُ. ظننتها ما كان يأكله فحسب، وأخذتها من يده لأنني فكَّرتُ أن هذا أكثر احترامًا. هذا كلُّ شيءٍ يا لايرا».

- «أين هي إذن؟».

أجابَ الرَّجل بارتباك: «فكَّرتُ أنه لا يحتاج إليها وأعطيتها لكلابي. أرجو مغفرتكِ».

ردَّت: «ما مغفرتي أنا ما تحتاج إليه، بل مغفرته»، والتفتَت تركع ثانيةً، ووضعَت يدها على وجنة الطِّفل الميت الباردة كالجليد.

ثم خطرَت لها فكرة، ونقَّبت لايرا داخل ثيابها. اخترقَتها برودة الهواء لمَّا فتحت معطفها، لكنها وجدَت ما أرادَته خلال ثوانٍ معدودة، وأخرجَت عُملةً ذهبيَّةً من كيس نقودها قبل أن تُحكِم إغلاق المعطف على جسدها من جديد.

قالت للرَّجل الذي أخذَ السَّمكة: «أريدُ أن أستعير سكِّينك»، وعندما أعطاها إياه سألَت پانتالايمون: «ماذا كان اسمها؟».

فهمَ سؤالها بالطَّبع، وأجابَها: «راتر».

ثبَّتت العُملة بإحكامٍ بيدها اليُسرى المقفَّزة، وأمسكَت السكِّين كقلم رصاص ونقشَت اسم القرينة الضَّائعة بوضوحٍ على الذَّهب، ثم همسَت للصَّبي الميت: «أتمنَّى أن يَصلُح هذا إذا تكفَّلتُ بك كما

يفعلون بباحثي چوردان»، وفتحَت فكّيه عنوةً لتدسَّ العُملة في فمه. كان هذا صعبًا، لكنها تمكّنت منه، ثم أعادَت إطباق فكَّيه.

ثم إنها أعادَت إلى الرَّجل سكِّينه ودارَت في شفق الصَّباح متَّجهةً إلى فاردر كورام.

أعطاها كوبًا من الحَساء المرفوع لتوِّه عن النَّار، وقد رشفَت منه بنهم، ثم سألَت: «ماذا سنفعل بشأن السَّاحرات يا فاردر كورام؟ أتساءلُ إن كانت ساحرتك بينهن».

- «ساحرتي؟ ما كنتُ لأتمادى في وصفها لتلك الدَّرجة يا لايرا. قد يكنَّ في الطَّريق إلى أيِّ مكان. في حياة السَّاحرات شؤون شتَّى، أشياء خفيَّة عنا، منها أمراض غامضة يقعن ضحيَّةً لها في حين نتعافى منها نحن ببساطة، ودوافع للحرب تفوق فهمنا تمامًا، وأفراح وأتراح مرتبطة بإزهار نباتاتٍ ضئيلة في التندرا... لكنني أتمنَّى لو أنني رأيتهن طائراتٍ يا لايرا، أتمنَّى لو أنني رأيتُ مشهدًا كهذا. والآن اشربي حَساءكِ كلَّه. هل تُريدين المزيد؟ لدينا خُبز محمَّر أيضًا. كُلي يا بنيَّة، لأننا سنستأنف الحركة قريبًا».

أنعشَ الطَّعام لايرا، وسرعان ما بدأ الصَّقيع المحيط بروحها يذوب، وبعدها ذهبَت مع الآخَرين لتُشاهِد النِّصف طفل الممدَّد على محرقة الجنازة، وخفضَت رأسها وأغلقَت عينيها عندما بدأ چون فا يُردِّد صلواته، قبل أن يرشَّ الرِّجال الكحول الفحمي ويُشعِلوه بالثِّقاب، وخلال لحظةٍ تأجَّجت النَّار.

ما إن تأكَّدوا من احتراق جثَّة الصَّبي تحرَّكوا من جديد. كانت رحلتهم شبحيَّةً، إذ بدأ الثَّلج يَسقُط مبكِّرًا، ولم يمضِ وقت طويل حتى اقتصرَ العالم على ظلال الكلاب الرَّماديَّة من أمامهم، واندفاع المزلجة وصريرها، والبرد القارس، وبحرٍ متموِّج من الرَّقائق الكبيرة الأدكن درجةً من السَّماء وأفتح درجةً من الأرض.

عبر كلِّ هذا واصلَت الكلاب العدو بذيولٍ مرفوعة وأنفاس تَخرُج مصحوبةً بالبُخار. شمالًا وشمالًا توغَّلوا فيما حلَّت الظَّهيرة الباهتة وذهبَت واكتسى العالم ثانيةً بالشَّفق، إلى أن توقَّفوا ليأكلوا ويشربوا ويستريحوا في تجويفٍ صخري في التِّلال، وليُحدِّدوا إحداثيَّاتهم أيضًا.

بينما تكلَّم چون فا مع لي سكورزبي عن أفضل وسيلةٍ لاستخدام المنطاد، فكَّرت لايرا في ذُبابة التَّجسُّس، وسألَت فاردر كورام عمَّا حدثَ لصفيحة ورق الدُّخان التي حبسَها داخلها، فأجابَها: «محفوظة في أمان في قاع حقيبة العدَّة، لكن ليس هناك ما يُرى، فقد لحمتها بإحكامٍ على متن السَّفينة كما قلتُ. لا أدري ماذا سنفعل بها إذا أردتِ الحقَّ. قد يُمكننا إلقاءها في منجمٍ ناري ويتكفَّل هذا بإنهاء أمرها. لكن لا داعي للقلق يا لايرا. ما دامَت معي فأنتِ آمنة».

في أول فُرصةٍ لاقَتها دسَّت لايرا ذراعها في حقيبة العدَّة التي تيبَّس قُماشها من الصَّقيع، وأخرجَت العُلبة الصَّفيح الصَّغيرة، ومن قبل أن تمسَّها شعرَت بالأزيز بداخلها.

كان فاردر كورام يتكلَّم مع القادة الآخَرين عندما أخذَت العُلبة إلى يوريك برنيسن وشرحَت له فكرتها، الفكرة التي خطرَت لها حين تذكَّرت كيف شقَّ معدن غطاء المحرِّك بمنتهى السُّهولة.

أنصتَ إليها الدُّب، ثم أخذَ غطاء عُلبة بسكويت من الصَّفيح، وببراعةٍ ثناها وحوَّلها إلى أسطوانةٍ مسطَّحة صغيرة. تعجَّبت لايرا من إتقان يديه، فعلى عكس أكثر الدِّببة يملك هو وقومه إبهامين مخلبيَّتين متقابلتين، يستطيعون بهما تثبيت الأشياء للعمل عليها، كما أنه يتمتَّع بإحساسٍ فطري بقوَّة المعادن المختلفة وليونتها، وهو ما يعني أن عليه فقط أن يرفع قطعة المعدن مرَّةً أو مرَّتين، ويثنيها في هذا الاتِّجاه وذاك، ثم يُمرِّر عليها مخلبه في دائرةٍ ويخدشها حيث يُريد أن يطويها. وهذا ما فعلَه الآن إذ ثنى الجوانب وثناها حتى وقفَت على حافةٍ مرفوعة ثم صنعَ لها غطاءً يُناسِبها. وبطلبٍ من لايرا صنعَ عُلبتين، واحدةً بحجم عُلبة ورق الدُّخان الأصليَّة، وأخرى تتَّسع لاحتواء العُلبة نفسها وقدرًا من الشَّعر والطَّحالب والأُشنة المعبَّأة بإحكامٍ لكتم الأزيز. حين أغلقَت العُلبة الأكبر كانت بنفس شكل الأليثيوميتر وحجمه.

بعد الفروغ من هذا جلسَت إلى جوار يوريك برنيسن الذي راحَ يقضم من فخذ رنَّة متجمِّدة بصلابة الخشب، وقالت: «يوريك، أليس من الصَّعب ألَّا تكون لك قرينة؟ ألا تَشعُر بالوحدة؟».

ردَّ: «الوحدة؟ لا أدري. يقولون لي إن البرد شديد، لكنني لا أدري معنى البرد لأنني لا أتجمَّدُ. وبالمِثل لا أدري معنى الوحدة كذلك. الدِّببة مخلوقون ليكونوا وحيدين».

سألَته: «وماذا عن دببة سڤالبارد؟ إنهم بالآلاف، أليس كذلك؟ هكذا سمعتُ».

لم يُجِبها، ومزَّق الفخذ نصفين بصوتٍ كانفلاق الخشب.

أضافَت: «سامِحني يا يوريك. آملُ أني ما أسأتُ إليك. إنه فضول لا أكثر. انظُر، إنني مهتمَّة للغاية بدببة سڤالبارد بسبب أبي».

- «مَن أبوكِ؟».

- «اللورد آزريل، وهو أسير لديهم في سڤالبارد. أظنُّ أن الملتهِمين خانوه ودفعوا للدِّببة ليُبقوه في السِّجن».

- «لا أدري. أنا لستُ من دببة سڤالبارد».

- «حسبتك...».

- «لا. لقد كنتُ من دببة سڤالبارد، لكنني لم أعُد كذلك، طردوني عقابًا على قتلي دُبًّا آخَر، وهكذا جرَّدوني من رُتبتي وثروتي ودرعي وصُرِفتُ لأعيش على حافة عالم الإنسان وأقاتل حين أجدُ مَن يُشغِّلني، أو أمارس أعمالًا شاقَّةً وأغرق ذاكرتي في الكحول الخام».

- «لماذا قتلت الدُّب الآخَر؟».

- «الغضب. بين الدِّببة أساليب نُعرِض بها عن غضب بعضنا من بعض، لكنني لم أكن متحكِّمًا في نفسي، فقتلته وعُوقِبتُ عقابًا عادلًا».

قالت لايرا مذهولةً: «وكنت ثريًّا وعالي الرُّتبة، تمامًا مِثل أبي يا يوريك! هذا ما حدثَ معه بالضَّبط بعد مولدي. هو أيضًا قتلَ أحدهم وأخذوا منه ثروته. لكن ذلك كان قبل احتجازه في سڤالبارد بزمنٍ طويل. لستُ أعرفُ شيئًا عن سڤالبارد إلَّا أنها في أقصى الشَّمال... أهي مغطَّاة تمامًا بالجليد؟ هل يُمكن الوصول إليها من البحر المتجمِّد؟».

- «ليس من هذا السَّاحل. أحيانًا يتجمَّد البحر جنوبها وأحيانًا لا. ستحتاجين إلى قارب».

- «أو منطاد».

- «أو منطاد، لكنك ستحتاجين ساعتها إلى الرِّياح المواتية».

قضمَ من فخذ الرنَّة، واخترقَت فكرة جامحة عقل لايرا إذ تذكَّرت السَّاحرات في سماء اللَّيل، لكنها لم تلفظ بها، وبدلًا من ذلك سألَت يوريك برنيسن عن سڤالبارد، وأصغَت بحماسةٍ وهو يحكي لها عن زحف الأنهار المتجمِّدة، وعن الصُّخور والأطواف الجليديَّة حيث تقبع الأفظاظ ذات الأنياب اللَّامعة في مجموعاتٍ من مئةٍ أو أكثر، وعن البحار الزَّاخرة بالفقمات، وعن حيتان الحريش التي تتبارَز بقرونها الوحيدة فوق صفحة المياه المتجلِّدة، وعن السَّاحل الموحش المطوَّق بالحديد، والجروف المرتفعة ألف قدمٍ وأكثر حيث تجثم المخلوقات الكريهة المسمَّاة مسوخ الجروف وتدور، وحُفر الفحم ومناجم النَّار حيث يُطرِّق حدَّادو الدِّببة ألواح الحديد ويُشكِّلون منها الدُّروع...

- «إذا كانوا قد أخذوا درعك يا يوريك، فمن أين حصلت على هذه؟».

- «صنعتها بنفسي في نوڤا زمبلا من المعدن السَّماوي. حتى فعلتُ ذلك كان كياني منقوصًا».

قالت: «إذن يستطيع الدِّببة أن يصنعوا أرواحهم بأنفُسهم...»، وفكَّرت أن في هذا العالم أشياء كثيرةً جدًّا تتعلَّمها. ثم إنها تابعَت: «مَن الملك في سڤالبارد؟ هل للدِّببة ملك؟».

- «اسمه يوفور راكنيسن».

دقَّ الاسم جرسًا صغيرًا في ذاكرة لايرا. لقد سمعَته من قبل، لكن أين؟ ولم تسمعه بصوت دُبٍّ، أو من أيِّ چيپتي. الصَّوت الذي نطقَه صوت باحث، مضبوط ومتحذلق ونبرته نبرة غطرسةٍ كسول، صوت ينتمي إلى كلِّيَّة چوردان. دوَّرته ثانيةً في ذهنها، و... أوه، إنها تعرفه تمام المعرفة!

وجدَتها. الاستراحة. الباحثون يستمعون إلى اللورد آزريل. پروفسور المذهب الپالماري هو من ذكرَ يوفور راكنيسن، واستخدمَ كلمة «پانزربيورنِه» التي كانت لايرا تجهلها، وتجهل كون يوفور راكنيسن دُبًّا. لكن ماذا قال؟ إن ملك سڤالبارد مغرور وقابل للملاطفة. وثمَّة شيء آخَر ليتها تستطيع تذكُّره، لكن الكثير جدًّا وقعَ منذ ذلك الحين...

قال يوريك برنيسن: «إذا كان أبوكِ سجينًا في سڤالبارد فلن يهرب. لا خشب هناك يبني به قاربًا. من ناحيةٍ أخرى، إذا كان نبيلًا فسيُعامَل بإنصاف. سيُعطونه منزلًا يُقيم فيه وخادمًا يُلبِّي أوامره وطعامًا ووقودًا».

- «هل يُمكن أن يُهزَم الدِّببة يا يوريك؟».

- «لا».

- «أو يُخدَعوا ربما؟».

توقَّف عن القضم ورمقَها مباشرةً، ثم قال: «لن تهزموا الدِّببة المدرَّعين أبدًا. لقد رأيتِ درعي، والآن انظُري إلى أسلحتي».

أسقطَ الدُّب اللَّحم ورفعَ يديه ليُريها كفَّيه. كلُّ إصبعٍ مغطَّاة بجِلدٍ صُلب يَبلُغ سُمكه بوصةً أو أكثر، وكلُّ مخلبٍ يُساوي -على الأقل- يد لايرا طولًا، وحادٌّ كالسكِّين.

تركَها تتحسَّسها مبهورةً، وقال: «ضربة واحدة من شأنها أن تُحطِّم جمجمة فقمة، أو تكسر ظَهر رجلٍ أو تنتزع أحد أطرافه. وأستطيعُ العضَّ أيضًا. ما لم تمنعيني في ترولسند لحطَّمت رأس ذلك الرَّجل كأنه بيضة. لا جدوى من استخدام القوَّة إذن. والآن الخداع. لا يُمكنكِ أن تخدعي دُبًّا. أتُريدين دليلًا؟ خُذي عصا وبارِزيني».

متشوّقةً إلى التّجربة، كسرَت لايرا فرعًا من شُجيرةٍ مثقلة بالثّلج ونظّفته من الغصون الجانبيَّة وراحَت تشقُّ به الهواء كسيفٍ ذي حدَّين، فيما جلسَ يوريك برنيسن على قائمتيه الخلفيَّتين وانتظرَ واضعًا كفَّيه في حِجره. ثم، لمَّا استعدَّت، واجهَته، لكنها لم تُرد أن تطعنه لأنه بدا وديعًا للغاية، وهكذا لوَّحت بالعصا مراوغةً إلى اليمين والشِّمال وغير راغبةٍ في إصابته على الإطلاق، ولم يتحرَّك هو. فعلَت هذا مرَّاتٍ عدَّة، ولا مرَّةً واحدةً تحرَّك قيد أنملة.

أخيرًا قرَّرت أن تطعنه مباشرةً، ليس بقوَّة ولكن بما يكفي أن تمسَّ العصا بطنه، وفي الحال اندفعَت كفُّه تُزيح العصا جانبًا.

مندهشةً، حاولَت ثانيةً وبالنَّتيجة نفسها، إذ تحرَّك بسرعةٍ وثقةٍ تفوقانها كثيرًا، فحاولَت أن تضربه بجدٍّ هذه المرَّة وقد أمسكَت العصا كسيف مُبارز الشِّيش، ولم تُصِب جسمه مرَّةً. بدا كأنه يعرف ما تنتويه قبل أن تعرفه هي، وحين انقضَّت على رأسه أزاحَت الكفُّ العظيمة العصا ببساطة، وحين موَّهت لم يتحرَّك على الإطلاق.

أصابَها الغيظ، وألقَت بنفسها في هجومٍ غاضب، تُحاوِل أن تخز وتجلد وتضرب وتطعن، ولم تتجاوَز هاتين الكفَّين مرَّةً، هاتين الكفَّين اللتين تتحرَّكان في كلِّ اتِّجاهٍ في الوقت المناسب تمامًا للتَّفادي وفي الوقت المناسب تمامًا للصَّدِّ.

في النِّهاية تمكَّن منها الخوف وتوقَّفت. كانت تتصبَّب عَرقًا تحت الفرو، تلهث، منهكَةً تمامًا، والدُّب ما زالَ جالسًا بلا حراك. لو كان ما تحمله سيفًا حقيقيًّا له رأس يَقتُل لما أصابَه أدنى ضرر.

قالت: «أراهنُ أن باستطاعتك إمساك طلقات الرَّصاص»، وألقَت العصا متابعةً: «كيف تفعل ذلك؟!».

- «بكوني لستُ إنسانًا. لهذا لا يُمكنكِ أن تخدعي دُبًّا أبدًا. إننا نرى الحيل والخداع بوضوح الأذرُع والسِّيقان، نرى بطرائق نسيَها البشر. لكنكِ تعلمين بشأن هذا لأنكِ تفهمين قارئ الرُّموز».

قالت: «ليس هذا مِثل ذاك، أليس كذلك؟». كانت تَشعُر الآن بتوتُّرٍ من الدُّب أشد مما أصابَها حين رأته غاضبًا.

- «بل مِثله. البالغون لا يستطيعون قراءته كما فهمتُ. مِثلي أنا بالنِّسبة إلى البشر المُقاتلين، كذا أنتِ بالنِّسبة إلى البالغين بقارئ الرُّموز هذا».

قالت حائرةً وعلى مضض: «نعم، على ما أظنُّ. أيعني هذا أنني سأنسى كيف أقرأه عندما أكبرُ؟».

ردَّ: «مَن يدري؟ إنني لم أرَ قارئ رموزٍ قَطُّ، ولا أحدًا يقرأه. قد تكونين مختلفةً عن الآخَرين»، وعادَ ينزل على أربعٍ ويُواصِل قضم اللَّحم.

كانت لايرا قد فتحَت أزرار معطفها، لكن البرد عادَ يتخلَّل ثيابها فأحكمَت إغلاقها على جسدها ثانيةً. إجمالًا كانت التَّجربة مزعجةً، وأرادَت لايرا استشارة الأليثيوميتر في التَّوِّ واللَّحظة، لكن البرد شديد للغاية، كما أنهم يُنادونها إذ حانَ وقت استئناف الحركة. أخذَت العُلبتين الصَّفيح اللَّتين

صنعَهما يوريك، ووضعَت الجديدة الفارغة في مكانها داخل حقيبة فاردر كورام، وفي الكيس حول وسطها وضعَت العُلبة الأصليَّة التي تحوي ذُبابة التَّجسُّس مع الأليثيوميتر، وقد سرَّها أن يتحرَّكوا من جديد.

***

كان القادة قد اتَّفقوا مع لي سكورزبي على أن يَنفُخ منطاده عندما يَبلُغون نقطة التَّوقُّف التَّالية، ليتجسَّس من الهواء. بطبيعة الحال تشوَّقت لايرا إلى الطَّيران معه، وبطبيعة الحال مُنِعَت من هذا، لكنها ركبَت معه في الطَّريق إلى هناك وأثقلَت عليه بالأسئلة.

- «مستر سكورزبي، كيف يطير المرء إلى سڤالبارد؟».

- «سيحتاج إلى منطادٍ بمحرِّك يعمل بالغاز، شيء مِثل الزِّپلن، أو إلى رياحٍ جنوبيَّة قويَّة. لكن بحقِّ الجحيم، أنا لا أجرؤ على الذَّهاب إلى هناك. هل رأيتِها من قبل؟ إنها ألعن منطقةٍ يباب في الدُّنيا، مكان موحش مقفر بلا بُقعةٍ واحدة صالحة للسُّكنى».

- «كنتُ أتساءلُ، إذا أرادَ يوريك برنيسن أن يعود...».

- «سيُقتَل. يوريك منفي. ما إن يطأها بقدمه سيُمزِّقونه إربًا إربًا».

- «كيف تَنفُخ منطادك يا مستر سكورزبي؟».

- «هناك طريقتان. يُمكنني عمل الهيدروجين بصبِّ حمض الكبريتيك على بُرادة الحديد، ثم تُعبِّئين الغاز المنبعث وتملأين به المنطاد بالتَّدريج هكذا. الطَّريقة الأخرى أن تجدي فتحة غازٍ أرضي قُرب منجم نار. تحت الأرض هنا غاز كثير، علاوةً على النِّفط الصَّخري. يُمكنني عمل الغاز من النِّفط الصَّخري إذا لزمَ الأمر، ومن الفحم أيضًا. عمل الغاز ليس صعبًا، لكن الطَّريقة الأسرع هي الغاز الأرضي. الفتحة المناسبة تملأ المنطاد في غضون ساعة».

- «كم فردًا يُمكنك أن تحمل؟».

- «ستَّة إذا دعَت الحاجة».

- «هل يُمكنك حمل يوريك برنيسن بدرعه؟».

- «فعلتُ هذا بالفعل. ذات مرَّةٍ أنقذته من التَّرتار بعدما قطعوا عنه الطَّريق وتركوه حتى يموت جوعًا. كان ذلك في حملة تنجسكا، وطرتُ إلى هناك وأخذته. يبدو الأمر سهلًا، لكن يا للجحيم! كان عليَّ أن أحسب وزن ذلك الصَّبي العجوز بالتخمين، ثم كان عليَّ الاعتماد على وجود فتحة غازٍ أرضي تحت القلعة الجليديَّة التي بناها. لكنني رأيتُ نوعيَّة الأرض من الهواء، وفكَّرتُ أن الحفر سيكون آمنًا. كما ترين، لأنزل عليَّ أن أفرغ المنطاد من الغاز، ولا أستطيعُ الطَّيران ثانيةً دون مزيدٍ من الغاز. على كلِّ حال، خرجنا من هناك بالدِّرع وكلِّ شيء».

- «مستر سكورزبي، هل تعلم أن التَّرتار يصنعون ثقوبًا في رؤوس النَّاس؟».

- «أوه، بالتّأكيد. يفعلون هذا منذ آلاف الأعوام. في حملة تنجسكا أسرنا خمسة ترتار أحياء، وثلاثة منهم كانت في رؤوسهم ثقوب. أحدهم كان في رأسه اثنان».

- «يفعلون هذا ببعضهم بعضًا؟!».

- «صحيح. أولًا يقطعون جزئيًّا دائرةً من الجِلد في فروة الرَّأس، ليرفعوها ويكشفوا العظم، ثم يقطعون دائرةً صغيرةً من العظم من الجمجمة بمنتهى الحذر كي لا يَثقُبوا المخ، ثم يخيطون فروة الرَّأس ثانيةً».

- «ظننتهم يفعلون هذا بأعدائهم!».

- «لا بحقِّ الجحيم! إنه امتياز عظيم. يفعلون هذا كي تُكلِّمهم الآلهة».

- «هل سمعت عن مستكشِف اسمه ستانيسلوس جرومان؟».

- «جرومان؟ طبعًا. قابلتُ أحد أفراد فريقه حين طرتُ فوق نهر يِنيسي قبل عامين. كان ذاهبًا ليعيش وسط قبائل التَّرتار في تلك الأنحاء. في الواقع، أظنُّ أنه صنعَ ذلك الثَّقب في جمجمته بالفعل. كان ذلك جزءًا من طقوس الانضمام، لكن الرَّجل الذي أخبرَني لم يكن يعلم الكثير».

- «إذن... إذا كان ترتريًّا شرفيًّا فما كانوا ليَقتُلوه؟».

- «يَقتُلوه؟ أهو ميت إذن؟».

أجابَت لايرا بفخر: «أجل، لقد رأيتُ رأسه. أبي عثرَ عليه. رأيته عندما أراه للباحثين في كلِّيَّة چوردان بأكسفورد. لقد سلخوا فروة رأسه وما إلى ذلك».

- «مَن سلخَها؟».

- «التَّرتار، هكذا حسبَ الباحثون... لكن ربما لم يكونوا هُم».

قال لي سكورزبي: «ربما لم يكن رأس جرومان. ربما أرادَ أبوكِ تضليل الباحثين».

قالت لايرا مفكِّرةً: «أظنُّ هذا ممكنًا. لقد طلبَ منهم مالًا».

- «ولمَّا رأوا الرَّأس أعطوه المال؟».

- «نعم».

- «حيلة جيِّدة. النَّاس يُصدَمون حينما يرون شيئًا كهذا، ولا يحبُّون أن يُمعِنوا النَّظر».

- «الباحثون على وجه الخصوص».

- «أنتِ تعرفينهم أفضل مني. لكن إذا كان ذلك رأس جرومان حقًا، فأراهنُ أن مَن سلخَ فروته ليس التَّرتار. إنهم يفعلون هذا بأعدائهم لا بقومهم، وجرومان كان ترتريًّا بالتَّبنِّي».

قلَّبت لايرا هذا في عقلها فيما تحرَّكا. سيَّالات واسعة ملأى بالمعاني تتدفَّق بسرعةٍ حولها؛ الملتهمون ووحشيَّتهم، وخوفهم من (الغُبار)، والمدينة في الأورورا، وأبوها في سڤالبارد، وأمُّها... أين هي؟ الأليثيوميتر، والسَّاحرات الطَّائرات شمالًا، والصَّغير المسكين توني مكاريوس، وذُبابة التَّجسُّس الآليَّة، وبراعة يوريك برنيسن المذهلة في المبارزة...

غابَت في النَّوم، ومع كلِّ ساعةٍ كانوا يقتربون أكثر من بولڤانجار.

(14) أضواء بولڤانجار

حتى الآن لم يرَ الچيپتيُّون المسز كولتر أو يسمعوا عنها شيئًا، وهي الحقيقة التي أقلقَت فاردر كورام وچون فا، وإن لم يُطلِعا لايرا إلَّا على نزرٍ يسير من قدر قلقهما.

على أنهما لم يعلما أنها قلقة أيضًا، فلايرا تخشى المسز كولتر حقًّا، وكثيرًا ما تُفكِّر فيها. ولئن أصبحَ اللورد آزريل «أبي»، فالمسز كولتر ليست «أمِّي» أبدًا، والسَّبب في هذا هو قرينها، القرد الذَّهبي الذي أفعمَ پانتالايمون بمقتٍ عاتٍ، وأيضًا -كما تَشعُر لايرا- تطفَّل على أسرارها، تحديدًا سر الأليثيوميتر.

ولا شكَّ أنهما يُطارِدانها. من السُّخف أن تحسب غير ذلك. ذُبابة التَّجسُّس أثبتَت هذا على أقل تقدير.

لكن لمَّا باغتَهم عدوٌّ لم يكن المسز كولتر. كان الچيپتيُّون قد توقَّفوا ليُريحوا كلابهم ويُصلِحوا بعض المزلجات، علاوةً على تجهيز أسلحتهم من أجل الهجوم على بولڤانجار، وأملَ چون فا أن يجد لي سكورزبي غازًا أرضيًّا لملء منطاده الصَّغير (لأن لديه اثنين على ما يبدو)، كي يستطلِع لهم الأرض من أعلى... إلَّا أن الملَّاح الجوي يُتابِع حالة الطَّقس بدقَّة البحَّارة، وأعلنَ أن ضبابًا سيحلُّ. وقد كان. ما إن توقَّفوا حتى هبطَ عليهم ضباب كثيف، وعلمَ لي سكورزبي أنه لن يرى شيئًا من السَّماء، فقنعَ مضطرًّا بفحص معدَّاته، رغم أنه يعتني بها عنايةً فائقةً بالفعل.

ثم، دون سابق إنذار، انهمرَ عليهم سيل من السِّهام من الظُّلمة.

سقطَ ثلاثة چيپتيِّين في الحال، وبصمتٍ ماتوا فلم يسمع أحد شيئًا، وفقط عندما تهاوَت جُثثهم المرتخية فوق حبال الكلاب أو همدَت فجأةً، لاحظَ الرِّجال الأقرب إليهم ما يجري، وعندئذٍ كان الأوان قد فاتَ، لأن مزيدًا من السِّهام سقطَ عليهم، ورفعَ بعض الرِّجال أعيُنهم مدهوشين من أصوات النَّقر السَّريعة غير المنتظمة، التي أتَت من أقصى الطَّابور وأدناها إذ انغرسَت السِّهام في الخشب أو أقمشة الأشرعة المتجمِّدة.

أول مَن أفاقَ من الصَّدمة هو چون فا الذي رفعَ عقيرته بالأوامر من منتصَف الطّابور، وتحرَّكت الأيدي الباردة والأطراف المتيبِّسة تُلبِّي أوامره مع انهمار المزيد من السِّهام عليهم كأنها المطر، مطر قطراته أعواد مستقيمة مكلَّلة بالموت.

كانت لايرا في العراء، والسِّهام تمرُّ من فوق رأسها. سمعَ پانتالايمون قبل أن تسمع، وتحوَّل إلى نمرٍ وأسقطَها أرضًا ليجعلها أقل عُرضةً إلى الإصابة. أزاحَت لايرا الثَّلج عن عينيها وانقلبَت على بطنها لتُحاوِل أن ترى ما يَحدُث، فالظَّلام الجزئي يبدو فائضًا بالضَّوضاء والفوضى. سمعَت خوارًا عظيمًا، وخشخشة درع يوريك برنيسن واحتكاك قطعها إذ وثبَ مدرَّعًا بالكامل من فوق المزلجات ليخترق الضَّباب، وتبعَت هذا أصوات صُراخٍ وزمجرة وتهشيم وتمزيق، وضربات ساحقة وصيحات فزع، وهدير الغضبة الدُّبِّيَّة إذ فتكَ بهم فتكًا.

لكن مَن هُم؟ لم ترَ لايرا أشكال العدوّ بعدُ. كان الچيپتيُّون يحتشدون للدِّفاع عن المزلجات، لكن هذا -كما رأت لايرا بنفسها- جعلَهم أهدافًا أسهل. كما أن إطلاق بنادقهم ليس سهلًا بالقُفَّازات، حتى إنها لم تسمع أكثر من أربعة أو خمسة أعيرة في خضمِّ أمطار السِّهام المنصبَّة بلا هوادة، وكلَّ دقيقةٍ يَسقُط مزيد من الرِّجال.

فكَّرت ملتاعةً: أوه، چون فا! لم تتوقَّع هذا، ولم أساعدك!

لم تجد لايرا أكثر من ثانيةٍ واحدة لتُفكِّر في هذا، إذ أطلقَ پانتالايمون زمجرةً عظيمةً، وارتطمَ به شيء ما -قرين آخَر- ليُسقِطه بعُنف، مفرغًا صدر لايرا نفسها من الأنفاس، ثم إنها وجدَت يدين تندفعان نحوها وترفعانها وتكتمانِ صُراخها بقُفَّازٍ كريه الرَّائحة، ثم تُلقيانها في الهواء إلى ذراعَي شخصٍ آخَر طرحَها في الثَّلج ثانيةً، لتُعاني الدُّوار واللُّهاث والألم في آنٍ واحد. شُدَّت ذراعاها وراء ظَهرها بخشونةٍ حتى طقطقَت كتفاها، وقيَّد أحدهم معصميها معًا ثم وضعَ غمامةً فوق رأسها ليكتم صرخاتها، لأنها ما انفكَّت تَصرُخ، وبحرارة: «يوريك! يوريك برنيسن! ساعِدني!».

لكن هل يسمعها؟ لا تدري. طُوِّحَ بها في هذا الاتِّجاه وذاك، وأُلقيَت على سطحٍ صُلب بدأ يندفع مهتزًّا كالمزلجة. الأصوات التي بلغَت أُذنيها شعواء مرتبكة، وربما سمعَت خوار يوريك برنيسن، ولكن من بعيدٍ جدًّا، ثم وجدَت نفسها ترتجُّ فوق أرضٍ وعرة، ذراعاها ملويَّتان وراء ظَهرها، وفمها مكتوم، وتنتحب غضبًا وخوفًا، فيما تتكلَّم أصوات غريبة من حولها.

- «پان...».

- «أنا هنا. ششش. سأساعدكِ على التَّنفُّس. ابقي ثابتةً...».

أخذَ يجذب الغمامة بكفَّي فأرٍ حتى تحرَّر فمها بعض الشَّيء، لتعبَّ الهواء الجليدي عبًّا، ثم إنها همسَت: «مَن هؤلاء؟».

- «يُشبِهون التَّرتار. أظنُّهم أصابوا چون فا».

- «لا...».

- «رأيته يَسقُط. لكننا نعلم أنه كان عليه الاستعداد لهجومٍ كهذا».

- «لكن كان علينا أن نُساعِده! كان علينا أن نُراقِب الأليثيوميتر!».

- «صمتًا. تظاهري بفقدان الوعي».

سمعَت فرقعة سوطٍ وعُواء كلابٍ تعدو، ومن الطَّريقة التي ترتجُّ وتندفع بها من جانبٍ إلى جانبٍ خمَّنت لايرا سرعة انطلاقهم، ومع أنها أرهفَت أُذنيها لتسمع أصوات المعركة فلم يترامَ إليهما إلَّا صوت انطلاق السِّهام الكئيب الذي كتمَته المسافة، وبعدها لم تَعُد تسمع إلَّا صرير الخشب والدقَّات المكتومة إذ تضرب كفوف الكلاب الثَّلج.

همسَت: «سيأخذوننا إلى الملتهِمين».

تبادرَت إلى ذهنيهما كلمة «مبتور»، وملأ خوف شنيع جسد لايرا.

ضمَّ پانتالايمون نفسه إليها قائلًا: «سأقاتلهم».

- «وأنا أيضًا. سأقتلهم!».

- «وكذا يوريك عندما يجدهم. سيسحقهم حتى الموت».

- «كم نَبعُد عن بولڤانجار؟».

لم يعرف پانتالايمون، وإن خمَّن أن أقل من يومٍ من الرُّكوب يفصلهم عنها.

بعد أن تحرَّكوا وقتًا طالَ لدرجة أن جسد لايرا كلَّه صارَ في عذابٍ من التَّشنُّجات، تباطأَت السُّرعة بعض الشَّيء، وانتزعَ أحدهم الغمامة بغلظة.

رفعَت عينيها لترى وجهًا آسيويًّا عريضًا تحت قلنسوةٍ من فرو الوولڤرين، يَسقُط عليه ضوء قنديلٍ متذبذب. لاحَت في عينيه السَّوداوين لمعة رضا، خصوصًا عندما خرجَ پانتالايمون من معطف لايرا كاشفًا عن أسنان القاقوم البيضاء ويُهَسهِس، لتردَّ قرينة الرَّجل، أنثى الوولڤرين الكبيرة الثَّقيلة، بزمجرة، لكن پانتالايمون لم يتراجَع قيد أنملة.

رفعَ الرَّجل لايرا إلى وضع الجلوس وأسندَها إلى جانب المزلجة، لكنها ظلَّت تَسقُط جانبًا لأن يديها ما زالتا مقيَّدتين وراء ظَهرها، وهكذا قيَّد قدميها بدلًا من ذلك وحلَّ وثاق يديها.

عبر الثَّلج المتساقط والضَّباب الكثيف رأت كم هو قويٌّ هذا الرَّجل، وسائق المزلجة أيضًا، كم هو متوازن في جلسته، كم هو في بيئته الطَّبيعيَّة في هذه الأنحاء على نحوٍ لا يرقى إليه الچيپتيُّون إطلاقًا.

تكلَّم الرَّجل، لكنها لم تفهم شيئًا بالطَّبع، فجرَّب لُغةً أخرى بالنَّتيجة نفسها، ثم جرَّب الإنجليزيَّة.

- «اسمكِ؟».

نفشَ پانتالايمون فروه محذِّرًا، ومن فورها أدركَت ما يعنيه. هذان الرَّجلان يجهلان مَن هي! لم يختطفاها بسبب صلتها بالمسز كولتر، أي أنهما قد لا يكونان من أجيري الملتهِمين.

قالت: «ليزي بروكس».

- «ليسي بروجز. نأخذكِ مكان لطيف. ناس لطاف».

- «مَن أنتما؟».

- «شعب الساموِيد. صيَّادون».

- «إلى أين تأخذانني؟».

- «مكان لطيف. ناس لطاف. معكم پانزربيورنِه؟».

- «للحماية».

- «ليس جيِّد! ها ها، الدُّب ليس جيّد. نحن أخذناكِ!».

ضحكَ الرَّجل بصوتٍ عالٍ، لكن لايرا تحكَّمت في نفسها ولم تُعلِّق. ثم إنه سألَها مشيرًا وراءه إلى حيث جاءوا: «مَن النَّاس هؤلاء؟».

- «تُجَّار».

- «تُجَّار... ماذا يُتاجِروا؟».

- «فراء، كحول، ورق دُخان».

- «يبيعون ورق دُخان ويشترون فراء؟».

- «نعم».

قال شيئًا ما لرفيقه الذي أجابَه بإيجاز. كانت المزلجة تتقدَّم مسرعةً طوال الوقت، ورفعَت لايرا نفسها إلى وضعٍ أكثر راحةً لتُحاوِل أن ترى وجهتهم، لكن الثَّلج يَسقُط بكثافة والسَّماء مظلمة، وسرعان ما اشتَدَّ عليها البرد ولم تَعُد قادرةً على النَّظر، فتمدَّدت. بإمكانها الشُّعور بأفكار پانتالايمون وبإمكانه الشُّعور بأفكارها، وقد حاوَلا الحفاظ على هدوئهما، لكن فكرة موت چون فا... وماذا جرى لفاردر كورام؟ وهل يستطيع يوريك أن يَقتُل بقيَّة الساموِيد؟ وهل يستطيع أن يقتفي أثرها؟

للمرَّة الأولى بدأت تَشعُر بالأسى على نفسها.

بعد وقتٍ طويل هزَّ الرَّجل كتفها وناولَها شريحةً من لحم الرنَّة المجفَّف لتلوكها. وجدَتها فاسدةً قاسيةً، لكن لايرا تتضوَّر جوعًا، وفي اللَّحم غذاء على كلِّ حال، وقد شعرَت بالقليل من التَّحسُّن بالفعل بعد مضغها. ثم إنها دسَّت يدها ببُطءٍ داخل ثيابها وتحسَّست حتى تأكَّدت من أن الأليثيوميتر لا يزال هناك، وبعد ذلك سحبَت عُلبة ذُبابة التَّجسُّس بحذرٍ ودسَّتها في حذائها الفرو، وزحفَ پانتالايمون الفأر داخل رقبة الحذاء ودفعَ العُلبة إلى أسفل قدر المستطاع، وثبَّتها تحت باطن جوربها المصنوع من جِلد الرنَّة.

بعدها أسبلَت جفنيها مستسلمةً للإنهاك الذي أصابَها به الخوف، وبعد قليلٍ غابَت في نومٍ مضطرب.

واستيقظَت حين تغيَّرت حركة المزلجة التي صارَت فجأةً أنعم، ولمَّا فتحَت عينها رأت أضواءً ساطعةً تمرُّ من فوقها، قويَّةً لدرجة أنها سحبَت الغمامة أكثر فوق رأسها قبل أن تستطيع النَّظر ثانيةً. كانت تَشعُر بتيبُّسٍ وبردٍ رهيبيْن، لكنها تمكَّنت من رفع نفسها باعتدالٍ يكفي لرؤية المزلجة تتحرَّك

بسرعةٍ بين صفّين من الأعمدة العالية، يحمل كلٌّ منها مصباحًا عنبريًّا باهرًا. وبينما حدَّدت اتّجاهاتها عبروا من بوّابةٍ معدنيَّة مفتوحة في طرف الدَّرب المضاء، إلى مساحةٍ مفتوحة واسعة كسوقٍ خالية أو ساحة لُعبةٍ أو رياضةٍ ما. الأرض هنا مسطَّحة ملساء بيضاء تمامًا، وتمتدُّ نحو مئة ياردة، وحول حافتها سياج معدني مرتفع.

توقَّفت المزلجة في أقصى السَّاحة خارج مبنى واطئ، أو مجموعةٍ من المباني الواطئة يكسو الثَّلج سقوفها بكثافة. كان عسيرًا أن تُحدِّد، لكنها وجدَت لديها انطباعًا بأن أنفاقًا تربط بعض المباني ببعض، أنفاقًا تتعرَّج تحت الثُّلوج. وعند أحد الجوانب ثمَّة صارٍ معدني قوي يبدو منظره مألوفًا، وإن لم تتبيَّن بِمَ ذكَّرها.

قبل أن تستوعب المزيد، قطعَ رجل المزلجة الوتر المحيط بكاحليها وحملَها بخشونة، فيما زعقَ السَّائق في الكلاب لتهدأ. ثم انفتحَ باب في المبنى على بُعد بضع ياردات، وجاءَ ضوء عنبري من أعلى يدور للعثور عليهم كضوء الكشَّاف.

دفعَها آسرها إلى الأمام كأنها غنيمة دون أن يُفلِتها، وقال شيئًا ما، ليُجيبه باللُّغة نفسها الشَّخص الذي يرتدي معطفًا مبطَّنًا من الحرير الفحمي. رأت لايرا ملامحه وعرفَت أنه ليس من الساموييد أو التَّرتار، بل يبدو كباحثٍ من چوردان. نظرَ إليها الرَّجل، وتحديدًا نظرَ إلى پانتالايمون.

تكلَّم الساموييد ثانيةً، وخاطبَ رجل بولڤانجار لايرا قائلًا: «هل تتكلَّمين الإنجليزيَّة؟».

- «نعم».

- «هل يتَّخذ قرينكِ هذا التَّكوين دومًا؟».

من بين كلِّ الأسئلة غير المتوقَّعة! لم تستطِع لايرا إلَّا التَّحديق صامتةً، إلَّا أن پانتالايمون أجابَ بطريقته الخاصَّة بتحوُّله إلى صقر، وانقضاضه من فوق كتفها على قرينة الرَّجل أنثى المرموط الكبيرة، التي أسرعَت ترفع كفَّها لتضربه، ثم أطلقَت صوتًا غاضبًا إذ مرَّ دائرًا من فوقها بجناحين سريعين.

قال الرَّجل بنبرة رضا: «مفهوم»، في حين عادَ پانتالايمون إلى كتف لايرا.

بدا على الرَّجلين الآسيويَّين ترقُّب شيءٍ ما، وأومأَ رجل بولڤانجار برأسه وخلعَ قُفَّازه ليدسَّ يده في جيبه، ثم أخرجَ كيس نقودٍ وعدَّ دستةً من العُملات الثَّقيلة مناولًا الآخَر إياها.

فحصَ الرَّجلان النُّقود، ثم خبَّآها بحرصٍ بعد اقتسامها، ودون نظرةٍ واحدة إلى الخلف ركبا المزلجة، وفرقعَ السَّائق بسوطه وزعقَ في الكلاب، وأسرعا يبتعدان عبر السَّاحة البيضاء الواسعة نحو درب الأضواء، تتزايَد سرعتهما حتى غابا في الظَّلام.

فتحَ الرَّجل الباب قائلًا: «ادخُلي بسرعة. المكان دافئ مريح بالدَّاخل. لا تقفي في البرد. ما اسمكِ؟».

صوته إنجليزي، بلا أيِّ لكنةٍ تعرَّفتها لايرا، يتكلَّم كالنَّاس الذين التقَتهم عند المسز كولتر، ذكي ومتعلِّم ومهم.

قالت: «ليزي بروكس».

- «ادخُلي يا ليزي. سنعتني بكِ هنا، لا تقلقي».

بدا أنه يَشعُر أكثر منها بالبرد، على الرغم من أنها قضَت وقتًا أطول كثيرًا بالخارج، ويرغب بصبرٍ نافد في العودة إلى الدِّفء. قرَّرت أن تتظاهَر بكونها متمنِّعةً بليدةً بطيئة البديهة، وجرَّت قدميها إذ خطَت فوق العتبة العالية إلى داخل المبنى.

رأت بابين بينهما مساحة واسعة كي لا يتسرَّب الكثير من الهواء الدَّافئ إلى الخارج، وما إن مرَّا من الباب الدَّاخلي حتى وجدَت لايرا نفسها تتصبَّب عَرَقًا في ما بدا لها حرارةً لا تُطاق، ومضطرَّةً فتحَت معطفها وأزاحَت القلنسوة.

وصلا إلى مساحةٍ تَبلُغ نحو ثمانية أقدامٍ مربَّعة، فيها أروقة إلى اليمين واليسار، وأمامها مكتب استقبالٍ كالذي تراه في مستشفى. كلُّ شيءٍ مضاء إضاءةً ساطعةً، وبه بريق الأسطُح البيضاء اللَّامعة والفولاذ المقاوم للصَّدأ، وفي الهواء رائحة طعام، طعام مألوف من اللَّحم المقدَّد والقهوة، وتحتها رائحة طِبِّيَّة دائمة كما في المستشفيات، ومن الجُدران في كلِّ اتِّجاهٍ يَصدُر طنين خافت، يكاد يكون أخف من أن يُسمَع، صوت عليك أن تعتاده وإلَّا أصابك الجنون.

في أُذنها همسَ پانتالايمون الذي تحوَّل إلى حسُّون: «كوني غبيَّةً بطيئة الفهم، كوني شديدة البلادة والغباء».

كان الكبار يَنظُرون إليها؛ الرَّجل الذي أدخلَها، ورجل آخَر يرتدي معطفًا أبيض، وامرأة ترتدي زيَّ الممرِّضات.

قال الرَّجل الأول: «إنجليز، تُجَّار على ما يبدو».

- «الصيَّادون المعتادون؟ القصَّة المعتادة؟».

- «القبيلة نفسها على حدِّ علمي. أيتها الأخت كلارا، هلَّا أخذتِ الصَّغيرة... أممم... واعتنيتِ بها؟».

قالت الممرِّضة: «بالتَّأكيد يا دكتور. تعالي معي يا عزيزتي»، وتبعَتها لايرا بطاعة.

قطعَتا رواقًا قصيرًا، على يمينه أبواب وعلى يساره مقصف تَصدُر منه جلبة السَّكاكين والشُّوك وأصوات المتكلِّمين والمزيد من روائح الطَّبخ. قدَّرت لايرا أن الممرِّضة تُناهِز المسز كولتر سِنًّا، واستشعرَت أن لها طابعًا من النَّشاط والخواء والعمليَّة، أن بإمكانها أن تخيط جرحًا أو تُغيِّر ضمادة،

لكنها لا تستطيع أن تحكي قصَّةَ أبدًا. قرينها (وقد انتابَ لايرا لحظةَ إحساس غريب بارد عندما لاحظَته) كلب أبيض يمشي مهرولًا (وبعد لحظةٍ لم تَعُد تدري لِمَ أزعجَها).

سألَتها الممرِّضة وهي تفتح بابًا ثقيلًا: «ما اسمكِ يا عزيزتي؟».

- «ليزي».

- «ليزي فقط؟».

- «ليزي بروكس».

- «وكم سِنُّك؟».

- «أحد عشر عامًا».

سبقَ أن قيلَ للايرا إنها صغيرة الحجم بالنِّسبة إلى سِنِّها، أيًّا كان معنى ذلك. لم يُؤثِّر هذا قَطُّ في إحساسها بأهميَّتها، وإن أدركَت أن بإمكانها استغلال هذه الحقيقة الآن لجعل ليزي خجولًا متوتِّرةً تافهةً، وإذ دخلَت الحُجرة انكمشَت على نفسها بعض الشَّيء.

كانت تتوقَّع إلى حدٍّ ما أسئلةً عن المكان الذي جاءَت منه وكيف وصلَت، وبدأت تُجهِّز الإجابات بالفعل، لكن الممرِّضة لا تفتقر إلى الخيال فحسب، بل الفضول أيضًا. لو كانت بولڤانجار على حدود لندن، ولو كان الأطفال يصلون طوال الوقت، لما أبدَت الأخت كلارا اهتمامًا. وهكذا مضى قرينها الأنيق المتبختر الصَّغير في أعقابها بنفس نشاطها وخوائها.

في الحُجرة التي دخلَتاها أريكة وطاولة ومقعدان ودولاب ملفَّات، بالإضافة إلى خزانةٍ زُجاجيَّة تحوي أدويةً وضمادات، وحوض لغسل الوجه. بمجرَّد دخولهما خلعَت الممرِّضة معطف لايرا الخارجي وأسقطَته على الأرض اللَّامعة قائلةً: «اخلعي البقيَّة يا عزيزتي. سنُلقي عليكِ نظرةً صغيرةً سريعةً لنتأكَّد من أنكِ بصحَّةٍ جيِّدة، لا قضمة صقيعٍ أو زُكام، ثم سنجدِ لكِ ثيابًا نظيفةً لطيفةً»، ثم أضافَت: «سنُدخِلكِ لتستحمِّي أيضًا»، لأن لايرا لم تُبدِّل ملابسها أو تغتسل منذ أيام، وفي الدِّفء الذي يكتنف المكان صارَ هذا أوضح وأوضح.

ضربَ پانتالايمون الهواء بجناحيه، إلَّا أن لايرا أسكتَته بنظرةٍ عابسة، فاستقرَّ على الأريكة فيما خُلِعَت ثياب لايرا قطعةً قطعةً، وهو ما أصابَها بالاستياء والخجل، ولو أن فطنتها لم تتخلَّ عنها، فأخفَت مشاعرها وتصرَّفت ببلادةٍ وطاعة.

قالت الممرِّضة: «وحزام النُّقود يا ليزي»، وحلَّته بنفسها بأصابع قويَّة، وذهبَت لتُلقيه مع ثياب لايرا المكوَّمة، لكنها توقَّفت لمَّا لمسَت حافة الأليثيوميتر، وسألَت وهي تحلُّ أزرار الكيس المشمَّع: «ما هذا؟».

- «مجرَّد لُعبة. إنها ملكي».

فتحَت الأخت كلارا الغلاف المخملي الأسود قائلةً: «نعم. لن نأخذها منكِ يا عزيزتي. شكلها جميل، تُشبِه البوصلة»، ثم أتبعَت معيدةً الأليثيوميتر إلى مكانه: «هيا، إلى الحمَّام»، وأزاحَت ستارةً من الحرير الفحمي في رُكن الحُجرة.

على مضضٍ وقفَت لايرا تحت المياه الدَّافئة وغسلَت نفسها بالصَّابون فيما جثَمَ پانتالايمون فوق قضيب السِّتارة، يعي كلاهما أنه يجب ألَّا يُبدي كثيرًا من الحيويَّة، لأن قُرناء البليدين بليدون. بعد أن استحمَّت وجفَّفت نفسها قاسَت الممرِّضة حرارتها وفحصَت عينيها وأُذنيها وحَلقها، ثم قاسَت طولها ووضعَتها على ميزانٍ قبل أن تُدوِّن ملاحظةً على لوحٍ مشبكي، وبعدها أعطَتها منامةً ومعطفًا منزليًّا. وجدَت لايرا الثِّياب نظيفةً جيِّدة الصُّنع مِثل معطف توني مكاريوس، ولكن -هذه المرَّةً أيضًا- يبدو عليها استعمال سابق، وهو ما أزعجَ لايرا بشدَّة.

قالت: «هذه ما ثيابي».

- «نعم يا عزيزتي. ثيابكِ في حاجةٍ إلى غسلةٍ جيِّدة».

- «هل سأستعيدُ ثيابي؟».

- «أتوقَّعُ هذا. نعم، طبعًا».

- «ما هذا المكان؟».

- «اسمه المحطَّة التَّجريبيَّة».

ليس هذا جوابًا، ولئن كانت لايرا لتُعلِّق على هذا وتَطلُب المزيد من المعلومات، فإنها لم تحسب أن من شأن ليزي بروكس أن تفعل شيئًا كهذا، فقبلَت ثيابها الجديدة ببلادةٍ ولم تقل المزيد.

لكن بعد ارتدائها الثِّياب قالت بعناد: «أريدُ لُعبتي».

- «خُذيها يا عزيزتي. لكن ألا تُفضِّلين دبدوبًا لطيفًا من الصُّوف أو دُميةً جميلةً؟».

فتحَت الممرِّضة درجًا فيه بعض اللُّعب اللَّيِّنة كأشياء ميتة، وجعلَت لايرا نفسها تقف وتتظاهَر بالتَّفكير عدَّة ثوانٍ قبل أن تلتقط دُميةً من القُماش لها عينان كبيرتان خاويتان. لم تملك لايرا دُمًى قَطُّ، ولكن لأنها تعلم ما ينبغي فعله فقد ضمَّت الدُّمية إلى صدرها بشرود، ثم سألَت: «وماذا عن حزام النُّقود؟ أودُّ أن أحتفظ بلُعبتي فيه».

أجابَت الأخت كلارا التي تملأ استمارةً مطبوعةً على ورقةٍ ورديَّة: «خُذيه إذن يا عزيزتي».

رفعَت لايرا تنُّورتها الغريبة وربطَت الكيس المشمَّع حول خصرها، ثم قالت: «وماذا عن معطفي وحذائي؟ وقُفَّازي وأشيائي؟».

قالت الممرِّضة بآليَّة: «سنُنظِّفها لكِ».

ثم صدرَ أزيز هاتف، وبينما أجابَته الممرِّضة انحنَت لايرا مسرعةً لتلتقط العُلبة الأخرى التي تحوي ذُبابة التَّجسُّس، ووضعَتها في الكيس مع الأليثيوميتر.

وضعَت الممرِّضة السمَّاعة قائلةً: «هلمِّي يا ليزي. سنذهب ونجد لكِ شيئًا تأكلينه. أظنُّكِ جائعةً».

تبعَت لايرا الأخت كلارا إلى المقصف، حيث دستة من الموائد البيضاء المستديرة يُغطِّيها الفُتات والحلقات اللَّزجة النَّاتجة عن المشروبات الموضوعة بإهمال، فيما تتكوَّم الأطباق وأدوات المائدة المتَّسخة على عربةٍ من الفولاذ المقاوم للصَّدأ. ليس في المكان نوافذ، ولإعطاء إيحاء بالضَّوء والاتِّساع ثمَّة صورة فوتوجراميَّة ضخمة تُظهِر شاطئًا استوائيًّا أبيض الرِّمال، يصطفُّ عليه شجر جوز الهند تحت سماءٍ زرقاء صافية.

كان الرَّجل الذي أدخلَها يتناوَل صحفةً من كُوَّة تقديم، وقال لها: «كُلي».

لم تجد داعيًا إلى تجويع نفسها، وهكذا أكلَت اليخنة والبطاطس المهروسة بتلذُّذ، وتبعَ هذا وعاء من الخوخ المحفوظ والآيس كريم. بينما أكلَت جلسَ الرَّجل والممرِّضة إلى مائدةٍ قريبة يتكلَّمان بصوتٍ خفيض، ولمَّا فرغَت جلبَت لها الممرِّضة كوبًا من الحليب الدَّافئ وأخذَت الصَّحفة.

أتى الرَّجل يجلس قُبالتها. قرينته، أنثى المرموط، ليست بليدةً لا مباليةً ككلب الممرِّضة، بل جلسَت بتهذيبٍ على كتفه تُشاهِد وتُصغي.

قال: «والآن يا ليزي، هل نلتِ كفايتكِ من الأكل؟».

- «نعم، شكرًا».

- «أودُّ أن تُخبِريني من أين أتيتِ. أيُمكنكِ هذا؟».

- «لندن».

- «وماذا تفعلين بعيدًا في الشَّمال؟».

غمغمَت: «كنتُ مع أبي». تكلَّمت خافضةً عينيها ومتحاشيةً نظرات أنثى المرموط، وحاولَت أن تبدو كأنها على وشك الإجهاش بالبُكاء.

- «مع أبيكِ؟ مفهوم. وماذا يفعل في هذه المنطقة من العالم؟».

- «يُتاجِر. جئنا بشحنةٍ من ورق الدُّخان من الدنمارك الجديدة وكنا نشتري الفراء».

- «وهل كان أبوكِ وحده؟».

لأنها لا تدري بِمَ أخبرَه الصيَّاد السامويد، أجابَت بإبهام: «لا. كان معه أعمامي وبعض الرِّجال الآخَرين».

- «لِمَ أخذكِ معه في رحلةٍ كهذه يا ليزي؟».

- «لأنه أخذَ أخي منذ عامين، ويقول إنه سيأخذني المرَّة القادمة، لكنه لم يأخذني، فظللتُ أسأله وأخذَني».

- «وكم سِنُّك؟».

- «أحد عشر».

- «عظيم، عظيم. حسن يا ليزي، أنتِ فتاة محظوظة. الصيَّادان اللذان عثرا عليكِ جلباكِ إلى أفضل مكانٍ ممكن».

قالت بريبة: «لم يَعثُرا عليَّ. كان هناك قتال. كانوا كثيرين ومعهم سهام...».

- «أوه، لا أظنُّ. مؤكَّد أنكِ ابتعدتِ عن مجموعة أبيكِ وضللتِ الطَّريق. هذان الصيَّادان عثرا عليكِ بمفردكِ وجلباكِ إلى هنا مباشرةً. هذا هو ما حدثَ يا ليزي».

- «لقد رأيتُ قتالًا. كانوا يُطلِقون السِّهام و... أريدُ أبي». قالت العبارة الأخيرة بنبرةٍ أعلى، وشعرَت بنفسها تُجهِش بالبُكاء.

قال الطَّبيب: «أنتِ آمنة هنا حتى يأتي».

- «لكنني رأيتهم يُطلِقون السِّهام!».

- «آه، بل حسبتِ أنكِ رأيتِ ذلك. كثيرًا ما يَحدُث هذا في البرد القارس يا ليزي، تغيبين في النَّوم وترين أحلامًا سيِّئةً ولا تتذكَّرين ما هو حقيقي وما هو خيال. لم يقع قتال، لا تقلقي. أبوكِ سليم وآمن ولا شكَّ أنه يبحث عنكِ الآن، وقريبًا سيأتي لأن هذا هو المكان الوحيد على مسافة مئات الأميال، ويا لمفاجأته حين يجدكِ سليمةً آمنةً! والآن ستأخذكِ الأخت كلارا إلى حُجرة المبيت، حيث ستلتقين المزيد من الصِّبية والفتيات الذين ضاعوا في البراري مِثلكِ. اذهبي. سنتكلَّم ثانيةً في الصَّباح».

نهضَت لايرا قابضةً على دُميتها، ووثبَ بانتالايمون على كتفها إذ فتحَت الممرِّضة الباب لتقودهما إلى الخارج.

المزيد من الأروقة، ولايرا متعَبة حقًّا الآن، وناعسة لدرجة أنها ظلَّت تتثاءَب، وبصعوبةٍ رفعَت قدميها في الخُفَّين الصُّوف اللذين أعطوهما لها. بانتالايمون أيضًا كان رأسه يتأرجَح على صدره من النُّعاس، فتحوَّل إلى فأرٍ ليستقرَّ داخل جيب معطفها.

سجَّلت لايرا انطباعًا عن صفٍّ من الأسرَّة ووجوه أطفالٍ ووسادة، ثم راحَت في النَّوم.

***

كان أحدهم يهزُّها. أول شيءٍ فعلَته أنها تحسَّست خصرها، فوجدَت كلتا العُلبتين في مكانهما، ما زالَتا آمنتين، وهكذا حاولَت أن تفتح عينيها، ولكن كم وجدَت هذا صعبًا. لم تَشعُر من قبل قَطُّ بمِثل هذا النُّعاس.

- «استيقِظي! استيقِظي!».

همسة بأكثر من صوت.

بمجهودٍ شاق، كأنها تصعد منحدَرًا وهي تدفع جُلمودًا، أرغمَت لايرا نفسها على الاستيقاظ.

في الضَّوء الخافت المنبعث من مصباحٍ عنبري محدود الطَّاقة فوق المدخل، أبصرَت ثلاث فتياتٍ أخريات متحلِّقات حولها. لم تكن الرُّؤية سهلةً، لأن عينيها لم تُركِّزا بسرعة، لكنهن بدون في حدود سِنِّها، ويتكلَّمن الإنجليزيَّة.

- «استيقظَت».

- «أعطوها حبوب نوم، مؤكَّد...».

- «ما اسمكِ؟».

تمتمَت لايرا: «ليزي».

سألَتها إحداهن: «أهناك شحنة أطفال أخرى قادمة؟».

- «وما أدراني؟ أنا فقط».

- «من أين أتوا بكِ إذن؟».

عانَت لايرا كي تعتدل جالسةً. لا تَذكُر أنها أخذَت حبوب نوم، لكن وارد جدًّا أنهم وضعوا شيئًا في مشروبها. شعرَت كأن رأسها محشوٌّ بالرِّيش، ووراء عينيها شعرَت بنبض ألمٍ خفيف.

- «أين هذا المكان؟».

- «في قلب منطقةٍ قصيَّة. لم يُخبِرونا».

- «عادةً يجلبون أكثر من طفلٍ واحد في المرَّة».

- «ماذا يفعلون؟». استطاعَت لايرا إلقاء السُّؤال مستجمعةً شتات عقلها المخدَّر، فيما بدأ بانتالايمون يتحرَّك مستيقظًا معها.

قالت التي تتكلّم أكثر من الأخريَيْن: «لا ندري». الفتاة طويلة القامة حمراء الشَّعر، حركاتها سريعة مختلجة، وتتكلَّم بلكنةٍ لندنيَّة قويَّة. «إنهم يقيسوننا وما إلى ذلك ويُجرون هذه الاختبارات وتلك...».

قالت فتاة أخرى ودودة وممتلئة وداكنة الشَّعر: «يقيسون (الغُبار)».

ردَّت الأولى: «لستِ تعلمين هذا».

قالت الثَّالثة التي يبدو عليها الخنوع وهي تحتضن قرينها الأرنب: «هذا هو ما يفعلونه. لقد سمعتهم يتكلَّمون».

تابعَت حمراء الشَّعر: «ثم يأخذوننا واحدًا بعد واحد، وهذا هو كلُّ ما نعرفه. لا أحد يعود أبدًا».

قالت الممتلئة: «هناك ذلك الصَّبي الذي يظنُّ...».

قاطعَتها حمراء الشَّعر: «لا تُخبِريها بذلك! ليس بعدُ».

سألَت لايرا: «في المكان صِبية أيضًا؟».

- «نعم. نحن كثيرون، نحو ثلاثين في تقديري».

عقَّبت الممتلئة: «أكثر من هذا، أقرب إلى أربعين».

قالت حمراء الشَّعر: «لكنهم يأخذوننا طوال الوقت. عادةً يبدأون بجلب مجموعة، وعندها يكون عددنا كبيرًا، وواحدًا بعد واحدٍ يختفون جميعًا».

قالت الممتلئة: «إنهم ملتهِمون. أنتِ تعرفين الملتهِمين. كنا كلُّنا خائفين منهم إلى أن نالوا منا...».

تدريجيًّا استيقظَت لايرا أكثر فأكثر. كان قرينا الفتاتين الأخريَيْن، بعيدًا عن الأرنب، واقفيْن عند الباب يُصغيان، ولا أحد يتكلَّم رافعًا صوته فوق الهمس. سألتهن لايرا عن أسمائهن. حمراء الشَّعر اسمها آني، والممتلئة داكنة الشَّعر اسمها بِلا، والنَّحيلة اسمها مارثا. لا تعرف الفتيات أسماء الصِّبية، لأن الجنسين مفصولان معظم الوقت، وقلن إن المعاملة هنا ليست سيِّئةً.

قالت بِلا: «لا بأس بالمكان هنا. لا يوجد كثير نفعله، لكنهم يُعطوننا اختباراتٍ ويجعلوننا نُؤدِّي تمارين، ثم يقيسوننا ويعرفون درجة حرارتنا وأشياء من هذا القبيل. الأمر كلُّه ممل حقًّا».

قالت آني: «إلَّا عندما تأتي المسز كولتر».

أجبرَت لايرا نفسها على كتمان صيحتها، وخفقَ پانتالايمون بجناحيه بحدَّةٍ لاحظَتها الفتيات الأخريات.

قالت لايرا مهدِّئةً إياه: «إنه متوتِّر. لا بُدَّ أنهم وضعوا لنا حبوب نومٍ كما قلتن، لأننا دائخان فعلًا. مَن هي المسز كولتر؟».

أجابَت مارثا: «المرأة التي اصطادَتنا، أو اصطادَت أكثرنا. جميعهم يتكلّمون عنها، الأطفال الآخَرون. متى أتَت عرفنا أن أطفالًا أكثر سيختفون».

- «إنها تحبُّ مشاهدة الأطفال حين يأخذوننا، تحبُّ رؤية ما يفعلونه بنا. ذلك الصَّبي سايمون يظنُّ أنهم يقتلوننا، والمسز كولتر تتفرَّج».

ردَّدت لايرا مرتعدةً: «يقتلوننا؟!».

- «أكيد، لأن لا أحد يعود».

قالت بِلا: «وهناك اهتمامهم الدَّائم بالقُرناء أيضًا، يزنونهم ويقيسونهم وما إلى ذلك...».

- «يلمسون قُرناءكم؟!».

- «لا! ربَّاه! إنهم يضعون الميزان ويصعد قرينكِ عليه ويتبدَّل، ويُسجِّلون هُم الملاحظات ويلتقطون الصُّور. ويضعونكِ في تلك الخزانة ويقيسون (الغُبار)، طول الوقت، لا يكفُّون أبدًا عن قياسه».

سألَت لايرا: «أيُّ غُبار؟».

قالت آني: «لا ندري. إنه شيء من الفضاء. ليس غُبارًا حقيقيًّا. إن لم يكن عليكِ (غُبار) فهذا جيِّد، لكن (الغُبار) يُصيب الجميع في النِّهاية».

قالت بِلا: «أتعلمن ما سمعتُ سايمون يقوله؟ قال إن التَّرتار يصنعون الثُّقوب في رؤوسهم لإدخال (الغُبار)».

ردَّت آني ساخرةً: «نعم، مؤكَّد أنه يعلم ذلك. أظنُّ أنني سأسألُ المسز كولتر حين تأتي».

قالت مارثا بإعجاب: «لن تجروئي!».

- «سأجرؤ».

سألَت لايرا: «متى ستأتي؟».

قالت آني: «بعد غد».

شعرَت لايرا برُعبٍ بارد يسري على عمودها الفقري، وزحفَ پانتالايمون مقتربًا منها للغاية. أمامها يوم واحد تجد خلاله روچر وتكتشف ما يُمكنها اكتشافه عن هذا المكان، وبعدها إمَّا أن تهرب وإمَّا أن يأتوا لإنقاذها. وإذا قُتِلَ الچيپتيُّون جميعًا فمَن سيُساعِد الأطفال على البقاء أحياء في هذه البراري الجليديَّة؟

واصلَت الفتيات الأخريات الكلام، لكن لايرا وپانتالايمون تضامًّا بشدَّةٍ في الفِراش محاوليْن الاستدفاء، وعالميْن أن على مسافة مئات الأميال في كلِّ اتِّجاهٍ حول فِراشها ليس هناك إلَّا الخوف.

(15) أقفاص القُرناء

ليس من عادة لايرا أن تُفكِّر مليًّا في الأشياء، فهي طفلة عمليَّة دمويَّة المزاج، وعلاوةً على هذا ليست واسعة الخيال. لا أحد يتمتَّع بخيالٍ واسع كان ليحسب حقًّا أن بمقدورها أن تقطع هذا الشَّوط الطَّويل وتُنقِذ صديقها روچر، وإذا حسبَ ذلك ممكنًا فالطِّفل واسع الخيال كان ليُفكِّر في الحال في السُّبل العديدة التي تجعل تلك الغاية مستحيلةً. كونك كذَّابًا متمرِّسًا لا يعني تمتُّعك بقوَّة الخيال، خاصَّةً أن كذَبةً بارعين كُثرًا معدومو الخيال تمامًا، وهو ما يُضفي على أكاذيبهم سمة إقناعٍ مدهشة.

والآن وقد وقعَت في أيدي هيئة القرابين، لم تُعذِّب لايرا نفسها بالخوف من احتمالات ما حدثَ للچيپتيِّين. إنهم مُقاتلون بارعون جميعًا، ومع أن پانتالايمون قال إنه رأى چون فا يُصاب فربما أخطأ، وإذا لم يُخطئ فربما لم تكن إصابة چون فا بليغةً. من سوء حظِّها أنها وقعَت في أيدي الساموبد، لكن الچيپتيِّين سيصلون قريبًا ليُنقِذوها، وإذا لم يستطيعوا فلن يمنع شيء يوريك برنيسن من إخراجها، وبعدها سيطيران إلى سڤالبارد في منطاد لي سكورزبي، وسيُنقِذون اللورد آزريل.

في خاطرها كانت المسألة بهذه السُّهولة.

وهكذا عندما استيقظَت في حُجرة المبيت في الصَّباح التَّالي كانت مستعدَّةً للتَّعامُل مع ما يجلبه اليوم أيًّا كان، ومتشوِّقةً إلى رؤية روچر... تحديدًا، متشوِّقةً إلى رؤيته قبل أن يراها.

لم تضطرَّ إلى الانتظار طويلًا. في السَّابعة والنِّصف أيقظَت الممرِّضات الأطفال المسؤولات عنهم في حُجراتهم، واغتسلَ الأطفال وبدَّلوا ثيابهم وذهبوا مع الآخَرين إلى المقصف لتناوُل الإفطار.

وها هو ذا روچر.

كان جالسًا مع خمسة صِبية آخَرين إلى مائدةٍ مجاورة للباب، وفي الطَّريق إلى كُوَّة التَّقديم مرَّ الطَّابور بهم مباشرةً، فتظاهرَت بإسقاط منديلها وانحنَت لتلتقطه خافضةً جسدها إلى جوار مقعده كي يُكلِّم پانتالايمون قرينة روچر.

سالسيليا أنثى شُرشور، وقد راحَت تضرب الهواء بجناحيها بشدَّةٍ حتى إن پانتالايمون وثبَ عليها وثبَّتها في مكانها هامسًا. لحُسن الحظِّ أن القتالات والشِّجارات الحامية معتادة بين قُرناء الأطفال، فلم ينتبِه أحد كثيرًا، لكن وجه روچر امتقعَ في الحال، ولم ترَ لايرا أحدًا بهذا الشُّحوب من قبل قَطُّ. رفعَ روچر عينيه إلى نظرة العجرفة الخاوية التي رمقَته بها، وتدفَّق اللَّون إلى وجنتيه من جديدٍ إذ غمرَه

الأمل والانفعال والسُّرور، ووحده پانتالايمون الذي يهزّ سالسيليا بحزمٍ حال دون أن يصيح روچر ويهبَّ ليُحيِّي صديقته الأقرب، رفيقته في السِّلاح، غاليته لايرا.

لكنه رأى كيف أشاحَت بوجهها بتكبُّر، فحذا حذوها بإخلاصٍ كما فعلَ في مئة معركةٍ وحملةٍ في أكسفورد. يجب ألَّا يعرف أحد بالطَّبع، لأن كليهما في خطرٍ مميت.

أشارَت لايرا بعينيها إلى صديقاتها الجديدات، اللاتي حملن صحاف رقائق الذُّرة والخُبز المحمَّص وجلسن معًا، مكوِّناتٍ عصابةً من فورهن ومستثنياتٍ كلَّ مَن عداهن في سبيل النَّميمة عنهم.

لا يُمكنك أن تضع مجموعةً كبيرةً من الأطفال في مكانٍ واحد دون أن تُعطيهم أشياء عدَّةً يفعلونها، ولذا، من بعض النَّواحي، تُدار بولڤانجار كمدرسة، بأنشطةٍ مجدوَلة على غرار التَّمارين البدنيَّة و«الفن». يُفصَل الصِّبية عن الفتيات إلَّا خلال فترات الرَّاحة والوجبات، ولذا لم تنَل لايرا فُرصة الكلام مع روچر إلَّا في منتصَف الصَّباح، وبعد ساعةٍ ونصف من الخياطة تحت إشراف إحدى الممرِّضات. لكن يجب أن يبدو الأمر طبيعيًّا، وهنا مكمن الصُّعوبة. جميع الأطفال هنا في حدود السِّن نفسها، وهي السِّن التي يتكلَّم فيها الصِّبية مع الصِّبية والصَّبايا مع الصَّبايا، بحيث يتعمَّد كلا الجنسين تجاهُل الآخَر.

وجدَت نفسها في المقصف ثانيةً عندما دخلَ الأطفال ليتناوَلوا مشروبًا وبعض البسكويت، وأرسلَت لايرا پانتالايمون بتكوين ذُبابةٍ ليُكلِّم سالسيليا على الجِدار المجاور لمائدتهما، فيما لزمَت لايرا وروچر الصَّمت في مجموعتيهما المنفصلتين. الكلام صعب حين يكون انتباه قرينك في اتِّجاهٍ آخَر، فتظاهرَت لايرا بالوجوم والاستنكار وهي ترشف من الحليب مع الفتيات الأخريات، ونِصف أفكارها مع طنين كلمات القرينين. ولم تكن مصغيةً حقًّا، لكنها سمعَت فتاةً أخرى ذات شَعرٍ أشقر برَّاق تَذكُر اسمًا جعلَها تعتدل في جلستها منتبهةً.

كان اسم توني مكاريوس، وإذ انحرفَ انتباه لايرا بحدَّةٍ نحوه اضطرَّ پانتالايمون إلى إبطاء محادثته الهامسة مع قرينة روچر، وأنصتَ كلا الطِّفلين إلى ما تقوله الفتاة.

قالت والرُّؤوس تتجمَّع قُربها: «لا، أنا أعرفُ لِمَ أخذوه، لأن قرينته لم تتبدَّل. حسبوه أكبر مما يبدو أو شيئًا كهذا، وأنه ليس طفلًا صغيرًا حقًّا. لكن الحقيقة أن قرينته لم تكن تتبدَّل كثيرًا لأن توني نفسه لم يكن يُفكِّر كثيرًا في أيِّ شيء. لقد رأيتها تتبدَّل. كان اسمها راتر...».

سألَت لايرا: «ما سبب اهتمامهم الكبير بالقُرناء؟».

قالت الشَّقراء: «لا أحد يدري».

قال صبيٌّ كان يسمع: «أنا أعرفُ. إنهم يقتلون قرينكِ ويرون إن كنتِ ستموتين».

سألَ أحدهم: «لماذا إذن يفعلون هذا مرَّةً بعد مرَّةٍ بأطفالٍ مختلفين؟ ما عليهم إلَّا أن يفعلوه مرَّةً واحدةً، أليس كذلك؟».

قالت الفتاة الأولى: «أنا أعرفُ ماذا يفعلون».

حازَت الفتاة انتباه الجميع الآن، ولكن لأنهم لا يُريدون أن يعرف العاملون فحوى كلامهم، فقد لجأوا إلى سلوكٍ غريب يُوحي بالفتور واللا مبالاة فيما أصغوا بفضولٍ متّقد.

سألَها أحدهم: «كيف؟».

- «لأنني كنتُ معه حين أتوا وأخذوه. كنا في مخزن الملاءات».

قالتها ووجهها متورِّد بحرارة، وإذا كانت تتوقَّع سخريتهم واستهزاءهم فقد خابَ توقُّعها. جميع الأطفال هنا مغلوبون، ولم يرتسم على وجه أحدهم مجرَّد ابتسامة.

تابعَت الفتاة: «كنا ملتزميْن الهدوء، ثم دخلَت الممرِّضة، تلك ذات الصَّوت النَّاعم، وإذا بها تقول: هلمَّ يا توني، أعرفُ أنك هنا، هلمَّ، لن نُؤذيك... ويقول هو: ماذا سيَحدُث؟ فتقول: سننوِّمك فقط ثم نُجري عمليَّةً صغيرةً، وبعدها ستصحو سالمًا آمنًا، لكن توني لم يُصدِّقها، وقال...».

قاطعَها أحدهم: «الثُّقوب! إنهم يصنعون ثقوبًا في الجمجمة مِثل التَّرتار! أراهنُ على هذا!».

تدخَّل آخَر قائلًا: «صمتًا! ماذا قالت الممرِّضة أيضًا؟».

عندئذٍ كانت دستة أو أكثر من الأطفال قد تجمَّعت حول مائدة الفتاة، يتحرَّق قُرناؤهم رغبةً في المعرفة مِثلهم تمامًا، وكلُّهم متوتِّر متَّسع العينين.

تابعَت الشَّقراء: «أرادَ توني أن يعرف ما سيفعلونه براتر، فتقول الممرِّضة: هي أيضًا ستنام حينما تنام، ويقول توني: ستَقتُلونها، صح؟ أعرفُ أنكم ستَقتُلونها. جميعنا نعرف أن هذا هو ما يَحدُث، فتقول الممرِّضة: لا، طبعًا لا. إنها مجرَّد عمليَّةٍ صغيرة، مجرَّد قطعٍ صغير. إنه لا يُؤلِم أصلًا، لكننا ننوِّمك لنضمن هذا».

كان الصَّمت التَّام قد رانَ على الحُجرة، وكانت الممرِّضة المشرفة قد خرجَت بعض الوقت، وأُغلِقَت كُوَّة المطبخ مانعةً أن يسمعهم أحد من هناك.

سألَ صبيٌّ بصوتٍ خافت مذعور: «قطع من أيِّ نوع؟ هل قالت؟».

- «قالت فقط إنه شيء يجعلك تنضج أكثر، وقالت إنه شيء يخضع له الجميع، ولذا لا يتبدَّل قُرناء الكبار مِثل قُرنائنا. وهكذا يقطعونهم ليبقوا بتكوينٍ واحد دائمًا، وبهذه الطَّريقة نَحصُل على البالغين».

- «لكن...».

- «أيعني هذا...».

- «ماذا؟ كلُّ الكبار خضعوا لهذا القطع؟».

- «وماذا عن...».

فجأةً سكتَت الأصوات كلّها كأنها هي نفسها قُطِعَت، والتفتَت أعيُن الجميع إلى الباب. كانت الأخت كلارا واقفةً هناك، فاترةً هادئةً عمليَّةً، وإلى جوارها رجل بمعطفٍ أبيض لم ترَه لايرا من قبل.

قال الرَّجل: «بريدچت مجين».

نهضَت الفتاة الشَّقراء مرتجفةً، وتمسَّك قرينها السِّنجاب بصدرها، وقالت بصوتٍ مسموع بالكاد: «نعم يا سيِّدي؟».

- «افرُغي من مشروبكِ واذهبي مع الأخت كلارا، وليذهب بقيَّتكم إلى فصولكم».

بطاعةٍ كوَّم الأطفال أكوابهم على العربة الفولاذ قبل أن يُغادِروا صامتين، ولم يَنظُر أحدهم إلى بريدچت مجين غير لايرا، التي رأت الخوف حيًّا على وجه الفتاة الشَّقراء.

مرَّت بقيَّة هذا الصَّباح في التَّمرين. تضمُّ المحطَّة صالة ألعاب رياضيَّة صغيرةً، لأن من الصَّعب التَّمرين بالخارج خلال اللَّيل القُطبي الطَّويل، وأخذَت كلُّ مجموعةٍ من الأطفال دورًا في اللَّعب هناك تحت إشراف ممرِّضة. كوَّنوا فِرقًا وأخذوا يرمون الكُرات، وفي البداية لم تعرف لايرا -التي لم تلعب شيئًا كهذا من قبل- ماذا تفعل، إلَّا أنها سريعة الفهم ورياضيَّة، وقائدة بالفطرة أيضًا، وسرعان ما وجدَت نفسها تستمتع باللَّعب. ملأ صياح الأطفال وزعيق القُرناء وجلبتهم الصَّالة الصَّغيرة، ولم يمضِ وقت طويل قبل أن تطرد الضجَّة الأفكار المخيفة... وهذا هو الغرض من التَّمرين بالطَّبع.

***

في موعد الغداء، حين اصطفَّ الأطفال ثانيةً في المقصف، شعرَت لايرا بپانتالايمون يُطلِق زقزقة تعرُّف، والتفتَت لتجد بيلي كوستا واقفًا وراءها مباشرةً.

تمتمَ: «روچر أخبرَني بأنكِ هنا».

- «أخوك قادم، وچون فا وفِرقة كاملة من الچيپتيّين. سيأخذونك إلى الدِّيار».

كادَ يُطلِق صرخة فرحٍ صاخبةً، لكنه كبتَها وتظاهرَ بالسُّعال.

تابعَت لايرا: «وعليك أن تدعوني بليزي. لا تدعُني بلايرا أبدًا. وعليك أن تُخبِرني بكلِّ ما تعرفه، تمام؟».

جلسا معًا وعلى مقربةٍ منهما روچر. أسهل أن يفعلوا هذا في وقت الغداء، عندما يقضي الأطفال وقتًا أطول في الذَّهاب والمجيء بين الموائد وكُوَّة المطبخ، حيث يُقدِّم كبار ماسخون طعامًا ماسخًا مِثلهم. تحت ضوضاء السَّكاكين والشُّوك والأطباق، أخبرَها بيلي وروچر بكلِّ شيءٍ يعرفانه. سمعَ بيلي من ممرِّضةٍ أن الأطفال الذين أُجرِيَت لهم العمليَّة يُؤخَذون عادةً إلى فنادق صغيرة في الجنوب، وهو ما قد يُفسِّر كيف انتهى الأمر بتوني مكاريوس إلى الشُّرود في البريَّة.

على أن روچر كان لديه شيء أكثر إثارةً للاهتمام يُخبِرها به، وقال: «وجدتُ مكانًا للاختباء».

- «ماذا؟ أين؟».

- «انظُري إلى هذه الصُّورة...». كان يعني صورة الشَّاطئ الاستوائي الفوتوجراميَّة الكبيرة. «إذا نظرتِ إلى الرُّكن العُلوي الأيمن، أترين لوح السَّقف؟».

يتكوَّن السَّقف من ألواحٍ مستطيلة كبيرة مثبَّتة على هيكلٍ معدني، ورأت لايرا رُكن اللَّوح فوق الصُّورة مرفوعًا بعض الشَّيء.

قال روچر: «رأيتُ هذا وفكَّرتُ أن الألواح الأخرى مِثله، فرفعتها ووجدتها كلَّها مفكوكةً. يُمكنكِ رفعها. أنا وأحد الصِّبية جرَّبنا هذا مرَّةً في حُجرة المبيت قبل أن يأخذوه. بالأعلى مساحة يُمكنكِ الزَّحف فيها...».

- «كم يُمكنك الزَّحف داخل السَّقف؟».

- «لا أدري. قطعنا مسافةً قصيرةً فقط. فكَّرنا أن بإمكاننا الاختباء هناك عندما يحين الوقت، لكنهم سيجدوننا على الأرجح».

لم ترَه لايرا مكانًا للاختباء بل طريق. هذا أفضل شيءٍ سمعَته منذ وصلَت.

لكن قبل أن يتكلَّموا أكثر، دقَّ طبيب على مائدةٍ بملعقةٍ وبدأ يُكلِّمهم: «اسمعوا يا أطفال، اسمعوا جيِّدًا. كلَّ فترةٍ علينا إجراء تمرين حريق. مهمٌّ للغاية أن نرتدي جميعًا ثيابًا مناسبةً ونشقَّ طريقنا إلى الخارج دون ذُعر، ولذا سنُجري تمرين حريقٍ اليوم بعد الظُّهر. عندما يدقُّ الجرس عليكم التَّوقُّف عمَّا تفعلونه أيًّا كان، وأن تفعلوا ما يقوله أقرب واحدٍ من الكبار. تذكَّروا أين سيأخذونكم، فهذا هو المكان الذي يجب أن تذهبوا إليه في حالة حريقٍ حقيقي».

فكّرت لايرا: حسن، خطرَت لي فكرة.

خلال الفترة الأولى من بعد الظُّهر أخذوا لايرا وأربعِ فتياتٍ أخريات لإجراء اختبار (الغُبار) عليهن. لم يقلِ الأطبَّاء إن هذا هو ما يفعلونه، وإن كان التَّخمين سهلًا. أُخِذن واحدةً تلو الأخرى إلى مختبرٍ، وبالطَّبع أثارَ هذا هلعهن الشَّديد، وفكَّرت لايرا أنها لقسوة بالغة إذا هلكَت دون أن تُوجِّه إليهم ضربةً! ولكن بدا لها أنهم لن يُجروا لها العمليَّة إياها بعدُ.

شرحَ لها الطَّبيب: «نُريد أن نأخذ بعض القياسات».

عسيرٌ التَّمييز بين هؤلاء النَّاس. كلُّ الرِّجال يبدون متشابهين بمعاطفهم وألواحهم المشبكيَّة البيضاء وأقلامهم الرَّصاص، والنِّساء متشابهات أيضًا، من ثيابهن إلى أسلوبهن الهادئ الفاتر العجيب الذي يجعلهن كأنهن أخوات.

قالت لايرا: «لقد قاسوني أمس».

- «آه، اليوم سنأخذ قياساتٍ مختلفةً. قفي على هذا اللَّوح المعدني... أوه، اخلعي حذاءكِ أولًا. احملي قرينكِ إذا أردتِ. انظُري أمامكِ، نعم، هكذا، وانظُري إلى الضَّوء الأخضر الصَّغير. أحسنتِ...».

ومضَ شيء ما، ثم جعلَها الطَّبيب تُواجِه الجهة الأخرى ثم اليمين واليسار، وفي كلِّ مرَّةٍ صدرَت تكَّة مصحوبةً بوميض.

- «لا بأس. والآن تعالي إلى هذه الآلة وضعي يدكِ داخل الأنبوب. لن يُؤذيكِ شيء، أعدُكِ. ابسِطي أصابعكِ، هكذا».

سألَته: «ماذا تقيس؟ أهو (الغُبار)؟».

- «مَن أخبرَكِ بشأن (الغُبار)؟».

- «واحدة من الفتيات الأخريات. لا أعرفُ اسمها. قالت إن (الغُبار) يُغطِّينا. أنا ما مغبَّرة، أو على الأقل لا أظنُّ ذلك. لقد استحمَمتُ أمس».

- «آه، إنه نوع مختلف من الغُبار. لا يُمكنكِ رؤيته ببصركِ العادي، لأنه غُبار خاص. والآن ضُمِّي قبضتكِ... نعم، هكذا. عظيم. والآن إذا تحسَّستِ الأنبوب من الدَّاخل فستجدين ما يُشبِه المقبض... وجدتِه؟ والآن هلَّا وضعتِ يدك الأخرى هناك؟ أريحيها على الكُرة النُّحاس. عظيم، ممتاز. الآن ستَشعُرين بوخزٍ خفيف. لا شيء يُقلِق. إنه مجرَّد تيَّار عنبري طفيف...».

بشكٍّ ينبعث من نظراته كصواعق الرَّعد دارَ پانتالايمون، الذي تحوَّل إلى تكوين القطِّ البرِّي الأشد توتُّرًا وحذرًا، حول الآلة، عائدًا باستمرار ليحكَّ نفسه بلايرا التي باتَت واثقةً الآن بأنهم لن يُجروا عليها العمليَّة بعدُ، وواثقةً أيضًا بأن انتحالها شخصيَّة ليزي بروكس آمن، وهكذا خاطرَت بإلقاء سؤال.

- «لماذا تقطعون قُرناء النّاس عنهم؟».

- «ماذا؟ مَن ذكرَ لكِ هذا؟».

- «تلك الفتاة. لا أعرفُ اسمها. قالت إنكم تقطعون قُرناء النَّاس عنهم».

- «هُراء...».

لكن الارتباك لاحَ عليه رغم إنكاره، فتابعَت: «لأنكم تأخذونهم واحدًا واحدًا ولا يرجعون بعدها أبدًا. وبعضهم يحسب أنكم تَقتُلونهم، وآخَرون يقولون أشياء مختلفةً، وتلك الفتاة قالت لي إنكم تقطعون...».

- «ليس ذلك صحيحًا على الإطلاق. حين نأخذ الأطفال فهذا لأن الوقت قد حانَ لانتقالهم إلى مكانٍ آخَر. إنهم يكبرون. أخشى أن صديقتكِ تُفزِع نفسها. لا شيء من ذلك هنا! لا تُفكِّري فيه حتى. مَن صديقتكِ؟».

- «لقد وصلتُ أمس. لا أعرفُ اسم أحد».

- «ما شكلها؟».

- «نسيتُ. أظنُّ أن شعرها كان بنّيًّا نوعًا... بنّيًّا فاتحًا ربما... لا أدري».

ذهبَ الطَّبيب يُكلِّم الممرِّضة بهدوء، وبينما تحادَثا راقبَت لايرا قرينيهما. قرين الممرِّضة طائر جميل، أنيق لا مبالٍ مِثله مِثل كلب الأخت كلارا، أمَّا قرينة الطَّبيب فعُثَّة كبيرة ثقيلة. عرفَت لايرا أنهما مستيقظان، لأن عينَي الطَّائر تلمعان ومجسَّات العُثَّة تتحرَّك بخمول، لكن جسميهما ليسا نشطين كما كانت لتتوقَّع. قد لا يكونان متوتِّرين أو فضوليَّين على الإطلاق حقًّا.

عادَ الطَّبيب في الحال واستكملَ الاختبار، فوزنَها ووزنَ پانتالايمون على حدة، ونظرَ إليها من وراء شاشةٍ خاصَّة، وقاسَ نبضات قلبها، ووضعَها تحت فوَّهةٍ هسهسَت وأخرجَت رائحةً كالهواء النَّقي.

ثم، في منتصَف أحد الاختبارات، بدأ جرس يدقُّ ولم يتوقَّف.

زفرَ الطَّبيب قائلًا: «إنذار الحريق. ليكن. ليزي، اتبعي الأخت بتي».

- «لكن ثياب الخروج كلَّها في مبنى المبيت يا دكتور. لا يُمكنها الخروج هكذا. هل نذهب إلى هناك أولًا؟».

كان مستاءً من مقاطعة تجربته، وقال مطرقعًا بأصابعه بعصبيَّة: «أظنُّ أن هذا من الأشياء التي يُفترَض أن يُبيِّنها التَّمرين. يا للإزعاج».

على سبيل المساعدة قالت لايرا: «حين وصلتُ أمس وضعَت الأخت كلارا ثيابي الأخرى في خزانةٍ في الحُجرة الأولى التي فحصَتني فيها، الحُجرة المجاورة للباب. يُمكنني أن أرتدي تلك الثِّياب».

قالت الممرِّضة: «فكرة جيِّدة! أسرِعي إذن».

بسرورٍ خفي أسرعَت لايرا إلى هناك وراء الممرِّضة واستعادَت ملابسها الفرو وجواربها وحذاءها، وارتدَتها سريعًا فيما وضعَت الممرِّضة ملابس من الحرير الفحمي.

ثم إنهما هرعَتا إلى الخارج، وفي السَّاحة أمام مجموعة المباني الأساسيَّة كان نحو مئة شخصٍ من الكبار والصِّغار يتجمَّعون، بعضهم متحمِّس وبعضهم مستاء، وأكثرهم حائر.

كان أحد الكبار يقول: «أرأيت؟ الأمر يستحقُّ أن نفعل هذا لنعرف قدر الفوضى التي سنكون فيها إذا نشبَ حريق حقيقي».

راحَ أحدهم يَنفُخ في صفَّارة ويُلوِّح بذراعيه، لكن أحدًا لم يُلقِ إليه بالًا. رأت لايرا روچر وأشارَت إليه، فشدَّ بيلي كوستا من ذراعه وسرعان ما اجتمعَ ثلاثتهم وسط دوَّامةٍ من الأطفال الجارين.

قالت لايرا: «لا أحد سيُلاحِظ إذا ألقينا نظرةً. سيستغرقون عصورًا في عدِّ الجميع، ويُمكننا أن نقول إننا تبعنا أحدًا آخَر وضللنا الطَّريق».

انتظروا حتى رأوا معظم الكبار يَنظُرون في الاتِّجاه الآخَر، ثم التقطَت لايرا القليل من الثَّلج وسوَّته مكوِّنةً كُرةً ملساء رخوةً، وقذفَتها عشوائيًّا في الزِّحام.

وخلال لحظةٍ كان الصِّغار كلُّهم يحذون حذوها، وامتلأ الهواء بالثَّلج المتطاير، وطغى الضَّحك الصَّارخ تمامًا على صياح الكبار الذين يُحاوِلون استعادة التَّحكُّم، وهكذا دارَ الأطفال الثَّلاثة حول زاوية المبنى وابتعدوا عن الأنظار.

وجدوا الثَّلج كثيفًا لدرجةٍ حالَت دون تحرُّكهم بسرعة، وإن لم يبدُ هذا مهمًّا لأن أحدًا لم يتبعهم. صعدَت لايرا والآخَران فوق سقفٍ مقوَّس لأحد الأنفاق، وإذا بهم في منطقةٍ غريبة كوجه القمر، تضمُّ روابيَ مستطيلةً وتجاويف مدثَّرةً بالأبيض تحت السَّماء السَّوداء، وتُضيئها انعكاسات الضَّوء حول السَّاحة.

سألَ بيلي: «عمَّ نبحث؟».

قالت لايرا: «لا أدري. سنَنظُر فقط»، وقادَت الطَّريق إلى مبنى مربَّع قصير مفصول بعض الشَّيء عن سائر المباني، في رُكنه مصباح عنبري محدود الطَّاقة.

جاءَ الهرج والمرج من ورائهم أعلى ولكن أبعد. من الجليِّ أن الأطفال يستغلُّون حريَّتهم لأقصى درجة، وهو ما أملَت لايرا أن يستمرُّوا فيه أطول مُدَّةٍ ممكنة إذ تحرَّكت حول حافة المبنى المربَّع

باحثةً عن نافذة. يرتفع السَّقف سبعة أقدامٍ أو نحوها فقط عن الأرض، وعلى عكس المباني الأخرى لا يضمُّ نفقًا مسقوفًا يربطه ببقيَّة المحطَّة.

لا نافذة، لكن هناك بابًا فوقه لافتة تقول «**ممنوع الدُّخول قطعيًّا**» بحروفٍ حمراء.

وضعَت لايرا يدها على المقبض لتُحاوِل فتحه، لكن قبل أن تُديره قال روچر: «انظَري! إنه طائر! أو...».

كانت «أو» هذه صيحة شك، لأن المخلوق الهابط من السَّماء السَّوداء ليس طائرًا على الإطلاق، بل أحد رأته لايرا من قبل.

- «قرين السَّاحرة!».

خفقَ الإوز بجناحيه العظيمين مثيرًا زوبعةً من الثَّلج إذ حطَّ، ثم قال: «تحيَّة يا لايرا. لقد تبعتكِ إلى هنا، ولو أنكِ لم تريني، وانتظرتُ أن تَخرُجي. ماذا يَحدُث؟».

أخبرَته سريعًا، ثم سألَت: «أين الچيپتيُّون؟ هل چون فا بخير؟ هل ردعوا الساموِيد؟».

- «أكثرهم بخير. چون فا جريح، لكن جرحه ليس بليغًا. الرَّجلان اللذان أخذاكِ ينتميان إلى مجموعة صيَّادين ومُغيرين غالبًا ما تُهاجِم فِرق المسافرين، ويستطيعون الحركة بمفردهم أسرع من المجموعات الكبيرة. ما زالَ أمام الچيپتيِّين يوم من السَّفر».

كان الصَّبيَّان يُحَملِقان بخشيةٍ إلى القرين الإوز وأسلوب لايرا الأليف في الكلام معه، لأنهما لم يريا قرينًا دون إنسانه من قبل بالطَّبع، ويعرفان أقل القليل عن السَّاحرات.

خاطبَتهما لايرا قائلةً: «اسمعا، الأفضل أن تذهبا وتُراقِبا المنطقة. بيلي، اذهب من هنا. روچر، اذهب وراقب الطَّريق الذي أتينا منه. ما عندنا وقت طويل».

انطلَقا يُنفِّذان ما قالته، والتفتَت لايرا إلى الباب ثانيةً.

سألَها القرين: «لِمَ تُحاوِلين الدُّخول؟».

قالت: «بسبب ما يفعلونه هنا. إنهم يقطعون...»، وخفضَت صوتها متابعةً: «...إنهم يقطعون قُرناء النَّاس عنهم، قُرناء الأطفال، وأظنُّهم يفعلون هذا هنا. على الأقل ثمَّة شيء ما هنا، وكنتُ سألقي نظرةً، لكن الباب موصَد...».

قال الإوز: «يُمكنني فتحه»، وضربَ الهواء بجناحيه مرَّةً أو مرَّتين مطيِّرًا الثَّلج على الباب، وإذ فعلَ هذا سمعَت لايرا شيئًا يدور داخل القفل، ثم قال القرين: «ادخُلي بحذر».

سحبَت لايرا الباب مزيحةً به الثَّلج المتكوِّم ودخلَت، ومعها دخلَ الإوز. كان پانتالايمون مضطربًا خائفًا، لكنه لم يُرِد أن يرى قرين السَّاحرة خوفه، فطارَ إلى صدر لايرا ولاذَ بفرو معطفها.

وما إن تكيَّفت عينا لايرا مع الضَّوء حتى أدركَت السَّبب.

في سلسلةٍ من الأقفاص الزُّجاجيَّة المرصوصة عند الجُدران رأت جميع قُرناء الأطفال المبتورين، أجسامًا كما الأشباح لقططٍ وطيورٍ وجرذان ومخلوقاتٍ أخرى، كلُّها تائه خائف شاحب كالدُّخان.

أطلقَ قرين السَّاحرة صيحةَ غاضبةَ، وضمَّت لايرا پانتالايمون إليها قائلةَ: «لا تَنظَر! لا تَنظَر!».

قال القرين المتميِّز غيظًا: «أين أطفال هؤلاء القُرناء؟».

بخوفٍ حكَت له لايرا عن لقائها توني مكاريوس الصَّغير، ونظرَت من فوق كتفها إلى القُرناء المساكين حبيسي الأقفاص، الذين بدأوا يتقدَّمون ضاغطين وجوههم الشَّاحبة إلى الزُّجاج. تناهَت إلى مسامعها صيحات الألم والبؤس الخافتة، وفي الضَّوء المعتم الصَّادر من مصباحٍ عنبري محدود الطَّاقة رأت اسمًا مكتوبًا على بطاقةٍ في مقدِّمة كلِّ قفص... ونعم، ثمَّة قفص فارغ عليه اسم توني مكاريوس، إضافةً إلى أربعة أو خمسة أقفاص أخرى فارغة وعليها أسماء أيضًا.

قالت بعُنف: «أريدُ إطلاق سراح هؤلاء المساكين! سأحطِّمُ الزُّجاج وأُخرجهم...»، وتطلَّعت حولها تبحث عن شيءٍ تفعل به هذا، لكن المكان عارٍ تمامًا.

قال الإوز: «انتظري»، ولأنه قرين ساحرة، وأكبر منها كثيرًا، وأقوى كذلك، فقد انصاعَت له وهو يشرح: «يجب أن نجعل هؤلاء النَّاس يحسبون أن أحدًا نسيَ إيصاد المكان وإغلاق الأقفاص. إذا رأوا زُجاجًا مكسورًا وآثار أقدامٍ في الثَّلج، فكم تحسبين تنكُّركِ سيستمرُّ؟ ويجب أن يَصمُد حتى يصل الچيپتيُّون. والآن افعلي كما أقولُ بالضَّبط. خُذي حفنةً من الثَّلج، وعندما أخبركِ انفُخي القليل منه على كلِّ قفصٍ تباعًا».

جرَت لايرا إلى الخارج، حيث ما زال بيلي وروچر يقفان حراسةً، وما زالَت ضوضاء الصِّياح والضَّحك تأتي من السَّاحة، لأن دقيقةً أو نحوها فقط مرَّت.

تناولَت حفنةً كبيرةً مزدوجةً من الثَّلج النَّاعم الخفيف، ثم عادَت لتفعل ما قالَه القرين، وإذ نفخَت قليلًا من الثَّلج على كلِّ قفصٍ أصدرَ الإوز صوت طقطقةٍ في حَلقه، لينفتح الرِّتاج في مقدِّمة القفص.

بعد أن فتحَتها جميعًا رفعَت مقدِّمة القفص الأول، وخرجَت عُصفورة بجسمها الشَّاحب خافقةً بجناحيها، لكنها سقطَت أرضًا قبل أن تستطيع الطَّيران، فانحنى الإوز بعطفٍ ودفعَها إلى الاعتدال بمنقاره. تحوَّلت العُصفورة إلى فأرةٍ مرتبكة مترنِّحة، ووثبَ پانتالايمون إلى أسفل يُواسيها.

عملَت لايرا على عجلة، وخلال دقائق قليلة تحرَّر القُرناء جميعًا. حاولَ بعضهم الكلام وتجمَّعوا حول قدميها، بل وحاوَلوا أن يَنقُروا جوربها، ولو أن التابو منعَهم. لكنها عرفَت السَّبب، فالمساكين يفتقدون دفء أجساد بشرهم المتأصِّل الثَّقيل، وتمامًا كما كان ليَحدُث مع پانتالايمون فكلُّهم يتلهَّف إلى ضمِّ نفسه إلى نبض قلبٍ حي.

قال الإوز: «بسرعة الآن. لايرا، عليكِ أن تعودي وتختلطي بالأطفال الآخَرين. تشجَّعي أيتها الصَّغيرة. الچيپتيُّون قادمون بأقصى سرعتهم. عليَّ أن أساعد هؤلاء القُرناء المساكين على العثور على بشرهم...»، ودنا منها وأردفَ بنبرةٍ خفيضة: «لكنهم لن يعودوا واحدًا من جديدٍ أبدًا. لقد انفصَلوا إلى الأبد. هذا أخبث شرٍّ رأيته على الإطلاق... اترُكي آثار الأقدام التي صنعتموها. سأخفيها أنا. هيا، أسرِعي...».

- «أوه، أرجوك! قبل أن تذهب! السَّاحرات... إنهن يطرن، أليس كذلك؟ لم أكن أحلمُ حين رأيتهن طائراتٍ تلك اللَّيلة؟».

- «نعم أيتها الصَّغيرة. لماذا؟».

- «هل يُمكنهن سحب منطاد؟».

- «دون شك، ولكن...».

- «هل ستأتي سيرافينا پكالا؟».

- «ليس هذا وقتًا لشرح سياسة أُمم السَّاحرات. ثمَّة قُوى هائلة يتضمَّنها الأمر، وعلى سيرافينا پكالا أن تحمي مصالح عشيرتها. لكن ما يَحدُث هنا قد يكون جزءًا مما يَحدُث في كلِّ مكانٍ آخَر. لايرا، يجب أن تعودي إلى الدَّاخل. اجري، اجري!».

وجرَت، وخاضَ روچر في الثُّلوج الكثيفة وهو يُشاهِد بعينين متَّسعتين القُرناء الشَّاحبين يَخرُجون من المبنى، وقال لها: «إنهم... مِثل السَّراديب في چوردان... إنهم قُرناء!».

- «نعم. صهِ. لا تُخبِر بيلي. لا تُخبِر أحدًا. هيا، لنَعُد».

وراءهما، بدأ الإوز يضرب الهواء بجناحيه بقوَّة ملقيًا الثَّلج فوق آثار الأقدام، وقُربه تجمَّع القُرناء الضَّائعون أو شردوا مطلقين صيحات حسرةٍ واشتياقٍ خافتةً كئيبةً.

بعد تغطية آثار الأقدام التفتَ الإوز يجمع القُرناء الشَّاحبين معًا. كلَّمهم فتحوَّلوا واحدًا تلو الآخَر، وكان واضحًا ما جشَّمهم إياه هذا المجهود، حتى أصبحوا طيورًا جميعًا، ومِثل الأفراخ الصَّغيرة تبعوا قرين السَّاحرة، يُرَفرِفون ويَسقُطون ويجرون في الثَّلج وراءه، وأخيرًا بصعوبةٍ بالغة ارتفعوا في الهواء. طاروا في خطٍّ متعرِّج شاحبين شبحيِّين في ظلمة السَّماء العميقة، وبتؤدةٍ حلَّقوا على الرغم من وهن وشرود بعضهم، وعلى الرغم من أن بعضهم فقدَ إرادته وعادَ يهبط... إلَّا أن الإوز الرَّمادي العظيم دارَ ودفعَهم إلى أعلى مجدَّدًا، يقودهم برفقٍ حتى غابوا في الظَّلام الدَّامس.

شدَّها روچر من ذراعها قائلًا: «أسرِعي. إنهم على وشك الاستعداد».

تحرَّكا لينضمَّا إلى بيلي الذي يُشير إليهما من عند رُكن المبنى الرَّئيس. كان الصِّغار قد تعبوا، أو أن الكبار استعادوا قليلًا من السُّلطة، لأنهم بدأوا يقفون في صفوفٍ غير منتظمة عند الباب الأمامي، مع الكثير من الاحتكاك والتَّدافُع.

تسلَّل الأطفال الثَّلاثة من عند الرُّكن واختلطوا بهم، لكن قبلها قالت لايرا: «انشُروا هذا الكلام بين جميع الأطفال... عليهم أن يُهيِّئوا أنفُسهم للهرب. يجب أن يعرفوا أين ثياب الخروج ويستعدُّوا لأخذها ويهرعوا إلى الخارج بمجرَّد أن نُعطي الإشارة. ويجب أن يَكتُموا هذا السِّر تمامًا، مفهوم؟».

أومأ بيلي برأسه، وسألَ روچر: «ما هي الإشارة؟».

قالت لايرا: «جرس الحريق. عندما يحين الوقت سأدقّه».

انتظروا حتى تمَّ إحصاء الأطفال. لو أن أيَّ أحدٍ في هيئة القرابين له أيُّ علاقةٍ بالمدارس لكانوا أجروا ترتيباتٍ أفضل، ففي غياب مجموعاتٍ ثابتة يذهبون إليها كان عليهم مراجعة كلِّ طفلٍ على القائمة الكاملة، وهذه ليست موضوعةً بترتيبٍ أبجدي بالطَّبع، كما أن لا أحد من الكبار اعتادَ الحفاظ على النِّظام، ولذا كانت الفوضى عظيمةً رغم أن أحدًا من الأطفال لم يَعُد يجري ويعبث هنا وهناك.

راقبَت لايرا ولاحظَت. هؤلاء النَّاس لا يُجيدون هذا على الإطلاق، بل متقاعسون من نواحٍ شتَّى. إنهم يشتكون من تمارين الحريق، ولا يعرفون أين ينبغي الاحتفاظ بملابس الخروج، ولم يستطيعوا إيقاف الأطفال في صفٍّ منتظم... وقد يكون إهمالهم هذا في صالحها.

كانوا على وشك الفروغ عندما جدَّ شيء آخَر يصرف انتباههم، ومن وجهة نظر لايرا كان هذا أسوأ شيءٍ ممكن.

سمعَت الصَّوت كما سمعَه الجميع، وبدأت الرُّؤوس تدور والأبصار تجوس في السَّماء بحثًا عن الزِّپلن الذي ينبض محرِّك الغاز بداخله بوضوحٍ في الهواء السَّاكن.

الشَّيء الوحيد الذي يحمل حظًّا حسنًا أنه آتٍ في الاتِّجاه المعارض لذلك الذي طارَ فيه الإوز الرَّمادي، لكن هذه هي المواساة الوحيدة في الأمر. سرعان ما ظهرَ الزِّپلن، وشاعَت همهمة إثارةٍ في الزِّحام، ثم ظهرَ الجسم السَّمين الفضِّي المصقول فوق درب الأضواء، فيما توهَّجت أضواؤه الخاصَّة إلى أسفل من أنفه ومن القمرة المدلَّاة أسفله.

خفضَ الطيَّار السُّرعة وبدأ عمليَّة تعديل الارتفاع المعقَّدة، وعندها أدركَت لايرا وظيفة الصَّاري القوي، أنه -طبعًا- صاري رسو. وبينما أرشدَ الكبار الأطفال إلى الدَّاخل وقد راحَ هؤلاء يَنظُرون وراءهم ويُشيرون، تسلَّق الطَّاقم الأرضي سلالم الصَّاري استعدادًا لربط كابلات الرَّسو. كان المحرِّك يهدر، والثَّلج يرتفع في دوَّاماتٍ من الأرض، ولاحَت وجوه المسافرين في نوافذ القمرة.

نظرَت لايرا، ولم يكن هناك مجال للخطأ. تشبَّث پانتالايمون بها وتحوَّل إلى قطٍّ برِّي مهسهسًا بكراهية، لأن النَّاظرة من إحدى النَّوافذ بفضولٍ هي المسز كولتر برأسها الجميل داكن الشَّعر، وفي حِجرها قردها الذَّهبي.

(16) المقصلة الفضِّيَّة

خفضَت لايرا رأسها من فورها تحت قلنسوتها المصنوعة من فرو الوولڤرين، وجرَّت قدميها عبر الباب المزدوج بين الأطفال الآخَرين. لاحقًا ستجد وقتًا كافيًا للقلق بشأن ما ستقوله حين

تتواجَهان، غير أن لديها الآن مشكلةَ أخرى عليها إيجاد حلٍّ لها أولًا، ألا وهي كيف تُخبِّئ ثيابها الثَّقيلة حيث يُمكنها الوصول إليها دون أن تَطلُب الإذن.

لكن لحُسن الحظِّ أن بالدَّاخل بلبلةً عظيمةً مع محاولة الكبار إدخال الأطفال على عجلةٍ لإخلاء الطَّريق للوافدين من الزِّپلِن، فلم يكن هناك من يُراقِب بانتباه. خلعَت لايرا المعطف والجورب والحذاء وكوَّرتها صانعةً أصغر حزمةٍ ممكنة، قبل أن تَحشُر نفسها بين المتزاحمين في الأروقة متَّجهةً نحو حُجرة المبيت.

بسرعةٍ جرَّت خزانةً إلى الرُّكن ووقفَت فوقها ودفعَت السَّقف، ليرتفع اللَّوح كما قال روچر، وفي المساحة الخالية ورائه دسَّت الحذاء والجورب. ثم، وقد خطرَت لها فكرة، أخرجَت الأليثيوميتر من الكيس وخبَّأته داخل أعمق جيوب المعطف قبل أن تدسَّه بدوره.

قفزَت إلى الأرض وأعادَت الخزانة إلى مكانها، ثم همسَت لپانتالايمون: «يجب أن نتظاهَر بالغباء حتى ترانا، ثم نقول إننا اختُطِفنا. ولا كلمة عن الچيپتيِّين ويوريك برنيسن تحديدًا».

لأن لايرا أدركَت الآن -إن لم تُدرِك هذا من قبل- أن كلَّ ما في طبيعتها من خوفٍ منجذب إلى المسز كولتر كما تنجذب إبرة البوصلة إلى القُطب. جميع الأشياء الأخرى التي رأتها، حتى وحشيَّة الفصل وبشاعته، باستطاعتها التَّعامُل معها، فهي قويَّة بما فيه الكفاية، أمَّا فكرة ذلك الوجه العذب والصَّوت الرَّقيق، وصورة ذلك القرد الذَّهبي، فكفيلة بإصابتها بجيشان النَّفس وانقلاب المعدة وامتقاع الوجه.

لكن الچيپتيِّين قادمون. قالت لنفسها: فكِّري في هذا. فكِّري في يوريك برنيسن. لا تكشفي هُويَّتكِ، وساقَت نفسها إلى المقصف الذي تَصدُر منه ضوضاء شديدة.

كان الأطفال يصطفُّون لتناوُل المشروبات السَّاخنة، وبعضهم ما زالَ يرتدي معاطف الحرير الفحمي، وكلام جميعهم عن الزِّپلِن والقادمين فيه.

- «إنها هي... ذات القرين القرد...».

- «هل أخذتك أنت أيضًا؟».

- «قالت إنها ستَكتُب إلى مام وداد، وأراهنُ أنها لم...».

- «لم تقل لنا شيئًا عن قتل الأطفال، لم تَذكُر هذا إطلاقًا».

- «ذلك القرد اللَّعين... لقد قبضَ على قرينتي كاروسا وكادَ يَقتُلها... شعرتُ بضعفٍ شديد...».

كانوا مفزوعين مِثل لايرا تمامًا.

وجدَت آني والفتاتين الأخريَيْن، وجلسَت قائلةً: «اسمعن، هل يُمكنكن كتمان سر؟».

- «نعم!».

التفتَت إليها الوجوه الثَّلاثة ملتهبةً بالتَّرقُّب، وقالت لايرا بهدوء: «هناك خطَّة للهرب. سيأتي بعض النَّاس لأخذنا، تمام؟ وسيصلون خلال يومٍ أو أقل. ما علينا أن نفعله جميعًا أن نكون مستعدِّين بمجرَّد إطلاق الإشارة، وأن نأخذ ثيابنا الثَّقيلة في الحال ونُسرِع إلى الخارج. لا تلكُّؤ. عليكن الجري إلى الخارج مباشرةً. لكن إذا لم تأخذن معاطفكن وأحذيتكن وما إلى ذلك فستَمُتن بردًا».

سألَتها آني: «ما الإشارة؟».

- «جرس الحريق، مِثل اليوم. كلُّ شيءٍ مرتَّب. جميع الأطفال سيعلمون ولا أحد من الكبار، على وجه الخصوص هي».

أشرقَت وجوههن أملًا وحماسةً، وفي جميع أنحاء المقصف انتشرَت الرِّسالة، وكان جليًّا للايرا أن الجوَّ تغيَّر. بالخارج كان الأطفال نشطين توَّاقين إلى اللَّعب، ثم لمَّا رأوا المسز كولتر فارَ منهم خوف هستيري مكتوم، أمَّا الآن فثرثرتهم تنطوي على انضباطٍ وغايةٍ محدَّدة، وهو ما جعلَ لايرا تتعجَّب مما للأمل من أثرٍ بليغ.

راقبَت الباب المفتوح ولكن بحذر، وقد استعدَّت لخفض رأسها لأنها سمعَت أصوات الكبار قادمةً، ثم إن المسز كولتر نفسها ظهرَت وهلةً، تَنظُر من الباب وتبتسم لمرأى الأطفال السُّعداء بمشروباتهم السَّاخنة وكعكاتهم دافئين حسني التَّغذية. بشكلٍ شِبه لحظي استشرَت رجفة صغيرة عبر المقصف كلِّه، ولاذَ كلُّ طفلٍ بالصَّمت والسُّكون محدِّقًا إليها، وابتسمَت المسز كولتر ومرَّت دون كلمة، وشيئًا فشيئًا عادَ الأطفال يتكلَّمون.

سألَت لايرا: «أين يذهبون للكلام؟».

قالت آني: «قاعة المؤتمرات على الأرجح. لقد أخذونا إلى هناك مرَّةً». بهذا تعني نفسها وقرينها. «كان هناك نحو عشرين من الكبار، وكان أحدهم يُلقي محاضرةً، ووقفتُ هناك وفعلتُ كما أخبرَني، كرؤية المسافة التي يستطيع كيريليون أن يبتعدها عني، وبعدها نوَّمني مغنطيسيًّا وفعلَ أشياء

أخرى... إنها قاعة كبيرة فيها مقاعد وطاولات كثيرة ومنصَّة صغيرة، وراء المكتب الأمامي. أراهنُ أنهم سيدَّعون أن تمرين الحريق مرَّ على ما يُرام. أراهنُ أنهم يخشونها مِثلما نخشاها بالضَّبط...».

طوال ما تبقَّى من اليوم ظلَّت لايرا قريبةً من الفتيات، تتكلَّم قليلًا ولا تلفت إلى نفسها الانتباه. تمارين، وخياطة، والعَشاء، واللَّعب في الرَّدهة الكبيرة المهمَلة حيث يضعون بعض الألعاب اللَّوحية والكُتب البالية وطاولة تنس. عند نقطةٍ ما أدركَت لايرا والأخريات أن في المكان حالة طوارئ معمَّاة، لأن الكبار يهرعون ذهابًا وإيابًا، أو يقفون في مجموعاتٍ متوتِّرة ويتكلَّمون بأصوات خافتة. خمَّنت لايرا أنهم اكتشفوا هرب القُرناء ويتساءَلون كيف حدثَ هذا.

على أنها لم ترَ المسز كولتر، وهو ما أراحَها.

عندما حانَ موعد النَّوم عرفَت أن عليها إدخال الفتيات الأخريات إلى دائرة ثقتها، وقالت: «اسمعن، هل يَحدُث أنهم يأتون ليروا إن كنا نائمين؟».

أجابَتها بِلا: «يأتون ليُلقوا نظرةً مرَّةً فقط، يستخدمون قنديلًا للإضاءة لكنهم لا يَنظُرون حقًّا».

- «عظيم، لأنني سأذهبُ وأختلسُ النَّظر. هناك طريق عبر السَّقف أراني إياه أحد الصِّبية...».

شرحَت لهن، وقبل أن تَفرُغ قالت آني: «سأذهبُ معكِ!».

- «لا، أفضل ألا تفعلي، لأن الأسهل أن يكون شخص واحد فقط مفقودًا. يُمكنكن أن تقلن إنكن غبتن في النَّوم ولا تعلمن أين ذهبتُ».

- «لكن إذا أتيتُ معكِ...».

- «... فاحتمال القبض علينا أكبر».

كان قريناهما يتبادَلان النَّظر، پانتالايمون قطٌّ برِّي وكيريليون ثعلب، وكانا يرتعشان. أطلقَ پانتالايمون هسيسًا خفيضًا ناعمًا للغاية وكشَّر عن أنيابه، فابتعدَ كيريليون وبدأ يُنظِّف نفسه بلا اكتراث، وقالت آني باستسلام: «ليكن».

معتادٌ تمامًا أن تُسوَّى الخلافات بين الأطفال عن طريق قُرنائهم بهذا الأسلوب، فيقبل واحد سيطرة الآخَر، وإجمالًا يقبل بشرهم النَّتيجة دون استياء، وهكذا عرفَت لايرا أن آني ستفعل كما طلبَت.

ساهمَت ثلاثتهن بقطعٍ من الثِّياب لجعل فِراش لايرا يبدو كأنها نائمة عليه، وأقسمن أن يقلن إنهن لا يعرفن شيئًا عن الأمر، ثم أصغَت لايرا عند الباب لتتأكَّد من أن لا أحد قادمًا، ثم صعدَت فوق الخزانة ودفعَت اللَّوح ودسَّت نفسها في الفراغ ورائه.

همسَت للوجوه الثَّلاثة التي تُشاهِدها: «لا تقلن شيئًا»، ثم أعادَت اللَّوح إلى مكانه برفقٍ ونظرَت حولها.

كانت رابضةً في ممرٍّ معدني ضيِّق يدعمه هيكل من الدَّعائم والقوائم. ألواح السَّقف شِبه شفَّافة نوعًا، فيتخلَّلها شيء من الضَّوء من أسفل، وفي البريق الخافت رأت لايرا هذه المساحة الضيِّقة، المرتفعة قدمين أو نحوهما فقط، ممتدَّةً في جميع الجهات من حولها، ومزدحمةً بالمواسير والأنابيب المعدنيَّة. من السَّهل أن تضلَّ طريقها هنا، لكن إذا التزمَت الحركة فوق المعدن وتفادَت وضع وزنها على الألواح، وما دامَت تتحاشى إصدار أيِّ صوت، فسيُمكنها الذَّهاب من طرف المحطَّة إلى طرفها.

قالت هامسةً: «تمامًا مِثل ذلك اليوم في چوردان يا پان، عندما نظرتُ في الاستراحة».

ردَّ هامسًا بدوره: «لو لم تفعلي ذلك لما جرى شيء من هذا».

- «عليَّ إذن أن أصلحه، أليس كذلك؟».

حدَّدت اتِّجاهاتها مستنتجةً بالتَّقريب الاتِّجاه الذي تقع فيه قاعة المؤتمرات، ثم تحرَّكت.

وجدَت الرِّحلة أبعد ما يكون عن السُّهولة، إذ إن عليها التَّحرُّك على يديها ورُكبتيها لأن المساحة أوطأ من أن تسمح لها بالتَّقدُّم منحنيةً، وكلَّ مُدَّةٍ عليها أن تعتصر نفسها تحت ماسورةٍ مربَّعة كبيرة أو ترفعها فوق بعض أنابيب التَّسخين. على حدِّ ما تبيَّنت، تتتبَّع الممرَّات المعدنيَّة التي تزحف فيها قمم الجُدران الدَّاخليَّة، وما دامَت باقيةً فيها شعرَت بصلابةٍ مطمئِنة أسفلها، إلَّا أنها ضيِّقة للغاية، ولها حواف حادَّة، حادَّة لدرجة أنها جرحَت رُكبتيها ومفاصل أصابعها، ولم يمضِ وقت طويل قبل أن تَشعُر بالألم والانقباضات في جسدها كلِّه، وغطَّاها الغُبار أيضًا.

غير أنها عرفَت أين هي تقريبًا، وبإمكانها رؤية كُتلة ثيابها الدَّاكنة المحشورة فوق حُجرة المبيت ومن شأنها أن تُرشِدها إلى طريق العودة، كما أن بإمكانها تمييز الحُجرات الخالية عن طريق ألواح السَّقف المظلمة. بين الفينة والفينة سمعَت أصواتًا من أسفل فتوقَّفت لتُصغي، لكنهم فقط الطُّهاة في المطبخ أو الممرِّضات في استراحتهن، كما خمَّنت لايرا على طريقة چوردان. لم تسمع أحدًا يقول شيئًا مهمًّا، فواصلَت طريقها.

أخيرًا بلغَت المنطقة التي يُفترَض أن قاعة الاجتماعات تقع تحتها طبقًا لحساباتها، وبالفعل وجدَت مساحةً خاليةً من الأنابيب، حيث تقود مكيِّفات الهواء ومواسير التَّدفئة إلى جهةٍ واحدة بالأسفل، وحيث كلِّ الألواح مضاءة بالتَّساوي في مساحةٍ مستطيلة. وضعَت أُذنها على أحد الألواح وسمعَت همهمة أصوات ذكورٍ بالغين، فعلمَت أنها عثرَت على المكان الصَّحيح.

أصغَت بحذر، ثم تقدَّمت زحفًا حتى اقتربَت من المتكلِّمين قدر المستطاع، وتمدَّدت باسطةً جسدها كلَّه في الممرِّ المعدني وأمالَت رأسها جانبًا لتسمع ما يُمكنها سماعه.

تناهى إلى مسامعها متقطِّعًا رنين أدوات المائدة، أو الزُّجاج على الزُّجاج مع صبِّ المشروبات، أي أنهم يتناوَلون العَشاء فيما يتكلَّمون. قدَّرت أن هناك أربعة أصوات، بما فيها صوت المسز كولتر، أمَّا الثَّلاثة الآخَرون فرجال، ويبدو أنهم يُناقِشون مسألة القُرناء الهاربين.

قال صوت المسز كولتر الموسيقي الرَّقيق: «لكن مَن المسؤول عن الإشراف على ذلك القطاع؟».

أجابَها أحد الرِّجال: «طالب أبحاث اسمه مكاي، لكن هناك آليَّاتٍ تلقائيَّةً تمنع شيئًا كهذا من الحدوث...».

قالت: «لكنها لم تعمل».

- «مع احترامي، لقد عملَت أيها المسز كولتر. مكاي يُؤكِّد لنا أنه أوصدَ جميع الأقفاص عندما غادرَ المبني في السَّاعة 1100 اليوم. والباب الخارجي لم يكن مفتوحًا على كلِّ حال، لأنه دخلَ وخرجَ من الباب الدَّاخلي كما يفعل عادةً. ثمَّة كود يجب إدراجه في المنسِّق المتحكِّم في الأقفال، ومسجَّل في ذاكرته أن مكاي فعلَ هذا. ما لم يَحدُث هذا ينطلق جرس إنذار».

- «لكن الإنذار لم ينطلق».

- «بل انطلقَ، ولكن للأسف حين كان الجميع بالخارج في أثناء تمرين الحريق».

- «لكن عندما عُدتم إلى الدَّاخل...».

- «من المؤسف أن كلا الإنذارين على الدَّائرة نفسها، وهذا خطأ في التَّصميم علينا إصلاحه. معنى هذا أن عند إطفاء جرس الحريق بعد التَّمرين، انطفأ إنذار المختبر أيضًا. حتى حينها كنا لننتبه إلى ذلك بسبب الفحوص المعتادة التي تُجرى بعد كلِّ تعطيل للروتين، لكنكِ كنتِ قد وصلتِ على غير توقُّعٍ أيتها المسز كولتر، وإذا كنتِ تَذكُرين فقد طلبتِ تحديدًا أن تلتقي طاقم المختبر في حُجرتكِ في التَّوِّ واللَّحظة، وبالتَّالي لم يرجع أحد إلى المختبر إلَّا بعد فترة».

ببرودٍ قالت المسز كولتر: «مفهوم. في تلك الحالة، مؤكَّد أن إطلاق سراح القُرناء حدثَ في أثناء تمرين الحريق نفسه، وهذا يُوسِّع دائرة المشتبَه بهم لتشمل كلَّ بالغٍ في المحطَّة. هل وضعتم هذا في حُسبانكم؟».

سألَها أحد آخَر: «هل وضعتِ في حُسبانكِ أن أحدًا من الأطفال فعلَها؟».

لم تردَّ، فتابعَ الرَّجل الثَّاني: «كلُّ بالغٍ كان عليه واجب، وكلُّ واجبٍ كان كفيلًا بالاستحواذ على انتباهه الكامل، وكلُّ واجبٍ نُفِّذَ بالفعل. احتمال أن أحد العاملين هنا فتحَ الباب غير واردٍ على الإطلاق. إمَّا أن أحدهم جاءَ من الخارج تمامًا بنيَّة أن يفعل هذا، وإمَّا أن أحد الأطفال استطاعَ الوصول إلى هناك وفتحَ الباب والأقفاص ثم عادَ إلى واجهة المبني الرَّئيس».

قالت: «وماذا تفعلون على سبيل التَّحرِّي؟ لا، غيَّرتُ رأيي، لا تُخبِرني. أرجو أن تفهمني أيها الدكتور كوپر، إنني لا أوجِّهُ انتقادي بدافع سوء النِّيَّة. علينا أن نتوخَّى منتهى الحذر هنا. كانت زلَّةً جسيمةً أن يُوضَع كلا الإنذارين على الدَّائرة نفسها، ويجب تصحيح هذا في الحال. أجائز أن يُساعِدكم الضَّابط التَّرتري المسؤول عن الحرس في التَّحرِّي؟ أذكرُ هذا على سبيل الاحتمال فقط. أين كان التَّرتار خلال تمرين الحريق بالمناسبة؟ أظنُّ أنكم أخذتم هذا بعين الاعتبار، أليس كذلك؟».

أجابَ الرَّجل بتبرُّم: «بلى. الحرس جميعًا كانوا مشغولين تمامًا في دوريَّاتهم. إن سجلّاتهم خالية من الثَّغرات».

- «إنني واثقة بأنكم تبذلون قصارى جهدكم. حسن، هكذا الأمر إذن، مؤسفٌ للغاية. لكن كفى كلامًا عن هذا الآن. حدِّثني عن الفاصل الجديد».

انتابَت لايرا رعدة خوف، فلهذه الكلمة معنى واحد لا غير.

قال الطَّبيب متنفِّسًا الصُّعداء لانحراف المحادثة إلى موضوعٍ آخَر: «آه، إنه سبق حقيقي. مع الطِّراز الأول لم يكن باستطاعتنا أن نتغلَّب بالكامل على مخاطرة موت الحالة من الصَّدمة، لكننا طوَّرنا هذا لأقصى درجة».

أضافَ رجل لم يكن قد تكلَّم بعدُ: «السكريلينج كانوا يفعلونها بشكلٍ أفضل باليد».

ردَّ الآخَر: «قرون من الممارسة».

قال المتحدِّث الأساسي: «لكن مجرَّد التّمزيق كان الخيار الوحيد لبعض الوقت، مهما كان ذلك مفجعًا للمشغِّلين البالغين. إن كنتم تَذكُرون، لقد صرفنا عددًا منهم لأسبابٍ متعلِّقة بالاضطرابات التي ولَّدتها الضُّغوط. لكن أول نقلةٍ نوعيَّة حقيقيَّة كانت استخدام التَّخدير مع مبضع مايشتادت العنبري، فتمكنَّا من خفض نسبة الموت من صدمة العمليَّة إلى أقل من خمسة بالمئة».

قالت المسز كولتر: «والأداة الجديدة؟».

كانت لايرا ترتجف والدَّم يدقُّ في أُذنيها، وپانتالايمون يضمُّ نفسه إليها بتكوين القاقوم ويهمس: «صهِ يا لايرا. لن يفعلوها... لن نسمح لهم بفعلها...».

- «نعم، كان اكتشافًا لافتًا للنَّظر من اللورد آزريل نفسه هو ما أعطانا مفتاح الوسيلة الجديدة. لقد اكتشفَ أن خليطًا من المنجنيز والتيتانيوم له خاصيَّة فصل الجسد عن القرين. ما الذي يَحدُث مع اللورد آزريل بالمناسبة؟».

قالت المسز كولتر: «ربما لم تسمعوا. اللورد آزريل تحت حُكمٍ معلَّق بالموت. أحد شروط احتجازه في سڤالبارد أن يتخلَّى عن عمله الفلسفي بالكامل، لكنه للأسف استطاعَ الحصول على كُتبٍ وأدوات، ودفعَ استكشافاته الهرطقيَّة إلى حدٍّ يجعل بقاءه على قيد الحياة خطرًا محقَّقًا. على كلِّ حال، يبدو أن مجلس الڤاتيكان بدأ يُناقِش مسألة الحُكم بالموت واحتمال تنفيذه. لكن أداتكم الجديدة يا دكتور، كيف تعمل؟».

- «آه... نعم... تقولين إنه حُكم بالموت؟ يا إلهي الرَّحيم... أنا آسفٌ. الأداة الجديدة. إننا نبحث نتيجة الفصل عندما يَحدُث والحالة واعية، وبالطَّبع لما كان هذا ممكنًا من دون عمليَّة مايشتادت. وهكذا طوَّرنا ما يُمكنكِ تسميته مقصلةً. النَّصل مصنوع من خليط المنجنيز والتيتانيوم، ويُوضَع الطِّفل في حُجيرةٍ كخزانةٍ صغيرة من الشَّبك المصنوع من المزيج المعدني، والقرين في حُجيرةٍ مماثلة مربوطة بها. الصِّلة بين الاثنين باقية بالطَّبع ما دامَ الرَّابط بين الحُجيرتين قائمًا، ثم ينزل النَّصل بينهما باترًا الصِّلة في الحال، وعندها يصيران كيانين منفصلين».

قالت: «أودُّ أن أرى هذا، قريبًا على ما آملُ. لكنني متعَبة الآن. أظنُّ أنني سأخلدُ إلى النَّوم. أريدُ أن أرى الأطفال كلَّهم غدًا. سنعرف مَن فتحَ الباب».

صدرَت أصوات مقاعد تُدفَع وكلماتٍ مهذَّبة وبابٍ يُغلَق، ثم سمعَت لايرا الآخَرين يُعاوِدون الجلوس ويُواصِلون الكلام بمزيدٍ من الهدوء.

- «ما الذي يفعله اللورد آزريل».

- «أظنُّ أن لديه فكرةً مختلفةً كلِّيَّةً عن طبيعة (الغُبار). هذا هو بيت القصيد. إنه عمل تجديفي لأقصى درجة كما تريان، ولا يُمكن لمحكمة التَّقويم الكنسيَّة أن تسمح بأيِّ تأويلٍ يختلف عن المصرَّح به. ثم إنه يُريد إجراء تجارب...».

- «تجارب؟ على (الغُبار)؟».

- «صهِ! ليس بصوتٍ عالٍ هكذا...».

- «أتظنُّ أنها ستُقدِّم تقريرًا سلبيًّا؟».

- «لا، لا. أظنُّ أنك أحسنت التَّعامُل معها».

- «أسلوبها يُقلِقني...».

- «أتعني أنه ليس فلسفيًّا؟».

- «بالضَّبط. إنه اهتمام شخصي. لا أحبُّ استخدام هذه الكلمة، لكن أسلوبها يكاد يكون غوليًّا».

- «وصف قوي بعض الشَّيء».

- «لكنك تَذكُر التَّجارب الأولى، حين أصرَّت بشدَّة على رؤيتهم يُفصَلون...».

لم تقوَ لايرا على منع نفسها، وفرَّت منها صيحة صغيرة، وفي الوقت نفسه تشنَّج جسدها وارتجفَ، ودقَّت قدمها إحدى الدَّعائم.

- «ما هذا؟».

- «في السَّقف...».

- «بسرعة!».

صوت مقاعد تُلقى جانبًا، وأقدام تجري، وطاولة تُسحَب على الأرض. حاولَت لايرا الزَّحف مبتعدةً، لكن المساحة ضيِّقة للغاية، وقبل أن تتحرَّك أكثر من بضع ياردات دُفِعَ لوح السَّقف المجاور لها فجأةً ووجدَت نفسها تَنظُر إلى وجه رجلٍ مذهول، قريبًا منها للغاية حتى إن بإمكانها رؤية كلِّ شعرةٍ في شاربه. كان الرَّجل يُعادِلها ذُعرًا، ولكن مع تمتُّعه بحرِّيَّة حركةٍ أكثر استطاعَ أن يمدَّ يده في الفتحة ويقبض على ذراعها.

- «طفلة!».

- «لا تَترُكها...».

غرسَت لايرا أسنانها في يده الكبيرة المنمَّشة، فصاحَ ألمًا لكنه لم يُفلِتها، حتى عندما انبثقَ الدَّم من الجرح. كان پانتالايمون يُزَمجِر ويزوم بلا جدوى، فالرَّجل أقوى منها كثيرًا، وقد راحَ يجذب ويجذب حتى انفرجَت يدها الأخرى المطبقة على الدِّعامة، وسقطَت نِصفيًّا من الفتحة. ومع ذلك لم تُصدِر صوتًا، ولوَت قدميها على الحافة المعدنيَّة الحادَّة بالأعلى وأخذَت تُقاوِمهم وهي مقلوبة، تخدش وتعضُّ وتَلكُم وتفحُّ بغضبةٍ حارَّة، ويلهث الرِّجال ويئنُّون ألمًا أو جهدًا، لكنهم ظلُّوا يسحبون ويسحبون.

وعلى حين غِرَّةٍ خارَت قُواها عن آخرِها.

كأن يدًا دخيلة امتدَّت حيث لا حقَّ ليدٍ أن تمتدَّ، وانتزعَت من داخلها شيئًا عميقًا ثمينًا.

شعرَت بالوهن، بالدُّوار، بالغثيان، بالاشمئزاز، بالضَّعف من الصَّدمة.

أحد الرِّجال يحمل پانتالايمون، يحمله!

أطبقَ الرَّجل على قرين لايرا بيديه البشريَّتين، وپان المسكين يرتجف، يكاد عقله يطير رُعبًا ونفورًا. تكوين القطِّ البرِّي، الآن فروه باهت من الضَّعف، والآن يُطلِق شراراتٍ عنبريَّةً من فرط الهلع... التوى نحو غاليته لايرا التي مدَّت كلتا يديها إليه...

وسقطَتا إلى جانبيها. لقد قبضوا عليهما.

إنها تَشعُر بهاتين اليدين... ليس هذا مسموحًا أبدًا... لا يُفترَض إطلاقًا أن يلمسوا... خطأ...

- «أهي وحدها؟».

نظرَ رجل داخل السَّقف، ثم قال: «يبدو أنها وحدها...».

- «مَن هي؟».

- «الطِّفلة الجديدة».

- «التي جلبَها الصيَّادان السامويد...».

- «نعم».

- «أتحسب أنها هي... القُرناء...».

- «وارد جدًّا. ولكن ليس بمفردها بالتَّأكيد».

- «أيجب أن نُخبِر...».

- «أظنُّ أن هذا كفيل بإنهاء الأمر كلِّه، أليس كذلك؟».

- «أتَّفقُ معك. الأفضل ألَّا تعرف نهائيًّا».

- «لكن ماذا نفعل؟».

- «لا يُمكنها العودة إلى الأطفال الآخَرين».

- «مستحيل!».

- «يبدو لي أن هناك شيئًا واحدًا يُمكننا فعله».

- «الآن؟».

- «يجب. لا يُمكننا التَّأجيل حتى الصَّباح. إنها تُريد المشاهدة».

- «يُمكننا أن نفعلها بأنفُسنا. لا داعي لتوريط أحدٍ آخَر».

نقرَ الرَّجل الذي يبدو مسؤولًا، الذي لا يقبض على لايرا أو پانتالايمون، على أسنانه بظُفر إبهامه دون أن تَثبُت نظرات عينيه لحظةً، بل تزوغ وتدور وتندفع في هذا الاتِّجاه وذاك، وفي النِّهاية أومأَ برأسه قائلًا: «الآن، سنفعلها الآن وإلَّا تكلَّمت. الصَّدمة ستمنع ذلك على الأقل. لن تتذكَّر مَن هي وماذا رأت أو سمعَت... هيا بنا».

عجزَت لايرا عن الكلام، وبالكاد استطاعَت التقاط أنفاسها. تركَت نفسها تُحمَل عبر المحطَّة في طُرقاتٍ بيضاء خالية، مرورًا بحُجراتٍ تطنُّ بالطَّاقة العنبريَّة، ومرورًا بحُجرات المبيت التي ينام فيها الأطفال ومعهم قُرناؤهم على الوسادة إلى جوارهم يُشارِكونهم الأحلام، وكلَّ لحظةٍ من الطَّريق ظلَّت عيناها على پانتالايمون الذي مدَّ يديه إليها، ولم تفترق نظراتهما.

ثم باب يُفتَح عن طريق عجلةٍ كبيرة، وهسيس هواء، وحُجرة ساطعة الإضاءة من البلاط الأبيض الباهر والفولاذ المقاوم للصَّدأ. الخوف الذي تَشعُر به يكاد يكون ألمًا بدنيًّا، بل هو ألم بدني، إذ سحبوها هي وپانتالايمون نحو قفصٍ كبير عبارة عن شبكةٍ معدنيَّة فضِّيَّة، معلَّق فوقه نصل فضِّي شاحب ضخم استعدادًا لفصلهما بلا رجعة.

عثرَت لايرا على صوتها أخيرًا وصرخَت، لتتردَّد أصداء الصَّرخة صاخبةً على الأسطُح البرَّاقة، لكن الباب الثَّقيل كان قد انغلقَ مصدرًا هسيسه، وحتى إذا صرخَت وصرخَت إلى ما لا نهاية فلن يتسرَّب الصَّوت إلى الخارج أبدًا.

ولكن، ردًّا على صرختها، تملّص پانتالايمون من هاتين اليدين البغيضتين، وتحوَّل إلى أسد، إلى نسر، وهاجمَهم ببراثن ماضية وضربَ الهواء بجناحين عظيمين، ثم تحوَّل إلى ذئب، إلى دُب، إلى ظربان، يندفع كالسَّهم، يُزَمجِر، يضرب في سلسلةٍ من التَّحوُّلات أسرع من أن يُسجِّلها العقل، وطوال الوقت يثب عليهم، يطير، يُراوِغهم من بُقعةٍ إلى أخرى فيما تُلوِّح أيديهم الخرقاء وتقبض على الهواء.

على أنهم ليسوا بلا قريناتٍ بالطَّبع، فلم يكن الصِّراع صراع اثنين ضد ثلاثة، بل اثنين ضد ستَّة. أنثى غُرير وأنثى بابون وبومة، ثلاثتهن عازمات على القبض على پانتالايمون، وفيهن صرخَت لايرا: «لماذا؟ لماذا تفعلن هذا؟ ساعِدننا! لا يُفترَض أن تُساعِدنهم!».

وركلَت لايرا وعضَّت بهياجٍ غير مسبوق، إلى أن شهقَ الرَّجل الممسك بها وأفلتَها لحظةً... وتحرَّرت، واندفعَ پانتالايمون كشرارة برق، وضمَّته إلى صدرها القوي وغرسَ مخالب القطِّ البرّي في جِلدها، وأحسَّت بكلِّ طعنة ألمٍ عزيزةً غاليةً.

صرخَت: «مُحال! مُحال! مُحال!»، وتراجعَت إلى الجِدار توطئةً للدِّفاع عنه حتى حتفهما.

لكنهم هاجَموها ثانيةً، ثلاثة رجالٍ كبار غاشمين، وهي مجرَّد طفلةٍ مصدومة مفزوعة، وانتزَعوا منها پانتالايمون ودفعوها داخل أحد جانبَي القفص، وحملوه وهو لا يزال يُقاوِم إلى الجانب الآخَر. بينهما حاجز من الشَّبك المعدني، لكنه ما زالَ جزءًا لا يتجزَّأ منها، ما زالَ مرتبطًا بها. للحظةٍ أخرى أو نحوها سيظلُّ روحها الثَّمينة.

بصوتٍ أعلى من لهاثهم، أعلى من نحيبها، أعلى من عُواء قرينها المهتاج، سمعَت لايرا طنينًا ورأت رجلًا (ينزف من أنفه) يُشغِّل لوحةً من المفاتيح. نظرَ الآخَران إلى أعلى، وتبعَت عيناها نظراتهما لترى النَّصل الفضِّي الضَّخم يرتفع ببُطء لينعكس عليه الضَّوء السَّاطع. آخِر لحظةٍ في حياتها الكاملة ستكون الأسوأ بما لا يُقاس.

- «ما الذي يَحدُث هنا؟».

صوت موسيقي خفيف، صوتها.

وتوقَّف كلُّ شيء.

- «ماذا تفعلون؟ ومَن هذه الطِّفـ...».

لم تُكمِل كلمة «الطِّفلة»، لأنها في هذه اللَّحظة تعرَّفت لايرا، وبعينين شوَّشت رؤيتهما الدُّموع رأتها لايرا تترنَّح وتقبض على دِكَّة، وفي لحظةٍ أصبحَ وجهها الهادئ الجميل صورةً للرُّعب والذُّهول.

همسَت: «لايرا...».

اندفعَ القرد الذَّهبي من جانبها في غمضة عينٍ وجرَّ پانتالايمون من القفص الشَّبكي فيما سقطَت لايرا إلى الخارج، وتملَّص پانتالايمون من كفَّي القرد المضطربتين وذهبَ يتعثَّر ليُلقي نفسه في

أحضان لايرا، التي غمغمَت دافنةً وجهها في فروه: «مُحال، مُحال»، وضغطَ پانتالايمون قلبه النَّابض إلى قلبها.

تمسَّك كلاهما بالآخَر كناجيَيْن من حُطام سفينةٍ يرتجفان على شاطئٍ مقفر، وبغير وضوحٍ سمعَت لايرا المسز كولتر تُخاطِب الرِّجال، وإن لم تستطِع مجرَّد تفسير نبرة صوتها. ثم إذا بهما يَخرُجان من الحُجرة الكريهة مع المسز كولتر التي تحملها جزئيًّا وتسندها جزئيًّا في أحد الأروقة، ثم باب، وحُجرة نوم، ورائحة عطرة في الهواء، وضوء ناعم.

مدَّدتها المسز كولتر برفقٍ على السَّرير، وقد طوَّقت لايرا پانتالايمون بذراعيها بإحكامٍ جعلَها ترتجف من قوَّته.

ثم ملَّست يد حانية على شَعرها، وقال هذا الصَّوت العذب: «طفلتي العزيزة جدًّا، كيف بحقِّ السَّماء وصلتِ إلى هنا؟».

(17) السَّاحرات

بلا هوادةٍ أنَّت لايرا وارتجفَت كأنها انتُشِلَت لتوِّها من مياهٍ قارسة البرودة لدرجة أن قلبها كادَ يتجمَّد.

استلقى پانتالايمون ببساطةٍ على بشرتها العارية داخل ثيابها، يُعيدها إلى نفسها حُبًّا، وإن لم يغفل لحظةً عن المسز كولتر المشغولة بإعداد مشروبٍ ما، وتحديدًا عن القرد الذَّهبي الذي مرَّر أصابعه الصَّغيرة الصُّلبة على جسد لايرا حين كان پانتالايمون وحده ليلحظ، وتحسَّس الكيس المشمَّع بمحتوياته حول خصرها.

قالت المسز كولتر: «اعتدِلي يا عزيزتي واشربي هذا»، ووضعَت ذراعها الرَّفيقة حول ظَهر لايرا ورفعَتها.

تشنَّجت لايرا، لكنها استرخَت من فورها تقريبًا عندما فكَّر لها پانتالايمون: سنظلُّ آمنيْن ما دُمنا نتظاهَر، وفتحَت عينيها لتجد أنهما تحويان دمعًا، ولدهشتها وخزيها أخذَت تنتحب وتنتحب.

أصدرَت المسز كولتر أصوات تعاطُفٍ ووضعَت المشروب بين يدَي القرد فيما جفَّفت عينَي لايرا بمنديلٍ معطَّر، وقال الصَّوت النَّاعم إياه: «ابكي كما تشائين يا حُلوتي»، فعزمَت لايرا على التَّوقُّف حالما تستطيع، وكافحَت لكبت الدُّموع زامَّةً شفتيها وكاتمةً النَّشيج الذي ما زالَ يرجُّ صدرها.

ولعبَ پانتالايمون اللُّعبة نفسها: اخدعيهما، اخدعيهما. تحوَّل إلى فأرٍ وزحفَ مبتعدًا عن يد لايرا ليتشمَّم بتردُّدٍ المشروب في قبضة القرد، فوجدَ أن لا ضرر منه، أنه نقيع كاموميل لا أكثر، ومن ثَمَّ

عادَ إلى كتف لايرا وهمسَ لها: «اشربيه».

اعتدلَت جالسةً وتناولَت الكوب السَّاخن بكلتا يديها، تتبادَل الرَّشف منه والنَّفخ فيه لتُبرِّده وقد خفضَت عينيها. عليها الآن أن تُتقِن التَّظاهُر أكثر مما فعلَت في سالف حياتها كلِّها.

غمغمَت المسز كولتر مملِّسةً على شَعرها: «لايرا يا حُلوتي، حسبتنا فقدناكِ إلى الأبد! ماذا حدثَ؟ هل تُهتِ؟ هل أخذكِ أحدهم من الشقَّة؟».

همسَت لايرا: «نعم».

- «مَن يا عزيزتي؟».

- «رجل وامرأة».

- «ضيفان في الحفلة؟».

- «أظنُّ هذا. قالا إنكِ محتاجة إلى شيءٍ من الطَّابق السُّفلي، ولمَّا ذهبتُ لأجلبه أمسَكاني وأخذاني في سيَّارةٍ إلى مكانٍ ما. لكن حين توقَّفا جريتُ بسرعةٍ وراوغتهما ولم يقبضا عليَّ، لكنني لم أعرف أين أنا...».

رجَّها نشيج آخَر قليلًا، لكنه صارَ أضعف الآن، ويُمكنها أن تتظاهَر بأن قصَّتها سبَّبته.

- «همتُ على وجهي محاولةً العثور على طريق العودة، لكن الملتهِمين قبضوا عليَّ... ووضعوني في شاحنةٍ مع بعض الأطفال الآخَرين وأخذوني إلى مكانٍ ما، مبنى كبير، لا أدري أين يقع».

مع كلِّ ثانيةٍ مرَّت، مع كلِّ جُملةٍ لفظَتها، شعرَت بالقليل من القوَّة يتدفَّق إليها من جديد. والآن وهي تُمارِس شيئًا صعبًا مألوفًا وغير قابل للتَّنبُّؤ تمامًا، أي الكذب، شعرَت بنوعٍ من التَّفوُّق ثانيةً، بشعور التَّعقيد والتَّحكُّم نفسه الذي يبثُّه فيها الأليثيوميتر. عليها أن تحرص على عدم قول شيءٍ استحالته واضحة، وعليها أن تكون غامضةً في بعض المواضع وأن تبتكر تفاصيل قابلةً للتَّصديق في مواضع أخرى. باختصار، عليها أن تكون فنَّانةً.

سألَتها المسز كولتر: «كم من الوقت احتفظوا بكِ في ذلك المبنى؟».

استغرقَت رحلة لايرا في القنوات ووقتها مع الجِيپتيِّين عدَّة أسابيع، أي أن عليها أن تضع تلك المُدَّة في حُسبانها، وهكذا اخترعَت رحلةً مع الملتهِمين إلى ترولسند، ثم فرارًا غنيًّا بالتَّفاصيل التي لاحظَتها في البلدة، وفترةً عملَت فيها خادمةً تُؤدِّي مختلِف الأعمال في بار إينارسن، ثم فترةً عملَت فيها عند عائلةٍ من المُزارعين بعيدًا عن البحر، قبل أن يُوقِع بها الساموِيد ويأخذوها إلى بولڤانجار.

- «وكانوا سـ... كانوا سيقطعون...».

- «صهِ يا عزيزتي، صهِ. سوف أعرفُ ما يَحدُث هنا».

- «لكن لماذا كانوا سيفعلون ذلك؟ إنني لم أقترف شيئًا خطأ! الأطفال كلّهم خائفون مما يَحدُث هنا، ولا أحد يعرف. لكنه شيء شنيع، أسوأ من أيِّ شيء في الدُّنيا... لماذا يفعلون هذا يا مسز كولتر؟ لماذا يتصرَّفون بهذه القسوة؟».

- «اهدئي، اهدئي... أنتِ آمنة الآن يا عزيزتي، ولن يفعلوا ذلك بكِ أبدًا. الآن وقد عرفتُ أنكِ هنا وبتِّ في أمان فلن تقعي في خطرٍ ثانيةً أبدًا. لا أحد سيُؤذيكِ يا لايرا يا حُلوتي، لا أحد سيمسُّك بسوءٍ أبدًا...».

- «لكنهم يفعلون هذا بالأطفال الآخَرين! لماذا؟».

- «آه يا حبيبتي...».

- «إنه (الغُبار)، أليس كذلك؟».

- «هل أخبَروكِ بهذا؟ هل قال الأطبَّاء هذا؟».

- «الأطفال يعرفون، الأطفال كلُّهم يتكلَّمون عنه، لكن لا أحد يعرف! ولقد كادوا يفعلونها بي... يجب أن تُخبِريني! ليس لكِ الحق في الكتمان، لم يَعُد لكِ الحق!».

- «لايرا... لايرا. عزيزتي، هذه أفكار كبيرة عصيَّة على الفهم، (الغُبار) وما إلى ذلك. إنه ليس شيئًا يُقلِق الأطفال، لكن الأطبَّاء يفعلونه لأجل صالح الأطفال يا حبيبتي. (الغُبار) شيء سيِّئ، شيء خطأ، شيء آثم شرِّير. الكبار وقُرناؤهم مصابون بـ(الغُبار) بشدَّةٍ حتى إن أوان علاجهم فاتَ، لا سبيل لمساعدتهم... لكن عمليَّةً صغيرةً على الأطفال تعني أنهم آمنون منه، ولن يلتصق بهم (الغُبار) ثانيةً أبدًا، فيُصبِحون آمنين وسُعداء و...».

خطرَ توني مكاريوس الصَّغير ببال لايرا، وانحنَت إلى الأمام فجأةً وأفرغَت معدتها، فتراجعَت المسز كولتر وتركَتها قائلةً: «أأنتِ بخيرٍ يا عزيزتي؟ اذهبي إلى الحمَّام...».

ابتلعَت لايرا ريقها بقوَّةٍ ومسحَت عينيها، وقالت: «لستم مضطرِّين إلى أن تفعلوا بنا هذا. يُمكنكم أن تَترُكونا وشأننا وحسب. أراهنُ أن اللورد آزريل ما كان ليسمح لأحدٍ بفعل هذا لو أنه يعرف ما يَحدُث. إن كان مصابًا بـ(الغُبار) وأنتِ مصابةً بـ(الغُبار) وعميد چوردان وكلُّ بالغ مصابًا بـ(الغُبار)، فمؤكَّد أنه شيء لا بأس به. حين أخرجُ سأخبرُ كلَّ طفلٍ في العالم بهذا. وعلى كُلِّ حال، لو كانت العمليَّة مفيدةً فلِمَ منعتِهم من إجرائها عليَّ؟ لو كانت مفيدةً لكان عليكِ أن تَترُكيهم يُجرونها، كان عليكِ أن تسعدي».

هزَّت المسز كولتر رأسها وابتسمَت ابتسامةً حكيمةً حزينةً، وردَّت: «حُلوتي، لا مفرَّ من أن يُؤلِمنا بعض الأشياء المفيدة، وبطبيعة الحال سيستاء الآخَرون إن كنتِ أنتِ مستاءةً... لكن هذا لا يعني أن قرينكِ يُؤخَذ منكِ. إنه ما زالَ هنا! بحقِّ الله، بالغون كثيرون هنا خضعوا للعمليَّة بالفعل. الممرِّضات تبدو عليهن السَّعادة، أليس كذلك؟».

حدَّقت إليها لايرا وقد فهمَت فجأةً لا مبالاتهن الخاوية الغريبة، والطّريقة التي يمشي بها قُرناؤهن كأنهم نائمون.

فكَّرت: لا تقولي شيئًا، وأطبقَت فمها بشدَّة.

- «حُلوتي، لا أحد يَحلُم أبدًا بإجراء عمليَّةٍ على طفلٍ قبل أن يختبرها أولًا، ولا أحد ولو بعد ألف عامٍ يستطيع أن يفصل قرين طفلٍ عنه تمامًا! كلُّ ما في الأمر قَطع صغير، ثم يسود السَّلام، وإلى الأبد! افهمي، قرينكِ صديق ورفيق رائع في صِغركِ، لكن في السِّن التي نُسمِّيها سِنَّ البلوغ، السِّن التي ستَبلُغينها قريبًا جدًّا يا حُلوتي، يجلب القُرناء مختلِف أنواع الأفكار والمشاعر المزعجة، وهذا هو ما يجعل (الغُبار) يُصيبهم. عمليَّة صغيرة سريعة قبل ذلك ولن يُزعِجكِ ثانيةً أبدًا. وقرينكِ يبقى معكِ، ولكن... غير مربوط فقط، مِثل... مِثل حيوانٍ أليف رائع إذا أحببتِ، أفضل حيوانٍ أليف في العالم! ألا تودِّين ذلك؟».

يا للكاذبة الشرِّيرة! يا للأكاذيب السَّافرة التي تتلفَّظ بها! وحتى لو لم تكن لايرا تعلم أنها أكاذيب (توني مكاريوس، القُرناء المحبوسون) لظلَّت تَمقُت الفكرة بحرارةٍ لافحة. روحها العزيزة، رفيق قلبها الجريء يُقطَع عنها وينحطُّ إلى مجرَّد حيوانٍ أليف متبختر؟ كادَت لايرا تشتعل كراهيةً، وتحوَّل پانتالايمون بين ذراعيها إلى ظربان مزمجر، أقبح وأخبث تكويناته أجمعين.

لكنهما لم يقولا شيئًا، وضمَّت لايرا پانتالايمون بقوَّةٍ وتركَت المسز كولتر تُمسِّد شعرها.

ثم إن المسز كولتر قالت بنعومة: «اشربي الكاموميل. سنجعلهم يُحضِّرون لكِ فِراشًا هنا. لا داعي للعودة وتقاسُم حُجرة مبيتٍ مع الفتيات الأخريات بعد أن استعدتُ مساعِدتي الصَّغيرة، مساعِدتي المفضَّلة! أفضل مساعِدة في العالم. أتدرين أننا بحثنا عنكِ في جميع أنحاء لندن يا عزيزتي؟ جعلنا الشُّرطة تبحث في كلِّ بلدةٍ بالبلاد. أوه، لكم أوحشتِني! لا يُمكنني أن أعبِّر لكِ عن مدى سعادتي للعثور عليكِ ثانيةً...».

طوال الوقت كان القرد الذَّهبي يتحرَّك ذهابًا وإيابًا بتوتُّر، في لحظةٍ يقبع فوق الطَّاولة مؤرجحًا ذيله، وفي التَّالية يتشبَّث بالمسز كولتر ويهمس بخفوتٍ في أُذنها، وفي التَّالية يذرع أرض الحُجرة بذيلٍ منتصب. بحركاته هذه يشي بصبر المسز كولتر النَّافد بالطَّبع، وأخيرًا لم تَعُد قادرةً على الكتمان، وقالت: «لايرا يا عزيزتي، أظنُّ أن عميد چوردان أعطاكِ شيئًا قبل أن تُغادِري، أليس كذلك؟ أعطاكِ أليثيوميتر. المشكلة أنه لم يكن ملكه كي يُعطيه لأحد، بل تُرِكَ في عنايته فحسب. إنه أقيم حقًّا من أن يُحمَل هنا وهناك... أتدرين أنه واحد من اثنين أو ثلاثة فقط في العالم؟ أظنُّ أن العميد أعطاكِ إياه على أمل أن يقع في يد اللورد آزريل. لقد طلبَ منكِ ألَّا تُخبِريني بأمره، أليس كذلك؟».

لوَت لايرا فمها ولم تُجِب.

- «نعم، أرى هذا. حسن، لا عليكِ يا حُلوتي، لأنكِ لم تُخبريني، أليس كذلك؟ أي أنكِ لم تُخلِفي أيَّ وعود. لكن اسمعي يا عزيزتي، يجب حقًّا أن يُعتَنى به. أخشى أنه أندر وأشد هشاشةً من أن نُخاطِر به أكثر».

سألَتها لايرا بلا حراك: «ولِمَ لا يجب أن يأخذه اللورد آزريل؟».

- «بسبب ما يفعله. أنتِ تعرفين أنه أُرسِلَ إلى المنفى لأن في عقله شيئًا خطرًا وشرّيرًا. إنه محتاج إلى الأليثيوميتر ليُكمِل خطَّته، لكن صدِّقيني يا عزيزتي، آخِر ما يجب أن يفعله أيُّ أحدٍ أن يسمح له بالحصول عليه. عميد چوردان كان مخطئًا للغاية مع الأسف. لكن الآن وقد عرفتِ فمن الأفضل فعلًا أن تُعطيني إياه، أليس كذلك؟ سيُوفِّر هذا عليكِ عناء حمله معكِ في كلّ مكان وقلق العناية به... ومؤكَّد حقًّا أنه كان لُغزًا كبيرًا جعلَكِ تتساءَلين عن جدوى شيءٍ سخيف كهذا...».

تساءلَت لايرا كيف، كيف، كيف وجدَت هذه المرأة فاتنةً ذكيَّةً يومًا.

- «لذا إذا كان معكِ الآن يا عزيزتي فالأفضل حقًّا أن تُعطيني إياه لأعتني به. إنه في الحزام الذي حول خصركِ، أليس كذلك؟ نعم، كان تصرُّفًا ذكيًّا منك أن تُخبِّئيه هكذا...».

الآن كانت يداها على تنُّورة لايرا، ثم تحلَّان المشمَّع المتيبِّس. وشدَّت لايرا نفسها. وكان القرد الذَّهبي قابعًا عند طرف الفِراش يرتجف من التَّرقُّب وقد وضعَ يديه السَّوداوين الصَّغيرتين على فمه. سحبَت المسز كولتر الحزام من حول خصر لايرا وحلَّت زرَّ الكيس وهي تتنفَّس بسرعة، ثم إنها أخرجَت الغلاف المخملي الأسود وحلَّته، لتجد العُلبة الصَّفيح التي صنعَها يوريك برنيسن.

تحوَّل پانتالايمون إلى قطٍّ ثانيةً استعدادًا للوثوب، وسحبَت لايرا ساقيها بعيدًا عن المسز كولتر وأنزلَتهما على الأرض لتجري هي أيضًا عندما يحين الوقت.

قالت المسز كولتر كأنها مستمتعة: «ما هذا؟ يا لها من عُلبةٍ قديمة غريبة! هل وضعتِه هنا لتُحافِظي عليه يا عزيزتي؟ كلُّ هذه الطَّحالب... لقد تصرَّفتِ بحذرٍ، أليس كذلك؟ عُلبة أخرى داخل الأولى! وملحومة! مَن فعلَ هذا يا عزيزتي؟».

كانت أشد عزمًا على فتحها من انتظار جواب. في حقيبة يدها سكِّين مزوَّد بعدَّة ملحقات، فسحبَت نصلًا ودسَّته تحت الغطاء.

وفي الحال أفعمَ الأزيز العنيف الحُجرة.

ثبَّتت لايرا وپانتالايمون نفسيهما، وبحيرةٍ وفضولٍ شدَّت المسز كولتر الغطاء، ودنا القرد الذَّهبي ليَنظُر.

ثم في لحظةٍ مُعمية انطلقَ جسم ذُبابة التَّجسُّس الأسود من العُلبة مرتطمًا بوجه القرد.

صرخَ القرين وألقى نفسه إلى الوراء، وبالطّبع تألّمت المسز كولتر أيضًا وصرخَت وجعًا وهلعًا مع القرد، قبل أن ينقضَّ عليها الشَّيطان الآلي ويتسلّق صدرها وعُنقها إلى وجهها.

ولم تتردَّد لايرا. وثبَ پانتالايمون نحو الباب وفي أعقابه لايرا التي فتحَت الباب بعُنفٍ وانطلقَت تَركُض أسرع مما ركضَت في حياتها كلِّها.

صرخَ پانتالايمون الطَّائر أمامها: «جرس الحريق!».

رأت زرًّا عند المنعطف التَّالي وهشَّمت الزُّجاج بقبضتها المستقتِلة، ثم جرَت متَّجهةً نحو حُجرات المبيت ودقَّت جرسًا آخَر وآخَر، وعندها بدأ النَّاس يَخرُجون إلى الرُّواق باحثين بأعيُنهم هنا وهناك عن الحريق.

عندئذٍ كانت قد اقتربَت من المطبخ، وألقى پانتالايمون فكرةً في عقلها لتندفع إلى الدَّاخل، وبعد لحظاتٍ كانت قد فتحَت جميع صنابير الغاز ورمَت عود ثقابٍ مشتعلًا على أقرب موقد، ثم إنها جرَّت جوالًا من الدَّقيق من فوق رفٍّ وألقَته على حافة طاولةٍ لينفلق ويمتلئ الهواء بالأبيض، لأنها سمعَت من قبل أن الدَّقيق ينفجر إذا عُومِلَ بهذه الطَّريقة قُرب اللَّهب.

ثم إنها هرعَت إلى الخارج بأقصى سرعتها متَّجهةً نحو حُجرة المبيت. الأروقة ممتلئة الآن، والأطفال يندفعون في هذا الاتِّجاه وذاك بحماسةٍ بالغة بعد أن استشرَت بينهم كلمة «الهرب»، يتوجَّه أكبرهم إلى المخازن التي تضمُّ الثِّياب سائقين الصِّغار معهم، في حين يُحاوِل البالغون السَّيطرة على الوضع دون أن يُدرِك أحدهم ما يجري. في كلِّ مكانٍ صياح ودفع وصريخ واحتكاك.

وفي خضمِّ كلِّ هذا اندفعَت لايرا وپانتالايمون كالأسماك في اتِّجاه حُجرة المبيت، ولحظة أن بلغاها دوَّى انفجار مكتوم من الخلف رجَّ المبنى رجًّا.

وجدَت لايرا الفتيات الأخريات فرَرن والغُرفة خاليةً، وجرَّت الخزانة إلى الرُّكن وقفزَت فوقها وسحبَت ثيابها الثَّقيلة من السَّقف متحسِّسةً الأليثيوميتر، لتجده في مكانه. ارتدَت الثِّياب سريعًا وأنزلَت القلنسوة، ثم ناداها پانتالايمون العُصفور من عند الباب هاتفًا: «الآن!».

جرَت إلى الخارج، وتصادفَ أن بعضًا من الأطفال الذين وجدوا بعض الثِّياب الثَّقيلة بالفعل كانوا ينطلقون عبر الرُّواق نحو المدخل الرَّئيس، فانضمَّت إليهم متصبِّبةً عَرَقًا وقلبها يدقُّ بقوَّةٍ وهي تعلم أن عليها أن تفرَّ وإلَّا فهو الموت.

وجدوا الطَّريق مسدودًا إذ انتشرَ حريق المطبخ بسرعة، وسواء أكان الدَّقيق أم الغاز، فقد أسقطَ شيء ما جزءًا من السَّقف، والآن يتسلَّق النَّاس الأنابيب والمواسير الملتوية في سبيل الخروج إلى الهواء البارد القارس. رائحة الغاز في الجوِّ قويَّة، ثم دوَّى انفجار ثانٍ أصخب من الأول وأقرب، لتُسقِط صدمته عددًا منهم وتملأ صيحات الخوف والألم الهواء.

نهضَت لايرا بصعوبة، وبينما يصيح پانتالايمون: «من هنا! من هنا!» وسط صياح ورفرفة القُرناء الآخَرين، جرَّت نفسها فوق الرُّكام. الهواء الذي تتنفَّسه متجمِّد، وهو ما جعلَها تأمل أن

الأطفال استطاعوا العثور على ثياب خروج، فيا للمفارقة إذا هربوا من المحطّة ليموتوا بردًا بالخارج!

الحريق مستعرٌ الآن. حين خرجَت إلى السَّطح تحت سماء اللَّيل رأت ألسنة اللَّهب تلعق حواف ثغرةٍ ضخمة في جانب المبنى، وعند المدخل الرَّئيس حشد من الأطفال والبالغين، لكن البالغين هذه المرَّة أشد انفعالًا والأطفال أشد خوفًا، أشد خوفًا بكثير.

نادَت لايرا: «روچر! روچر!»، ونعبَ پانتالايمون النَّاظر بعينَي بومةٍ حادَّتين يُخبِرها بأنه يراه.

وبعد لحظةٍ عثرَ كلاهما على الآخَر.

زعقَت لايرا في أُذنه: «قُل لهم أن يأتوا معي جميعًا!».

- «لن يفعلوا... إنهم مذعورون...».

- «أخبِرهم بما يفعلونه بالأطفال الذين يختفون! إنهم يقطعون قُرناءهم عنهم بسكِّينٍ كبير! أخبِرهم بما رأيته اليوم... القُرناء الذين أخرجناهم! قُل لهم إن هذا هو ما سيَحدُث لهم أيضًا ما لم يَهرُبوا!».

حملقَ روچر مفزوعًا، لكنه استجمعَ هدوءه وأسرعَ إلى أقرب مجموعةٍ من الأطفال المتردِّدين، وفعلَت لايرا المِثل.

وإذ انتشرَت الرِّسالة بين الأطفال، صاحَ بعضهم وقبضوا على قُرنائهم خوفًا.

هتفَت لايرا: «تعالوا معي! النَّجدة في الطَّريق! يجب أن نَخرُج من هنا! هلمُّوا، اجروا!».

سمعَها الأطفال وتبعوها متدفِّقين من السَّاحة المسيَّجة نحو درب الأضواء، تُطَقطِق أحذيتهم وتصرُّ في الثَّلج الكثيف.

من ورائهم كان الكبار يزعقون، وصدرَ هدير وارتطام مع انهيار جزءٍ آخَر من المبنى، وانبثقَ الشَّرر في الهواء وجاشَ اللَّهب بصوتٍ كقُماشٍ يتمزَّق. لكن صوتًا آخَر اخترقَ كلَّ هذا، صوتًا عنيفًا قريبًا جدًّا لم تسمعَه لايرا من قبل، وإن تعرَّفته في الحال. إنه عُواء الذِّئبات قرينات الحرس التَّرتريِّين. انتابَها الوهن من قمَّة رأسها إلى أخمص قدميها، والتفتَ أطفال كثيرون خائفين وتوقَّفوا متعثِّرين، فبخُطى متواثبة سريعة متَّزنة ظهرَ أول حارس ترتري شاكًّا بندقيَّته، وإلى جواره قرينته الشَّهباء القويَّة تَركُض.

ثم ظهرَ آخَر، وآخَر، يرتدون جميعًا قمصانًا من الحلقات المعدنيَّة المبطَّنة، وليست لهم أعيُن... على الأقل أعيُن تُرى خلف فتحات الرُّؤية في خوذاتهم. الأعيُن الوحيدة المرئيَّة هي أطراف أسطوانات بنادقهم السَّوداء المستديرة، وأعيُن الذِّئبات الصَّفراء المتَّقدة فوق اللُّعاب المتساقط من فكوكهن.

وأرتِجَ على لايرا التي لم تتخيَّل قَطّ قدر الرُّعب الذي تُولِّده هاته الذِّئبات. والآن وقد صارَت على درايةٍ بالبساطة التي يخرقون بها التابو العظيم في بولڤانجار، نكصَت فزعًا من فكرة إطباق هذه الأسنان المتقاطر منها اللُّعاب عليها...

جرى التَّرتار ليقفوا صفًّا في مدخل درب الأضواء، إلى جوارهم قريناتهم المنضبطات المدرَّبات مثلهم تمامًا. في غضون دقيقةٍ أخرى سيتكوَّن صفٌّ آخَر، لأن المزيد قادمون، والمزيد وراءهم. بيأسٍ فكَّرت لايرا: الأطفال لا يستطيعون قتال الجنود. لا يُشبِه الأمر معارك أحواض الصَّلصال في أكسفورد، عندما كانت تَرجُم أولاد صانعي القرميد بكُتل الطِّمي.

أو لعلَّ هناك شبهًا! تذكَّرت ابن صانع قرميدٍ ألقَت ملء قبضتها من الصَّلصال في وجهه العريض حين انقضَّ عليها، فتوقَّف ليُنظِّف عينيه منه بأظفاره، وانقضَّ عليه أطفال البلدة.

حينئذٍ كانت واقفةً في الوحل، والآن تقف في الثَّلج.

وتمامًا كما فعلَت اليوم بعد الظُّهر، ولكن بجدِّيَّةٍ مميتة الآن، التقطَت حفنةً من الثَّلج وألقتها في وجه أقرب جُندي صائحةً: «اضربوهم في أعيُنهم!»، ثم ألقَت واحدةً أخرى.

انضمَّ إليها أطفال آخَرون، ثم خطرَت لقرين أحدهم فكرة أن يتحوَّل إلى طائر سَمامة ويطير إلى جوار كُرة الثَّلج ويكزها في فتحتَي رؤية الهدف مباشرةً... وعندها انضمَّ الجميع إلى الهجوم، وخلال لحظاتٍ قليلة كان التَّرتار يتعثَّرون ويَبصُقون ويشتمون محاولين إزاحة الثَّلج الكثيف من الثَّغرات الضيِّقة أمام أعيُنهم.

صرخَت لايرا: «هلمُّوا!»، وألقَت نفسها نحو البوَّابة وإلى درب الأضواء.

وتدفَّق الأطفال جميعًا في أعقابها متفادين فكوك الذِّئبات ومنطلقين بأقصى سرعتهم في الدَّرب صوب الظُّلمة المفتوحة المشيرة إليهم أن تعالوا.

صدرَت صرخة خشنة من الخلف إذ زعقَ ضابط بأمرٍ ما، ثم تحرَّكت ترابيس عشرين من البنادق في آنٍ واحد، ثم صدرَت صرخة أخرى تبعَها صمت متوتِّر لا يتخلَّله إلَّا دقَّات أقدام الأطفال على الأرض وأنفاسهم اللَّاهثة.

إنهم يُسدِّدون إليهم البنادق، ولن يُخطئوا التَّصويب.

لكن قبل أن يُطلِقوا النَّار أطلقَ أحد التَّرتار شهقةً مخنوقةً، وأطلقَ آخَر صيحةً مبهوتةً.

التفتَت لايرا لترى رجلًا منطرحًا في الثَّلج وفي ظَهره سهم رمادي الرِّيشة. كان يتلوَّى ويختلج ويَسعُل دمًا، والجنود الآخَرون يتلفَّتون يمينًا ويسارًا بحثًا عن مصدر السَّهم، إلَّا أن الرَّامي لا أثر له.

ثم جاءَ سهم آخَر من السَّماء مباشرةً وأصابَ رجلًا ثانيًا في مؤخِّرة رأسه ليَسقُط على الفور.

ثم صيحة من الضَّابط نظرَ على إثرها الجميع إلى السَّماء المظلمة.

قال پانتالايمون: «ساحرات!».

وهُن كذلك... أشكال سوداء رشيقة سمِلة تُحلّق مسرعةً أعلاهم، وهسيس الهواء وهفيفه عبر إبر الصَّنوبر السَّحابي في الفروع التي يركبنها. وإذ شاهدَت لايرا انخفضَت واحدة منهن وأطلقَت سهمًا أسقطَ رجلًا آخَر.

وعندها صوَّب جميع الجنود التَّرتار بنادقهم إلى أعلى وأطلقوها في الظَّلام، أطلقوها على اللا شيء، على الظِّلال، على السُّحب، وانهمرَت عليهم سهام أكثر فأكثر.

لكن الضَّابط المسؤول، وقد رأى الأطفال على وشك الابتعاد، أمرَ فِرقةً بملاحقتهم. صرخَ بعض الأطفال، ثم صرخَ المزيد منهم، ولم يَعُد أحد يتحرَّك، بل يتقهقَرون مرتبكين وقد أرعبَهم الجسم الوحشي الهائل المندفع نحوهم من الظُّلمة وراء درب الأضواء.

وصاحَت لايرا وقلبها يكاد ينفجر سرورًا: «يوريك برنيسن!».

في هجمته بدا كأن الدُّب المدرَّع لا يعي وجود أيِّ وزنٍ إلَّا ما يمنحه دفعةً، وقد مرَّ بلايرا بسرعةٍ جعلته يبدو كلطخةٍ من الضَّباب، وارتطمَ بالتَّرتار مبعثرًا الجنود والقرينات والبنادق في كلِّ اتِّجاه، ثم إنه توقَّف ودارَ بقوَّةٍ رشيقة وهوى بضربتين هائلتين على جانبيه مطيحًا بالجنود الأقرب إليه.

انقضَّت عليه قرينة ذئبة، فضربَها في الهواء وتدفّقت منها نار ساطعة إذ سقطَت في الثّلج حيث هسهسَت وعوَت قبل أن تتلاشى، وماتَ إنسانها من فوره.

لم يتردَّد الضَّابط التَّرتري حين وجدَ نفسه في مواجهة الهجوم المزدوج، ورفعَ عقيرته بصرخةٍ طويلة من الأوامر لتنقسم قوَّته قسمين، يُقاوِم أحدهما السَّاحرات ويتغلَّب الثَّاني الأكبر على الدُّب. وجُنده هؤلاء بالغو الشَّجاعة والإقدام، وقد خرَّ كلٌّ منهم على رُكبةٍ واحدة في مجموعاتٍ من أربعة وأطلقوا النَّار من بنادقهم كأنهم في تمرين رماية، لا يتزحزحون بوصةً رغم انقضاض يوريك بجسمه الهائل عليهم... وبعد لحظةٍ صاروا موتى.

وضربَ يوريك ثانيةً، يلتوي إلى الجانب ويقطع ويُزَمجِر ويسحق فيما تتطايَر الطَّلقات حوله كالدَّبابير أو الذُّباب ولا تُؤذيه على الإطلاق.

حثَّت لايرا الأطفال على التَّقدُّم إلى الظَّلام وراء الأضواء. يجب أن يبتعدوا، فعلى الرغم من خطورة التَّرتار فإن كبار بولڤانجار أخطر كثيرًا. وهكذا نادَت وأشارَت ودفعَت كي يتحرَّك الأطفال، وإذ ألقَت الأضواء من ورائهم ظلالًا طويلةً على الثَّلج وجدَت لايرا فؤادها يندفع صوب ظلام اللَّيل القُطبي العميق وبرده النَّظيف، يثب إلى الأمام ليحبَّه على غرار پانتالايمون الذي تحوَّل إلى أرنبٍ برِّي يتلذَّذ باندفاعه.

قال أحدهم: «أين نذهب؟».

- «لا شيء هنا إلَّا الثَّلج!».

أخبرَتهم لايرا: «هناك فِرقة إنقاذٍ في الطَّريق تضمُّ خمسين چيپتيًّا أو أكثر. أراهنُ أن بعضهم من أقربائكم كذلك. كلُّ العائلات الچيپتيَّة التي فقدَت طفلًا أرسلَت أحدًا».

قال صبي: «أنا ما چيپتي».

- «لا يهمُّ. سيأخذونكم على كلِّ حال».

سألَها أحدهم بتذمُّر: «إلى أين؟».

- «الدِّيار. لهذا جئتُ إلى هنا، لأنقذكم، وجلبتُ الچيپتيِّين ليأخذوكم إلى دياركم ثانيةً. علينا فقط أن نتقدَّم قليلًا ثم سنجدهم. الدُّب كان معهم، أي أنهم ليسوا بعيدين».

كان أحد الصِّبية يقول: «أرأيتم ذلك الدُّب؟! عندما شقَّ جسم تلك القرينة... ماتَ الرَّجل كأن أحدًا انتزعَ قلبه، بهذه البساطة!».

علَّق آخَر: «لم أكن أعلمُ أن القُرناء قابلون للقتل».

الآن يتكلَّمون جميعًا وقد أطلقَت الإثارة والارتياح ألسنتهم. ما داموا يتقدَّمون فلا يهمُّ أن يتكلَّموا.

تساءلَت فتاة: «أما قيلَ عمَّا يفعلونه هناك صحيح؟».

قالت لايرا: «أجل. لم أحسب قَطّ أني سأرى إنسانًا من دون قرينه، لكن في الطّريق إلى هنا وجدنا صبيًّا بمفرده بلا قرينة. ظلَّ يسأل عنها، أين هي، وإن كانت ستجده مجدَّدًا. كان اسمه توني مكاريوس».

قال أحدهم: «أنا أعرفه!»، وانضمَّ آخَرون إليه قائلين: «نعم، لقد أخذوه منذ نحو أسبوع...».

عالمةً تأثير هذا عليهم، قالت لايرا: «لقد قطعوا عنه قرينته، وبعد فترةٍ قصيرة من عثورنا عليه ماتَ. وكلُّ القُرناء الذين قطعوهم احتفظوا بهم في مبنى مربَّع هناك».

قال روچر: «صحيح، ولايرا أطلقَت سراحهم خلال تمرين الحريق».

أضافَ بيلي كوستا: «نعم، لقد رأيتهم! لم أعرف ماهيتهم في البداية، لكنني رأيتهم يطيرون مبتعدين مع ذلك الإوز».

سألَ أحد الصِّبية: «لكن لماذا يفعلون هذا؟ لماذا يقطعون قُرناء النَّاس؟ إنه تعذيب! لماذا يفعلون هذا؟».

قال أحدهم بريبة: «(الغُبار)».

لكن الصَّبي ضحكَ ساخرًا، وردَّ: «(الغُبار)! ما لشيء كهذا وجود! لقد اختلقوه ولا أومنُ بوجوده».

صاحَ واحد آخَر: «هناك، انظُروا ما يَحدُث للزِّپلن!».

نظروا إلى الوراء جميعًا، وبعد الأضواء السَّاطعة، حيث لا يزال القتال دائرًا، لم تَعُد السَّفينة الجوِّيَّة الطَّويلة طافيةً بحرِّيَّةٍ عند صاري الرَّسو، بل مالَ طرفها الحُر إلى أسفل، ومن ورائها ترتفع كُرة من...

صاحَت لايرا: «لي سكورزبي!»، وصفَّقت بيديها المقفَّزتين فرحةً.

تملَّكت الأطفال الآخَرين الدَّهشة، لكن لايرا قادَتهم إلى الأمام متسائلةً كيف استطاعَ الملَّاح الجوِّي قطع هذه المسافة الطَّويلة بمنطاده. ما يفعله واضح، ويا لها من فكرةٍ ممتازة أن يملأ منطاده بالغاز من منطادهم، فيفرَّ بالوسيلة نفسها التي يُعجِزهم بها عن ملاحقته!

قالت لايرا: «هلمُّوا، واصلوا الحركة وإلَّا تجمَّدتم»، ذلك أن عددًا من الأطفال كان يرتجف ويتأوَّه بردًا، في حين يصيح قُرناؤهم بأصوات رفيعة عالية.

وجدَ پانتالايمون هذا مزعجًا، وبتكوين ولڤرين نهرَ قرينًا سنجابًا لإحدى الفتيات استلقى على كتفها يئنُّ بوهن، وزمجرَ فيه: «ادخُل في معطفها! كبِّر نفسك ودفِّئها!»، ليزحف قرين الفتاة خائفًا داخل معطفها الحريري من فوره.

المشكلة أن الحرير الفحمي لا يُدفِّئ كالفرو الحقيقي مهما كان مبطَّنًا بألياف الحرير الفحمي الجوفاء، فبدا بعض الأطفال ككُراتٍ سائرة من الفطر المنتفخ، لكن ملابسهم مصنوعة في مصانع ومعامل بعيدة عن البرد، بحيث لا تقيهم إياه حقًّا. أمَّا ثياب لايرا فبالية وكريهة الرَّائحة، إلَّا أن الدِّفء لم يتسرَّب منها.

همسَت لپانتالايمون: «إن لم نَعثُر على الچيپتيِّين قريبًا فلن يتحمَّلوا».

ردَّ همسًا: «واصِلي تحريكهم إذن. إذا استلقوا في الثَّلج انتهى أمرهم. تعلمين ما قاله فاردر كورام...».

كان فاردر كورام قد حكى لها حكاياتٍ كثيرةً عن رحلاته في الشَّمال، وكذا المسز كولتر... باعتبار أن حكاياتها حقيقيَّة، لكن كليهما كان واضحًا تمامًا بصدد مسألةٍ واحدة، أن عليك مواصلة الحركة.

سألَ صبيٌّ صغير: «كم علينا أن نمشي؟».

قالت فتاة: «إنها تجعلنا نمشي هنا لتَقتُلنا».

وقال أحدهم: «أفضل أن نكون هنا من هناك».

- «كلَّا! المحطَّة دافئة. هناك طعام وشراب ساخن وكلُّ شيء».

- «لكنها تحترق!».

- «ماذا سنفعل هنا؟ أراهنُ أننا سنموت جوعًا».

كان عقل لايرا مليئًا بالأسئلة المظلمة الطَّائرة فيه كالسَّاحرات، سريعة وغير ملموسة، وفي مكانٍ ما بعيدًا عن متناولها ثمَّة شعور بالمجد والإثارة لم تستوعبه على الإطلاق.

على أنه بثَّ فيها دفقةً من القوَّة، وسحبَت فتاةً من فوق كومة ثلجٍ ودفعَت صبيًّا يتلكَّأ، وصاحَت في الجميع: «واصِلوا الحركة! اتبعوا آثار الدُّب! لقد جاءَ مع الچيپتيِّين، ولذا ستقودنا آثاره إليهم! واصِلوا الحركة!».

بدأت رقائق كبيرة من الثَّلج تَسقُط، وسرعان ما ستُغطِّي آثار يوريك برنيسن بالكامل. الآن وقد غابَت عنهم أضواء بولڤانجار وصارَ الحريق المستعر مجرَّد وهجٍ خابٍ، لم يَعُد من ضوءٍ إلَّا البريق الخافت المنبعث من الأرض المكسوَّة بالثُّلوج، وقد غطَّت سُحب كَثيفة السَّماء حاجبةً القمر وأضواء الشَّمال. لكن بالتَّحديق من كثبٍ استطاعَ الأطفال تحديد الآثار العميقة التي حرثَها يوريك برنيسن في الثَّلج.

شجَّعتهم لايرا، وهدَّدت، وضربَت، وسندَت، وشتمَت، ودفعَت، وجرَّت، ورفعَت برفق. فعلَت المطلوب أيًّا كان، وأخبرَها پانتالايمون -الذي لحظَ حالة قرين كلِّ طفل- بما تحتاج إلى فعله في كلِّ حالة.

وظلَت تُحدِّث نفسها قائلةً: سآخذهم إلى برِّ الأمان. لقد جئتُ إلى هنا لأنقذهم ولسوف أنقذهم.

كان روجر يحذو حذوها، وبيلي كوستا يقود الطَّريق لكونه أحد بصرًا من معظمهم، لكن سرعان ما أمسى الثَّلج يَسقُط بكثافةٍ جعلَت بعضهم يتمسَّك ببعضٍ كي لا يتوهوا، وفكَّرت لايرا: ربما إذا استلقينا على مقربةٍ من بعضنا بعضًا... أو صنعنا حُفرًا في الثَّلج...

الآن تسمع أشياء. في مكانٍ ما هدير محرِّك، لكنه ليس صوت الزِّپلن الثَّقيل المكتوم وإنما شيء أعلى كطنين الزُّنبور، وقد أخذَ يغيب عن سمعها ويعود.

وعُواء... كلاب؟ كلاب مزلجات؟ لكنه أبعد من أن تستوثِق منه وقد كتمَته ملايين من نُدف الثَّلج وذرَته في هذا الاتِّجاه وذاك هبَّات الرِّيح الصَّغيرة. قد تكون كلاب مزلجات الچيپتيِّين، وقد تكون أرواح التندرا البرِّيَّة، أو حتى القُرناء الذين تحرَّروا يَصرُخون منادين أطفالهم.

الآن ترى أشياء. ليس في الثَّلج أضواء، أليس كذلك؟ مؤكَّد إذن أنها أشباح... ما لم يكونوا قد داروا حول أنفُسهم وعائدون إلى بولڤانجار.

لكن هذه أشعَّة قناديل صفراء صغيرة لا وهج الأضواء العنبريَّة السَّاطع، كما أنها تتحرَّك، والعُواء الآن أقرب، وقبل أن تعرف يقينًا إن كانت قد غابَت في النَّوم، وجدَت لايرا نفسها بين أشخاص مألوفين ورجال يرتدون الفراء يسندونها. رفعَتها ذراع چون فا القويَّة عن الأرض، وضحكَ فاردر كورام مسرورًا، وعلى مدى بصرها في العاصفة الثَّلجيَّة كان الچيپتيُّون يرفعون الأطفال إلى المزلجات ويُغطُّونهم بالفرو ويُعطونهم لحم الفقمات ليَمضُغوه. وها هو ذا توني كوستا، يُعانِق بيلي ثم يدفعه برفقٍ قبل أن يُعانِقه ثانيةً ويهزُّه هزًّا من فرط السَّعادة. وروچر...

قالت لفاردر كورام: «روچر سيأتي معنا. هو من قصدتُ إنقاذه في المقام الأول. سنرجع إلى چوردان في النِّهاية. ما هذه الضَّوضـ...».

هذا الهدير ثانيةً، هذا المحرِّك، كذُبابة تجسُّسٍ أصابَها الجنون لكن حجمها يَبلُغ عشرة آلاف ضِعف.

وفجأةً هوَت ضربة طرحَتها أرضًا، ولم يستطِع پانتالايمون الدِّفاع عنها، لأن القرد الذَّهبي...

المسز كولتر...

كان القرد الذَّهبي يُصارِع پانتالايمون، يعضُّه، يخمشه، وپانتالايمون يتنقَّل بين تكويناتٍ عديدة لدرجةٍ تُصعِّب رؤيته، ويُقاوِم، ويلدغ، ويضرب، ويُمزِّق.

وفي تلك الأثناء كانت المسز كولتر تجرُّ لايرا إلى مزلجةٍ آليَّة، على وجهها تحت الفرو نظرة عزمٍ متجمِّدة، ولايرا تُقاوِم بعُنفٍ كقرينها. كان الثَّلج كثيفًا للغاية حتى إنهم بدوا معزولين في عاصفتهم الثَّلجيَّة الخاصَّة، والضَّوء العنبري من مقدِّمة المزلجة لا يُظهِر شيئًا أبعد من نُدف الثَّلج الدَّائرة في الهواء على بُعد بوصاتٍ معدودة.

- «النّجدة!». صرخَت بها لايرا منادية الچيپتيّين القريبين في الثّلج المُعمي ولا يرون شيئًا. «ساعِدوني! فاردر كورام! لورد فا! أوه، ربَّاه، النَّجدة!».

رفعَت المسز كولتر عقيرتها بأمرٍ بلُغة التّرتار الشَّماليّين، وانشقَّ الثّلج الدَّائر وها هُم أولاء، فِرقة منهم مسلَّحة بالبنادق، ومعهم القرينات الذِّئبات يُزَمجِرن. رأى رئيسهم المسز كولتر تُصارِع، فرفعَ لايرا بيدٍ واحدة كأنها دُمية وألقاها داخل المزلجة حيث انطرحَت مصعوقةً دائخةً.

انطلقَت بندقيَّة ثم أخرى إذ أدركَ الچيپتيُّون ما يَحدُث... لكن إطلاق النَّار على هدفٍ لا تراه خطر عندما لا يُمكنك رؤية مَن في صفِّك أنفُسهم، والآن تمكَّن التَّرتار المحتشدون في مجموعةٍ مُحكمة حول المزلجة من إطلاق النَّار كما يشاؤون في الثَّلج، فيما لم يجرؤ الچيپتيُّون على الرَّدِّ خشية أن يُصيبوا لايرا.

يا للمرارة التي شعرَت بها! يا للقنوط!

دائخةً لا تزال وفي رأسها رنين، رفعَت لايرا نفسها لترى پانتالايمون ما زالَ مشتبكًا مع القرد في القتال، وقد أطبقَ بشدَّةٍ بفكَّي وولڤرين على الذِّراع الذَّهبيَّة، وكفَّ عن التَّبدُّل وتمسَّك بشراسة.

ومَن هذا؟

أهو روچر؟

نعم، روچر، يضرب المسز كولتر بقبضتيه وقدميه، يضرب رأسها برأسه، فقط ليُسقِطه ترتري أطاحَ به كمَن يذبُّ ذُبابةً.

الآن كلُّ شيءٍ سلسلة من الأوهام؛ أبيض، أسود، غشاوة خضراء سريعة عبرَت مجال بصرها، ظلال مشوَّهة، أضواء منطلقة...

رفعَت دوَّامة هائلة حُجب الثُّلوج جانبًا، وفي المنطقة الخالية وثبَ يوريك برنيسن مصحوبًا بجلجلة وصرير الحديد على الحديد، وبعد لحظةٍ اندفعَ الفكَّان العظيمان يسارًا ويمينًا، ومزَّقت كفٌّ قميصًا معدنيًّا والصَّدر أسفله، وأسنان بيضاء، وحديد أسود، وفرو أحمر مبتل...

ثم إن شيئًا ما بدأ يسحبها إلى أعلى، بقوَّةٍ إلى أعلى، فأطبقَت على روچر منتزعةً إياه من يدَي المسز كولتر ومتمسِّكةً به بشدَّة، وقد تحوَّل قرينا كلا الطِّفلين إلى طائرٍ صادح يُرَفرِف مذهولًا فيما احتوَتهم أجساد أخرى أعظم طائرة حولهم. ثم رأت لايرا في الهواء إلى جوارها ساحرةً، ظلًّا من تلك الظِّلال السَّوداء الرَّشيقة السَّمِلة الآتية من عنان السَّماء. كانت السَّاحرة دانيةً للغاية حتى إن بإمكانها لمسها، وفي يديها المكشوفتين قوس، وقد شدَّت ذراعيها الشَّاحبتين العاريتين (في هذا الهواء المتجمِّد!) لتسحب الوتر وتُطلِق سهمًا نفذَ من فتحة الرُّؤية في قلنسوة ترتري يَبعُد ثلاثة أقدامٍ فحسب...

واخترقَ السَّهم الرَّأس وخرجَ حتى منتصَفه من المؤخِّرة، وتلاشَت قرينة الرَّجل في منتصَف وثبتها قبل أن يرتطم هو بالأرض.

إلى أعلى! في الهواء رُفِعَت لايرا وروچر ودُفِعا، ووجدا نفسيهما متعلِّقين بأصابع تَضعُف بفرعٍ من الصَّنوبر السَّحابي، حيث تجلس ساحرة شابَّة بنعومةٍ مشدودة متوازنة، ثم إنها مالَت إلى اليَسار

ليلوح شيء ضخم فوق الأرض.

وهبطا متعثِّرين على الثَّلج إلى جوار منطاد لي سكورزبي.

نادى التكساسي: «اركبي بسرعة، واجلبي صديقكِ على الرَّحب والسِّعة. هل رأيتِ ذلك الدُّب؟».

رأت لايرا ثلاث ساحراتٍ يُمسِكن حبلًا مربوطًا حول صخرةٍ مثبِّتاتٍ كيس الغاز الطَّافي إلى الأرض، وصاحَت في روجر: «اركب!»، وقفزَت من فوق حافة السلَّة المغلَّفة بالجِلد لتَسقُط فوق كومة ثلجٍ بالدَّاخل. وبعد لحظةٍ سقطَ روجر فوقها، وفي اللَّحظة التَّالية دوَّت ضوضاء عاتية تجمع بين الخوار والزَّمجرة مزلزلةً الأرض.

صاحَ لي سكورزبي: «هلمَّ يا يوريك! اركب يا صاحبي القديم!»، ومن فوق جانب السلَّة جاءَ الدُّب ليصرَّ الخيزران ويلتوي الخشب بصوتٍ شنيع، وبلا إبطاءٍ خفضَ الملَّاح الجوي ذراعه معطيًا إشارةً، فأفلتَت السَّاحرات الحبل.

ارتفعَ المنطاد في الحال واندفعَ إلى أعلى في الهواء المليء بالثَّلج بسرعةٍ كادَت لايرا لا تُصدِّقها، وبعد لحظاتٍ اختفَت الأرض في الضَّباب، وإلى أعلى وأعلى ارتفعوا حتى إنها فكَّرت أن لا صاروخ من شأنه أن يُغادِر الكوكب بسرعةٍ تُباريهم، ثم قبعَت على أرضيَّة السلَّة متشبِّثةً بروجر وقد ضغطَهما تسارُع الصُّعود.

كان لي سكورزبي يُهلِّل ويضحك ويُطلِق صيحاتٍ تكساسيَّة صاخبةً فرحةً، في حين بدأ يوريك برنيسن يخلع درعه بهدوء، يدسُّ مخالبه ببراعةٍ في الأربطة ويحلُّها بلفَّةٍ هنا ولفَّةٍ هناك، قبل أن يضع القطع المنفصلة في كومة.

في مكانٍ ما بالخارج نمَّ هفيف الهواء عبر إبر الصَّنوبر السَّحابي وأردية السَّاحرات عن أنهن يُصاحِبنهم في أعالي الجو، وشيئًا فشيئًا استعادَت لايرا توازُنها وانتظام أنفاسها وضربات قلبها، واعتدلَت جالسةً ونظرَت حولها.

وجدَت السلَّة أوسع كثيرًا مما حسبَت. مصفوفة حول الحواف رفوف من الأدوات الفلسفيَّة، وثمَّة أكوام من الفراء وزُجاجات من الهواء المعبَّأ وتشكيلة من الأشياء الأصغر أو الأكثر تعقيدًا من أن تُدرِكها في الضَّباب الكثيف الذي يصعدون فيه.

تساءلَت: «أهذه سحابة؟».

- «قطعًا. دثِّري صديقكِ بالفراء قبل أن يتحوَّل إلى كُتلة جليد. الجوُّ بارد هنا، لكنه سيزداد برودةً».

- «كيف عثرتم علينا؟».

- «السَّاحرات. هناك سيِّدة ساحرة تُريد أن تتكلَّم معكِ. حين نَخرُج من السَّحابة سنُحدِّد إحداثيَّاتنا، وبعدها يُمكننا أن نجلس ونتبادَل الحكي».

قالت لايرا: «يوريك، شكرًا لمجيئك».

دمدمَ الدُّب واستقرَّ ليلعق الدَّم عن فروه. وزنه الثَّقيل يعني ميل السلَّة جانبًا، ولو أن هذا لا يهمُّ. كان روچر يَرمُقه بحذر، لكن يوريك برنيسن لم ينتبه إليه كأنه مجرَّد رقاقة ثلج. قنعَت لايرا بإمساك حافة السلَّة التي ترتفع حتى تحت ذقنها مباشرةً وهي واقفة، وحدَّقت بعينين متَّسعتين إلى دوَّامات السَّحابة.

وبعد ثوانٍ قليلة خرجَ المنطاد من السَّحابة وهو لا يزال يرتفع بسرعةٍ إلى السَّماوات.

ويا له من مشهد!

فوقهم مباشرةً ينتفخ المنطاد في قوسٍ ضخم، وأعلاهم وأمامهم تتَّقد الأورورا ببهاءٍ وروعةٍ لم ترَ لايرا لهما شبيهًا من قبل، تكاد تحتويهم فيصيرون جزءًا منها. مساحات عظيمة من الوهج ترتجف وتنشقُّ كأجنحة الملائكة الخافقة، وسيول من المجد المنير تنهمر على جروفٍ خفيَّة لتستقرَّ في بِركٍ دوَّارة أو تتدفَّق كشلَّالاتٍ هائلة.

شهقَت لايرا من المنظر، ثم إنها نظرَت إلى أسفل فرأت منظرًا آخَر يكاد يكون أعظم.

على مدى البصر، وحتى الأُفق في كلِّ اتِّجاه، يمتدُّ بحر مائج من الأبيض دون ثغرة. أي نعم ترتفع القمم الملساء وتنفتح الصُّدوع البُخاريَّة هنا وهناك، لكن غالبًا يبدو المشهد كأنه كُتلة واحدة مصمتة من الجليد، ومن أسفل ترتفع واحداتٍ ومثانيَ ومجموعاتٍ أكبر من الظِّلال السَّوداء الصَّغيرة، تلك الأجساد الرَّشيقة، ساحرات يركبن فروع الصَّنوبر السَّحابي.

طرن بسرعةٍ دون جهد وارتفعن صوب المنطاد مائلاتٍ يمينًا أو يسارًا ليُوجِّهن أنفُسهن، وطارَت واحدة منهن -الرَّامية التي أنقذَت لايرا من المسز كولتر- إلى جانب المنطاد مباشرةً، ورأتها لايرا بوضوحٍ للمرَّة الأولى.

شابَّة هي، أصغر سِنًّا من المسز كولتر، وحسناء، لها عينان خضراوان لامعتان، وترتدي كجميع السَّاحرات شرائط من الحرير الأسود، ولكن من دون فرو، من دون قلنسوةٍ أو قُفَّاز، وقد بدا أنها لا تحسُّ بالبرد على الإطلاق، وحول جبهتها سلسلة بسيطة من الزُّهور الحمراء الصَّغيرة. تمتطي السَّاحرة فرع الصَّنوبر السَّحابي كأنه جواد، وقد كبحَت سرعته بعيدًا عن نظرة لايرا المتعجِّبة بياردةٍ أو نحوها.

- «لايرا؟».

- «نعم! وأنتِ سيرافينا پكالا؟».

- «أنا هي».

رأت لايرا لماذا أحبَّها فاردر كورام، ولِمَ يكسر هذا قلبه كسرًا، على الرغم من أنها لم تكن تعرف هذا أو ذاك قبل لحظة. إنه يتقدَّم في السِّن، رجل هرِم مكسور، وهي ستظلُّ شابَّةً أجيالًا.

- «قارئ الرُّموز معكِ؟». تكلَّمت السَّاحرة بصوتٍ أشبه كثيرًا بغناء الأورورا البرِّي العالي، حتى إن لايرا سمعَت فحوى السُّؤال بصعوبةٍ من عذوبته.

- «نعم، إنه آمن في جيبي».

أخبرَتها خفقات جناحين عظيمين بوافدٍ جديد، ثم إذا به ينزلق على الهواء إلى جوارها، القرين الإوز الرَّمادي. حدَّث السَّاحرة باختصار، ثم ابتعدَ دائرًا في دائرةً واسعة حول المنطاد الذي استمرَّ في صعوده.

قالت سيرافينا پكالا: «الچيپتيُّون اجتاحوا بولڤانجار. لقد قتلوا اثنين وعشرين من الحرس وتسعةً من الطَّاقم، وأضرَموا النَّار في كلِّ جزءٍ من المباني لا يزال قائمًا. سيُدمِّرونها عن آخِرها».

- «وماذا عن المسز كولتر؟».

- «لا أثر لها».

- «والأطفال؟ هل أخذوا الأطفال كلَّهم بأمان؟».

- «الجميع. كلُّهم آمنون».

أطلقَت سيرافينا پكالا هتافًا ضاريًا لتدور ساحرات أخريات ويقتربن من المنطاد، ثم قالت: «مستر سكورزبي، الحبل إذا سمحت».

- «سيِّدتي، إنني في غاية الامتنان. ما زلنا نرتفع، وأظنُّ أننا سنظلُّ نرتفع بعض الوقت. كم واحدةً منكن يتطلَّب سحبنا شمالًا؟».

اكتفَت بقول: «نحن قويَّات».

ربطَ لي سكورزبي لفَّة من الحبل القوي بالحلقة الحديد المغطَّاة بالجِلد التي تجمع الحبال المسدلة حول كيس الغاز والمعلَّقة منها السلَّة نفسها، ولمَّا ثبَّت الحبل ألقى الطَّرف الآخَر إلى الخارج، وفي الحال اندفعَت ستُّ ساحراتٍ نحوه وأمسكنَه وبدأن يسحبن موجِّهاتٍ فروع الصَّنوبر السَّحابي صوب النَّجم القُطبي.

وإذ بدأ المنطاد يتحرَّك في ذلك الاتِّجاه جثمَ پانتالايمون على حافة السلَّة بتكوين خَطَّاف بحر، وخرجَت قرينة روچر لتَنظُر، لكنها سرعان ما عادَت إلى روچر الغائب في النَّوم، مِثله مِثل يوريك برنيسن. وحده لي سكورزبي مستيقظ، بهدوءٍ يَمضُغ سيجارًا رفيعًا ويُراقِب أدواته.

قالت سيرافينا پكالا: «إذن يا لايرا، أتعرفين لِمَ أنتِ ذاهبة إلى اللورد آزريل؟».

أجابَت لايرا بدهشة: «لآخذ إليه الأليثيوميتر بالطَّبع!».

لم تُفكِّر في هذا السُّؤال قَطّ، فغايتها واضحة. ثم إنها تذكّرت دافعها الأول الذي بدأت به قبل زمنٍ طويل جدًّا حتى إنه كادَ يغيب عن ذاكرتها.

- «أو... لأساعد على إطلاق سراحه. نعم. سنُساعِده على الهرب».

لكن الجواب بدا سخيفًا إذ لفظَته. الهرب من سڤالبارد؟ مستحيل!

أضافَت بعناد: «لنُحاوِل على الأقل. لماذا؟».

قالت سيرافينا پكالا: «أظنُّ أن هناك أشياء عليَّ إخبارك بها».

- «عن (الغُبار)؟».

هذا هو أول شيءٍ ترغب لايرا في معرفته.

- «نعم، بين أشياء أخرى. لكنكِ متعَبة الآن، والرِّحلة طويلة. سنتكلَّم حين تستيقظين».

تثاءبَت لايرا، وكان تثاؤبها من النَّوع الذي يُشقِّق الفكَّ ويُفجِّر الرِّئتين واستمرَّ دقيقةً تقريبًا، أو أن ذلك ما خُيِّلَ إليها، وعلى الرغم من مقاومتها فإنها لم تستطِع قهر النُّعاس الذي داهمَها. مدَّت سيرافينا پكالا يدها فوق حافة السلَّة ومسَّت عينيها، وإذ تهاوَت لايرا أرضًا حطَّ پانتالايمون إلى جوارها وتحوَّل إلى قاقوم وزحفَ إلى مكان نومه عند رقبتها.

وأرسَت السَّاحرة فرعها على سرعةٍ ثابتة إلى جوار المنطاد فيما تحرَّكوا شمالًا صوب سڤالبارد.

القسم الثَّالث

سڤالبارد



(18) ضباب وجليد

وضعَ لي سكورزبي بعض الفراء فوق لايرا، التي ضمَّت نفسها قُرب روچر واستلقيا نائميْن جنبًا إلى جنبٍ فيما انطلقَ المنطاد صوب القُطب، في حين تفقَّد الملَّاح الجوِّي أدواته بين الحين

والآخَر، وأخذَ يَمضُغ سيجاره الذي لا يُمكن أن يُشعِله أبدًا على هذه المقربة من الهيدروجين القابل للاشتعال، وأحكمَ إغلاق فرائه على جسده أكثر فأكثر، وبعد مرور دقائق عدَّة قال: «هذه الصَّغيرة مهمَّة للغاية، هَه؟».

أجابَت سيرافينا پكالا: «أكثر أهميَّةً مما ستعرف».

قال لي سكورزبي: «أيعني هذا أن أمامنا الكثير من السَّعي المسلَّح؟ عليكِ أن تفهمي أنني أتكلَّمُ باعتباري رجلًا عمليًّا يُريد أن يكسب رزقه. لا يُمكنني أن أتعرَّض للأذى أو أصاب بعدَّة طلقاتٍ ناريَّة دون تعويضٍ متَّفق عليه مسبقًا. لستُ أحاول الاستهانة بأهميَّة هذه الحملة، صدِّقيني يا سيِّدتي، لكن چون فا والچيپتيِّين نقدوني أجرًا يكفي لتغطية وقتي ومهاراتي والاستهلاك التَّقليدي للمنطاد، وهذا كلُّ شيء. لم يتضمَّن الأمر تأمينًا ضد الأعمال العُدوانيَّة. ودعيني أخبركِ يا سيِّدتي، حين نهبط بيوريك برنيسن في سڤالبارد سيُعَدُّ هذا عملًا عُدوانيًّا»، ثم بصقَ قطعةً من ورق الدُّخان من فوق جانب السلَّة مباشرةً، وختمَ كلامه قائلًا: «ولذا أودُّ أن أعرف ما يجب أن نتوقَّعه على سبيل الأضرار والاشتباكات».

ردَّت سيرافينا پكالا: «قد يقع قتال، لكنك قاتلت من قبل».

- «بالتَّأكيد، عندما نُقِدتُ أجرًا. لكن الحقيقة أنني حسبتُ الأمر مجرَّد اتِّفاق نقلٍ مباشر، وطلبتُ أجري بناءً على هذا. والآن أتساءلُ، بعد تلك المشاحنة الصَّغيرة بالأسفل، أتساءلُ إلى أيِّ حدٍّ تمتدُّ مسؤوليَّتي عن النَّقل؛ إن كنتُ سأضطرُّ إلى المجازفة بحياتي ومعدَّاتي في حربٍ بين الدِّببة على سبيل المثال، أو إن كان لهذه الصَّغيرة في سڤالبارد أعداء سريعو الغضب كالذين كانوا في بولڤانجار. كلُّ هذا أذكره على سبيل الحوار فحسب».

قالت السَّاحرة: «ليتني أستطيعُ الإجابة عن سؤالك يا مستر سكورزبي. كلُّ ما يُمكنني أن أقوله إننا جميعًا، السَّاحرات والبشر والدِّببة، متورِّطون في حربٍ بالفعل، ولو أن هذا ليس معلومًا للجميع. سواء أوجدت خطرًا في سڤالبارد أم طِرت منها دون أن يمسَّك أذى، فأنت مجنَّد بالفعل، تحت السِّلاح، جُندي».

- «حسن، يبدو لي هذا منطويًا على نوعٍ من العجلة. المفترَض أن يكون للرَّجل الخيار في حمل السِّلاح من عدمه».

- «ليس لدينا خيار في هذا مِثلما لا خيار لنا في مولدنا من عدمه».

- «أوه، لكنني أحبُّ أن يكون لي خيار. أحبُّ أن أختار الأعمال التي أؤدِّيها والأماكن التي أذهبُ إليها والطَّعام الذي آكله والصُّحبة التي أجلسُ وأتحاكى معها. ألا تتمنِّين أن يكون لكِ خيار من حينٍ إلى آخَر؟».

فكَّرت سيرافينا پكالا قليلًا، ثم قالت: «لعلَّنا لا نعني الشَّيء نفسه بالخيار يا مستر سكورزبي. السَّاحرات لا يملكن شيئًا، ولذا فلسنا مهتمَّاتٍ بحفظ قيمة الأشياء أو الكسب منها، وبالنِّسبة إلى الخيار بين شيءٍ وآخَر، فعندما تحيا عدَّة مئات من السِّنين فإنك تعلم أن كلَّ فُرصةٍ ستجيء ثانيةً. إن لنا

حاجاتٍ مختلفةَ. عليك أن تُصلِح منطادك وتُحافِظ على صيانته، وهو ما يُكلِّف وقتًا ومتاعب، وأنا أرى هذا، لكن كي نطير نحن فما علينا إلَّا أن نكسر فرعًا من الصَّنوبر السَّحابي. أيُّ فرعٍ يَصلُح، وهناك المزيد والمزيد. نحن لا نَشعُر بالبرد، ولذا لا نحتاج إلى ثيابٍ ثقيلة. وليست عندنا وسائل للمقايضة إلَّا التَّعاوُن المتبادَل. إذا احتاجَت ساحرة إلى شيءٍ ما فستُعطيه لها ساحرة أخرى، وإذا كانت هناك حرب علينا خوضها فلسنا نعدُّ التَّكلفة أحد العوامل التي تُقرِّر إن كان الصَّواب أن نُقاتِل أم لا. كما أن مدلول الشَّرف لا وجود له عندنا، على عكس الدِّببة على سبيل المثال. إهانة دُبٍّ فعل مميت، أمَّا عندنا فهي... شيء غير قابل للتَّصوُّر. كيف يُمكنك أن تهين ساحرةً؟ وماذا يهمُّ إن فعلت؟».

- «أتَّفقُ معكِ نوعًا في هذا. قد تكسر العِصي والحجارة عظمي، أمَّا المهاترات فلا تستأهل العراك. لكنني آملُ أنكِ ترين معضلتي يا سيِّدتي. إنني ملَّاح جوِّي بسيط، وأحبُّ أن أنهي عُمري مستريحًا؛ أشتري مزرعةً صغيرةً وبضعة رؤوسٍ من الماشية وبعض الخيول... لا بذخ كما ترين، لا قصر ولا عبيد ولا ذهب مكدَّسًا، فقط رياح المساء فوق حقل المريميَّة وسيجار وكأس من البربون ويسكي. المشكلة أن تلك الأشياء تُكلِّف نقودًا، وهكذا أطيرُ مقابل مال، وبعد كلِّ رحلةٍ أودعُ القليل من الذَّهب في بنك وِلز فارجز، وحينما أدَّخرُ ما يكفي يا سيِّدتي سأبيعُ هذا المنطاد وأحجزُ رحلةً على سفينةٍ بُخاريَّة إلى پورت جالڤستون، ولن أبارح الأرض بعدها أبدًا».

- «ثمَّة فرق آخَر بيننا يا مستر سكورزبي. السَّاحرة لا تقوى على هجران الطَّيران مِثلما لا تقوى على الكفِّ عن التَّنفُّس. طيراننا يعني أن نكون على سجيَّتنا تمامًا».

- «أرى هذا يا سيِّدتي، وأحسدكن عليه، لكنني لا أملكُ مصدر الرِّضا الذي تتمتَّعن به. الطَّيران عندي مجرَّد عمل، وأنا مجرَّد تقني، كأنني أعدِّلُ صمامات الغاز في محرِّكٍ أو أصلُ أسلاك دائرةٍ عنبريَّة. لكنني اخترتُ هذا، كان اختياري الحُرَّ، ولهذا أجدُ تلك الفكرة عن حربٍ لم يُخبِرني أحد بأمرها مزعجةً».

- «نزاع يوريك برنيسن مع ملكه جزء منها أيضًا، ومكتوبٌ على هذه الطِّفلة أن تلعب فيها دورًا».

- «تتكلَّمين عن القدر والمكتوب كأن كلَّ شيءٍ محدَّد سلفًا، وأنا لستُ واثقًا بأن ذلك يروقني أكثر مما يروقني كوني مجنَّدًا في حربٍ لم أعلم عنها شيئًا. أين إرادتي الحُرَّة إذن إذا سمحتِ؟ وهذه الطِّفلة تبدو لي متمتِّعةً بإرادةٍ حُرَّة أكثر من أيِّ أحدٍ عرفته. أتقولين لي إنها ليست أكثر من لُعبةٍ ميكانيكيَّة مضبوطة وموضوعة على طريقٍ لا يُمكنها تغييره؟».

قالت السَّاحرة: «جميعنا خاضعون للأقدار، لكن علينا جميعًا أن نتصرَّف كأننا لسنا كذلك وإلَّا متنا يأسًا. ثمَّة نبوءة غريبة عن هذه الطِّفلة. إن قدرها أن تجلب نهاية القدر، لكن عليها أن تفعل ذلك دون أن تعلم ما تفعله، كأن هذه طبيعتها لا قدرها. إذا أخبرَها أحد بما عليها أن تفعله فسيفشل كلُّ شيء، سيجتاح الموت العوالم أجمع وينتصر اليأس إلى الأبد. لن تعود الأكوان كلُّها أكثر من آلاتٍ متشابكة، عمياء خالية من التَّفكير، من المشاعر، من الحياة...».

نظرا إلى لايرا التي يحمل وجهها (الجزء الصَّغير منه الذي يريانه تحت قلنسوتها) تقطيبةً صغيرةً عنيدةً.

قال الملَّاح الجوِّي: «أظنُّ أن جزءًا منها يعرف هذا. إنها تبدو متأهِّبةً له على كلِّ حال. وماذا عن الصَّبي؟ أتدرين أنها قطعَت كلَّ ذلك الطَّريق لتُنقِذه من أولئك الأشرار؟ لقد كانا رفيقَي لعبٍ في أكسفورد أو في مكانٍ ما. أكنتِ تعرفين هذا؟».

- «نعم، كنتُ أعرفُ هذا. لايرا تحمل شيئًا باهظ القيمة، ويبدو أن الأقدار تستخدمها كمرسولٍ لتأخذه إلى أبيها، وهكذا قطعَت تلك المسافة كلَّها لتجد صديقها، غير عالمةٍ أن الأقدار هي ما جلبَ صديقها إلى الشَّمال، من أجل أن تتبعه وتأخذ شيئًا إلى أبيها».

- «هذه قراءتكِ للأمر، هَه؟».

للمرَّة الأولى بدا على السَّاحرة عدم اليقين، وأجابَت: «هكذا يبدو الأمر... لكننا لا نستطيع قراءة الظَّلام يا مستر سكورزبي. وارد جدًّا أن أكون مخطئةً».

- «وما الذي أقحمَكن في كلِّ هذا، إن كان لي أن أسأل؟».

- «أيًّا كان ما يفعلونه في بولڤانجار فقد شعرنا بخطئه من صميم قلوبنا. لايرا عدوَّتهم، ولذا فهي صديقتنا. لسنا نرى بوضوحٍ أكثر من هذا. لكن هناك أيضًا صداقة عشيرتي بشعب الچيپتيِّين، التي ترجع إلى إنقاذ فاردر كورام حياتي. إننا نفعل هذا نُصرةً لهم، وهُم مرتبطون بالتزاماتٍ نحو اللورد آزريل».

- «مفهوم. إذن فأنتن تسحبن المنطاد إلى سڤالبارد من أجل الچيپتيِّين. وهل تشمل تلك الصَّداقة سحبنا في طريق العودة؟ أم إن عليَّ انتظار هبوب رياحٍ مواتية والاعتماد على تسامُح الدِّببة في تلك الأثناء؟ مرَّةً أخرى يا سيِّدتي، إنني أسألُ فقط على سبيل الاستفسار الوُدِّي».

- «إذا استطعنا إعانتكم على العودة إلى ترولسند يا مستر سكورزبي فسنفعل، إلَّا أننا لا ندري ما سنلقاه في سڤالبارد. لقد أجرى ملك الدِّببة الجديد تغييراتٍ عدَّةً، والنُّهوج القديمة صارَت مكروهةً. قد يكون الهبوط هناك صعبًا. كما أنني أجهلُ كيف ستجد لايرا طريقها إلى أبيها، وأجهلُ ما يُفكِّر يوريك برنيسن في فِعله. كلُّ ما أعلمه أن قدره مرتبط بقدرها».

- «أنا أيضًا أجهلُ هذا وذاك يا سيِّدتي. أظنُّ أنه ربطَ نفسه بالصَّغيرة باعتباره حاميًا. لقد ساعدَته على استرداد درعه. مَن يدري ما يَشعُر به الدِّببة؟ لكن إن كان يُمكن لدُبٍّ أن يحبَّ بشريًّا فإنه يحبُّها. أمَّا الهبوط في سڤالبارد فلم يكن سهلًا قَطُّ، ومع ذلك إن كان بإمكاني أن أطلبكن لسحبي في الاتِّجاه الصَّحيح فسيرتاح عقلي بعض الشَّيء، وإن كان بإمكاني أن أسدي إليكن أيَّ صنيعٍ في المقابل فما عليكِ إلَّا أن تَطلُبي. لكن الآن، لكي أعرف فقط، هلَّا أخبرتِني في صفِّ مَن أنا في تلك الحرب الخفيَّة؟».

- «كلانا في صفِّ لايرا».

- «أوه، دون شك».

واصَلوا التَّحليق، وبسبب السُّحب أسفلهم لم يكن هناك سبيل إلى معرفة السُّرعة التي يتحرَّكون بها. عادةً -بالطَّبع- يظلُّ المنطاد ثابتًا بالنِّسبة إلى الرِّيح، يطفو بالسُّرعة نفسها التي يتحرَّك بها الهواء، لكن الآن والسَّاحرات يسحبنه يتحرَّك المنطاد عبر الهواء لا معه، ويُقاوِم الحركة أيضًا لأن كيس الهواء صعب الانقياد لا يتمتَّع بشيءٍ من نعومة حركة الزِّپلن وانسيابيَّتها، ومن جرَّاء هذا ما انفكَّت السلَّة تتمايَل في هذا الاتِّجاه وذاك، تتأرجَح وترتجُّ أكثر كثيرًا مما كانت لتفعل في رحلةٍ تقليديَّة.

لم يكن لي سكورزبي مهتمًّا براحته قدر اهتمامه بأدواته، وقد أمضى بعض الوقت في التَّأكُّد من كونها مربوطةً بأمانٍ بالدِّعامات الأساسيَّة. طبقًا لمقياس الارتفاع فإنهم يرتفعون قُرابة العشرة آلاف قدم، أمَّا درجة الحرارة فسالب 20. سبقَ للملَّاح الجوِّي أن شعرَ ببردٍ أشد من هذا، ولكن ليس كثيرًا، ولا يُريد أن يشتدَّ البرد عليه الآن، وهكذا فردَ الملاءة المصنوعة من قُماش الأشرعة التي يستخدمها للتَّخييم في حالات الطَّوارئ، وبسطَها أمام الطِّفلين النَّائمين ليقيهما الرِّيح، قبل أن يتمدَّد ظَهرًا إلى ظَهر يوريك برنيسن رفيقه القديم في القتال، ويغيب في النَّوم.

***

عندما استيقظَت لايرا كان القمر مرتفعًا في السَّماء، وكلُّ شيءٍ في مجال البصر مطليًّا بالفضِّي، من سطح السُّحب المتموِّج بالأسفل إلى حِراب الصَّقيع وكُتل الجليد على حبال المنطاد.

وجدَت روجر نائمًا، وكذا لي سكورزبي والدُّب، ولكن إلى جوار السلَّة تطير السَّاحرة الملكة بثبات.

سألَتها لايرا: «كم نَبعُد عن سڤالبارد؟».

- «إن لم تُقابِلنا ريح فسنكون فوق سڤالبارد خلال اثنتي عشرة ساعةً تقريبًا».

- «أين سنهبط؟».

- «حسب حالة الطَّقس. سنُحاوِل تفادي الجروف، فثمَّة كائنات هناك تفترس أيَّ شيءٍ يتحرَّك. إذا استطعنا فسنُنزِلكم بالدَّاخل، بعيدًا عن قصر يوفور راكنيسن».

- «ماذا سيَحدُث حين أجدُ اللورد آزريل؟ هل سيُريد العودة إلى أكسفورد أم ماذا؟ ولا أدري كذلك إن كان عليَّ أن أخبره بأنني أعرفُ أنه أبي. قد يُريد الاستمرار في ادِّعاء كونه عمِّي. إنني أكادُ لا أعرفه على الإطلاق».

- «لن يُريد العودة إلى أكسفورد يا لايرا. يبدو أن هناك شيئًا يجب فِعله في عالمٍ آخَر، واللورد آزريل هو الوحيد الذي يستطيع إقامة جسرٍ فوق الفجوة بين ذلك العالم وعالمنا، لكنه محتاج إلى شيءٍ يُساعِده».

قالت لايرا: «الأليثيوميتر! عميد چوردان أعطاني إياه، وبدا لي أنه أرادَ أن يقول لي شيئًا عن اللورد آزريل، لكن الفُرصة لم تسنح. أعرفُ أنه لم يُرِد أن يُسمِّمه حقًّا. هل سيقرأ الأليثيوميتر ليرى

كيف يصنع الجسر؟ أراهنُ أنني أستطيعُ مساعدته. على الأرجح يُمكنني قراءته ببراعة أيِّ أحدٍ الآن».

ردَّت سيرافينا پكالا: «لا أدري. كيف سيفعلها، وما مهمَّته، لسنا نعلم. ثمَّة قُوى تُحدِّثنا، وثمَّة قُوى فوقها، وثمَّة أسرار خفيَّة عن أعلى العالين أنفُسهم».

- «الأليثيوميتر سيُخبِرني! يُمكنني أن أقرأه الآن...».

لكن البرد قارس بحق، وما كانت لتستطيع الإمساك به أبدًا. لفّت نفسها بالفرو وأنزلت القلنسوة على وجهها أكثر لتقيه برودة الرِّيح، تاركةً فتحةً صغيرةً ترى منها. بعيدًا أمامهم، وأسفلهم قليلًا، يمتدُّ الحبل من حلقة التَّعليق بالمنطاد، وتسحبه ستٌّ أو سبع ساحرات جالسات على فروع الصَّنوبر السَّحابي، ومن فوقهم تَبرُق النُّجوم وقَّادةً باردةً صُلبةً كالماس.

- «لِمَ ما تَشعُرين بالبرد يا سيرافينا پكالا؟».

- «نحن نَشعُر بالبرد، لكنه لا يُزعِجنا لأنه لا يُؤذينا. وإذا دثَّرنا أنفُسنا وقايةً من البرد فلن نَشعُر بأشياء أخرى، كدغدغة النُّجوم السَّاطعة أو موسيقى الأورورا، أو -وهذا أفضل- الشُّعور الحريري بنور القمر على جِلدنا. كلٌّ هذا يستحقُّ أن نَشعُر بالبرد».

- «أيُمكنني أن أشعر بهذه الأشياء؟».

- «لا. ستموتين إذا خلعتِ فروكِ. ابقي متدثِّرةً».

- «كم تعيش السَّاحرات يا سيرافينا پكالا؟ فاردر كورام يقول مئات السِّنين، لكنكِ لا تبدين عجوزًا على الإطلاق».

- «سِنِّي ثلاثمئة عامٍ أو أكثر. أكبر ساحرةٍ أُم عندنا تُناهِز الألف عام. يومًا ما ستأتيها يامبي-آكا، ويومًا ما ستأتيني. إنها ربَّة الموتى التي تأتيكِ مبتسمةً عطوفًا، وعندئذٍ تعرفين أن أجلكِ قد حانَ».

- «أهناك سحرة رجال أم ساحرات فقط؟».

- «هناك رجال يخدموننا، كالقُنصل في ترولسند، وهناك رجال نتَّخذهم عُشَّاقًا أو أزواجًا. أنتِ صغيرة للغاية يا لايرا، أصغر من أن تفهمي هذا، لكنني سأخبركِ على كلِّ حال، وستفهمين لاحقًا. الرِّجال يمرُّون أمام أعيُننا كالفراشات، مخلوقات تعيش موسمًا عابرًا. نحن نحبُّهم، وهُم شُجعان وأبيُّون وجُملاء ومهرة... ويموتون في الحال تقريبًا، يموتون بسرعةٍ شديدة تُؤلِم أفئدتنا باستمرار. إننا نحمل أطفالهم، الذين يُصبِحون ساحراتٍ إن كانوا إناثًا أو بشرًا إن لم يكونوا، ثم في غمضة عينٍ يرحلون، يُصرَعون، يُقتَلون، يضيعون. وأبناؤنا كذلك. خلال نشأته يحسب الصَّبي الصَّغير نفسه خالدًا، لكن أمَّه تعلم أنه ليس كذلك، وكلُّ مرَّةٍ أشد ألمًا من سابقتها، وفي النِّهاية ينفطِر قلبكِ تمامًا. ربما تأتيكِ يامبي-آكا في ذلك الحين. إنها أقدم من التندرا. بالنِّسبة إليها قد تكون حياة السَّاحرات وجيزةً كحياة الرِّجال بالنِّسبة إلينا».

- «هل أحببتِ فاردر كورام؟».

- «نعم. هل يعرف هذا؟».

- «لا أعرفُ، لكنني أعرفُ أنه يحبُّكِ».

- «حين أنقذَني كان شابًّا قويًّا مفعمًا بالإباء والجَمال. لقد أحببته ذات يوم. كنتُ لأبدِّل طبيعتي، كنتُ لأهجر دغدغة النُّجوم وموسيقى الأورورا، كنتُ لأتخلَّى عن الطَّيران إلى الأبد... كنتُ لأترك كلَّ

هذا في لحظةٍ ودون تفكير، لأكون واحدةً من زوجات القوارب الچيپتيَّات وأطهو له وأشاركه فِراشه وأحمل أطفاله. لكنكِ لا تستطيعين تبديل طبيعتكِ، بل ما تفعلينه فقط. إنني ساحرة، وهو بشري. لقد بقيتُ معه وقتًا حتى حملتُ له طفلًا...».

- «لم يَذكُر ذلك قَطُّ! أكانت فتاةً؟ ساحرةً؟».

- «لا، كان صبيًّا، وقد ماتَ في الوباء العظيم الذي وقعَ قبل أربعين عامًا، المرض الذي جاءَ من الشَّرق. طفل صغير مسكين، دخلَ الحياة وخرجَ منها بسرعة ذُبابة مايو. مزَّق رحيله شغاف قلبي كما يَحدُث دومًا، وكسرَ قلب كورام. ثم بلغَني نداء العودة إلى قومي، لأن يامبي-آكا أخذَت أمِّي وأصبحتُ ملكة العشيرة، وهكذا غادرتُ رغمًا عني».

- «ألم تري فاردر كورام ثانيةً؟».

- «البتَّة، وإن سمعتُ بمآثره. سمعتُ أن السكريلينج أصابوه بسهمٍ مسموم، فأرسلتُ أعشابًا وتعاويذ تُساعِده على التَّعافي، لكنني لم أتمتَّع بالقوَّة الكافية لرؤيته. سمعتُ كم صارَ مكسورًا بعدها، وكيف نمَت حكمته ودرسَ وقرأ، وشعرتُ بالفخر به وبصلاحه. لكنني بقيتُ بعيدًا، لأنها كانت أوقاتًا خطرةً بالنِّسبة إلى عشيرتي، وكنا مهدَّداتٍ بحروبٍ بين السَّاحرات، كما أنني ظننتُ أنه سينساني ويجد زوجةً بشريَّةً...».

قالت لايرا بقوَّة: «لم ينسَكِ قَطُّ. يَجدُر بكِ أن تذهبي وتريه. إنه ما زالَ يحبُّكِ، أعرفُ هذا».

- «لكنه سيخجل من سِنِّه، ولستُ أرغبُ في إشعاره بذلك».

- «ربما، لكن يَجدُر بكِ أن تبعثي إليه برسالةٍ على الأقل. هذا رأيي».

لم تقل سيرافينا پكالا شيئًا لفترةٍ طويلة، فتحوَّل پانتالايمون إلى خَطَّاف بحرٍ وطارَ إلى فرعها لحظةً، ليقرَّ بأنهما ربما كانا وقحيْن.

ثم قالت لايرا: «لماذا للنَّاس قُرناء يا سيرافينا پكالا؟».

- «الكلُّ يسأل هذا، ولا أحد يعلم الجواب. طيلة وجود البشر كان لهم قُرناء. هذا ما يُميِّزنا عن الحيوانات».

- «أجل! نحن مختلفون عنهم بالفعل... مِثل الدِّببة. إنهم غريبون، أليس كذلك؟ الدِّببة. تحسبينهم كالأشخاص، وإذا بهم فجأةً يفعلون شيئًا شديد الغرابة أو العُنف يجعلكِ تحسبين أنكِ لن تفهميهم أبدًا... لكن أتدرين ما قاله لي يوريك؟ قال إن درعه بالنِّسبة إليه كالقرين بالنِّسبة إلى الإنسان، قال إنها روحه. لكنهم يختلفون في هذا أيضًا عنا، لأنه صنعَ درعه بنفسه. لقد أخذوا درعه الأولى حين نفوه، ووجدَ حديدًا سماويًّا وصنعَ درعًا جديدةً، كأنه صنعَ روحًا جديدةً. نحن لا نستطيع خلق قُرنائنا. ثم أسكرَه النَّاس في ترولسند بالكحول وسرقوا الدِّرع، ووجدتُ المكان الذي أخفوها فيه واستعادَها... لكن ما يجعلني أتساءلُ، لماذا يذهب إلى سڤالبارد؟ سوف يُقاتِلونه، وقد يَقتُلونه... إنني أحبُّ يوريك، أحبُّه كثيرًا حتى إنني أتمنَّى لو أنه لم يأتِ».

- «هل قال لكِ مَن هو؟».

- «اسمه فقط، والقُنصل في ترولسند هو مَن أخبرَنا به».

- «إنه كريم المحتد، أمير. الواقع أنه لو لم يرتكب جريمةً كُبرى لكان ملك الدِّببة الآن».

- «قال لي إن ملكهم اسمه يوفور راكنيسن».

- «يوفور راكنيسن أصبحَ ملكًا عندما نُفِيَ يوريك برنيسن. يوفور أمير بالطَّبع، وإلَّا لما سُمِحَ له بأن يَحكُم، لكنه يتمتَّع بذكاءٍ بشري، فيُقيم تحالُفاتٍ ويعقد معاهدات، ولا يعيش كالدِّببة في قلاعٍ جليديَّة وإنما في قصرٍ جديد، ويتكلَّم عن تبادُل السُّفراء مع أُمم البشر وتطوير مناجم النَّار بمساعدةِ مهندسين بشريِّين... إنه شديد المهارة والحذق. بعضهم يقول إنه استفزَّ يوريك ليرتكب الفَعلة التي نُفِيَ على إثرها، وبعضهم يقول إنه حتى لو لم يفعل ذلك حقًّا فإنه يُشجِّعهم على الاعتقاد به، لأنه يُضيف إلى سُمعة البراعة والدَّهاء التي يتمتَّع بها».

- «ما الذي فعلَه يوريك؟ اعلمي أن أحد الأسباب التي تجعلني أحبُّ يوريك أن أبي فعلَ ما فعلَه وعُوقِبَ. يبدو لي أنهما متشابهان. يوريك أخبرَني بأنه قتلَ دُبًّا آخَر، لكنه لم يَذكُر كيف حدثَ هذا».

- «كان القتال على دُبَّة. الذَّكر الذي قتلَه يوريك رفضَ إبداء العلامات المعتادة على الاستسلام على الرغم من وضوح تفوُّق يوريك في القوَّة. على الرغم من كبريائهم لا يعجز الدِّببة أبدًا عن إدراك القوَّة الأعلى في دُبٍّ آخَر والاستسلام لها، لكن لسببٍ ما لم يفعل هذا الدُّب ذلك. بعضهم يقول إن يوفور راكنيسن احتالَ على عقله، أو أعطاه أعشابًا تُسبِّب الارتباك ليأكلها. في جميع الأحوال، أصرَّ الدُّب الشَّاب على القتال وسمحَ يوريك برنيسن لغضبه بالتَّحكُّم فيه. لم يكن الحُكم في القضيَّة صعبًا. كان عليه أن يجرح لا أن يَقتُل».

قالت لايرا: «إذن لولا هذا لأصبحَ ملكًا. لقد سمعتُ شيئًا عن يوفور راكنيسن من پروفسور المذهب اليالماري في چوردان، لأنه زارَ الشَّمال وقابلَه. قال... ليتني أتذكَّرُ ما قاله... أظنُّ أنه ارتقى العرش بالخداع أو شيء من هذا القبيل... لكن يوريك أخبرَني مرَّةً بأن الدِّببة لا يُخدَعون، وأراني أنني لا أستطيعُ خداعه. يبدو كأن كليهما خُدِعَ، هو والدُّب الآخَر. ربما يستطيع الدِّببة وحدهم خداع الدِّببة، أمَّا البشر فلا. إلَّا أن... النَّاس في ترولسند خدعوه، أليس كذلك؟ حين أسكَروه وسرقوا درعه؟».

أجابَت سيرافينا پكالا: «ربما يُصبِح الدِّببة قابلين للخداع حين يتصرَّفون كالبشر، وربما لا عندما يتصرَّفون كالدِّببة. لا دُبَّ يشرب الكحول عادةً. يوريك برنيسن شربَ لينسى عار منفاه، وهذا فقط ما سمحَ لأهل ترولسند بخداعه».

أومأَت لايرا برأسها قائلةً: «آه، نعم». أرضَتها هذه الفكرة. إن إعجابها بيوريك يكاد لا يعرف حدودًا، وقد سرَّها أن تجد ما يُوكِّد نُبله. «تفكير ذكي منكِ. لم أكن لأعرف هذا لو لم تُخبِريني. أظنُّ أنكِ أذكى من المسز كولتر على الأرجح».

واصَلوا الطّيران، ولاكَت لايرا لحم الفقمة الذي وجدَته في جيبها، ثم قالت بعد بعض الوقت: «سيرافينا پكالا، ما هو (الغُبار)؟ لأن (الغُبار) يبدو لي سبب كلِّ هذه المتاعب، لكن أحدًا لم يُخبِرني بكنهه».

أخبرَتها سيرافينا پكالا: «لا أدري. السَّاحرات لم يقلقن بشأن (الغُبار) قَطُّ. كلُّ ما بوسعي أن أقوله إنه أينما كان رجال دين وُجِدَ الخوف من (الغُبار). المسز كولتر ليست رجل دينٍ بالطّبع، لكنها عميلة قويَّة لمجمع حماية العقيدة، وهي من أنشأت هيئة القرابين وأقنعَت الكنيسة بدفع تكاليف بولڤانجار، بسبب اهتمامها بـ(الغُبار). لا يُمكننا أن نفهم مشاعرها حياله، لكن هناك أشياء عديدةً لم نفهمها قَطُّ. إننا نرى التَّرتار يصنعون ثقوبًا في جماجمهم، وليس بإمكاننا إلَّا التَّعجُّب من هذا. وهكذا قد يكون (الغُبار) غريبًا ونتعجَّب منه، لكننا لا نُقلِق أنفُسنا ونُمزِّق الأشياء أشلاءً لنفحصه. اترُكي ذلك للكنيسة».

ردَّدت لايرا: «الكنيسة؟». شيء ما عادَ إلى ذاكرتها، وتذكَّرت كلامها مع پانتالايمون في الفينات عمَّا قد يُحرِّك إبرة الأليثيوميتر، وأنهما فكَّرا في طاحونة الصُّور على المذبح العالي في كلِّيَّة جابريِل، وكيف تُحرِّك الجُسيمات الأوليَّة الأرياش الصَّغيرة. كان المحقِّق هناك واضحًا بصدد العلاقة بين الجُسيمات الأوليَّة والدِّين. قالت مومئةً برأسها: «ربما. معظم المسائل الخاصَّة بالكنيسة يُبقونها سرًّا على كلِّ حال، لكن معظم مسائل الكنيسة قديمة، و(الغُبار) ما قديم على حدِّ علمي. أتساءلُ إن كان اللورد آزريل سيُخبِرني...».

ثم إنها تثاءبَت، وقالت لسيرافينا پكالا: «عليَّ أن أتمدَّد الآن وإلَّا تجمَّدتُ. سبقَ أن شعرت بالبرد على الأرض، ولكن ليس ببردٍ كهذا إطلاقًا. أظنُّ أنني سأموتُ إذا اشتدَّ البرد عليَّ».

- «تمدَّدي إذن وتدثَّري بالفرو».

قالت لايرا: «أجل، سأفعلُ هذا. إذا كنتُ سأموتُ فإنني حتمًا أوثرُ الموت هنا على الموت في بولڤانجار. لقد حسبتُ عندما وضعونا تحت ذلك النَّصل، حسبتُ أنها النِّهاية... كلانا حسبَ ذلك. أوه، كم كان هذا قاسيًا. لكننا سنتمدَّد الآن. أيقِظينا حين نصل»، ونزلَت على كومة الفراء شاعرةً بالتَّيبُّس والألم في جسدها كلِّه من البرد البليغ، وتمدَّدت قريبًا من روچر النَّائم قدر المستطاع.

وهكذا أبحرَ المسافرون الأربعة في الهواء وهُم نائمون في المنطاد المغلَّف بقشرةٍ من الجليد، نحو الصُّخور والأنهار المتجمِّدة ومناجم النَّار وقلاع الجليد في سڤالبارد.

***

نادَت سيرافينا پكالا الملَّاح الجوِّي فاستيقظَ من فوره مترنِّحًا من البرد، وإن أدركَ من حركة السلَّة أن شيئًا ما ليس على ما يُرام. كانت ترتجُّ بعُنفٍ إذ تنهال الرِّيح بضرباتها على كيس الغاز، والسَّاحرات اللائي يسحبن الحبل يُسَيطِرن عليه بالكاد. إذا تركنَه فسينحرف المنطاد عن الطَّريق في لحظة، وحسب النَّظرة التي ألقاها على البوصلة فسيجنحون نحو نوڤا زمبلا بسرعة مئة ميلٍ في السَّاعة تقريبًا.

سمعَته لايرا يزعق: «أين نحن؟». كانت مستيقظةً بالكاد عن نفسها، متوتِّرةً من جرَّاء الحركة وبردانة لدرجة أن كلَّ جزءٍ من جسدها مخدَّر.

لم تسمع إجابة السَّاحرة، لكن عبر قلنسوتها نِصف المغلقة، وفي ضوء مصباحٍ عنبري، رأت لي سكورزبي يُمسِك دعامةً ويجذب حبلًا يمتدُّ داخل كيس الغاز نفسه. جذبه بحدَّةٍ كأن هناك ما يُعيقه، ورفعَ ناظريْه إلى الظَّلام المضطرب قبل أن يلفَّ الحبل حول خابور في حلقة التَّعليق، ثم صاحَ لسيرافينا پكالا: «إنني أنفِّسُ نسبةً من الغاز! سنهبط. نحن مرتفعون للغاية».

صاحَت السَّاحرة بشيءٍ ما ردًّا، لكن لايرا لم تسمعه. كان روچر يستيقظ أيضًا، فصرير السلَّة وحده كفيل بإيقاظ المرء من أعمق نومة، ناهيك بالارتجاج والتَّخبُّط. تضامَّت قرينة روچر وپانتالايمون كقردَين من فصيلة القِشَّة، في حين ركَّزت لايرا على البقاء ثابتةً بدلًا من أن تثب من مكانها خوفًا.

على عكسها تمامًا، قال روچر بنبرةٍ مرحة: «لا تقلقي. ما إن نهبط سنُشعِل نارًا ونتدفَّأ. معي ثقاب في جيبي، سرقتها من المطبخ في بولڤانجار».

كان المنطاد ينخفض بكلِّ تأكيد، لأن سحابةً كثيفةً متجمِّدةً احتوَتهم بعد لحظات، وتطايرَ منها فُتات وخيوط عبر السلَّة، ثم احتجبَ كلُّ شيءٍ دُفعةً واحدةً وقد غلَّفهم أغلظ ضبابٍ رأته لايرا على الإطلاق. بعد لحظةٍ أو اثنتين صدرَت صيحة أخرى من سيرافينا پكالا، وحلَّ الملَّاح الجوي الحبل عن الخابور وتركَه، ليندفع إلى أعلى من بين يديه، وعلى الرغم من الصَّرير والتَّخبُّط وعُواء الرِّيح سمعَت لايرا أو شعرَت بخبطةٍ قويَّة من أعلى.

رأى لي سكورزبي اتِّساع عينيها، فقال: «صمام الغاز! إنه يعمل بزنبرك ليُبقي الغاز بالدَّاخل. حين أسحبه يتسرَّب القليل من الغاز من القمَّة، فنفقد الطَّفو وننخفض».

- «هل أوشكنا...».

لم تتمَّ سؤالها لأن شيئًا رهيبًا حدثَ. مخلوق بنِصف حجم رجل، له جناحان جِلديَّان ومخالب معقوفة، كان يزحف على جانب السلَّة نحو لي سكورزبي. رأت أن له رأسًا مسطَّحًا وعينين جاحظتين وفمًا ضفدعيًّا واسعًا، ومنه تنبعث رائحة شنيعة. لم تجد لايرا وقتًا لتَصرُخ قبل أن يمدَّ يوريك برنيسن يده ويلطم المخلوق، ليَسقُط من السلَّة صارخًا ويختفي.

قال يوريك باقتضاب: «مسخ جروف».

في اللَّحظة التَّالية ظهرَت سيرافينا پكالا وأمسكَت جانب السلَّة متكلِّمةً بنبرةٍ ملحَّة: «مسوخ الجروف يُهاجِموننا. سنهبط بالمنطاد، ثم علينا الدِّفاع عن أنفُسنا. إنهم...».

إلَّا أن لايرا لم تسمع بقيَّة عبارتها، لأنها سمعَت صوت تمزيقٍ صاخبًا ومالَ كلُّ شيءٍ إلى الجانب، ثم ألقَت ضربة مخيفة البشر الثَّلاثة على جانب السلَّة حيث درع يوريك برنيسن المكوَّمة. مدَّ يوريك كفًّا عظيمةً يُثبِّتهم مع اهتزاز السلَّة العنيف. أمَّا سيرافينا پكالا فاختفَت.

الضَّوضاء مروِّعة، وفوق كلِّ صوتٍ آخَر ارتفعَ صريخ مسوخ الجروف، ورأتهم لايرا يندفعون حولهم وشمَّت رائحتهم الكريهة.

ثم ارتجَّت السلَّة مرَّةً أخرى ارتجاجًا عنيفًا مباغتًا ألقَاهم جميعًا على الأرض، وبدأت السلَّة تهوي بسرعةٍ مرعبة وتدور حول نفسها بلا توقُّف. شعرَت لايرا كأنهم انفصلوا عن المنطاد، ويَسقُطون دون أن يحول دون سقوطهم شيء، ثم شعرَت بسلسلةٍ أخرى من الرجَّات والخبطات، والسلَّة تُلقى حثيثًا من جانبٍ إلى جانبٍ كأنهم يرتدُّون مرَّةً تلو المرَّة بين جِدارين من الصَّخر.

آخِر ما رأته لايرا هو لي سكورزبي يُطلِق النّار من مسدَّسه طويل الماسورة في وجه مسخ جروفٍ مباشرةً، ثم أطبقَت جفنيها بقوَّةٍ وتشبَّثت بفرو يوريك برنيسن بخوفٍ عارم. عُواء، وصُراخ، وصفير الرِّيح وقرعها، وصرير السلَّة الأشبه بحيوانٍ يتعذَّب-كلُّ هذا ملأ الهواء بضجَّةٍ لا تُطاق.

ثم الارتجاج الأعنف على الإطلاق، ووجدَت نفسها تُلقى خارج السلَّة. انفلتَت قبضتها، وفرغَت رئتاها من كلِّ ما فيهما من هواءٍ إذ حطَّت منقلبةً بعُنفٍ بالغ لدرجة أنها لم تتبيَّن الأعلى من الأسفل، وامتلأ وجهها داخل القلنسوة المحكمة بمسحوقٍ ما، ببلَّوراتٍ جافَّة باردة...

ثلج. لقد حطَّت في كومة ثلج، تتألَّم ألمًا ممضًّا حتى إنها بالكاد استطاعَت التَّفكير. استلقَت ثابتةً تمامًا لعدَّة ثوانٍ قبل أن تَبصُق الثَّلج من فمها بضعفٍ، ثم نفخَت بالضَّعف نفسه حتى وجدَت مساحةً صغيرةً تتنفَّس منها.

لا شيء بدا مصابًا بعُنف، وإن شعرَت كأن أنفاسها منقطعة تمامًا، وبحذرٍ حاولَت تحريك يديها وقدميها وذراعيها وساقيها، وأن ترفع رأسها.

لم ترَ إلَّا القليل جدًّا وقلنسوتها لا تزال ملأى بالثَّلج، وبجهدٍ جهيد، كأن كلًّا من يديها يزن طنًّا، أزاحَت الثَّلج ونظرَت، لترى عالمًا رماديًّا، عالمًا من درجات الرَّمادي الشَّاحبة ودرجات الرَّمادي القاتمة ودرجات الأسود، حيث ينساق الضَّباب كالأطياف.

الصَّوت الوحيد الذي تسمعه هو صياح مسوخ الجروف بعيدًا بالأعلى، وتكسُّر الموج على الصَّخر في مكانٍ ما.

صاحَت: «يوريك!». صوتها خافت مهزوز، لكنها حاولَت ثانيةً ولم يأتِها جواب، فنادَت: «روچر!»، لتتلقَّى النَّتيجة نفسها.

كأنها وحدها في العالم بأَسره، لكنها ليست وحدها أبدًا بالطَّبع، وقد خرجَ پانتالايمون من معطفها بتكوين فأرٍ ليكون معها، وقال: «تفقَّدتُ الأليثيوميتر. إنه سليم، لا شيء انكسرَ».

قالت: «لقد ضِعنا يا پان! هل رأيت مسوخ الجروف هؤلاء؟ والمستر سكورزبي يُطلِق عليهم النَّار؟ ليُساعِدنا الله إن نزلوا هنا...».

- «الأفضل أن نُحاوِل العثور على السلَّة، ربما...».

- «الأفضل ألَّا نُنادي. فعلتُ هذا الآن، لكن قد يكون الأفضل ألَّا أفعل خشية أن يسمعونا. ليتني أعلمُ أين نحن».

- «قد لا يروقنا أن نعرف. قد نكون في قاع جُرفٍ بلا سبيلٍ للصُّعود، ومسوخ الجروف بالأعلى يُمكن أن يرونا عندما ينقشِع الضَّباب».

تحسَّست حولها ما إن استراحَت بضع دقائق أخرى، ووجدَت أنها حطَّت في فجوةٍ بين صخرتين مكسوَّتين بالجليد. يُغطِّي الضَّباب المتجمِّد كلَّ شيء، ومن جانبٍ يَصدُر صوت الأمواج المتلاطمة

الذي ينمُّ عن بُعدها خمسين ياردةً تقريبًا، ومن بعيدٍ بالأعلى ما زالَ صُراخ مسوخ الجروف يأتي، ولو أنه يتراجع بعض الشَّيء. في هذه الظُّلمة لا يُمكنها أن ترى أبعد من ياردتين أو ثلاث، وحتى پانتالايمون بعينَي البومة عجزَ عن الرُّؤية.

شقَّت طريقها بألم، تتعثَّر وتنزلق على الصُّخور الخشنة بعيدًا عن الموج لتتوغَّل في الشَّاطئ قليلًا، ولم تجد إلَّا الصَّخر والثَّلج، ولا أثر للمنطاد أو راكبيه.

تقدَّم پانتالايمون أمامها قليلًا بتكوين القطِّ، وصادفَ أربعة أجولة رملٍ ثقيلةً مفتوحةً، وقد بدأ الرَّمل المنثور يتجمَّد بالفعل.

قالت لايرا: «دبش. مؤكَّد أنه ألقاها ليستطيع الصُّعود ثانيةً...»، ثم ازدردَت لُعابها بقوَّةٍ لتقهر الغصَّة في حَلقها، أو الخوف في صدرها، أو الاثنين، وقالت: «ربَّاه، إنني خائفة. آملُ أنهم بخير».

عندها قفزَ پانتالايمون الذي عادَ فأرًا بين ذراعيها، وانسلَّ داخل قلنسوتها حيث يُمكنه الاختفاء عن الأعيُن.

ثم إنها سمعَت صوتًا، شيئًا ما يحتكُّ بصخرة، والتفتَت لترى.

- «يوريك!».

لكن الكلمة اختنقَت في حَلقها دون أن تُكمِلها، لأن هذا ليس يوريك برنيسن، بل دُبٌّ غريب يرتدي درعًا مصقولةً تجمَّد النَّدى عليها واستحالَ إلى صقيع، ويعتمر خوذةً ترتفع منها ريشة.

وقفَ الدُّب ساكنًا على بُعد ستَّة أقدامٍ تقريبًا، وخطرَ لها أنها نهايتها حقًّا.

فتحَ الدُّب فمه وخارَ، وتردَّد الصَّدى على الجروف وأثارَ المزيد من الصُّراخ بالأعلى، ثم خرجَ من الضَّباب دبٌّ آخَر، وآخَر، ووقفَت لايرا بثباتٍ مكوِّرةً قبضتيها البشريَّتين.

ولم يتحرَّك الدِّببة حتى قال الأول: «اسمكِ؟».

- «لايرا».

- «من أين أتيتِ؟».

- «السَّماء».

- «في منطاد؟».

- «نعم».

- «تعالي معنا. أنتِ سجينة. تحرَّكي الآن، أسرِعي».

بإنهاكٍ وخوفٍ بدأت لايرا تتحرَّك وراء الدُّب متعثِرةً فوق الصُّخور الزّلقة القاسية، تتساءَل عمَّا يُمكنها قوله لتُنقِذ نفسها من هذا المأزق.

(19) في الأَسر

أخذَ الدِّببة لايرا وصعدوا بها أخدودًا في الجروف، حيث يشتدُّ الضَّباب كثافةً عن السَّاحل، ومع تسلُّقهم خفتَ صُراخ مسوخ الجروف واعتلاج الموج، وسرعان ما أصبحَ الصَّوت الوحيد هو صياح طيور البحر المتواصل. صعدوا بصمتٍ فوق الصُّخور وأكوام الثَّلج، ومع أن لايرا حدَّقت موسِّعةً عينيها في الرَّمادي الذي يتغلَّف الموجودات، وأرهفَت أُذنيها محاولةً أن تسمع أصدقاءها، فكأنها البشريَّة الوحيدة في سڤالبارد، وقد يكون يوريك ميتًا بالفعل.

لم يقل لها رقيب الدِّببة شيئًا حتى بلغوا أرضًا مستويةً، وهناك توقَّفوا. من صوت الأمواج قدَّرت لايرا أنهم وصلوا إلى قمَّة الجروف، ولم تجرؤ على الفرار خشية أن تَسقُط من فوق الحافة.

إذ أزاحَت هبَّة من النَّسيم ستار الضَّباب الثَّقيل قال لها الدُّب: «انظُري إلى أعلى».

على الرغم من ضوء النَّهار الخافت نظرَت لايرا، ووجدَت نفسها واقفةً أمام مبنى هائلًا من الحجر، يُعادِل -على أقل تقدير- أعلى جزءٍ من كلِّيَّة چوردان في الارتفاع، لكنه أضخم كثيرًا، ومنقوش بأكمله بصُورٍ للحرب تُمثِّل الدِّببة منتصرين والسكريلينج مستسلمين، والتَّرتار مقيَّدين بالسَّلاسل ويكدحون في مناجم النَّار، والزِّپلنات تطير من جميع أنحاء العالم حاملةً الهدايا والتَّكريمات لملك الدِّببة يوفور راكنيسن.

أو أن هذا ما أخبرَها به رقيب الدِّببة على الأقل، وصدَّقته لايرا مسلِّمةً، لأن كلَّ بروزٍ وإفريزٍ على الواجهة المنحوتة تحتلُّه طيور الأطيَش والكركر، التي راحَت تنعب وتَصرُخ وتدور بلا توقُّفٍ بالأعلى، وقد غطَّت فضلاتها كلَّ جزءٍ من المبنى بلُطخٍ ثخينة من الأبيض المتَّسخ.

غير أن الدِّببة لا يرون الأوساخ على ما يبدو، وقادوا الطَّريق إلى الدَّاخل عبر القنطرة الضَّخمة فوق الأرض المتجلِّدة المتَّسخة بفضلات الطُّيور. بالدَّاخل ساحة ودرجات عالية ومداخل، وعند كلِّ نُقطةٍ اعترضَ دببة مدرَّعون طريق الوافدين الذين أعطوهم كلمة السِّر. دروعهم مصقولة لامعة، وجميعهم يضعون ريشاتٍ في خُوذهم. لم يكن بوسع لايرا إلَّا أن تُقارِن كلَّ دُبٍّ رأته بيوريك برنيسن، وكلَّ مرَّةٍ كانت له الأفضليَّة، فهو أقوى وأرشق، ودرعه درع حقيقيَّة، ملوَّنة بالصَّدأ وملطَّخة بالدِّماء ومنبعجة من المعارك، وليست أنيقةً مصقولةً مزيَّنةً كأكثر ما تراه لايرا حولها الآن.

اشتدَّت الحرارة إذ توغَّلوا أكثر، ومعها اشتدَّ شيء آخَر. الرَّائحة داخل قصر يوفور شنيعة؛ مزيج مِن شحم الفقمات الزَّنِخ والرَّوث والدَّم ونُفاياتٍ من كلِّ نوع. أزاحَتِ لايرا قلنسوتها من أجل شيءٍ من

التّبريد، لكنها لم تستطِع منع أنفها من التّقلّص اشمئزازًا، وأملت أن الدِّببة لا يستطيعون قراءة التّعبيرات على وجوه البشر. كلّ بضع ياردات دعامات حديديَّة تحمل قناديل الشّحم، وفي ظلالها لم تجد لايرا رؤية ما تخطو عليه سهلةً دومًا.

أخيرًا توقّفوا أمام بابٍ ثقيل من الحديد وسحبَ دُب حارس مزلاجًا ضخمًا، وفجأةً لطمَ رقيب الدِّببة لايرا بكفِّه مسقطًا إياها رأسًا على عقبٍ بالدَّاخل، وقبل أن تتمكّن من القيام سمعَت الباب يُغلَق ويُزلَج وراءها.

الظَّلام حالك، لكن پانتالايمون تحوَّل إلى يراعةٍ وألقى وهجًا ضئيلًا حولهما، لترى لايرا أنهما في زنزانةٍ ضيِّقة تنضح من جُدرانها قطرات الرُّطوبة، وثمَّة دِكَّة حجريَّة على سبيل الأثاث، وفي الرُّكن القصي كومة من الخِرق خمَّنت أنها سرير، لكنها لم ترَ غير هذا.

جلسَت لايرا واستقرَّ پانتالايمون على كتفها، وتحسَّست الأليثيوميتر داخل ثيابها، ثم همسَت: «لقد تعرَّض إلى خبطاتٍ كثيرة حقًّا يا پان. آملُ أنه ما زالَ يعمل».

حطَّ پانتالايمون على رُسغها وقبعَ هناك متوهِّجًا فيما استجمعَت لايرا أفكارها. جزء منها وجدَ أن من العجيب حقًّا أن تجلس هنا في خطرٍ رهيب ومع ذلك تغوص في الهدوء الذي تحتاج إليه لقراءة الأليثيوميتر، لكنه أصبحَ جزءًا لا يتجزَّأ منها الآن، بحيث يفرز أشد الأسئلة تعقيدًا نفسه في عقلها، محدِّدًا الرُّموز المطلوبة بتلقائيَّة تحريك عضلات لايرا أطرافها، فصارَت بالكاد تُفكِّر فيها.

حرَّكت العقارب وفكَّرت في السُّؤال: «أين يوريك؟».

وأتَت الإجابة في الحال: «يَبعُد يومًا، حملَه إلى هناك المنطاد بعد سقوطكِ، لكنه مسرعٌ في هذا الاتِّجاه».

- «وروچر؟».

- «مع يوريك».

- «ما الذي سيفعله يوريك؟».

- «ينوي اقتحام القصر وإنقاذكِ مواجهًا الصِّعاب كلَّها».

وضعَت الأليثيوميتر في مكانه بتوتُّرٍ أشد من قبل، وقالت لپانتالايمون: «لن يسمحوا له، أليس كذلك؟ إنهم كثيرون للغاية. ليتني كنتُ ساحرةً يا پان. عندها كنت لتطير وتجده وتحمل إليه رسالةً، وكنا لنضع خطَّةً مناسبةً و...».

قاطعَتها أفظع خضَّةٍ أصابَتها في حياتها.

في الظَّلام من بُعد أقدامٍ قليلة أتى صوت رجلٍ يقول: «مَن أنتِ؟».

هبَّت صارخةً بهلع، وتحوَّل پانتالايمون إلى خُفّاشٍ من فوره وصرخَ طائرًا حول رأسها إذ تقهقرَت ملصقةً ظَهرها بالجِدار.

تكلَّم الرَّجل ثانيةً: «إه؟ إه؟ مَن هنا؟ تكلَّمي! تكلَّمي!».

قالت راجفةً: «تحوَّل إلى يراعةٍ ثانيةً يا پان، لكن لا تقترب كثيرًا».

تراقصَت نُقطة الضَّوء الصَّغيرة المرتعشة في الهواء ورفرفَت حول رأس المتكلِّم. اتَّضح أنها ليست كومةً من الخِرق، بل رجل أشيب اللِّحية مقيَّد بالسَّلاسل إلى الجِدار، تلتمع عيناه في إضاءة پانتالايمون ويتدلَّى شَعره الملبَّد على كتفيه، وقد استقرَّت قرينته الأفعى التي يبدو عليها الإجهاد في حِجره، تُحرِّك لسانها بسرعةٍ بين الحين والآخَر مع دنوِّ پانتالايمون.

سألت لايرا: «ما اسمك؟».

- «چوثام سانتليا. أنا پروفسور الكونيَّات الملكي[15] بجامعة جلوستر. مَن أنتِ؟».

- «لايرا بيلاكوا. لماذا حبسوك هنا؟».

- «الحقد والغيرة... مِن أين أتيتِ؟ إه؟».

- «من كلِّيَّة چوردان».

- «ماذا؟ أكسفورد؟».

- «نعم».

- «أما زالَ ذلك النَّذل تريلوني هناك؟ إه؟».

- «پروفسور المذهب الپالماري؟ نعم».

- «حقًّا؟ يا إلهي! إه؟ كان يجب أن يُجبِروه على الاستقالة منذ زمنٍ طويل. اللِّص المخادع! المتعجرف!».

أصدرَت لايرا صوتًا محايدًا ولم تُعلِّق.

سألَ الپروفسور رافعًا رأسه بحدَّةٍ نحوها: «هل نشرَ ورقته عن فوتونات أشعَّة جاما بعدُ؟».

تراجعَت قائلةً: «لا أدري»، ثم أردفَت مرتجلةً بدافع العادة الخالصة: «لا. تذكَّرتُ الآن أنه قال إن عليه مراجعة بعض الأرقام، و... قال إنه سيَكتُب عن (الغُبار) أيضًا، هذا كلُّ شيء».

صاحَ العجوز: «نذل! لص! خسيس! محتال!»، وأخذَ يرتجف بعُنفٍ جعلَ لايرا تخشى أن تُصيبه نوبة، وانزلقَت قرينته بخمولٍ من حِجره إذ بدأ يضرب أغلاله بقبضتيه وتناثرَت قطرات اللُّعاب من فمه.

قالت لايرا: «أجل، لطالما حسبته لصًّا ومحتالًا وكلَّ هذه الأشياء».

إن كان مستبعدًا أن تظهر في زنزانته فتاة صغيرة قذرة الثِّياب تعرف الرَّجل الذي يحوم حوله هوسه تحديدًا، فالپروفسور الملكي لم يلحظ. إنه مجنون، هذا العجوز المسكين، ولا عجب، لكن قد تكون لديه قشور معلوماتٍ تستطيع لايرا استغلالها.

جلسَت بحذرٍ قُربه، ليس على مقربةٍ تكفي أن يلمسها، ولكن كافية لأن يُظهِره وهج پانتالايمون الضَّئيل بوضوح، وقالت: «من الأشياء التي اعتادَ الپروفسور تريلوني التَّباهي بها معرفته الوثيقة بملك الدِّببة...».

- «التّباهي! إه؟ إه؟ مؤكّد أنه يتباهى! إنه ليس أكثر من طاووسٍ متبجّح! وقُرصان! لا يملك قُصاصةً من البحث الأصيل باسمه! كلُّ شيءٍ اختلسَه من رجالٍ أفضل!».

قالت لايرا بجدِّيَّة: «أجل، صحيح، وحين يفعل شيئًا وحده يُخطئ فيه».

- «نعم! نعم! قطعًا! لا موهبة، لا خيال، أفَّاق من رأسه إلى قدميه!».

- «أعني مثلًا، أراهنُ أنك تعرف أكثر منه عن الدِّببة».

قال العجوز: «الدِّببة، ها! يُمكنني أن أكتب أطروحةً عنهم! لهذا السَّبب سجنوني».

- «لماذا؟».

- «لأنني أعرفُ الكثير جدًّا عنهم، وليسوا يجرؤون على قتلي، ليسوا يجرؤون على الرغم من رغبتهم. إنني أعرفُ. إن لي أصدقاءً، نعم! أصدقاء أقوياء».

- «أجل، وأراهنُ أنك معلِّم ممتاز بما أنك تتمتَّع بمعارف وخبراتٍ ضخمة».

حتى في أعماق جنونه ما زالَ شيء من الرُّشد يتذبذَب، وقد رمقَها الرَّجل بحدَّةٍ كأنه يرتاب في سخريتها منه، إلَّا أنها تتعامَل مع الباحثين المرتابين النَّكدين طوال حياتها، فبادلَته النَّظر بإعجابٍ دمث حدا به إلى الهدوء.

- «معلِّم، معلِّم... نعم، يُمكنني أن أعلِّم. أعطيني التِّلميذ المناسب وسأوقدُ في عقله نارًا!».

قالت لايرا مشجِّعةً: «لأنه لا يَجدُر بمعرفتك أن تختفي، بل يجب نقلها إلى النَّاس ليتذكَّروك».

قال مومئًا برأسه بجدِّيَّة: «نعم. ملاحظة دقيقة منكِ أيتها الصَّغيرة. ما اسمكِ؟».

أخبرَته ثانيةً: «لايرا»، ثم سألَته: «أيُمكنك أن تُعلِّمني ما تعرفه عن الدِّببة؟».

ردَّد بريبة: «الدِّببة...».

- «أريدُ أن أعرف ما يُمكن معرفته عن الكونيَّات و(الغُبار) وما إلى ذلك، لكنني لستُ بالذَّكاء الكافي. تعلُّم هذه الأشياء يتطلَّب طلبةً أذكياء جدًّا. لكن يُمكنني تعلُّم أشياء عن الدِّببة. يُمكنك أن تُعلِّمني ما تعرفه عنهم، ويُمكننا أن نتمرَّن على هذا ثم ننتقل شيئًا فشيئًا إلى (الغُبار) ربما».

أومأ برأسه ثانيةً، وقال: «نعم، نعم، أعتقدُ أنكِ محقَّة. بين العالم الصَّغير والكون الكبير وفاق! النُّجوم حيَّة أيتها الصَّغيرة. أكنتِ تعلمين هذا؟ كلُّ شيءٍ حي، وثمَّة أغراض عظيمة بالخارج! الكون مليء بالنِّيَّات. كلُّ شيءٍ يَحدُث لغرضٍ معيَّن، وغرضكِ أن تُذكِّريني بهذا. عظيم، عظيم... لقد نسيتُ في خضمِّ يأسي. عظيم، ممتاز يا بنيَّتي!».

- «هل رأيت الملك إذن؟ يوفور راكنيسن؟».

- «نعم، أوه، نعم. لقد جئتُ هنا تلبيةً لدعوته. كان ينوي إقامة جامعة، وكان سيجعلني نائب المستشار. لكانت تلك نكايةً عظيمةً في المعهد الأركتيكي الملكي، إه! إه؟ وذلك الحقير تريلوني! ها!».

- «وماذا حدثَ؟».

- «خانَني رجال أدنى شأنًا، من بينهم ترليوني بالطَّبع. لقد كان هنا في سڤالبارد، ونشرَ أكاذيب وافتراءاتٍ عن مؤهِّلاتي. مَن الذي اكتشفَ البُرهان الأخير على فرضيَّة بارنارد-ستوكس، إه؟ إه؟ نعم، سانتليا هو مَن اكتشفَه. ولم يحتمِل تريلوني هذا، وكذبَ كذبًا بيِّنًا، ورماني يوفور راكنيسن هنا. سأخرجُ يومًا ما، سترين. سأصبحُ نائب المستشار، نعم. فليأتني تريلوني حينئذٍ يتوسَّل الرَّحمة! فلتنبذ لجنة النَّشر بالمعهد الأركتيكي الملكي إسهاماتي! ها! سأفضحهم جميعًا!».

قالت لايرا: «أتوقَّعُ أن يوريك برنيسن سيُصدِّقك حين يعود».

- «يوريك برنيسن؟ لا جدوى من انتظاره. إنه لن يعود أبدًا».

- «إنه في طريقه الآن».

- «سيَقتُلونه إذن. إنه ليس دُبًّا، بل منفي مِثلي، وضيع المنزلة، لا يستحقُّ أيًّا من امتيازات الدِّببة».

- «لنفترض أن يوريك برنيسن عادَ، لنفترض أنه تحدَّى يوفور راكنيسن في قتال...».

قاطعَها البروفسور بحسم: «أوه، لن يسمحوا بذلك أبدًا. يوفور لن ينزل بمستواه أبدًا للاعتراف بحقِّ يوريك برنيسن في قتاله. إنه بلا حقوق. كأن يوريك فقمة الآن، أو فظ، ولكن ليس دُبًّا. أو أسوأ، كأنه ترتري أو سكريلينج. لن يُقاتِلوه بشرفٍ على غرار الدِّببة، بل سيَقتُلوه بقاذفات النَّار قبل أن يقترب. لا أمل، لا رحمة».

بيأسٍ ثقيل في صدرها قالت لايرا: «أوه»، ثم سألَته: «وسُجناء الدِّببة الآخَرون؟ أتعرف أين يحتفظون بهم؟».

- «سُجناء آخَرون؟».

- «مِثل... اللورد آزريل».

على حين غرَّةٍ تغيَّر أسلوب البروفسور بالكامل، فجفلَ وانكمشَ على نفسه عند الجِدار وهزَّ رأسه محذِّرًا، وهمسَ: «ششش! صمتًا! سيسمعونكِ!».

- «لِمَ يجب ألَّا نَذكُر اللورد آزريل؟».

- «ممنوع! خطر شديد! يوفور راكنيسن يَرفُض السَّماح بذِكره!».

دنَت لايرا هامسةً بدورها كي لا تُفزِعه: «لماذا؟».

أجابَ الرَّجل همسًا: «سَجن اللورد آزريل تكليف خاص ليوفور من هيئة القرابين. المسز كولتر أتَت إلى هنا بنفسها لترى يوفور وعرضَت عليه شتَّى المكافآت ليُبقي اللورد آزريل بعيدًا عن الطَّريق. أعرفُ هذا لأنني كنتُ في حظوة يوفور في ذلك الحين. لقد قابلتُ المسز كولتر! نعم، وخضتُ محادثةً طويلةً معها. يوفور كان مفتونًا بها، لم يستطِع الكفَّ عن الكلام عنها. يُمكنه أن يفعل أيَّ شيءٍ من أجلها. إذا أرادَت الاحتفاظ باللورد آزريل على بُعد مئة ميل فهذا هو ما سيَحدُث. أيُّ شيءٍ في سبيل المسز كولتر، أيُّ شيء. سيُطلِق اسمها على مدينته العاصمة، أكنتِ تعلمين هذا؟».

- «ألا يسمح إذن بذهاب أيِّ أحدٍ لرؤية اللورد آزريل؟».

- «نهائيًّا! مطلقًا! لكنه يخشى اللورد آزريل أيضًا. يوفور يلعب لُعبةً صعبةً، لكنه ذكي، وقد فعلَ ما يُريده الاثنان، فأبقى اللورد آزريل معزولًا ليُرضي المسز كولتر، وسمحَ للورد آزريل بالحصول على جميع المعدَّات التي يرغب فيها ليُرضيه. لا يُمكن أن تستمرَّ هذه الموازنة، غير مستقرَّة. يُرضي كلا الطَّرفين، إه؟ قريبًا جدًّا ستنهار الدالَّة الموجيَّة لهذا الموقف. أعرفُ هذا من مصدرٍ لا يرقى إليه الشَّك».

- «حقًّا؟». ألقَت لايرا السُّؤال وعقلها في مكانٍ آخَر، وقد راحَ يُفكِّر بنشاطٍ بالغ في ما قاله الرَّجل لتوِّه.

- «نعم. لسان قرينتي يتذوَّق الاحتمالات الرَّاجحة».

- «نعم، وقريني أيضًا. متى يُطعِموننا يا پروفسور؟».

- «يُطعِموننا؟».

- «مؤكَّد أنهم يُدخِلون إلينا طعامًا في وقتٍ ما وإلَّا متنا جوعًا. وهناك عظام على الأرض. أظنُّها عظام فقمات، أليس كذلك؟».

- «فقمات... لا أدري، ربما».

نهضَت لايرا وتحسَّست طريقها إلى الباب، وبطبيعة الحال لم تجد مقبضًا أو ثقب مفتاح، والباب نفسه ملتصق جدًّا بإطاره من أعلى وأسفل بحيث لا يتسرَّب منه ضوء. وضعَت أُذنها عليه لكنها لم تسمع شيئًا، ومن ورائها كان العجوز يُهَمهِم بشيءٍ ما لنفسه، وسمعَت صلصلة سلسلته إذ انقلبَ بإعياءٍ وتمدَّد في الاتِّجاه الآخَر، وفي الحال بدأ يغطُّ في النَّوم.

تحسَّست طريقها إلى الدِّكَّة، وتحوَّل پانتالايمون الذي تعبَ من إلقاء الضَّوء إلى خُفَّاش، وهو ما يُناسِبه جدًّا بالطَّبع، ورفرفَ في المكان مصدرًا صريرًا خافتًا فيما جلسَت لايرا تعضُّ ظُفرها.

وفجأةً، دون أيِّ مقدِّمات، تذكَّرت ما سمعَت پروفسور المذهب الپالماري يقوله في الاستراحة منذ زمنٍ طويل. منذ ذكرَ يوريك برنيسن اسم يوفور أول مرَّة وشيء ما يُزعِجها باستمرار، والآن عادَ إلى ذاكرتها. ما قاله الپروفسور تريلوني إن أكثر ما يرغب فيه يوفور راكنيسن أن يكون له قرين.

وبالطَّبع لم تفهم يومها ما يعنيه هذا، فالپروفسور تكلَّم عن الپانزربيورنِه بدلًا من استخدام الكلمة الإنجليزيَّة، ولذا لم تُدرِك أنه يتكلَّم عن الدِّببة، ولم تعرف أن يوفور راكنيسن ليس رجلًا. لو كان رجلًا لكان له قرينة بالطَّبع، فلم يبدُ لها الكلام معقولًا.

لكن الأمر واضح الآن، وباستطاعتها أن تعقل كلَّ ما سمعَته عن ملك الدِّببة. يوفور راكنيسن الجبَّار لا يرغب في شيءٍ أكثر من أن يكون بشريًّا له قرينته الخاصَّة.

وإذ فكَّرت في هذا تبادرَت إلى ذهنها فكرة، وسيلة لجعل يوفور راكنيسن يفعل ما لا يُمكن أن يفعله أبدًا في ظروفٍ عاديَّة، وسيلة لارتقاء يوريك برنيسن عرشه الشَّرعي، وسيلة -أخيرًا- لبلوغ المكان الذي وضعوا فيه اللورد آزريل وأخذ الأليثيوميتر إليه.

حامَت الفكرة وتلألأت برقَّةٍ كفقَّاعة صابون، ولم تَجسُر لايرا على مجرَّد النَّظر إليها مباشرةً خشية أن تنفجر.

لكن ديدن الأفكار مألوف لها، وهكذا تركَتها تتلألأ ناظرةً بعيدًا عنها، وفكَّرت في شيءٍ آخَر.

***

كانت شِبه نائمة حين سمعَت المزلاج يُسحَب وانفتحَ الباب. تدفَّق الضَّوء إلى الدَّاخل ونهضَت من فورها، وقد أسرعَ پانتالايمون يختبئ في جيبها.

بمجرَّد أن حنى الدُّب الحارس رأسه ليرفع فخذ الفقمة ويُلقيها داخل الزِّنزانة، وجدَ لايرا إلى جانبه تقول: «خُذني إلى يوفور راكنيسن. ستقع في مشكلةٍ إذا لم تفعل. إنها مسألة عاجلة للغاية».

أسقطَ الدُّب اللّحم من بين فكّيه ورفعَ عينيه إليها. ليست قراءة التّعبيرات على ملامح الدِّببة سهلةً، لكنه بدا غاضبًا.

بسرعةٍ قالت: «المسألة تخصُّ يوريك برنيسن. إنني أعرفُ عنه شيئًا يجب أن يعلمه الملك».

- «أخبِريني وسأنقلُ الرِّسالة».

- «لن يصحَّ ذلك، أن يعلم أحد آخَر قبل الملك. آسفة، لا أقصدُ أن أكون وقحةً، لكن افهمني، القاعدة أن يعلم الملك بالأشياء أولًا».

قد يكون بطيء الفهم، لكنه على كلِّ حالٍ أطرقَ لحظةً ثم ألقى اللَّحم داخل الزِّنزانة، قبل أن يقول: «ليكن. تعالي معي».

قادَها إلى الهواء الطَّلق بالخارج، وهو ما أشعرَها بالامتنان. كان الضَّباب قد انقشعَ، وضوء النُّجوم يترقرَق فوق السَّاحة عالية الأسوار. حادثَ الحارس دُبًّا آخَر، فأتى هذا يُخاطِبها قائلًا: «لا يُمكنكِ رؤية يوفور راكنيسن متى أردتِ. يجب أن تنتظري حتى يرغب في رؤيتكِ».

- «لكنها مسألة عاجلة، ما عليَّ إخباره به، تخصُّ يوريك برنيسن. إنني واثقة بأن صاحِب الجلالة سيُريد أن يعلم، لكنني لا أستطيعُ إخبار أيِّ أحدٍ آخَر في جميع الأحوال. ألا تفهم؟ لن يكون من الأدب أن أفعل ذلك. سيغضب غضبًا شديدًا إذا عرفَ أننا لم نتصرَّف بأدب».

بدا أن لقولها وزنًا، أو أنه أربكَ الدُّب بما فيه الكفاية لأن يُطرِق. كانت لايرا واثقةً بأن تأويلها للوضع سليم، فيوفور راكنيسن يُقدِّم عاداتٍ جديدةً كثيرةً جعلَت الدِّببة غير واثقين بعدُ من التَّصرُّف الصَّحيح، وباستطاعتها استغلال حالة الإبهام هذه في سبيل الوصول إلى يوفور.

وهكذا انسحبَ هذا الدُّب ليستشير الدُّب الذي يعلوه، وسرعان ما قيدَت لايرا إلى داخل القصر ثانيةً، ولكن إلى مقر الحُكم هذه المرَّة. ليس المكان أنظف بحالٍ هنا، بل الحقيقة أن الهواء أصعب في التَّنفُّس من الزِّنزانة، لأن جميع الرَّوائح الكريهة الطَّبيعيَّة مغطَّاة بطبقةٍ ثقيلة من عطرٍ مغثٍ. جعلوها تنتظر في رواق، ثم في حُجرة انتظار، ثم خارج بابٍ كبير، فيما تناقشَ الدِّببة وتجادَلوا وهرعوا جيئةً وذهابًا، فوجدَت لايرا وقتًا للتَّطلُّع إلى الديكور المبهرج. الجُدران مكتظَّة بالمشغولات الجِصِّيَّة المذهَّبة، التي بدأ بعضها يتقشَّر بالفعل أو يتفتَّت بفعل الرُّطوبة، ونقوش البُسط الزَّهريَّة مطموسة تحت القاذورات.

أخيرًا انفتحَ الباب الكبير من الدَّاخل. ضوء ساطع من ثُريَّاتٍ عدَّة، وبساط قرمزي، ومزيد من ذلك العطر الفاغم في الهواء، ووجوه دستةٍ أو أكثر من الدِّببة تُحدِّق إليها، لا أحد منهم يرتدي دِرعًا لكن لكلٍّ منهم زينته الخاصَّة؛ قلادة ذهبيَّة، أو عصابة رأسٍ من الرِّيش الأرجواني، أو وشاح قرمزي. الغريب أن الطُّيور أيضًا تحتلُّ القاعة، طيور خَطَّاف بحرٍ وكركر تجثم على إفريزٍ من الجِص وتنقضُّ على الأرض لتختطف قِطع السَّمك السَّاقطة من أعشاش بعضها بعضًا في الثُّريَّات.

وفوق المنصَّة في طرف القاعة القصي يرتفع عرش هائل مصنوع من الجرانيت استعراضًا للقوَّة والضَّخامة، لكنه -كأشياء أخرى عديدة في قصر يوفور- مزيَّن بمدلياتٍ وأكاليل منمَّقة مطليَّة بالذَّهب تبدو كزينةٍ مبهرجة على جانب جبل.

وعلى العرش يجلس أكبر دُبٍّ رأته على الإطلاق. يوفور راكنيسن أطول وأضخم من يوريك، وقسمات وجهه أكثر تقلُّبًا وتعبيرًا، بها شيء من الإنسانيَّة لم ترَه في وجه يوريك قَطّ. حين رمقَها يوفور بدا لها كأن رجلًا يَنظُر من عينيه، رجلًا من النَّوع الذي قابلَته عند المسز كولتر، سياسيًّا أريبًا اعتادَ السُّلطة. يضع يوفور حول عُنقه سلسلةً ذهبيَّةً ثقيلةً تتدلَّى منها حلية مزوَّقة، ومخالبه -التي يَبلُغ طول الواحد منها بوصاتٍ ستًّا- مطليَّة بالذَّهب. تأثير كلِّ هذا تأثير قوَّةٍ غاشمة وطاقةٍ ودهاء، وحجمه الضَّخم يجعل الزِّينة المبالغ فيها مقبولةً، فعليه لا تبدو مبهرجةً، بل بربريَّة مهيبة.

ارتجفَت لايرا خوفًا، وفجأةً بدَت فكرتها أسخف من أن تُوصَف.

على أنها تقدَّمت قليلًا لأن عليها أن تفعل، ثم إنها رأت أن يوفور يُمسِك شيئًا موضوعًا على رُكبته كما يُجلِس إنسان قطَّةً هناك... أو قرينًا.

ورأت أنها دُمية محشوَّة كبيرة، مانيكان لها وجه بشري سخيف خاوٍ من التَّعبير، ترتدي ثيابًا كالتي ترتديها المسز كولتر، وتُشبِهها أيضًا بعض الشَّيء. إنه يتظاهَر بأن له قرينةً، وعندها علمَت لايرا أنها آمنة.

دنَت من العرش وانحنَت بشدَّة، وقد لزمَ پانتالايمون الصَّمت والسُّكون في جيبها.

قالت بهدوء: «تحيَّاتنا لك أيها الملك العظيم. أو أعني تحيَّاتي أنا لا تحيَّاته».

ردَّ: «لا تحيَّات مَن؟»، وكان صوته أنعم مما توقَّعت، وإن أفعمَته النَّبرات المعبِّرة والحضور، ولمَّا تكلَّم لوَّح بكفِّه أمام فمه ليَطرُد الذُّباب المتجمِّع هناك.

أجابَت: «يوريك برنيسن يا صاحِب الجلالة. لديَّ شيء شديد الأهميَّة والسرِّيَّة أخبرك به، وأظنُّ حقًّا أن عليَّ إخبارك به على انفراد».

- «شيء عن يوريك برنيسن؟».

خطَت تدنو منه بحذرٍ فوق فضلات الطُّيور، وذبَّت الذُّباب الذي يطنُّ حول وجهها، وقالت بصوتٍ لا يسمعه غيره: «شيء عن القُرناء».

تبدَّل التَّعبير على وجهه، ومع أنها لم تستطِع قراءته فلم يكن هناك شكٌّ في اهتمامه البالغ. فجأةً نهضَ بثقلٍ من فوق العرش جاعلًا إياها تقفز جانبًا، وهدرَ بأمرٍ ما للدِّببة الآخَرين، فحنوا رؤوسهم جميعًا وتراجعوا نحو الباب، فيما راحَت الطُّيور التي انتفضَت من هديره تصيح وتدور بالأعلى قبل أن تستقرَّ في أعشاشها من جديد.

وحين خلَت قاعة العرش من الجميع باستثناء يوفور راكنيسن ولايرا التفتَ إليها بحماسةٍ سائلًا: ‹‹حسن؟ أخبِريني مَن أنتِ. وما شأن القُرناء هذا؟››.

قالت: ‹‹أنا قرينة يا صاحِب الجلالة››.

تجمَّد في مكانه، وسألَها: ‹‹قرينة مَن؟››.

وأتَته الإجابة: ‹‹يوريك برنيسن››.

أخطر شيءٍ قالته في حياتها كلِّها، وقد رأت بجلاءٍ تام أن دهشته وحدها حالَت دون أن يَقتُلها في التَّوِّ واللَّحظة.

تابعَت لايرا: ‹‹أرجوك يا صاحِب الجلالة، دعني أخبرك بكلِّ شيءٍ أولًا قبل أن تُؤذيني. لقد جئتُ هنا مخاطرةً بنفسي كما ترى، وليس بإمكاني أن أوذيك بأيِّ شكلٍ على الإطلاق. الواقع أنني أريدُ أن أساعدك، ولذا جئتُ. يوريك برنيسن كان أول دُبٍّ يَحصُل على قرين، ولكن كان يجب أن يكون أنت بدلًا منه. إنني أفضِّلُ كثيرًا أن أكون قرينتك على كوني قرينته، ولذا جئتُ››.

قال لاهثًا: ‹‹كيف؟ كيف حصلَ دُبٌّ على قرينة؟ ولماذا هو؟ وكيف أمكنكِ الابتعاد عنه؟››.

إذ تكلَّم تركَ الذُّباب فمه ككلماتٍ ضئيلة.

- ‹‹هذا سهل. بإمكاني الابتعاد عنه لأني مِثل قُرناء السَّاحرات. أتعرف كيف يستطيعون الابتعاد مئات الأميال عن صاحباتهم البشريَّات؟ أنا مِثلهم. وبالنِّسبة إلى حصوله عليَّ فقد حدثَ هذا في بولڤانجار. أنت سمعت عن بولڤانجار لأن مؤكَّد أن المسز كولتر أخبرَتك بأمرها، لكنها لم تُخبِرك غالبًا بكلِّ ما يفعلونه هناك››.

قال: ‹‹القطع...››.

- ‹‹نعم، القطع، هذا جزء مما يفعلونه، الفصل. لكنهم يفعلون أشياء أخرى عديدةً أيضًا، كعمل القُرناء الصِّناعيِّين وإجراء التَّجارب على الحيوانات. عندما سمعَ يوريك برنيسن بهذا عرضَ نفسه للتَّجربة ليرى إن كانوا يستطيعون أن يصنعوا له قرينةً، وقد فعلوا، وجعلوني قرينته. اسمي لايرا. مِثلما للبشر قُرناء يتَّخذون تكوين الحيوانات فقُرناء الدِّببة بشر، وأنا قرينته. يُمكنني أن أرى ما يدور بعقله وأعلم ما يفعله بالضَّبط وأين هو و...››.

- ‹‹أين هو الآن؟››.

- ‹‹في سڤالبارد. إنه قادم إلى هنا بأقصى سرعة››.

- ‹‹لماذا؟ ماذا يُريد؟ مؤكَّد أنه مجنون! سنُمزِّقه أشلاءً!››.

- ‹‹إنه يُريدني، قادم لاستعادتي. لكنني لا أريدُ أن أكون قرينته يا يوفور راكنيسن، بل أريدُ أن أكون قرينتك أنت. لأن النَّاس في بولڤانجار ما إن رأوا القوَّة التي يحوزها الدُّب ذو القرين قرَّروا ألَّا

يُجروا تلك التّجربة ثانيةً أبدًا. كان يوريك برنيسن سيُصبِح الدُّب الوحيد في العالم الذي له قرين، وبمساعدتي له يُمكنه أن يقود الدِّببة كلِّهم ضدك. هذا هو ما جاءَ إلى سڤالبارد من أجله».

هدرَ ملك الدِّببة بثورة، هدرَ بدويٍّ هزَّ لآلئَ الثُّريَّات، وصرخَ كلُّ طائرٍ في القاعة، ورنَّت أُذنا لايرا.

لكنها ندٌّ للموقف، وقد قالت ليوفور راكنيسن: «لهذا أحبُّك أكثر، لأنك عاطفي وقوي علاوةً على ذكائك. وكان يجب أن أتركه وآتي لأخبرك، لأنني لا أريده أن يَحكُم الدِّببة. يجب أن تكون أنت الحاكم. وهناك طريقة لأخذي منه وجعلي قرينتك، لكنك لن تعرفها إن لم أُخبرك، وقد تفعل الشَّيء المعتاد وتُقاتِله كأمثاله من الدِّببة المنفيِّين. لا أعني أن تُقاتِله حقًّا وإنما تَقتُله بقاذفات النَّار أو ما شابهَ. لكن إن فعلت ذلك فسأنطفئ كالضَّوء وأموتُ معه».

- «لكنكِ... كيف يُمكن...».

- «يُمكنني أن أصبح قرينتك، لكن فقط إذا هزمت يوريك برنيسن في نزالٍ فردي. عندها ستتدفَّق قوَّته إليك وينساب عقلي في عقلك وسنكون كشخصٍ واحد، يعرف كلانا أفكار الآخَر. ويُمكنك أن تُرسِلني على بُعد أميالٍ لأتجسَّس لك، أو تحتفظ بي هنا إلى جانبك، كما تشاء. وسأساعدك على قيادة الدِّببة لتحتلَّ بولڤانجار إذا أردت، وتجعلهم يصنعون المزيد من القُرناء لدببتك المفضَّلين، وإذا أحببت أن تكون الدُّب الوحيد الذي له قرين فيُمكننا أن نُدمِّر بولڤانجار إلى الأبد. يُمكننا أن نفعل أيَّ شيءٍ يا يوفور راكنيسن، أنت وأنا معًا!».

طوال الوقت كانت تُمسِك پانتالايمون داخل جيبها بيدٍ ترتجف، فيما لزمَ هو أقصى درجةٍ من السُّكون وقد اتَّخذ تكوين أصغر فأرٍ تحوَّل إليه على الإطلاق.

كان يوفور راكنيسن يذرع القاعة بحماسةٍ متفجّرة، ويقول: «نزال فردي؟ أنا؟ عليَّ أن أقاتل يوريك برنيسن؟ مستحيل! إنه منفي! كيف؟ كيف أقاتله؟ أهذا هو السَّبيل الوحيد؟».

أجابَت لايرا: «إنه السَّبيل الوحيد»، وإن تمنَّت لو أنه ليس كذلك، لأن يوفور راكنيسن يبدو أكبر وأضرى كلَّ دقيقة. وعلى الرغم من حُبّها الجم ليوريك وقوَّة إيمانها به فلم يُمكنها أن تُصدِّق أنه يستطيع حقًّا هزيمة عملاق العمالقة هذا. إلَّا أنه أملهم الوحيد، أمَّا قصفه بقاذفات النَّار من بعيدٍ فليس أملًا بتاتًا.

فجأةً التفتَ إليها يوفور راكنيسن قائلًا: «أثبِتي! أثبِتي أنكِ قرينة!».

قالت: «حسن، يُمكنني أن أفعل هذا بسهولة. يُمكنني الاستدلال على أيِّ شيءٍ تعرفه ولا يعرفه غيرك، شيء يستطيع قرين فقط اكتشافه».

- «أخبِريني إذن ماذا كان أول مخلوقٍ قتلته».

- «عليَّ أن أنفرد بنفسي لأفعل هذا. حين أصبحُ قرينتك سيُمكنك أن ترى كيف أفعله، لكن حتى ذلك الحين يجب أن أفعله في السِّر».

- «وراء هذه القاعة استراحة. ادخُليها واخرُجي عندما تعرفين الجواب».

فتحَت لايرا الباب ووجدَت نفسها في حُجرةٍ يُضيئها مشعل واحد، وخالية إلَّا من خزانةٍ من الماهوجني تحوي بعض الحُلي الفضِّيَّة المتَّسخة.

أخرجَت الأليثيوميتر، وسألَت: «أين يوريك الآن؟».

- «يَبعُد أربع ساعات، ويهرع بسرعةٍ أكبر».

- «كيف أخبره بما فعلتُ؟».

- «عليكِ أن تثقي به».

فكَّرت بقلقٍ كم سيكون متعَبًا، ثم خطرَ لها أنها بهذا لا تفعل ما قال لها الأليثيوميتر أن تفعله، أي الثِّقة بيوريك.

نحَّت الخاطر جانبًا وألقَت سؤال يوفور راكنيسن: ماذا كان أول مخلوقٍ قتلَه؟

وأتَت الإجابة: أبو يوفور.

ألقَت مزيدًا من الأسئلة، وعرفَت أن يوفور كان بمفرده على الجليد في صِغره، وكان في أول رحلة صيدٍ خرجَ فيها عندما صادفَ دُبًّا وحيدًا. تشاجَرا وتقاتَلا وقتلَه يوفور، وكان هذا في حدِّ ذاته ليُعَدَّ جريمةً، لكن الأمر أكثر من مجرَّد جريمة قتل، لأن يوفور علمَ لاحقًا أن الدُّب الآخَر كان أباه. الدِّببة

تُربِّيهم أمَّهاتهم، ونادرًا ما يرون آباءهم. بطبيعة الحال أخفى يوفور حقيقة ما اقترفَه، ولا أحد يعلم بحدوثه إلَّا يوفور نفسه، والآن تعلم لايرا أيضًا.

دسَّت الأليثيوميتر في ثيابها وتساءلَت كيف تُخبِره، فهمسَ پانتالايمون: «تملَّقيه! إنه لا يُريد إلَّا هذا!».

وهكذا فتحَت لايرا الباب ووجدَت يوفور راكنيسن في انتظارها وعلى وجهه تعبير ظفرٍ وخبثٍ وتوجُّسٍ وجشع.

- «إذن؟».

ركعَت أمامه وحنَت رأسها لتمسَّ به كفَّه الأماميَّة اليُسرى، الكفَّ الأقوى، فالدِّببة عُسر.

- «أستميحك العُذر يا يوفور راكنيسن! لم أكن أعلمُ كم أنت قوي عظيم!».

- «ما هذا؟ أجيبي عن سؤالي!».

- «أول مخلوقٍ قتلته كان أباك. أظنُّك إلهًا جديدًا يا يوفور راكنيسن. مؤكَّد أنك كذلك. لا يملك القوَّة لفعل ذلك إلَّا إله».

- «تعرفين إذن! يُمكنكِ أن تري!».

- «نعم، لأنني قرينة كما قلتُ».

- «أخبِريني بشيءٍ آخَر. ما الذي وعدَتني به الليدي كولتر حين كانت هنا؟».

مرَّةً أخرى دخلَت لايرا الحُجرة الخالية ورجعَت إلى الأليثيوميتر قبل أن تعود بالإجابة.

- «وعدَتك بأنها ستجعل مجمع حماية العقيدة في چنيڤ يُوافِق على تعميدك باعتبارك مسيحيًّا، على الرغم من افتقارك إلى قرينٍ وقتها. أخشى أنها لم تفعل ذلك يا يوفور راكنيسن، وبمنتهى الصَّراحة لا أعتقدُ أنهم سيقبلون ذلك ما لم يكن لك قرين. أظنُّ أنها كانت تعرف هذا ولم تُخبِرك بالحقيقة. لكن على كلِّ حال، عندما أصبحُ قرينتك سيُمكنك أن تُعمَّد إذا أردت، لأن أحدًا لن يستطيع أن يُجادِل حينئذٍ. يُمكنك المطالبة بهذا ولن يستطيعوا الرَّفض».

- «نعم... صحيح. هذا هو ما قالته. صحيح، كلُّ كلمة. وخدعَتني؟ وثقتُ بها وخدعَتني؟».

- «نعم، خدعَتك، لكنها لم تَعُد تهمُّ. معذرةً يا يوفور راكنيسن، آملُ ألَّا تُمانِع أن أخبرك بهذا، لكن يوريك برنيسن يَبعُد أربع ساعاتٍ فقط الآن، وقد يكون الأفضل أن تأمر حرسك بعدم مهاجمته كما كانوا ليفعلوا عادةً. إذا كنت ستُقاتِله من أجلي فيجب السَّماح له بدخول القصر».

- «نعم...».

- «وقد يكون من الأفضل حين يصل أن أتظاهر بأني ما زلتُ أنتمي إليه، وأن أقول إنني ضللتُ الطَّريق مثلًا. لن يعرف. سأتظاهرُ. هل ستُخبِر الدِّببة الآخَرين بأني كنتُ قرينة يوريك ثم أصبحتُ قرينتك بعد أن تهزمه؟».

- «لا أدري... ماذا عليَّ أن أفعل؟».

- «لا أظنُّ أن الأفضل أن تفعل ذلك بعدُ. حينما نُصبِح معًا أنت وأنا سنُفكِّر في أصلح شيءٍ نفعله ونُقرِّر. ما عليك أن تفعله الآن أن تشرح للدِّببة الآخَرين لِمَ ستسمح ليوريك بقتالك كدُبٍّ حقيقي رغم أنه منفي، لأنهم لن يفهموا وعلينا أن نجد سببًا. سيُطيعونك في ما تُخبِرهم به على كلِّ حال، لكن إذا رأوا السَّبب فسيزداد إعجابهم بك».

- «نعم. ماذا نقول لهم إذن؟».

- «قُل لهم... قُل لهم إنك لكي تُؤمِّن مملكتك تمامًا استدعيت يوريك برنيسن إلى هنا بنفسك لتُقاتِله، وإن الفائز سيَحكُم الدِّببة إلى الأبد. إذا جعلت قدومه يبدو فكرتك أنت فسيُثير هذا إعجابهم جدًّا، سيحسبونك قادرًا على استدعائه من بعيد، سيحسبونك قادرًا على أيِّ شيء».

- «نعم...».

أصبحَ الدُّب العظيم مغلوبًا على أمره، ووجدَت لايرا سُلطتها عليه شِبه مُسكرة، ولو لم يعضَّ پانتالايمون يدها بحدَّةٍ ليُذكِّرها بالخطر المحدق بهم جميعًا فلربما فقدَت إحساسها بضآلتها.

لكنها استعادَت وعيها وتراجعَت بتواضُعٍ لتُشاهِد وتنتظر فيما جهَّز الدِّببة -بتوجيهات يوفور الحماسيَّة- مضمار القتال من أجل يوريك برنيسن.

وفي تلك الأثناء، دون أن يدري شيئًا عن هذا، يهرع يوريك صوب ما تتمنَّى لو أن بإمكانها أن تُخبِره بأنه أكبر وأهم قتالٍ في حياته.

(20) قتال حتى الموت

القتال بين الدِّببة معتاد، وخاضع لقدرٍ كبير من الطُّقوس. نادرًا ما يَقتُل دُبٌّ دُبًّا آخَر، وإذا حدثَ ذلك فهو عن غير قصدٍ عادةً، أو عندما يُسيء دُبٌّ فهم إشارات الآخَر كما في حالة يوريك برنيسن، أمَّا حالات القتل العمد، مِثل قتل يوفور راكنيسن أبيه، فأندر.

لكن أحيانًا تقع ظروف تفرض القتال حتى الموت وسيلةً لتسوية نزاع، ولأجل هذا ثمَّة مراسم كاملة موصوفة.

ما إن أعلنَ يوفور أن يوريك برنيسن في الطّريق وأن قتالًا سيقع، كُنِسَ مضمار النِّزال وسُوِّيَ، وأتى صُنَّاع السِّلاح من مناجم النَّار ليتفقَّدوا درع يوفور، ففُحِصَت كلُّ صامولة، واختُبِرَت كلُّ حلقة، وصُقِلَت صفائح المعدن بأنعم الرِّمال. ونالَت مخالبه العناية نفسها، فكُشِطَ الطِّلاء الذَّهبي وشُحِذَ كلُّ مخلبٍ من المخالب التي تَبلُغ البوصات السِّت طولًا وبُرِدَ حتى باتَ رأسه المدبَّب قاتلًا. وشاهدَت لايرا بغثيانٍ متنامٍ في فم معدتها، لأن يوريك برنيسن لن ينال ذلك الاهتمام إطلاقًا، كما أنه يمضي على الجليد منذ أربعٍ وعشرين ساعةً بالفعل، بلا راحةٍ أو طعام، وربما أصيبَ أيضًا خلال السُّقوط، وعلاوةً على كلِّ هذا أقحمَته هي في هذا القتال من دون علمه. بعد أن اختبرَ يوفور راكنيسن حدَّة مخالبه على فظٍّ مقتول لتوِّه وشقَّ جِلده كأنه ورق، وبعد أن اختبرَ قوَّة ضرباته السَّاحقة على جمجمة الفظِّ (بضربتين كسرَتاها كالبيضة)، اضطرَّت لايرا إلى اختلاق عُذرٍ لتنفرد بنفسها وتنتحب خوفًا.

حتى پانتالايمون، الذي يستطيع التَّرويح عنها عادةً، لم يقل إلَّا القليل مما يبعث على الأمل، ولم يكن بوسعها إلَّا استشارة الأليثيوميتر، الذي أخبرَها بأن يوريك يَبعُد ساعةً الآن، وبأن عليها -مرَّةً أخرى- أن تثق به. كانت قراءة هذا أصعب، وإن خطرَ لها أنه يُؤنِّبها على إلقاء السُّؤال نفسه مرَّتين.

عندئذٍ كان الخبر قد انتشرَ بين الدِّببة، وازدحمَ مضمار النِّزال عن آخِره. احتلَّ الدِّببة ذوو المكانة العالية أفضل الأماكن، وثمَّة حوش خاص للدُّبَّات الإناث اللاتي بينهن زوجات يوفور بالطَّبع. أثارَت الإناث فضول لايرا البالغ، لأنها تعرف القليل جدًّا عنهن، لكن هذا ليس وقتًا للتَّجوال وطرح الأسئلة، وبدلًا من ذلك ظلَّت على مقربةٍ من يوفور راكنيسن وشاهدَت دببة الحاشية حوله يُوكِّدون منزلتهم الأعلى من عوام الدِّببة الآتين من الخارج، وحاولَت تخمين معنى الرِّيشات والشَّارات والرُّموز المتنوِّعة التي يضعونها جميعًا. رأت أن بين الأعلى مقامًا مَن يحملون مانيكانات صغيرةً كقرينة يوفور الدُّمية القُماشيَّة، محاولين الظَّفر بحظوة الملك غالبًا بمحاكاة التَّقليد الذي ابتدعَه، وقد سرَّتها على نحوٍ ساخرٍ ملاحظة أنهم لم يعودوا يدرون ما عليهم فعله بدُماهم لمَّا رأوا يوفور يتخلَّى عن دُميته. هل يتخلَّصون منها؟ هل فقدوا حظوته؟ كيف عليهم التَّصرُّف؟

لأن هذا هو المزاج السَّائد في بلاطه، كما بدأت ترى. إنهم ليسوا واثقين بماهيتهم، ليسوا مِثل يوريك برنيسن أنقياء راسخين حاسمين، بل ثمَّة سحابة من الغموض معلَّقة فوقهم وهُم يُراقِبون بعضهم بعضًا ويُراقِبون يوفور.

ويُراقِبونها أيضًا بفضولٍ صريح، غير أنها ظلَّت قريبةً بتواضُعٍ من يوفور ولم تقل شيئًا، وخفضَت عينيها متى نظرَ أحدهم إليها.

كان الضَّباب قد انجلى وصفا الهواء، وللصُّدفة تزامنَ انزياح الظُّلمة الوجيز قُرب الظُّهر مع الوقت الذي قدَّرت وصول يوريك خلاله.

وقفَت لايرا ترتجف فوق مرتفعٍ من الثَّلج المكوَّم بكثافةٍ عند حافة المضمار، ورفعَت عينيها إلى الضَّوء الخافت في السَّماء، وتمنَّت من أعماق قلبها أن ترى سربًا من الأشكال السَّوداء الرَّشيقة السَّملة يهبط ليحملها بعيدًا، أو أن ترى مدينة الأورورا الخفيَّة حيث يُمكنها الخطو بأمانٍ في تلك الطُّرقات الواسعة إلى ضوء الشَّمس، أو أن ترى ذراعَي مَا كوستا العريضتين وتشمَّ روائح السَّمك والطَّهو التي تكتنف المرء في حضورها...

وجدَت نفسها تبكي عبراتٍ تجمَّدت ما إن ذرفَتها تقريبًا، عبراتٍ دفعَت نفسها إلى مسحها بألم. كانت خائفةً حتى النُّخاع، ولم يفهم الدِّببة -الذين لا يبكون- ما يجري لها، ورأوها مجرَّد عمليَّةٍ بشريَّة لا معنى لها عندهم. وبالطَّبع لم يستطِع پانتالايمون مواساتها كعادته، وإن أبقَت يدها داخل جيبها بحزمٍ حول تكوينه الفأري الدَّافئ الصَّغير، ومرَّغ هو أنفه في أصابعها.

إلى جوارها كان الحدَّادون يُجرون التَّعديلات الأخيرة على درع يوفور راكنيسن، وقد رفعَ قائمتيه الخلفيَّتين ليبدو كبُرجٍ معدني شاهق، يلتمع في فولاذه المصقول الذي تُرصِّع صفائحه الملساء أسلاك من الذَّهب. تُحيط خوذته بالجزء العُلوي من رأسه كقوقعةٍ برَّاقة من الرَّمادي الفضِّي، ولها فتحتا رؤيةٍ عميقتان، أمَّا الجزء السُّفلي من جسمه فيحميه قميص محكَم من الحلقات المعدنيَّة، وحين رأته لايرا أدركَت أنها خانَت يوريك برنيسن، لأنه لا يملك شيئًا من هذا، فدرعه لا تحمي إلَّا ظَهره وجانبيه. نظرَت إلى يوفور راكنيسن القوي الرَّشيق، وأحسَّت باضطرابٍ عميق بداخلها، كمزيجٍ من الذَّنب والخوف.

قالت: «بعد إذنك يا صاحِب الجلالة، إن كنت تَذكُر ما قلته لك من قبل...»، وشعرَت بصوتها الرَّاجف رفيعًا واهنًا في الهواء.

التفتَ إليها يوفور راكنيسن برأسه الضَّخم وقد شتَّتت انتباهه عن الهدف الذي يحمله ثلاثة دببة أمامه ليهوي عليه بضربات مخالبه النَّضيدة، وقال: «نعم؟ نعم؟».

- «تذكَّر أنني قلتُ إن الأفضل أن أذهب لأتكلَّم مع يوريك برنيسن أولًا، وأتظاهر...».

لكن قبل أن تختم عبارتها دوَّى هدير من الدِّببة الواقفين فوق بُرج المراقبة، وأدركَ الآخَرون ما يعنيه هذا فانضمُّوا إليهم بحماسةٍ ظافرة. لقد رأوا يوريك.

بإلحاحٍ قالت لايرا: «أرجوك، سأخدعه، سترى».

- «نعم، نعم، اذهبي، اذهبي وشجِّعيه!».

بالكاد استطاعَ يوفور راكنيسن الكلام من شدَّة الحماسة والاستثارة.

تركَته لايرا وقطعَت أرض المضمار النَّاصعة العارية مخلِّفةً آثار قدميها في الثَّلج، وافترقَ الدِّببة على الجانب الآخَر ليسمحوا لها بالمرور، وإذ انزاحَت أجسامهم الضَّخمة جانبًا انفتحَ أمامها الأُفق كئيبًا في الضَّوء الشَّاحب. أين يوريك برنيسن؟ لم ترَ شيئًا، وإن كان بُرج المراقبة عاليًا، ومن فوقه يُمكنهم أن يروا ما يخفى عنها، وما باليد حيلة إلَّا أن تتقدَّم على الثَّلج.

رآها قبل أن تراه. سمعَت دبدبةً ورنينًا معدنيًّا، ثم في زوبعةٍ من الثَّلج وجدَت يوريك برنيسن يقف إلى جوارها.

- «أوه، يوريك! لقد فعلتُ شيئًا فظيعًا! ستُقاتِل يوفور راكنيسن يا عزيزي، وأنت ما مستعد... أنت متعَب وجائع، ودرعك...».

- «أيُّ شيءٍ فظيع؟».

- «قلتُ له إنك قادم، لأنني قرأتُ هذا في قارئ الرُّموز، وهو مستميت على أن يُصبِح كالإنسان ويكون له قرين، مستميت تمامًا، فخدعته ليحسب أنني قرينتك، وأنني سأهجرك وأصبحُ قرينته بدلًا منك، لكن ليَحدُث ذلك عليه أن يُقاتِلك، لأن لولا هذا يا يوريك يا عزيزي لما سمحوا لك بالقتال. كانوا سيُحرِقونك قبل أن تقترب...».

- «أنتِ خدعتِ يوفور راكنيسن؟».

- «نعم، جعلته يُوافِق على قتالك بدلًا من قتلك مباشرةً باعتبارك منفيًّا، وسيُصبِح المنتصر ملك الدِّببة. كان عليَّ أن أفعل هذا لأن...».

قاطعَها: «بيلاكوا؟ لا، بل أنتِ لايرا لسان الفضَّة. قتاله هو كلُّ ما أرغبُ فيه. تعالي أيتها القرينة الصَّغيرة».

تطلَّعت إلى يوريك في درعه المنبعجة برشاقته وشراسته، وأحسَّت كأن قلبها سينفجر فخرًا.

سارا معًا صوب قصر يوفور الشَّامخ، حيث يمتدُّ مضمار النِّزال مسطَّحًا مفتوحًا عند سفح الأسوار، وقد تجمَّع الدِّببة في الشُّرفات وملأَت وجوههم البيضاء النَّوافذ كلَّها، ووقفَت أجسامهم الثَّقيلة كحائطٍ سميك من الأبيض السَّديمي، تُعلِّمه نُقاط أعيُنهم وأنوفهم السَّوداء. أفسحَ أقربهم الطَّريق صانعين صفَّين يمشي بينهما يوريك برنيسن وقرينته، وسلَّط كلُّ دُبٍّ حاضر عينيه عليهما.

توقّف يوريك قُبالة يوفور راكنيسن، ونزلَ الملك من فوق مرتفع الثّلج المداس، وتواجهَ الدُّبَّان من بُعد ياردات عدَّة.

كانت لايرا دانيةً للغاية من يوريك حتى إنها استشعرَت فيه رِجفةً كأنه مولِّد عظيم لطاقةٍ عنبريَّة هائلة، ولمسَته لمسةً سريعةً على عُنقه عند حافة خوذته قائلةً: «أحسِن القتال أيها العزيز يوريك. أنت الملك الحقيقي وهو لا. إنه لا شيء».

ثم تراجعَت.

وهدرَ يوريك برنيسن: «أيها الدِّببة!»، ليتردَّد صدى هديره على جُدران القصر ويُجفِل الطُّيور التي حلَّقت من أعشاشها. «إليكم شروط هذا القتال: إذا قتلَني يوفور راكنيسن فهو الملك إلى الأبد، آمن من التَّحدِّي والنِّزاع. وإذا قتلتُ يوفور راكنيسن فأنا ملككم، وأول أمرٍ أمليه عليكم أن تهدموا هذا القصر، أن تهدموا بيت الزَّيف والبُهرج المعطَّر هذا وتُلقوا الذَّهب والرُّخام في البحر. الحديد معدن الدِّببة وليس الذَّهب. لقد لوَّث يوفور راكنيسن سڤالبارد، وأنا جئتُ أطهِّرها. يوفور راكنيسن، إنني أتحدَّاك».

تقدَّم يوفور خُطوةً أو اثنتين كأنه قادر على منع نفسه بصعوبة، وردَّ هادرًا بدوره: «أيها الدِّببة! لقد عادَ يوريك برنيسن بدعوةٍ مني. أنا استدعيته إلى هنا، ومنوط بي أنا أن أضع شروط هذا القتال، وها هي ذي: إذا قتلتُ يوريك برنيسن فسيُمزَّق لحمه تمزيقًا ويُلقى لمسوخ الجروف، وسيُعلَّق رأسه فوق قصري. ستُمحى ذكراه محوًا، ويكون ذِكر اسمه جريمةً عقوبتها الإعدام...».

واصلَ الكلام، ثم تكلَّم كلُّ دُبٍّ ثانيةً. إنه عُرف، طقس يُتَّبع بإخلاص. نظرَت لايرا إليهما بتبايُنهما الشَّديد؛ يوفور ببريقه وقوَّته وضخامته وعنفوانه مدرَّعًا ببهاءٍ وإباءٍ يليقان بملك، ويوريك أصغر حجمًا مع أنها لم تحسب قَطُّ أن تراه صغيرًا، ومجهَّز بعُدَّةٍ فقيرة، درعه منبعجة صدئة... إلَّا أن درعه هذه هي روحه، صنعَها بيديه وتُلائمه. إنهما واحد، أمَّا يوفور فلم يقنع بدرعه، ويشتهي روحًا أخرى أيضًا، متململٌ في حين أن يوريك راسخ.

وكانت لايرا تعي أن المقارنة نفسها تجول بعقول الدِّببة الآخَرين جميعًا. لكن يوريك ويوفور أكثر من مجرَّد دُبَّين. إنهما نوعان متعارضان من الدِّببيَّة، مستقبلان، مصيران. يوفور بدأ يقودهم في اتِّجاه، ويوريك سيأخذهم في آخَر، وفي اللَّحظة ذاتها سينغلق أحد المستقبلَيْن إلى الأبد ويبدأ الثَّاني.

انتقلَ قتالهما الطَّقسي إلى المرحلة الثَّانية، وبدأ الدُّبَّان يتحرَّكان على الثَّلج، يتقدَّمان شيئًا فشيئًا ويُلوِّحان برأسيهما، في حين لم يتحرَّك المتفرِّجون قيد أُنملة، لكن أعيُنهم تابعَتهما طوال الوقت.

وأخيرًا سكنَ المُحاربان وصمتا، يُراقِب كلاهما الآخَر إذ تواجَها عبر عرض مضمار النِّزال.

ثم، بجؤارٍ مدوٍّ وفي عاصفةٍ من الثَّلج المتطاير تُغشي الأبصار، تحرَّك كلا الدُّبَّين في آنٍ واحد. ككُتلتين عظيمتين من الصَّخر متوازنتين فوق قمَّتين متجاورتين خلخلَهما زلزال وأسقطَهما على جانبَي جبليهما، لتتزايَد سرعتهما وهما تثبان فوق الشُّقوق وترتطمان بالأشجار محيلتين إياها إلى شظايا، إلى أن تتصادَما بعُنفٍ أحالَ كلتيهما إلى مسحوق ورقائق حجريَّة متطايرة-هكذا كان صِدام

الدُّبَّين الذي دوَّى في الهواء السَّاكن وارتدَّت أصداؤه عن جُدران القصر. لكن الارتطام لم يُدمِّرهما كما كان ليُدمِّر الصَّخرتين، بل سقطَ كلاهما جانبًا، ثم سبقَ يوريك غريمه إلى النُّهوض، والتوى معتدلًا بوثبةٍ رشيقة واشتبكَ مع يوفور الذي أتلفَت الصَّدمة دِرعه ولم يستطِع رفع رأسه بسهولة. انقضَّ يوريك في الحال على الجزء المكشوف من عُنقه ونهشَ الفرو الأبيض، ثم عقفَ مخالبه تحت حافة خوذة يوفور وشدَّها إلى الأمام.

مستشعرًا الخطر، زمجرَ يوفور ونفضَ جسمه كما رأت لايرا يوريك يفعل عند الضفَّة لتتناثَر المياه عاليًا في الهواء. سقطَ يوريك، وبصريخ من المعدن الملتوي شدَّ يوفور قامته مقوِّمًا فولاذ الصَّفائح على ظَهره بقوَّةٍ رهيبة، ثم مِثل الانهيار الصَّخري ألقى نفسه على يوريك الذي لا يزال يُحاوِل النُّهوض.

شعرَت لايرا بصدرها يَفرُغ من الأنفاس من عُنف هذه السَّقطة، ولا ريب أن الأرض نفسها ارتجَّت من تحتها. كيف يُمكن ليوريك أن ينجو من هذا؟ كان يُكافِح للالتواء والاعتدال، لكن أقدامه إلى أعلى، ويوفور غرسَ أسنانه في بُقعةٍ قُرب حَلقه جاعلًا قطرات الدَّم تتطايَر في الهواء، وحطَّت واحدة منها على معطف لايرا، فضغطَت يدها عليها كتذكار حُب.

ثم انغرسَت مخالب يوريك الخلفيَّة في حلقات قميص يوفور المعدني وتحرَّكت إلى أسفل ممزِّقةً إياه، لتَسقُط مقدِّمته كلُّها ويميل يوفور جانبًا ليَنظُر إلى التَّلف، تاركًا الفُرصة ليوريك ليعتدل من جديد.

للحظةٍ وقفَ الدُّبَّان مفترقيْن يلتقطان أنفاسهما. الآن تُعَرقِل حلقات المعدن يوفور، إذ استحالَت في غمضة عينٍ من واقٍ إلى عائق، خاصَّةً أن القميص لا يزال مثبَّتًا من أسفل وينجرُّ حول قدميه الخلفيَّتين. بيد أن حالة يوريك أسوأ، ينزف الدَّم من جرحٍ في عُنقه ويلهث بشدَّة.

لكنه هجمَ على يوفور قبل أن يستطيع الملك حلَّ نفسه من القميص المعدني، وأسقطَه رأسًا على عقب، متبعًا هذا بالانقضاض على الجزء العاري من عُنقه حيث التوَت حافة الخوذة. دفعَه يوفور، ثم عادا يشتبكان ناثريْن نوافير من الثَّلج الذي تطايرَ في كلِّ اتِّجاهٍ وصعَّب أحيانًا رؤية المتفوِّق.

شاهدَت لايرا وهي تكاد لا تجرؤ على التَّنفُّس وقد اعتصرَت يديها معًا بقوَّةٍ مؤلمة. خُيِّلَ إليها أنها رأت يوفور يصنع شقًّا في بطن يوريك، ولكن لا يُمكن أن يكون ذلك صحيحًا، لأن بعد لحظة، بعد انفجارٍ آخَر من الثَّلج، كان كلا الدُّبَّين يقف معتدلًا كالملاكمين، ويوريك ينهال بضربات مخالبه الماضية على وجه يوفور، ويوفور يردُّ الضَّربات بالضَّراوة نفسها.

ارتجفَت لايرا من ثقل هذه الضَّربات، كأن عملاقًا يهوي بمطرقةٍ ثقيلة، وهذه المطرقة مزوَّدة بخمسة خوازيق من الفولاذ...

ارتطمَ الحديد بالحديد، واصطدمَت الأسنان بالأسنان، وارتفعَ صوت الأنفاس الخشنة، ودقَّت الأقدام كالرَّعد على الأرض الصُّلبة، وتلطَّخ الثَّلج حولهما بالأحمر واستحالَ على مسافة ياردات إلى وحلٍ قرمزي.

كانت درع يوفور قد صارَت في حالةٍ مزرية، تمزّقت صفائحها واعوجَّت، وتفسَّخت زينتها الذّهبيَّة أو تلوَّثت بدمٍ غزير، وانخلعَت الخوذة تمامًا. أمَّا درع يوريك فحالتها أفضل كثيرًا على الرغم من قُبحها؛ منبعجة لكن سليمة، وتحتمل ضربات مطرقة ملك الدِّببة بصلابةٍ أشد، وتصدُّ هذه المخالب الوحشيَّة البالغ الواحد منها البوصات السِّت طولًا.

لكن ضد هذا ما زالَ يوفور أضخم وأقوى من يوريك، ويوريك مرهَق جائع، وفقدَ دمًا أكثر، ذلك أنه جريح في بطنه وكلتا ذراعيه وعُنقه، في حين أن يوفور ينزف من فكِّه السُّفلي فحسب. أرادَت لايرا بكلِّ جوارحها أن تُساعِد صديقها العزيز، ولكن ماذا تفعل؟

والآن يسوء الوضع بالنِّسبة إلى يوريك الذي يعرج، وكلَّما وضعَ كفَّه الأماميَّة اليُسرى على الأرض رأوا أنها تحتمل وزنه بالكاد. لم يستخدمها لتوجيه ضرباته قَطُّ، وضربات يده اليُمنى أوهى كذلك، تكاد تكون تربيتاتٍ صغيرةً مقارنةً باللطمات الهائلة السَّاحقة التي هوى بها قبل دقائق معدودة.

ولاحظَ يوفور هذا، وبدأ يستهزئ بيوريك، ينعته بذي اليد المكسورة، بالدَّيسم الباكي، بالذي أكلَه الصَّدأ، بمَن سيموت قريبًا، وغيرها من الشَّتائم، منهالًا عليه طوال الوقت من اليمين واليسار بضربٍ لم يَعُد يوريك يقوى على تفاديه، واضطرَّ إلى التَّقهقُر خُطوةً خُطوةً والانحناء بشدَّةٍ تحت وابل ضربات ملك الدِّببة الهازئ.

وتبكي لايرا. عزيزها، صديقها الشُّجاع، حاميها المقدام سيموت، وهي لن تخونه بالإشاحة ببصرها، لأنه إذا نظرَ ناحيتها فيجب أن يرى عينيها اللّامعتين وما فيهما من حُبٍّ وإيمان، لا أن يرى وجهًا مشيحًا بجُبنٍ أو كتفًا دائرةً بخوف.

وهكذا نظرَت، لكن دموعها حالَت دون رؤيتها ما يَحدُث حقًّا، وربما ما كان ليظهر لها على كلِّ حال، والمؤكَّد أن يوفور لم يرَه.

لأن يوريك يتقهقَر لمجرَّد أن يجد موطئ قدمٍ نظيفًا جافًّا وصخرةً ثابتةً يثب من فوقها، ولأن الذِّراع اليُسرى عديمة الفائدة في الحقيقة سليمة قويَّة. لا يُمكنك أن تخدع دُبًّا، ولكن -كما أرَته لايرا- يوفور لا يُريد أن يكون دُبًّا، بل يُريد أن يكون رجلًا، ويوريك يخدعه.

وأخيرًا وجدَ ما يسعى له؛ صخرةً ثابتةً في عُمق الطَّبقة المتجلِّدة، وألصقَ بها ظَهره شادًّا قوائمه ومختارًا لحظته.

وأتَت اللَّحظة عندما رفعَ يوفور نفسه عاليًا فوقه، هادرًا بالظَّفر ومديرًا رأسه بتهكُّمٍ نحو جانب يوريك الأيسر الذي يبدو عليه الضَّعف.

وعندها تحرَّك يوريك. كموجةٍ تبني قوَّتها على مدى ألف ميلٍ من المحيط ولا تُحدِث إلَّا حراكًا محدودًا في المياه العميقة، لكن حين تَبلُغ المياه الضَّحلة ترفع نفسها عاليًا في السَّماء فتُثير ذُعر أهل السَّاحل، قبل أن تهوي على اليابسة بقوَّةٍ لا تُقهَر -هكذا ارتفعَ يوريك برنيسن ضد يوفور متفجِّرًا إلى أعلى من موطئ قدمه الثَّابت على الصَّخرة الجافَّة وهاويًا بيده اليُسرى العاتية على فكِّ يوفور راكنيسن المكشوف.

كانت ضربةً مرعبةً انتزعَت الجزء السُّفلي من فكِّ يوفور، ليطير في الهواء ناثرًا قطرات الدَّم على الثَّلج على بُعد ياردات عديدة.

وسقطَ لسان يوفور الأحمر من فمه وتدلَّى فوق حَلقه المفتوح. فجأةً أضحى ملك الدِّببة بلا صوت، بلا قُدرةٍ على العضِّ، بلا قوَّة.

ولم يحتَج يوريك إلى ما هو أكثر. انقضَّ، وأطبقَت أسنانه على حَلق يوفور وراحَ يهزُّه ويهزُّه في هذا الاتِّجاه وذاك، يرفع الجسم الضَّخم عن الأرض ثم يضربها به كأن يوفور ليس إلَّا فظًّا على حافة الماء.

ثم إنه انتزعَ، وخرجَت حياة يوفور راكنيسن بين أسنانه.

وهكذا تبقَّى طقس واحد. شقَّ يوريك صدر الملك الميت غير المحمي، نازعًا الفرو ليكشف عن الضُّلوع البيضاء والحمراء الضيِّقة كأخشاب قاربٍ مقلوب، ثم مد يدَّه داخل القفص الصَّدري واجتثَّ قلب يوفور الأحمر السَّاخن، وأمام رعايا يوفور التهمَه.

وفي اللَّحظة التَّالية ارتفعَ الهتاف والتَّهليل، وأقبلَ الدِّببة متزاحمين ليُعلِنوا البيعة لقاهر يوفور.

وقال يوريك برنيسن بصوتٍ طغى على جعجعتهم: «أيها الدِّببة! مَن ملككم؟».

وردَّت عليه الصَّيحة المدوِّية كعاصفةٍ تضرب محيطًا: «يوريك برنيسن!».

عرفَ الدِّببة ما عليهم فعله، وانتُزِعَت كلُّ شارةٍ ووشاحٍ وإكليلٍ في الحال، وديسَت باحتقارٍ لتُنسى في لحظة. إنهم دببة يوريك الآن، دببة حقيقيُّون لا أنصاف بشرٍ غير واثقين بماهيتهم ولا يعون إلَّا دونيَّةً معذِّبةً، وهكذا انطلقوا نحو القصر وشرعوا يُلقون قوالب الرُّخام الضَّخمة من أعلى البروج، يرجُّون أسوار الشُّرفات بقبضاتهم البطَّاشة حتى خلخَلوا الحجارة، ثم يُلقونها من أعلى الجروف لتتحطَّم على السَّاحل أسفلهم بمئات الأقدام.

تجاهلَهم يوريك وخلعَ درعه ليعتني بجروحه، لكن قبل أن يبدأ وجدَ لايرا إلى جواره تدقُّ الثَّلج القرمزي المتجلِّد بقدمها وتصيح في الدِّببة أن يتوقَّفوا عن هدم القصر، لأن بداخله سُجناء. لم يسمعوها، لكن يوريك سمعَ، ولمَّا هدرَ توقَّفوا من فورهم.

سألَها: «سُجناء بشريُّون؟».

- «نعم... يوفور راكنيسن وضعَهم في الزَّنازين... يجب أن يَخرُجوا أولًا ويأووا إلى مكانٍ ما وإلَّا قتلَتهم الصُّخور المنهارة جميعًا...».

أعطى يوريك أوامر سريعةً، وهرعَ بعض الدِّببة إلى داخل القصر لإطلاق سراح السُّجناء، فيما التفتَت لايرا إلى يوريك قائلةً: «دعني أساعدك... أريدُ أن أتأكَّد من أنك لست مصابًا بشدَّة أيها العزيز يوريك... أوه، ليت معنا ضمادات أو شيء ما! هذا الجرح في بطنك بليغ...».

على الأرض عند قدمَي يوريك وضعَ دُبٌّ ملء فمٍ من شيءٍ أخضر يابس يكسوه الصَّقيع بكثافة، وقال يوريك: «طحلب دموي. اضغطيه داخل الجرح من أجلي يا لايرا. اثني الجِلد فوقه ثم ضعي القليل من الثَّلج عليه حتى يتجمَّد».

لم يسمح لأيٍّ من الدِّببة بتطبيب جراحه على الرغم من همَّتهم، كما أن يدَي لايرا رشيقتان، ولديها رغبة طاغية في مساعدته. وهكذا مالَت البشريَّة الصَّغيرة على ملك الدِّببة العظيم معبِّئةً الجرح بالطُّحلب الدَّموي ومجمِّدةً اللَّحم النَّيئ حتى كفَّ عن النَّزيف، ولمَّا فرغَت كان قُفَّازاها مشبَّعيْن بدم يوريك، لكن جروحه سُدَّت.

وعندئذٍ كان السُّجناء -نحو دستةٍ من الرِّجال المرتعشين المتلملمين معًا يطرفون بأعيُنهم- قد خرجوا. قرَّرت لايرا أن لا جدوى من الكلام مع البروفسور، لأن الرَّجل المسكين فقدَ عقله، وإن كانت لتودَّ أن تتعرَّف إلى الآخَرين، لكن هناك أشياء أخرى كثيرة عاجلة يجب فعلها، كما أنها لم تُرِد تشتيت انتباه يوريك الذي يُلقي أوامر سريعةً ويُرسِل الدِّببة يهرعون هنا وهناك. على أنها قلقة على روچر، وعلى لي سكورزبي والسَّاحرات، وجائعة ومتعَبة... وفكَّرت أن خير ما تفعله الآن أن تبتعد عن الطَّريق.

وهكذا تكوَّرت على نفسها في رُكنٍ هادئ من مضمار النِّزال مع پانتالايمون الذي تحوَّل إلى وولڤرين ليُدفِّئها، وكوَّمت الثَّلج فوق نفسها على غرار الدِّببة، ونامَت.

***

نكزَ شيء ما قدمها، وقال صوت دُبٍّ غريب: «لايرا لسان الفضَّة، الملك يُريدكِ».

استيقظَت على شفا الموت بردًا، ولم تستطِع فتح عينيها اللتين تجمَّدتا، لكن پانتالايمون لعقَهما ليُذيب الثَّلج عن أهدابها، وسرعان ما تمكَّنت من رؤية الدُّب الشَّاب الذي يُكلِّمها في نور القمر.

حاولَت الوقوف، لكنها سقطَت مرَّتين، فقال الدُّب: «اركبيني»، وقبعَ مقدِّمًا إليها ظَهره العريض، وبين شِبه تشبُّثٍ وشِبه سقوطٍ استطاعَت البقاء على متنه فيما أخذَها إلى فراغٍ منحدِر يجتمع فيه الدِّببة.

وبينهم كان جسد صغير اندفعَ نحوها، ووثبَت قرينته تُحيِّي پانتالايمون.

- «روچر!».

- «يوريك برنيسن جعلَني أنتظرُ بالخارج في الثَّلج فيما ذهبَ ليُحضِركِ... لقد سقطنا من المنطاد يا لايرا! بعد سقوطكِ حُمِلنا أميالًا وأميالًا، ثم سرَّب المستر سكورزبي المزيد من الغاز وارتطمنا بجبلٍ وسقطنا على منحدَرٍ لم تري له مثيلًا! ولا أدري أين المستر سكورزبي الآن، ولا السَّاحرات. لم يَعُد إلَّاي ويوريك برنيسن. لقد عادَ سالكًا هذا الطَّريق مباشرةً ليبحث عنكِ. ثم إنهم أخبَروني بأمر هذا القتال...».

تلفَّتت لايرا حولها. تحت إشراف أحد الدِّببة الأكبر سِنًّا كان السُّجناء البشريُّون يبنون مأوًى من الخشب المجروف وخِرق قُماش الأشرعة، وقد بدا عليهم السُّرور لإيجادهم شيئًا يفعلونه، فيما يُحاوِل أحدهم إشعال نارٍ بحجرَي صوَّان.

أخبرَها الدُّب الشَّاب الذي أيقظَها: «هناك طعام».

على الثّلج جثة فقمةٍ طازجة، شقّها الدُّب بمخلبٍ وأرى لايرا أين تجد الكليتيْن، فأكلَت واحدةً نيئةً لتجدها دافئةً وطريَّة وتفوق لذاذتها الخيال.

قال الدُّب: «كُلي الشَّحم أيضًا»، ومزَّق لها قطعةً، ووجدَت مذاقها كالقشدة المنكَّهة بالبندق. تردَّد روچر في البداية، لكنه حذا حذوها وأكلَ كلاهما بنهم، وخلال دقائق قليلة جدًّا كانت لايرا قد أفاقَت بالكامل وبدأت تَشعُر بالدِّفء.

مسحَت فمها ناظرةً حولها، لكنها لم ترَ أثرًا ليوريك، فقال الدُّب الشَّاب: «يوريك برنيسن يتحدَّث مع المستشارين. يُريد أن يراكما بعد أن تأكلا. اتبعاني»، وقادَهما فوق مرتفعٍ في الثَّلج إلى بُقعةٍ بدأ الدِّببة يبنون فيها جِدارًا من قوالب الجليد.

كان يوريك جالسًا في مركز حلقةٍ من الدِّببة الأكبر سِنًّا، ولمَّا رآها نهضَ يُحيِّيها قائلًا: «لايرا لسان الفضَّة، تعالي واسمعي ما يُقال لي».

لم يُفسِّر وجودها للدِّببة الآخَرين، أو ربما أخبرَهم عنها بالفعل، لكنهم أفسَحوا لها مكانًا وعامَلوها بكياسةٍ بالغة كأنها ملكة، وشعرَت هي بفخرٍ يفوق الوصف لجلوسها إلى جوار صديقها يوريك برنيسن تحت الأورورا التي تتألَّق بخفَّةٍ في السَّماء القُطبيَّة، وانضمامها إلى حديث الدِّببة.

اتَّضح أن سيطرة يوفور راكنيسن عليهم كانت كالتَّعويذة، وفسَّر بعضهم هذا بنفوذ المسز كولتر التي زارَته قبل نفي يوريك -وإن لم يعلم يوريك بذلك- وأغدقَت على يوفور بالهدايا.

قال أحد الدِّببة: «أعطَته مخدِّرًا أطعمَه سرًّا لهيالمور هيالمورسن وجعلَه ينسى نفسه».

استنتجَت لايرا أن هيالمور هيالمورسن هو الدُّب الذي قتلَه يوريك وجلبَ موته عليه المنفى. كانت المسز كولتر وراء هذا إذن!

وهناك المزيد.

- «ثمَّة قوانين بشريَّة تمنع أشياء معيَّنةً كانت تُخطِّط لفعلها، لكن قوانين البشر لا تُطبَّق في سڤالبارد. أرادَت أن تُنشئ هنا محطَّةً أخرى على غرار بولڤانجار ولكن أسوأ، وكان يوفور سيسمح لها بذلك مخالفًا كلَّ أعراف الدِّببة. سبقَ أن زارَنا البشر أو سُجِنوا هنا، لكنهم لم يُقيموا ويعملوا قَطُّ. شيئًا فشيئًا كانت ستُزيد سُلطتها على يوفور راكنيسن وسُلطته علينا، إلى أن نُصبِح مخلوقاتها التي تهرع هنا وهناك تلبيةً لأوامرها، وواجبنا الوحيد أن نَحرُس المسخ الذي كانت ستصنعه...».

المتكلِّم دُبٌّ عجوز اسمه سورِن إيسارسن، وهو مستشار عانى تحت نير يوفور راكنيسن.

سألَها يوريك: «ما الذي تفعله الآن يا لايرا؟ ما خطَّتها حينما تسمع بموت يوفور؟».

أخرجَت الأليثيوميتر، لكن الضَّوء لا يكفي لأن تراه عليه، فأمرَ يوريك بجلب مشعل، وفي أثناء انتظارهم سألَت لايرا: «ماذا حدثَ للمستر سكورزبي؟ والسَّاحرات؟».

- «السَّاحرات هاجمَتهن عشيرة ساحراتٍ أخرى. لا أدري إن كانت الأخريات متحالفاتٍ مع قاطعي الأطفال، لكنهن كن يَجُبن سماواتنا بأعدادٍ ضخمة، وهاجَمنِ خلال العاصفة. لم أرَ ما حدثَ لسيرافينا پكالا. وبالنِّسبة إلى لي سكورزبي فقد ارتفعَ المنطاد ثانيةً بعد سقوطي مع الصَّبي وأخذَه معه. لكن قارئ رموزكِ سيُخبِرك بمصيرهما».

سحبَ أحد الدِّببة مزلجةً ينبعث الدُّخان من قِدرٍ من الفحم فوقها، وألقى في قلب القِدر فرعًا من خشب الرَّاتنج اشتعلَ في الحال، وفي وهجه حرَّكت لايرا عقارب الأليثيوميتر وسألَت عن لي سكورزبي.

اتَّضح أنه ما زالَ في الجوِّ، تحمله الرِّياح نحو نوڤا زمبلا، وأن مسوخ الجروف لم يُؤذوه، وأنه قاومَ ساحرات العشيرة الأخرى.

أخبرَت لايرا يوريك، فأومأ برأسه راضيًا، وقال: «ما دامَ في الجوِّ فهو آمن. وماذا عن المسز كولتر؟».

جاءَت الإجابة معقَّدةً، إذ دارَت الإبرة من رمزٍ إلى رمزٍ في تتابُعٍ حيَّر لايرا وقتًا طويلًا. انتابَ الفضول الدِّببة، وإن ألجمَهم احترامهم ليوريك برنيسن واحترامه للايرا، ونحَّتهم هي عن عقلها وغاصَت ثانيةً في الغشية الأليثيوميتريَّة.

وما إن اكتشفَت نمط اللَّعب على الرُّموز وجدَته مروِّعًا.

- «يقول إنها... إنها سمعَت بطيراننا في هذا الاتِّجاه، وحصلَت على زپلن مسلَّح بالمدافع الرشَّاشة... أظنُّ أن هذا هو الجواب... وهُم في الطَّريق إلى سڤالبارد الآن. إنها لم تعرف بعدُ بهزيمة يوفور راكنيسن بالطَّبع، لكنها ستعرف قريبًا لأن... أوه، نعم، لأن بعض السَّاحرات سيُخبِرنها بعد أن يعرفن من مسوخ الجروف. أظنُّ إذن أن في الجوِّ جواسيس في كلِّ مكانٍ حولنا يا يوريك. كانت آتيةً لـ... لتتظاهَر بمساعدة يوفور راكنيسن، لكن الحقيقة أنها كانت ستستولي على السُّلطة منه بكتيبةٍ من التَّرتار القادمين بحرًا وسيصلون خلال يومين. وبمجرَّد أن تستطيع ستذهب إلى مكان سجن اللورد آزريل وتجعلهم يَقتُلونه، لأن... الأمر يتَّضح الآن. إنه شيء لم أفهمه من قبل يا يوريك! سبب رغبتها في قتل اللورد آزريل أنها تعلم ما سيفعله وتخشاه، وتُريد أن تسبقه إلى فعله لتستحوذ على التَّحكُّم قبله... مؤكَّد أنها المدينة في السَّماء، مؤكَّد! إنها تُحاوِل الوصول إليها أولًا! والآن يُخبِرني بشيءٍ آخَر...».

مالَت فوق الأداة مركِّزةً بشدَّةٍ إذ اندفعَت الإبرة من اتِّجاهٍ إلى آخَر، تتحرَّك بسرعةٍ تكاد تكون أكبر من أن تُتابِعها. روچر النَّاظر من فوق كتفها لم يرَها تتوقَّف حتى، ولم يعِ إلَّا الحوار الخاطف بين أصابع لايرا التي تُدوِّر العقارب وإجابات الإبرة بلُغةٍ عجيبة مذهلة كالأورورا ذاتها.

أخيرًا قالت: «نعم»، ووضعَت الأداة في حِجرها رامشةً بعينيها ومتنهِّدةً إذ أفاقَت من تركيزها البالغ. «نعم، أرى ما يقوله. إنها تسعى ورائي ثانيةً، تُريد شيئًا ما معي لأن اللورد آزريل يُريده أيضًا. يحتاجان إليه من أجل هذه... هذه التَّجربة أيًّا كانت...».

توقّفت لتلتقط نفسًا عميقًا. شيء ما يُزعِجها وتجهل ماهيته. إنها واثقة بأن هذا الـ«شيء ما» المهم هو الأليثيوميتر نفسه، لأن المسز كولتر أرادَته بالفعل، وماذا عساه يكون غيره؟ ومع ذلك فهو ليس الأليثيوميتر، لأن للأداة طريقةً أخرى للإشارة إلى نفسها، وهذه ليست هي.

قالت بتعاسة: «أظنُّ أنه الأليثيوميتر، كما حسبتُ دومًا. يجب أن آخذه إلى اللورد آزريل قبل أن تناله. إذا نالَته فسنموت جميعًا».

إذ قالت هذا شعرَت بتعبٍ شديد، بإرهاقٍ وحُزنٍ حتى النُّخاع، لدرجة أن الموت كان بمثابة راحة. لكن مثال يوريك منعَها من الاعتراف بهذا، فوضعَت الأليثيوميتر في مكانه وجلسَت معتدلةً.

سألَ يوريك: «كم تَبعُد؟».

- «ساعات قليلة. أظنُّ أن عليَّ أخذ الأليثيوميتر إلى اللورد آزريل في أقرب وقتٍ ممكن».

- «سأذهبُ معكِ».

لم تُجادِل، وبينما أعطى يوريك الأوامر وجهَّز فِرقةً مسلَّحةً تصحبهم إلى المرحلة الأخيرة من رحلتهم في الشَّمال، جلسَت لايرا ساكنةً تدَّخر طاقتها وقد شعرَت كأنها فقدَت شيئًا ما خلال هذه القراءة الأخيرة.

أسبلَت جفنيها ونامَت، وبعد قليلٍ أيقظوها وبدأوا الحركة.

(21) استقبال اللورد آزريل

امتطَت لايرا دُبًّا شابًّا قويًّا وامتطى روجر دُبًّا آخَر، فيما انطلقَ يوريك بلا كللٍ أمامهم وتحرَّكت فِرقة مسلَّحة بقاذفة نارٍ في المؤخِّرة لتَحرُسها.

الطَّريق طويل وعِر، فسڤالبارد من الدَّاخل زاخرة بالجبال ذات القمم المتلاصقة بغير نظامٍ والمرتفعات الحادَّة التي تخترقها وُهدان عميقة ووُديان منحدِرة الجوانب، وبالإضافة إلى ذلك فالبرد قارس قاسٍ. تذكَّرت لايرا مزلجات الجيپتيّين المندفعة بنعومةٍ في الطَّريق إلى بولڤانجار، وكم يبدو تقدُّمها سريعًا مريحًا الآن! الهواء هنا ثاقب البرودة لدرجةٍ لم تختبِرها من قبل، أو قد لا يكون الدُّب الذي تركبه خفيف الحركة مِثل يوريك، أو قد تكون هي المنهَكة قلبًا وقالبًا. أيًّا كان السَّبب، فالرِّحلة صعبة للغاية.

لا تعرف لايرا إلَّا القليل عن وجهتهم أو كم تَبعُد. كلُّ ما تعرفه هو ما أخبرَها به سورِن إيسارسن وهُم يُجهِّزون قاذفة النَّار، إذ كان للدُّب الأكبر سِنًّا دور في التَّفاوُض مع اللورد آزريل حول شروط حبسه، ولم يزَل يَذكُرها جيِّدًا.

قال لها إن في البداية عدَّ دببة سڤالبارد اللورد آزريل كأيٍّ من سواه من السَّاسة أو الملوك أو مثيري المتاعب، الذين نُفوا إلى جزيرتهم الموحشة. هؤلاء السُّجناء مهمُّون، وإلَّا لقتلَهم قومهم مباشرةً وبلا إبطاء، وربما تصير لهم قيمة عند الدِّببة يومًا إذا تبدَّلت حظوظهم السِّياسيَّة وعادوا إلى الحُكم في بلادهم، ولذا فلعلَّه من المربح للدِّببة ألَّا يُعامِلوهم بغلظةٍ أو امتهان.

وهكذا لم يجد اللورد آزريل الأحوال في سڤالبارد أفضل أو أسوأ مما وجدَها مئات من المنفيِّين غيره، ولو أن أشياء معيَّنةً جعلَت سجَّانيه يحترسون منه أكثر من مساجين آخَرين لديهم، مِثل سمت الغموض والخطر الرُّوحاني المحيط بكلِّ شيءٍ له علاقة بـ(الغُبار)، والهلع الجلي من جانب الذين أتوا به، والاتِّصالات الخاصَّة بين المسز كولتر ويوفور راكنيسن.

ثم إن الدِّببة لم يلتقوا قَطُّ أحدًا بطبيعة اللورد آزريل الاستبداديَّة المتكبِّرة، فطغى على يوفور راكنيسن ذاته محاججًا إياه بقوَّةٍ وفصاحة، وأقنعَ ملك الدِّببة بأن يَترُكه يختار محلَّ إقامته.

قال محتجًّا إن المكان الذي خُصِّصَ له منخفض للغاية، وإنه محتاج إلى بُقعةٍ عالية فوق دُخان مناجم النَّار ووِرش الحدادة وضجَّتها، وأعطى الدِّببة تصميمًا للمسكن الذي يرغب فيه وأخبرَهم أين ينبغي تشييده، ورشاهم بالذَّهب، وأطرى على يوفور راكنيسن وأرهبَه. وهكذا بإذعانٍ مندهش بدأ الدِّببة العمل، ولم يمضِ وقت طويل قبل أن يرتفع منزل فوق بروزٍ أرضي يُواجِه الشَّمال، مكان فسيح متماسك مزوَّد بمدفأةٍ تحترق فيها قوالب ضخمة من الفحم الذي استخلصَه الدِّببة ونقلوه، وله نوافذ كبيرة من الزُّجاج الحقيقي. وهناك يُقيم، سجينًا يتصرَّف كالملوك.

وبعد ذلك شرع في جمع المواد من أجل معمل.

بتركيزٍ شديد أرسلَ في طلب كُتبٍ وأدواتٍ وكيماويَّات، وشتَّى أصناف التَّجهيزات والمعدَّات، وبوسيلةٍ ما جاءَت من هذا المصدر أو ذاك، بعضها جهرًا وبعضها هرَّبه الزُّوَّار الذين أصرَّ على حقِّه في استقبالهم. برًّا وبحرًا وجوًّا جمعَ اللورد آزريل أدواته، وفي غضون شهورٍ ستَّة من سجنه ظفرَ بكلِّ المعدَّات التي أرادَها.

وهكذا عملَ، يُفكِّر ويُخطِّط ويحسب، ينتظر الشَّيء الوحيد الذي يعوزه لإكمال المهمَّة إياها التي تُروِّع هيئة القرابين إلى هذا الحدِّ، وكلَّ دقيقةٍ يقترب أوانها.

***

لمحَت لايرا محبس أبيها للمرَّة الأولى عندما توقَّف يوريك برنيسن عند سفح مرتفعٍ لكي يُحرِّك الطِّفلان أطرافهما ويشدَّان قامتيهما، لأن البرد والتَّيبُّس بدآ يُؤثِّران فيهما بخطورة.

قال لها: «انظَري إلى أعلى، هناك».

نظرَت فرأت منحدَرًا وعرًا عريضًا من الصَّخر والجليد المنهاريْن، حيث أُخلِيَ مجاز بكثيرٍ من المشقَّة، ليقود إلى جُرفٍ محدَّد تحت السَّماء. ليست هناك أورورا، لكن النُّجوم ساطعة، ويرتفع الجُرف أسود كئيبًا، لكن على قمَّته بناء فسيح يترقرَق من داخله الضَّوء ببذخٍ في كلِّ جهة؛ ليس وميض قناديل الشَّحم الدُّخاني غير المنتظم، وليس بياض الكشَّافات العنبريَّة الجافّ، وإنما وهج النَّفثة القشدي الدَّافئ.

برهنَت النَّوافذ التي يأتي منها الضَّوء على قوَّة اللورد آزريل المهيبة أيضًا، فالزُّجاج مكلِّف، واستخدام ألواحٍ كبيرة منه تبذير للحرارة في هذه الأصقاع القاسية، ولذا فرؤيتها هنا دليل على ثروةٍ ونفوذٍ أعظم مرارًا من قصر يوفور راكنيسن المبتذل.

ركبَت لايرا وروچر دُبَّيهما للمرَّة الأخيرة، وقادَ يوريك الطَّريق صاعدًا المنحدَر نحو المنزل. ثمَّة ساحة مدفونة تحت الثُّلوج يُحيط بها سور واطئ، ولمَّا دفعَ يوريك البوَّابة سمعوا جرسًا يرنُّ في مكانٍ ما داخل المبنى.

ترجَّلت لايرا لتجد نفسها قادرةً على الوقوف بصعوبة، ثم ساعدَت روچر على النُّزول، واتَّكأ كلا الطِّفلين على الآخَر وتقدَّما متعثِّرين في الثَّلج المرتفع حتى الفخذ صوب الدَّرجات التي تقود إلى الباب.

يا للدِّفء الذي سيجدانه داخل هذا المنزل! يا للرَّاحة الآمنة!

مدَّت يدها إلى مقبض الجرس، لكن قبل أن تَبلُغه انفتحَ الباب، ومن ورائه ظهرَت طُرقة صغيرة خافتة الإضاءة من أجل الحفاظ على الهواء الدَّافئ، وتحت المصباح وقفَ شخص تعرَّفته: ثورولد خادم اللورد آزريل، ومعه قرينته كلبة البينشر المسمَّاة آنفانج.

بإنهاكٍ أزاحَت لايرا قلنسوتها.

بدأ ثورولد يسأل: «مَن...»، ثم إنه رأى مَن، وتابعَ: «لايرا؟ الصَّغيرة لايرا؟ هل أحلمُ؟»، ومدَّ يده وراءه يفتح الباب الدَّاخلي.

بهو تضطرم فيه نار الفحم في مستوقَدٍ حجري، وضوء نفثةٍ دافئ يتوهَّج على الأرض المفروشة بالبُسط، ومقاعد جِلديَّة، وخشب ملمَّع... أشياء لم ترَ لايرا مِثلها منذ تركَت كلِّيَّة چوردان، وقد دفعَت شهقةً مخنوقةً إلى حَلقها.

وزمجرَت قرينة اللورد آزريل نمرة الثُّلوج.

وكان أبو لايرا واقفًا هناك، لأول وهلةٍ تتصدَّر وجهه القوي داكن العينين الصَّلابة والظَّفر والتَّعطُّش، قبل أن تغيض منه الدِّماء وتتَّسع عيناه ذُعرًا إذ تعرَّف ابنته.

- «لا! لا!».

تراجعَ إلى الوراء مترنِّحًا وتمسَّك برفِّ المدفأة، ولم تستطِع لايرا الحركة.

وصاحَ اللورد آزريل: «اخرُجي! دوري واخرُجي، اخرُجي! **لم أرسل في طلبكِ!**».

لم تقوَ على الكلام، وفتحَت فمها مرَّتين وثلاثًا، ثم أمكنَها أخيرًا أن تقول: «لا، لا، لقد جئتُ لأن...».

بدا مفزوعًا، وظلَّ يهزُّ رأسه ورفعَ يديه كأنه يُريد أن يصدَّها، ولم تُصدِّق هي انزعاجه العارم.

تقدَّمت خُطوةً بُغية أن تُطَمئِنه، وتحرَّك روچر ليقف معها متوتِّرًا، وخرجَ قريناهما مرفرفيْن إلى الدِّفء، وبعد لحظاتٍ مسحَ اللورد آزريل جبهته بيده وبدا عليه شيء من التَّعافي، وعادَ اللون إلى وجنتيه إذ نظرَ إلى الطِّفلين.

قال: «لايرا. أهذه لايرا حقًّا؟».

- «أجل أيها العمُّ آزريل». قالتها مفكِّرةً أن الوقت ليس مناسبًا للخوض في صِلتهما الحقيقيَّة. «لقد جئتُ لأجلب لك الأليثيوميتر من عميد چوردان».

- «نعم، بالطَّبع. مَن هذا؟».

- «روچر پارسلو. إنه صبي المطبخ في كلِّيَّة چوردان. لكن...».

- «كيف وصلتما إلى هنا؟».

- «كنتُ سأخبرك لتوِّي. يوريك برنيسن بالخارج. هو مَن جلبَنا. لقد قطعَ معي الطَّريق كلَّه من ترولسند، وخدعنا يوفور...».

- «مَن يوريك برنيسن؟».

- «دُبٌّ مدرَّع. هو مَن جاءَ بنا إلى هنا».

نادى اللورد آزريل: «ثورولد، جهِّز حمَّامًا ساخنًا لهذين الطِّفلين وأعدَّ لهما طعامًا، وبعدها سيناماان. ثيابهما متَّسخة، فجِد لهما شيئًا يرتديانه. افعل هذا الآن فيما أتكلَّمُ مع ذلك الدُّب».

شعرَت لايرا برأسها يدور، ربما بسبب الحرارة، وربما بسبب الارتياح. شاهدَت الخادم ينحني ويُغادِر البهو، واللورد آزريل يَدخُل الطُّرقة الصَّغيرة ويُغلِق الباب وراءه، ثم إنها شِبه سقطَت على أقرب مقعد.

بعد لحظةٍ واحدة فقط، كما بدا لها، كان ثورولد يُخاطِبها قائلًا: «اتبعيني يا آنسة»، فدفعَت نفسها إلى القيام وذهبَت مع روچر إلى حمَّامٍ دافئ، حيث تُعلَّق المناشف النَّاعمة على قضيبٍ مسخَّن ويتصاعَد البُخار من حوض ماءٍ في ضوء النَّفثة.

قالت لايرا: «أنت أولًا. سأجلسُ بالخارج ونتكلَّم».

وهكذا نزلَ روچر في الحوض جافلًا وشاهقًا من الحرارة وبدأ يغتسل. صحيحٌ أنهما كثيرًا ما سبحا معًا عاريَيْن ولعبا في مياه الآيزس أو التشرول مع أطفالٍ آخَرين، إلَّا أن هذا الموقف يختلف.

قال روچر عبر الباب المفتوح: «أنا خائف من عمِّكِ، أعني من أبيكِ».

- «الأفضل أن نظلَّ ندعوه بعمِّي. أنا أيضًا أخافُ منه أحيانًا».

- «حين دخلنا لم يرَني على الإطلاق، بل رآكِ فقط، وكان مذعورًا إلى أن رآني، وعندها هدأ في الحال».

قالت لايرا: «كان مصدومًا فحسب. من شأن أيِّ أحدٍ أن يُصدَم عندما يرى أحدًا لا يتوقَّعه. آخِر مرَّةٍ رآني فيها كانت بعد الاستراحة، وطبيعي أن تصدمه رؤيتي».

- «لا، المسألة أكبر من هذا. لقد كان يَنظُر إليَّ كذئبٍ أو ما شابهَ».

- «أنت تتخيَّل هذا فقط».

- «لا. إنني خائف منه أكثر من المسز كولتر، وهذه هي الحقيقة».

نثرَ روچر الماء على نفسه، وأخرجَت لايرا الأليثيوميتر سائلةً: «هل تُريدني أن أسأل قارئ الرُّموز عن هذا؟».

- «لا أدري. هناك أشياء أفضِّلُ ألَّا أعرفها. يبدو لي أن كلَّ شيءٍ سمعته منذ مجيء الملتهِمين إلى أكسفورد، أن كلَّ شيءٍ كان سيِّئًا. ما كان هناك أيُّ شيءٍ جيِّدٍ يَبعُد أكثر من خمس دقائق. مِثلما أرى الآن، هذا الحمَّام لطيف، وبعد خمس دقائق سأجدُ منشفةً دافئةً. وبعد أن أجفِّف نفسي قد أفكِّرُ في شيءٍ لذيذ آكله، ولكن ليس أبعد من ذلك. وبعد أن آكل قد أتطلَّعُ إلى نومةٍ في فِراشٍ مريح. لكن بعدها لا أدري يا لايرا. لقد رأينا أشياء مريعةً، صح؟ وهناك المزيد منها في الطَّريق غالبًا. لذا أظنُّ أنني أفضِّلُ ألَّا أعرف ما في المستقبل، وسأبقى في الحاضر».

قالت لايرا بإعياء: «نعم. أحيانًا أشعرُ بهذا أيضًا».

وهكذا على الرغم من أنها احتفظَت بالأليثيوميتر بين يديها وقتًا أطول قليلًا، فإنها أبقَته على سبيل السَّلوى فقط، فلم تُحرِّك البكرات، ودارَت الإبرة متجاوزةً إياها، فيما شاهدَ پانتالايمون بصمت.

بعدما اغتسلا وأكلا خُبزًا وجُبنةً وشربا القليل من النَّبيذ والماء السَّاخن، قال ثورولد الخادم: «الصَّبي سيَخلُد إلى النَّوم. سأريه أين يذهب. حضرة اللورد يَطلُبك في المكتبة يا آنسة لايرا».

وجدَت لايرا اللورد آزريل في حُجرةٍ تطلُّ نوافذها الواسعة على البحر المتجمِّد بعيدًا بالأسفل. تحت مدخنةٍ عريضة تشتعل النَّار في الفحم، وثمَّة مصباح نفثةٍ خفيض الإضاءة، وهو ما حالَ دون وجود كثيرٍ من الانعكاسات الملهية بين مَن في الحُجرة وقتامة المشهد الپانورامي المضاء بالنُّجوم بالخارج.

أشارَ لها اللورد آزريل، المستريح على مقعدٍ كبير على أحد جانبَي النّار، بالاقتراب والجلوس على المقعد الآخَر قُبالته، وقال: «صديقكِ يوريك برنيسن يستريح بالخارج. إنه يُفضِّل البرد».

- «هل حكى لك عن قتاله مع يوفور راكنيسن؟».

- «ليس بالتَّفصيل، لكنني فهمتُ أنه ملك سڤالبارد الآن. أهذا صحيح؟».

- «طبعًا صحيح. يوريك لا يكذب أبدًا».

- «يبدو أنه كلَّف نفسه بحمايتكِ».

- «لا. چون فا قال له أن يعتني بي، ولهذا يحميني. إنه يُنفِّذ أوامر چون فا».

- «وما علاقة چون فا بهذا؟».

قالت: «سأخبرك إذا أخبرتني بشيء. أنت أبي، أليس كذلك؟».

- «نعم، وماذا في هذا؟».

- «كان بإمكانك إذن أن تُخبِرني من قبل، هذا هو ما في هذا! لا يَجدُر بك أن تُخفي أشياء كهذه عن النَّاس، لأنهم يَشعُرون بالغباء حين يكتشفونها، وهذه قسوة. ما الفرق لو علمتُ أني ابنتك؟ كان يُمكنك أن تقول لي قبل سنوات، كان يُمكنك أن تُخبِرني وتسألني أن أحفظ السِّر، وكنتُ لأحفظه مهما كنتُ صغيرةً، كنتُ لأفعل ذلك لو طلبت مني، كنتُ لأمتلئ فخرًا ولما استطاعَ شيء أن ينتزعه مني لو طلبت أن أحفظ السِّر. لكنك لم تفعل. تركت أناسًا آخَرين يعرفون ولم تُخبِرني أنا».

- «مَن أخبرَكِ؟».

- «چون فا».

- «هل أخبرَكِ بأمر أمِّكِ؟».

- «نعم».

- «إذن لم يتبقَّ كثير أقوله. لا أظنُّ أنني أريدُ أن تستجوبني وتُدينني طفلة متطاولة. أريدُ أن أسمع ما رأيتِ وفعلتِ في الطَّريق إلى هنا».

اندفعَت لايرا قائلةً: «لقد جلبتُ لك الأليثيوميتر اللَّعين، أليس كذلك؟ اعتنيتُ به طيلة الطَّريق من چوردان، خبَّأته واعتززتُ به في خضمِّ كلِّ ما جرى لنا، وتعلَّمتُ كيف أقرأه، وحملته طوال الطَّريق اللَّعين في حين كان بإمكاني الاستسلام والبقاء في أمان، وأنت ما قلت شكرًا حتى، ولا أبديت علامةً على سرورك لرؤيتي. لا أدري لِمَ فعلتُ شيئًا من هذا، لكنني فعلتُ، واستمررتُ، حتى في قصر يوفور راكنيسن كريه الرَّائحة وسط كلِّ هؤلاء الدِّببة استمررتُ وحدي تمامًا، وخدعته ليُقاتِل يوريك كي أستطيع الوصول إلى هنا لأجل خاطرك... ولمَّا رأيتني كدت يُغمى عليك، كأنني شيء شنيع لم تُرِد رؤيته ثانيةً أبدًا. أنت ما إنسان يا لورد آزريل، أنت ما أبي. أبي لم يكن ليُعامِلني بهذه الطَّريقة. المفترَض أن يحبَّ الآباء بناتهم، صح؟ أنت لا تحبُّني، وأنا لا أحبُّك، وهذه حقيقة. أنا أحبُّ فاردر كورام، وأحبُّ يوريك برنيسن. أحبُّ دُبًّا مدرَّعًا أكثر مما أحبُّ أبي، وأراهنُ أن يوريك برنيسن يحبُّني أكثر منك».

- «قلتِ لي بنفسكِ إنه يتَّبع أوامر چون فا لا أكثر. إن كنتِ ستتصرَّفين بعاطفةٍ فلن أضيِّع الوقت في الكلام معكِ».

- «خُذ أليثيوميترك اللَّعين إذن وسأعودُ مع يوريك».

- «إلى أين؟».

- «إلى القصر. سيُقاتِل المسز كولتر ورجال هيئة القرابين حين يصلون، وإذا خسرَ فسأموتُ أيضًا، لا أبالي. وإذا انتصرَ فسنُرسِل إلى لي سكورزبي وسأطيرُ في منطاده و...».

- «مَن لي سكورزبي؟».

- «ملَّاح جوِّي جلبَنا إلى هنا ثم سقطَ المنطاد. هاك، ها هو ذا الأليثيوميتر. إنه سليم تمامًا».

لم يتحرَّك ليأخذه، ووضعَته لايرا فوق الحاجز النُّحاسي المحيط بالمستوقَد.

- «وأظنُّ أن عليَّ إخبارك بأن المسز كولتر في طريقها إلى سڤالبارد، وما إن تسمع بما حدثَ ليوفور راكنيسن فستجدها في الطَّريق إلى هنا. إنها على متن زپلن ومعها عدد كبير من الجنود، وسيَقتُلوننا جميعًا بأمر مجمع حماية العقيدة».

ردَّ بهدوء: «لن يصلوا إلينا أبدًا».

كان هادئًا مسترخيًا للغاية حتى إن شيئًا من انفعالها تلاشى، وقالت بارتياب: «لست تعلم هذا».

- «بل أعلمه».

- «أمعك أليثيوميتر آخَر إذن؟».

- «لستُ محتاجًا إلى أليثيوميتر لأعلم. والآن أريدُ أن أسمع كلَّ شيءٍ عن رحلتكِ إلى هنا يا لايرا. احكي من البداية، أخبِريني بكلِّ شيء».

وقد كان. بدأت باختبائها في الاستراحة، وواصلَت إلى اختطاف الملتهِمين روچر، ووقتها مع المسز كولتر، وكلِّ شيءٍ آخَر حدثَ.

الحكاية طويلة، ولمَّا فرغَت منها قالت: «هناك شيء واحد أريدُ أن أعرفه، وأظنُّ أن لي الحق في معرفته كما كان لي الحق في معرفة مَن أنا حقًّا. وإذا لم تُخبِرني بذلك فعليك أن تُعوِّضني وتُخبِرني بهذا. إذن، ما هو (الغُبار)؟ ولِمَ يخشاه الجميع؟».

رمقَها كأنما يُحاوِل أن يُخمِّن إن كانت ستستوعب ما سيقوله، وفكَّرت أنه لم يَنظُر إليها بجدِّيَّةٍ من قبل قَطُّ، وحتى الآن كان يُعامِلها دومًا كشخصٍ بالغ يُسايِر طفلةً في حيلةٍ طريفة.

لكن يبدو الآن أنه يعدُّها مستعدَّةً، وهكذا قال: «(الغُبار) هو ما يُشغِّل الأليثيوميتر».

- «آه... لقد فكَّرتُ في هذا! ولكن ماذا أيضًا؟ كيف اكتشفوه؟».

- «بشكلٍ ما كانت الكنيسة تعي وجوده دومًا. إنهم يعظون بـ(الغُبار) منذ قرون، وإن لم يدعوه بهذا الاسم. لكن قبل سنواتٍ اكتشفَ موسكوڤيتي اسمه بوريس ميخايلوڤيتش روساكوڤ نوعًا جديدًا من الجُسيمات الأوليَّة. لقد سمعتِ بالإلكترونات والفوتونات والنيترونات، أليس كذلك؟ إن اسمها جُسيمات أوليَّة لأنها لا تحوي بنيةً داخليَّةً أو عناصر أصغر منها ضمنها، لا شيء داخلها إلَّا هي. حسن، ذلك النَّوع الجديد من الجُسيمات كان أوليًّا بالفعل، لكن قياسه كان في غاية الصُّعوبة لأنه لا يتفاعَل مع أيٍّ من الأساليب المعتادة. أكثر ما استعصى على فهم روساكوڤ هو لماذا يبدو أن الجُسيم الجديد يتجمَّع أينما كان البشر، كأنه منجذب إلينا، وتحديدًا إلى البالغين. إنه ينجذب إلى الأطفال أيضًا، ولكن ليس بالقدر نفسه على الإطلاق إلى أن يتَّخذ قُرناؤهم تكوينًا ثابتًا. خلال أعوام البلوغ يبدأ (الغُبار) ينجذب إليهم بقوَّةٍ أشد، ويستقرُّ عليهم كما يستقرُّ على البالغين. جميع الاكتشافات من هذا النَّوع، لأن لها تأثيرًا على تعاليم الكنيسة، يجب الإعلان عنها عن طريق مجمع حماية العقيدة في چنيڤ، واكتشاف روساكوڤ هذا كان شديد الجنوح والغرابة لدرجة أن مفتِّش محكمة التَّقويم الكنسيَّة شكَّ في أن روساكوڤ ممسوس من شيطان، فأجرى جلسة تعويذٍ في المعمل، واستجوبَ روساكوڤ وفق قواعد مكتب التَّفتيش، لكنهم في النِّهاية قبلوا مضطرِّين حقيقة أن روساكوڤ لم يكن يكذب عليهم أو يخدعهم، أن لـ(الغُبار) وجودًا حقًّا. وتركَهم هذا في مشكلة تقرير ما هو، وباعتبار طبيعة الكنيسة فلم يكن هناك إلَّا شيء واحد فقط يختارونه. قرَّر مجمع حماية العقيدة أن (الغُبار) دليل مادي على الخطيئة الأصليَّة. أتعرفين ما هي الخطيئة الأصليَّة؟».

لوَت شفتيها. كأنها رجعَت إلى چوردان ويمتحنونها في شيءٍ تعلَّمت عنه القليل، وقالت: «نوعًا».

- «لا، لستِ تعرفين. اذهبي إلى الرَّف المجاور للمكتب واجلبي لي الإنجيل».

فعلَت لايرا هذا، وناولَت الكتاب الأسود الكبير لأبيها، الذي قال: «هل تَذكُرين قصَّة آدم وحوَّاء؟».

أجابَت: «بالطَّبع. لم يكن يجب أن تأكل الثَّمرة وأغوَتها الحيَّة فأكلَتها».

- «وماذا حدثَ بعدها؟».

- «أممم... طَرِدا، طردَهما الله من الجنّة».

- «قال لهما الله ألَّا يأكلا الثَّمرة وإلَّا ماتا. تذكَّري أنهما كانا عارييْن في الجنَّة، كانا كالأطفال ويتَّخذ قريناهما أيَّ تكوينٍ يُريدان. لكن هذا هو ما حدثَ».

ثم فتحَ الأصحاح الثَّالث من سِفر التَّكوين، وقرأ: - «فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ لِلْحَيَّةِ: «مِنْ ثَمَرِ شَجَرِ الْجَنَّةِ نَأْكُلُ، وَأَمَّا ثَمَرُ الشَّجَرَةِ الَّتِي فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ فَقَالَ اللهُ: لَا تَأْكُلَا مِنْهُ وَلَا تَمَسَّاهُ لِئَلَّا تَمُوتَا». فَقَالَتِ الْحَيَّةُ لِلْمَرْأَةِ: «لَنْ تَمُوتَا! بَلِ اللهُ عَالِمٌ أَنَّهُ يَوْمَ تَأْكُلَانِ مِنْهُ تَنْفَتِحُ أَعْيُنُكُمَا، وَيَتَّخِذُ قَرِينَاكُمَا تَكْوِينَيْهِمَا الحَقَّيْنِ، وَتَكُونَانِ كَاللهِ عَارِفَيْنِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ». فَرَأَتِ الْمَرْأَةُ أَنَّ الشَّجَرَةَ جَيِّدَةٌ لِلْأَكْلِ، وَأَنَّهَا بَهِجَةٌ لِلْعُيُونِ، وَشَجَرَةٌ تُبْتَغَى لِتُفْصِحَ عَنْ تَكْوِينِ قَرِينِ الْمَرْءِ. فَأَخَذَتْ مِنْ ثَمَرِهَا وَأَكَلَتْ، وَأَعْطَتْ رَجُلَهَا أَيْضًا مَعَهَا فَأَكَلَ. فَانْفَتَحَتْ أَعْيُنُهُمَا، وَرَأَيَا تَكْوِينَيْ قَرِينَيْهِمَا الحَقَّيْنِ وَتَكَلَّمَا مَعَهُمَا. وَلَكِنْ لَمَّا عَرَفَ الرَّجُلُ وَالْمَرْأَةُ قَرِينَيْهِمَا، عَلِمَا أَنَّ تَغَيُّرًا عَظِيمًا طَرَأَ عَلَيْهِمَا، ذَلِكَ أَنَّهُ حَتَّى تِلْكَ اللَّحْظَةِ كَانَ مُخَيَّلًا إِلَيْهِمَا أَنَّهُمَا فِي تَآلُفٍ مَعَ مَخْلُوقَاتِ الْأَرْضِ وَالْهَوَاءِ جَمِيعًا، وَأَنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَهَا. فَإِذَا بِهِمَا يَرَيَانِ الْفَرْقَ، وَعَرَفَا الْخَيْرَ وَالشَّرَّ، وَاعْتَرَاهُمَا الْخَجَلُ، فخَاطَا أَوْرَاقَ تِينٍ وَصَنَعَا لِأَنْفُسِهِمَا مَآزِرَ تُغَطِّي عُرْيَهُمَا...».

ثم أغلقَ الكتاب.

- «وهكذا ظهرَت الخطيئة في العالم، الخطيئة والفاحشة والموت. حدثَ هذا لحظة أن استقرَّ قريناهما».

قالت لايرا مكافحةً للعثور على الكلمات التي تُريدها: «لكن... لكن هذا ما صحيح، أليس كذلك؟ ليس صحيحًا كالكيمياء والهندسة، ليس صحيحًا هكذا؟ لم يكن لآدم وحوَّاء وجود حقًّا؟ باحث أبرشيَّة كاسينجتن قال لي إنها مجرَّد حكايةٍ خُرافيَّة».

- «منحة أبرشيَّة كاسينجتن تُعطى عادةً لمفكِّرٍ حُر. إن عمله أن يُشكِّك في عقيدة الباحثين. طبيعي أن يقول هذا. لكن فكِّري في آدم وحوَّاء باعتبارهما عددًا تخيُّليًّا، كالجذر التَّربيعي لسالب واحد[16]. لن تري أبدًا دليلًا ملموسًا على وجوده، لكن إن تضمَّنتِه في معادلاتِكِ فيُمكنكِ حساب شتَّى الأشياء التي لا يُمكن تخيُّلها من دونه. على كلِّ حال، هذا هو ما تُعلِّمه الكنيسة منذ آلاف السِّنين. وعندما اكتشفَ روساكوف (الغُبار) أصبحَ هناك دليل مادي أخيرًا على أن شيئًا يَحدُث عندما تتبدَّل البراءة إلى تجربة. يتصادَف أننا أخذنا اسم (الغُبار) من الإنجيل أيضًا. في البداية كان اسمه جُسيمات روساكوف، لكن سرعان ما أشارَ أحدهم إلى آيةٍ مثيرة للاهتمام قُرب نهاية الأصحاح الثَّالث من سِفر التَّكوين، عندما يلعن الله آدم لأكله الثَّمرة».

فتحَ الإنجيل ثانيةً وأشارَ إلى الآية للايرا، فقرأت: - «بِعَرَقِ وَجْهِكَ تَأْكُلُ خُبْزًا حَتَّى تَعُودَ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أُخِذْتَ مِنْهَا. لِأَنَّكَ غُبَارٌ، وَإِلَى غُبَارٍ تَعُودُ...».

قال اللورد آزريل: «لطالما حيَّرت ترجمة هذه الآية باحثي الكنيسة. بعضهم يقول إنها لا يجب أن تُقرأ «وإلى غُبارٍ تعود»، بل «ستخضع للغُبار»، وبعضهم يقول إن الآية كلَّها نوع من التَّورية بين كلمتَي «أرض» و«غُبار»، وتعني حقًّا الإقرار بأن الخطيئة جزء من الألوهيَّة. لا أحد يتَّفق، ولا

يُمكن لأحدٍ أن يتّفق لأن النّص محرَّف. لكن الكلمة كانت أفضل من أن تُهمَل، ولهذا عُرِفَت الجُسيمات باسم (الغُبار)».

سألَته لايرا: «وماذا عن الملتهمين؟».

- «الهيئة العامَّة للتَّطهير... عصابة أمِّكِ. ذكاء منها أن تلمح فُرصة إقامة قاعدةً خاصَّةً لسُلطتها، لكنها امرأة ذكيَّة كما لاحظتِ بالتَّأكيد. من مصلحة مجمع حماية العقيدة أن يسمح لمختلِف أنواع الوكالات بالازدهار. يُمكنهم استغلال بعضها ضد بعض، وإذا نجحَت إحداها فيُمكنهم التَّظاهُر بأنهم يدعمونها من البداية، وإذا فشلَت فيُمكنهم التَّظاهُر بأنها جهاز منشق لم يَحصُل قَطُّ على رُخصةٍ سليمة. لطالما كانت أمُّكِ تطمح إلى السُّلطة. في البداية حاولَت الحصول عليها بالوسيلة المعتادة، عن طريق الزَّواج، لكن ذلك لم يَصلُح كما أظنُّكِ سمعتِ، وهكذا لجأت مضطرَّةً إلى الكنيسة. بطبيعة الحال لم تستطِع سلوك السَّبيل الذي كان رجل ليَسلُكه، الكهانة وما إلى ذلك، بل اعتمدَت أسلوبًا غير تقليدي. كان عليها إنشاء جماعتها الخاصَّة، قنوات نفوذٍ تنتمي إليها، وأن تعمل من خلال هذا. كانت حركةً موفَّقةً منها أن تتخصَّص في (الغُبار)، فالجميع كانوا خائفين منه ويجهلون ماذا يفعلون، فلمَّا عرضَت أن تُدير تحقيقًا أراحَ هذا مجمع حماية العقيدة لدرجة أنهم أعانوها بالمال ومختلِف أنواع الموارد».

- «لكنهم كانوا يقطعون...». لم تقوَ لايرا على قولها، واختنقَت الكلمات في فمها قبل أن تُواصِل: «أنت تعرف ما كانوا يفعلونه! لماذا سمحَت لهم الكنيسة بفعل شيءٍ كهذا؟».

- «كانت هناك سابقة، شيء كهذا حدثَ من قبل. هل تعرفين معنى كلمة «إخصاء»؟ إنها تعني استئصال أعضاء الصَّبي التَّناسليَّة كي لا تنمو لديه خصائص الرَّجل. المغنِّي الكاستراتو، أي المخصي، يحتفظ بطبقة صوته العالية مدى الحياة، ولهذا سمحَت الكنيسة بهذه العمليَّة، لأنها مفيدة جدًّا في الموسيقى الكنسيَّة. بعض الكاستراتي أصبحوا مغنِّين عُظماء وفنَّانين رائعين، وكثيرون منهم لم يُصبِحوا أكثر من أنصاف رجالٍ سمان مدلَّلين، وبعضهم ماتَ من آثار العمليَّة، لكن الكنيسة لم تنزعج من فكرة قطعٍ صغير. كانت هناك سابقة، وفي رأيهم العمليَّة الجديدة أنظف كثيرًا من الوسائل القديمة، عندما لم يكونوا يستخدمون مخدِّراتٍ أو ضماداتٍ معقَّمةً أو عنايةً تمريضيَّةً مناسبةً. إنها عمليَّة رفيقة بالمقارنة».

صاحَت لايرا بشراسة: «ليست كذلك! ليست كذلك!».

- «مؤكَّد أنها ليست كذلك طبعًا، ولهذا تواروا في الشَّمال البعيد مستترين بالظُّلمة والغموض، وسرَّ الكنيسة أن تتولَّى واحدة كأمِّكِ الأمر. مَن يرتاب في امرأةٍ فاتنة عذبة عقلانيَّة قويَّة الصِّلات مِثلها؟ لكن لأنها عمليَّة غامضة وغير رسميَّة فقد كانت أمُّكِ شخصًا يستطيع مجمع حماية العقيدة التَّنصُّل منه أيضًا إذا دعَت الحاجة».

- «لكن مَن كان صاحب فكرة القطع في المقام الأول؟».

- «هي. لقد اقترحَت احتمال وجود رابطٍ بين الشَّيئين اللذين يَحدُثان في سِنّ المراهقة؛ التَّغيُّر في قرين المرء وحقيقة بدء (الغُبار) في الاستقرار. ربما إذا فُصِلَ القرين عن الجسد لا نخضع أبدًا

لـ(الغُبار)، للخطيئة الأصليَّة. كان التّساؤُل هو إمكانيَّة فصل القرين عن الجسد دون قتل الشَّخص، لكنها سافرَت إلى أماكن عديدة ورأت أشياء كثيرةً. على سبيل المثال سافرَت إلى إفريقيا. عند الأفارقة طريقة لعمل عبدٍ يُسمَّى زومبي، لا يملك إرادةً خاصَّةً ويعمل ليل نهار دون أن يَهرُب أو يشكو. إنه يُشبِه الجثَّة...».

- «شخص دون قرين!».

- «بالضَّبط، وهكذا وجدَت فصلهما ممكنًا».

- «و... توني كوستا حكى لي عن الأشباح المريعة التي تَسكُن الغابات الشَّماليَّة. أظنُّها مِثل هذا».

- «صحيح. على كلِّ حال، هيئة القرابين نمَت من مِثل هذه الأفكار، ومن هوس الكنيسة بالخطيئة الأصليَّة».

اختلجَت أُذنا قرينة اللورد آزريل، فوضعَ يده على رأسها الجميل مردفًا: «شيء آخَر كان يَحدُث عند القطع ولم يروه. الطَّاقة التي تربط الجسد بالقرين هائلة، وعند القطع تتبدَّد هذه الطَّاقة كلُّها في جزءٍ من الثَّانية. لم يلحظوا لأنهم حسبوها خطأً صدمةً أو اشمئزازًا أو انتهاك الحُرمات، وقد درَّبوا أنفُسهم على فقدان الإحساس حيالها، وهكذا فاتَهم ما بإمكانها فعله، ولم يُفكِّروا إطلاقًا في تسخيرها...».

لم تستطِع لايرا الجلوس ساكنةً، فنهضَت وذهبَت إلى النَّافذة وحدَّقت إلى الظَّلام الشَّاسع الكئيب بعينين لا تريان. كم هُم قساة. مهما كانت أهميَّة اكتشاف الخطيئة الأولى فإنها قسوة لا تُوصَف أن يفعلوا ما فعلوه بتوني مكاريوس والآخَرين. ما من مبرِّر لهذا.

قالت: «وما الذي كنت تفعله أنت؟ هل اشتركت في القطع؟».

- «إنني مهتمٌّ بشيءٍ مختلف تمامًا. لا أظنُّ أن هيئة القرابين تتمادى بما فيه الكفاية. إنني أريدُ الذَّهاب إلى مصدر (الغُبار) ذاته».

- «المصدر؟ من أين يأتي إذن؟».

- «من الكون الآخَر الذي نراه عبر الأورورا».

التفتَت لايرا. كان أبوها مسترخيًا على مقعده بكسلٍ وعزمٍ في آنٍ واحد، وفي عينيه تصميم كعينَي قرينته. إنها لا تحبُّه، ولا يُمكنها الثِّقة به، لكن لا مفرَّ من أن تُعجَب به وبالبذخ الفاحش الذي حصلَ عليه في هذه الأرض اليباب، وبقوَّة طموحه.

سألته: «ما هذا الكون الآخَر؟».

- «واحد من بلايين لا تُحصى من العوالم الموازية. السَّاحرات يعرفن بأمرها منذ قرون، لكن أول لاهوتيِّين استطاعوا إثبات وجودها رياضيًّا حُكِمَ عليهم بالحرمان الكنسي قبل خمسين عامًا أو أكثر. لكنها موجودة، وما من سبيلٍ ممكن لإنكار هذا. على أن أحدًا لم يحسب قطُّ أن العبور من كونٍ إلى آخَر ممكن، إذ حسبنا أن ذلك ينتهك القوانين الأساسيَّة. واتَّضح أننا كنا مخطئين، وتعلَّمنا أن نرى العالم الآخَر في السَّماء. إذا كان الضَّوء يستطيع العبور فنحن أيضًا نستطيع. كان علينا أن نتعلَّم أن نرى هذا يا لايرا مِثلما تعلَّمتِ قراءة الأليثيوميتر. ذلك العالم وكلُّ كونٍ آخَر ظهرَ في الوجود نتيجةً لاحتمال. خُذي إلقاء عُملةٍ على سبيل المثال؛ قد تقع على النَّقش أو الكتابة، وقبل أن تحطَّ لا نعلم على أيِّ الوجهين ستقع. إذا وقعَت على النَّقش فمعنى هذا أن احتمال وقوعها على الكتابة انتفى. حتى تلك اللَّحظة كان كلا الاحتمالين متساويًا. لكن في عالمٍ آخَر تقع العُملة على الكتابة، ولمَّا يَحدُث هذا ينقسم العالمان. إنني أستخدمُ مثال إلقاء العُملة لأجعل الأمر أوضح. الحقيقة أن انتفاء الاحتمالات هذا يَحدُث على مستوى الجُسيمات الأوليَّة، لكنه يَحدُث بالطَّريقة نفسها بالضَّبط؛ في لحظةٍ تكون أشياء عدَّة ممكنةً، وفي اللَّحظة التَّالية يَحدُث شيء واحد ولا يكون للبقيَّة وجود... لولا أن عوالم أخرى برزَت في الوجود بالفعل وحدثَت فيها الأشياء الأخرى... وأنا ذاهب إلى ذلك العالم الآخَر وراء الأورورا، لأنني أظنُّ أن كلَّ (الغُبار) في الكون يَنبُع من هناك. أنتِ رأيتِ الشَّرائح التي عرضتها على الباحثين في الاستراحة، ورأيتِ (الغُبار) يتدفَّق إلى هذا العالم من الأورورا، ورأيتِ تلك المدينة بنفسكِ. إذا كان الضَّوء قابلًا لاجتياز الحائل بين الأكوان، و(الغُبار) قابلًا، وإذا كنا نستطيع رؤية تلك المدينة، فيُمكننا أن نبني جسرًا ونَعبُر. العملية تحتاج إلى دفقةٍ هائلة من الطَّاقة، لكنني أستطيعُ أن أفعلها. في مكانٍ ما يقبع مصدر كلِّ (الغُبار)، كلِّ الموت والخطايا والبؤس والدَّمار في العالم. البشر لا يرون شيئًا دون أن يرغبوا في تدميره يا لايرا. هذه هي الخطيئة الأصليَّة، وأنا سأدمِّرها. الموت سيموت».

- «ألهذا وضعوك هنا؟».

- «نعم. إنهم مرعوبون، ولسببٍ وجيه».

نهضَ اللورد آزريل، وكذا قرينته الفخور الجميلة المميتة، فيما جلسَت لايرا ساكنةً. إنها تخشى أباها، ومعجبة به لأقصى درجة، ويدور بخلدها أنه مجنون تمامًا، ولكن مَن هي لتَحكُم عليه؟

قال: «اذهبي إلى الفِراش. سيُريكِ ثورولد أين تنامين»، ودارَ ليُغادِر.

قالت: «لم تأخذ الأليثيوميتر».

- «آه، نعم. لستُ محتاجًا إليه الآن. لن يكون ذا فائدةٍ لي من غير الكُتب على كلِّ حال. أتدرين؟ أظنُّ أن عميد چوردان منحَكِ أنتِ إياه. هل طلبَ منكِ أن تجلبيه إليَّ حقًّا؟».

أجابَت: «نعم!»، إلَّا أنها أعادَت التَّفكير، وأدركَت أن العميد لم يَطلُب منها ذلك حقًّا، بل إنها هي التي افترضَته طوال الوقت، فلأيِّ سببٍ آخَر كان ليُعطيها إياه؟ قالت: «لا. لا أدري. ظننتُ...».

- «حسن، أنا لا أريده. إنه لكِ يا لايرا».

- «ولكن...».

- «طابَت ليلتكِ أيتها الصَّغيرة».

مبهوتةً، وحائرةً لدرجةً حالَت دون تصريحها بكلِّ الأسئلة الملحَّة الأخرى التي جالَت ببالها، جلسَت لايرا عند النَّار وشاهدَته يُغادِر الحُجرة.

(22) الخيانة

استيقظَت لتجد شخصًا غريبًا يهزُّ ذراعها، وإذ وثبَ پانتالايمون مستيقظًا بدوره وزمجرَ، تبيَّنت أنه ثورولد الذي يحمل مصباح نفثةٍ بيدٍ ترتجف.

- «آنسة... آنسة... قومي بسرعة. لا أدري ماذا أفعلُ. إنه لم يَترُك أوامر. أظنُّه جُنَّ يا آنسة».

- «ماذا؟ ماذا يَحدُث؟».

- «اللورد آزريل يا آنسة. إنه في شِبه هذيان منذ نمتِ. لم أرَه بهذا الهياج قَطُّ. لقد حزمَ الكثير من المعدَّات والبطَّاريَّات على مزلجةٍ وربطَ الكلاب وغادرَ، لكنه أخذَ الصَّبي يا آنسة!».

- «روچر؟ أخذَ روچر؟».

- «قال لي أن أوقظه وأُلبسه ثيابه، ولم أفكِّر في مجادلته... لم أفعل ذلك قَطُّ... الصَّبي ظلَّ يسأل عنكِ يا آنسة... لكن اللورد آزريل أرادَه وحده... أتدرين عندما دخلتِ من الباب يا آنسة؟ ورآكِ ولم يُصدِّق عينيه وأرادكِ أن ترحلي؟».

كان رأس لايرا في دوَّامةٍ من الإعياء والخوف جعلَتها غير قادرةٍ على التَّفكير إلَّا بمشقَّة، لكنها قالت: «نعم؟ نعم؟».

- «لأنه كان محتاجًا إلى طفلٍ ليُكمِل تجربته يا آنسة! واللورد آزريل يتمتَّع بطريقته الخاصَّة في الحصول على ما يُريد. ما عليه إلَّا أن يَطلُب شيئًا و...».

والآن امتلأَ رأس لايرا بدويٍّ كأنها تُحاوِل أن تكتم معرفةً ما عن وعيها ذاته.

نهضَت من الفِراش ومدَّت يديها تتناوَل ثيابها، إلَّا أنها انهارَت فجأةً وخرجَت منها صيحة يأسٍ اكتنفَتها. لفظَت لايرا الصَّيحة، لكنها كانت أكبر منها، كأن اليأس هو الذي يلفظ لايرا. لقد تذكَّرت كلامه: الطَّاقة التي تربط الجسد بالقرين هائلة، ولإقامة جسرٍ فوق الفجوة إلى العالمين سيحتاج إلى دفقةٍ هائلة من الطَّاقة...

وفطنَت لايرا إلى ما فعلَته.

طيلة كلِّ هذا الطَّريق كافحَت لتجلب إلى اللورد آزريل شيئًا، حاسبةً أنها تعلم ما يُريده، لكنه لم يكن الأليثيوميتر على الإطلاق. ما أرادَه كان طفلًا.

وهي جلبَت إليه روچر!

لهذا السَّبب صاحَ: «لم أرسل في طلبكِ!» عندما رآها. لقد أرسلَ يَطلُب طفلًا، وأتَته الأقدار بابنته. أو أن هذا ما حسبَه إلى أن انزاحَت وأرَته روچر.

ويا له من قهرٍ مرير! تصوَّرت أنها تُنقِذ روچر، وطوال الوقت كانت تعمل بكدٍّ على خيانته...

ارتجفَت لايرا وانتحبَت في نوبةٍ من المشاعر المتفجِّرة. لا يُمكن أن يكون هذا صحيحًا.

حاولَ ثورولد مواساتها، لكنه لم يُدرِك سبب لوعتها البالغة، ولم يستطِع إلَّا التَّربيت على كتفها بتوتُّر.

دافعةً الخادم جانبًا قالت باكيةً: «يوريك... أين يوريك برنيسن؟ الدُّب؟ أما زالَ بالخارج؟».

هزَّ العجوز كتفيه بلا حيلة.

قالت وجسدها كلُّه يرتعش ضعفًا وخوفًا: «ساعِدني! ساعِدني على ارتداء ثيابي. يجب أن أذهب. الآن! أسرِع!».

وضعَ المصباح وفعلَ كما قالت. حين أمرَته بهذا الأسلوب التَّحكُّمي كانت أشبه بأبيها كثيرًا، على الرغم من ابتلال وجهها بالدُّموع واختلاج شفتيها. وبينما ذرعَ پانتالايمون الأرض جيئةً وذهابًا ملوِّحًا بذيله والشَّرر يكاد يتطايَر من فروه، أسرعَ ثورولد يُحضِر ثيابها الفرو المتيبِّسة الزَّنخة وساعدَها على ارتدائها، وما إن أغلقَت الأزرار وأحكمَت الطيَّات اتَّجهت إلى الباب، وشعرَت بالبرد يهوي على حَلقها كالسَّيف ويُجمِّد الدُّموع على خدَّيها في الحال.

نادَت: «يوريك! يوريك برنيسن! تعالَ، أنا محتاجة إليك!».

اهتزَّ الثَّلج وصلصلَ المعدن، ووجدَت الدُّب أمامها. كان نائمًا بهدوءٍ تحت الثُّلوج المتساقطة، وفي الضَّوء المنسكِب من المصباح الذي يحمله ثورولد عند النَّافذة رأت لايرا الرَّأس الطَّويل خفيَّ الوجه، وفتحتَي الرُّؤية الضيِّقتين، ولمعة الفرو الأبيض تحت المعدن الأسود المحمر، وأرادَت أن تحتضنه وتستمدَّ شيئًا من المواساة من خوذته الحديديَّة وفروه المغطَّى بطبقةٍ رقيقة من الجليد.

قال يوريك: «ماذا؟».

- «يجب أن نلحق باللورد آزريل. لقد أخذَ روچر وسيذهب إلى... لا أجرؤُ على تخيُّل هذا... أوه، يوريك، أتوسَّلُ إليك، أسرِع أيها العزيز!».

قال: «تعالي إذن»، ووثبَت لايرا فوق ظَهره.

لم تكن هناك حاجة إلى السُّؤال عن الاتِّجاه، فآثار المزلجة تقود مباشرةً من السَّاحة إلى السَّهل، وقفزَ يوريك إلى الأمام يقتفيها. أصبحَت حركته جزءًا لا يتجزَّأ من كينونة لايرا حتى إن جلوسها فوق ظَهره متوازنةً أضحى تلقائيًّا بالكامل، وركضَ يوريك على البساط الثَّلجي السَّميك الكاسي الأرض الصَّخرية ركضًا أسرع من أيِّ وقتٍ سابق، وتحرَّكت صفائح دِرعه تحت لايرا بإيقاعٍ متمايل منتظم.

وراءهما انطلقَ الدِّببة الآخَرون بسهولةٍ ساحبين معهم قاذفة النَّار. كان الطَّريق واضحًا، فالقمر مرتفع في السَّماء، والنُّور الذي يُلقيه على العالم المحفوف بالثُّلوج ساطع كما كان وهُم على متن المنطاد. العالم فضَّة لامعة وسواد حالك، والآثار التي خلَّفتها مزلجة اللورد آزريل تمتدُّ باستقامةٍ إلى سلسلةٍ من التِّلال المحزَّزة، ترتفع أشكالها الغريبة المتجهِّمة المدبَّبة في سماءٍ سوداء كغلاف الأليثيوميتر المخملي. لم ترَ المزلجة نفسها... لكن أهذه حركة ضئيلة للغاية على جانب أعلى القمم؟ حدَّقت لايرا أمامها مدقِّقةً النَّظر، وحلَّق پانتالايمون عاليًا قدر إمكانه ونظرَ ببصر البومة الثَّاقب.

وبعد لحظةٍ عادَ يحطُّ على معصمها قائلًا: «نعم، إنه اللورد آزريل، ويحثُّ كلابه بالسَّوط بعُنف، وفي المؤخِّرة صبي...».

شعرَت لايرا بحركة يوريك برنيسن تتغيَّر. شيء ما لفتَ انتباهه، فأبطأَ سرعته ورفعَ رأسه لاويًا إياه يمينًا ويسارًا.

سألَته لايرا: «ما الأمر؟».

لم يُجِب. كان يُصغي بانتباهٍ شديد، لكن شيئًا لم يَبلُغ مسامعها.

ثم إنها سمعَت شيئًا؛ حفيفًا وطقطقةً غامضيْن بعيديْن للغاية، صوتًا سمعَته من قبل، صوت الأورورا. من العدم انسدلَ ستار من الضِّياء وعلقَ وامضًا في سماء الشَّمال. كلُّ تلك المليارات والتريليونات من الجُسيمات المشحونة الخفيَّة -وربما من (الغُبار) أيضًا كما خطرَ للايرا- استحضرَت وهجًا مشعًّا من طبقات الجوِّ العُليا، وسيكون هذا عرضًا أبهى وأروع من أيِّ شيءٍ رأته لايرا حتى الآن، كأن الأورورا تعي المسرحيَّة الدَّائرة بالأسفل، وتُريد إضاءتها بأشد المؤثِّرات مهابةً.

على أن أحدًا من الدِّببة لم يكن يَنظُر إلى أعلى، بل انصبَّ اهتمامهم على الأرض. ليست الأورورا ما لفتَ انتباه يوريك، والآن يقف جامدًا كالصَّنم. ترجَّلت لايرا من فوق ظَهره عالمةً أنه يحتاج إلى الجوس بحرِّيَّة، لأن شيئًا ما يُزعِجه.

تلفَّتت لايرا حولها، تَنظُر وراءها عبر السَّهل الشَّاسع المفتوح المفضي إلى منزل اللورد آزريل، وإلى الجبال الصَّخريَّة التي عبروها قبل قليل، ولا ترى شيئًا. اشتدَّ وهج الأورورا، وارتجفَت باكورة الحُجب إلى جانبٍ، وانطوَت الستائر المتعرِّجة وانبسطَت بالأعلى، يتزايد حجمها وسطوعها كلَّ دقيقة، ودارَت القناطر والحلقات والتفَّت من الأُفق إلى الأُفق حتى مسَّت ذروة السَّماء ذاتها بأقواسٍ

من الضِّياء، وسمعَت لايرا بوضوحٍ أشد من قبل الهسيس والحفيف الصَّادح الصَّادر من قُوى هائلة غير ملموسة.

ثم ارتفعَت صيحة بصوت أحد الدِّببة: «ساحرات!»، والتفتَت لايرا مسرورةً تتنفَّس الصُّعداء.

لكن خطمًا ثقيلًا دفعَها إلى الأمام، ودون أنفاسٍ متبقِّية في صدرها لتشهق لم تستطِع إلَّا اللُّهاث والارتعاد، ففي البُقعة التي كانت واقفةً فيها قبل لحظةٍ رأت ريشة سهمٍ أخضر انغرسَ رأس وقناته في الثَّلج.

بضعفٍ فكَّرت: مستحيل! لكن ما يَحدُث حقيقي، لأن سهمًا آخَر ارتدَّ عن دِرع يوريك الواقف فوقها. هؤلاء لسن ساحرات سيرافينا بكالا، بل من عشيرةٍ أخرى، وقد دارَت دستة منهن أو أكثر بالأعلى، ينقضضن لإطلاق السِّهام ثم يُحلِّقن من جديد.

وصبَّت لايرا عليهن كلَّ شتيمةٍ تعرفها.

ألقى يوريك برنيسن أوامر سريعةً، وكان واضحًا أن الدِّببة متمرِّسون على قتال السَّاحرات، لأنهم تحرَّكوا من فورهم متَّخذين تشكيلًا دفاعيًّا. تحرَّكت السَّاحرات بالانسيابيَّة نفسها مهاجمات، لكنهن لا يستطعن التَّصويب بدقَّةٍ إلَّا من كثب، وكي لا يُبدِّدن السِّهام ينقضضن من أعلى ويُطلِقنها عند أدنى نُقطةٍ من الانقضاضة ثم يَدُرن إلى أعلى في الحال. لكن حين يَبلُغن النُّقطة الأدنى وتنشغل أيديهن بالأقواس والسِّهام يصِرن عُرضةً للهجوم بدورهن، وعندها يتفجَّر الدِّببة إلى أعلى بكفوفٍ ناهشة ويجرُّوهن إلى أسفل، فسقطَت منهن أكثر من واحدة، وسرعان ما فُتِكَ بها.

أقعَت لايرا منخفضةً إلى جوار صخرةٍ تترقَّب هجمة السَّاحرات، وأطلقَ بعضهن عليها السِّهام لكنها سقطَت بعيدًا عنها، ثم لمَّا رفعَت عينيها إلى السَّماء رأت السَّواد الأعظم من سرب السَّاحرات ينفصل وينسحب.

إن كان ذلك قد أراحَها فراحتها لم تَدُم أكثر من لحظاتٍ معدودة، فمن الجهة التي طِرن فيها رأت أخرياتٍ كثيرات ينضممن إليهن، وفي الهواء معهن مجموعة من الأضواء البرَّاقة، وعبر سهل سڤالبارد الفسيح تحت ضياء الأورورا سمعَت لايرا صوتًا تخشاه، نبض محرِّك غازٍ خشنًا. إنه الزِّپلن وعلى متنه المسز كولتر وجنودها.

جأرَ يوريك بأمرٍ وتحرَّك الدِّببة على الفور متَّخذين تشكيلًا آخَر، وفي وهج السَّماء المرتعش شاهدَت لايرا فيما أسرعوا يُنزِلون قاذفة النَّار. رأت طليعة سرب السَّاحرات هذا أيضًا، وبدأن ينقضضن إلى أسفل ممطراتٍ إياهم بالسِّهام، لكن أكثر الدِّببة وثقوا بدروعهم وعملوا بسرعةٍ لنصب الأداة المتكوِّنة من ذراعٍ طويلة ممتدَّة إلى أعلى بزاوية، وقدحٍ أو وعاء عرضه ياردة، وخزَّانٍ حديدي ضخم يتلوَّى حولَه الدُّخان والبُخار.

بينما شاهدَت انبثقَ لهب ساطع، وتحرَّك فريق من الدِّببة يُنفِّذ ما تدرَّب عليه. سحبَ اثنان منهم ذراع قاذفة النَّار الطَّويلة إلى أسفل، وبمجرفةٍ اغترفَ آخَر النَّار مرَّةً تلو الأخرى في الوعاء، ولمَّا صدرَ الأمر أطلقوها قاذفين الكبريت المشتعل عاليًا في السَّماء المظلمة.

كانت السَّاحرات يَدُرن بكثافةٍ شديدة فوقهم حتى إن ثلاثًا منهن سقطن مشتعلاتٍ من القذيفة الأولى وحدها، لكن سرعان ما اتَّضح أن الهدف الحقيقي هو الزِّپلن. إمَّا أن الطيَّار لم يرَ قاذفة نارٍ من قبل، وإمَّا أنه استهانَ بقوَّتها، لأنه اتَّجه صوب الدِّببة مباشرةً دون أن يرتفع أو يحيد عن مساره مقدار كِسرة.

ثم اتَّضح أن معهم سلاحًا قويًّا على متن الزِّپلن، مدفعًا رشَّاشًا مثبَّتًا على أنف الجُندول، ورأت لايرا شراراتٍ تتطايَر من دروع بعض الدِّببة، ورأتهم ينحنون تحت حمايتها قبل أن تسمع جلجلة ارتطام الطَّلقات بها، وصرخَت خوفًا.

قال لها يوريك برنيسن: «إنهم آمنون. لا يُمكن اختراق الدُّروع بالطَّلقات الصَّغيرة».

عملَت قاذفة النَّار ثانيةً، وهذه المرَّة انطلقَت كُتلة من الكبريت الملتهب إلى أعلى مباشرةً لتُصيب الجُندول وتتفجَّر في شلَّالٍ من الشَّظايا المشتعلة على كلِّ جانب. مالَ الزِّپلن إلى اليسار وابتعدَ هادرًا في قوسٍ واسعٍ قبل أن يُعاوِد الاتِّجاه نحو مجموعة الدِّببة العاملة بهمَّةٍ على الأداة، وإذ اقتربَ صرَّت ذراع قاذفة النَّار منخفضةً، وسعلَ المدفع الرشَّاش وبصقَ الطَّلقات، وسقطَ دُبَّان ليُصدِر يوريك برنيسن زمجرةً خفيضةً، ولمَّا كادَت السَّفينة الجويَّة تُصبِح فوقهم أطلقَ أحد الدِّببة أمرًا وارتفعَت الذِّراع المحمَّلة على زنبرك من جديد.

وهذه المرَّة أصابَ الكبريت كيس غاز الزِّپلن. يُثبِّت الإطار الصُّلب غلافًا من الحرير المزيَّت في مكانه لاحتواء الهيدروجين، وعلى الرغم من قوَّته الكافية لاحتمال الخدوش الصَّغيرة، فإن قنطارًا من الصَّخر المشتعل أقوى من احتماله، فتمزَّق الحرير مباشرةً ووثبَ الكبريت والهيدروجين يلتقيان في فاجعةٍ من اللَّهب.

في الحال صارَ الحرير شفَّافًا وظهرَ هيكل الزِّپلن بأكمله داكنًا في سعير البرتقالي والأحمر والأصفر، عالقًا في الهواء لما بدا وقتًا مستحيل الطُّول قبل أن ينحدِر نحو الأرض كأنه مكرَه على

هذا، وخرجَت منه أجساد سوداء ميَّزها الثَّلج والنّار تترنّح أو تعدو، وطارَت إليهم السَّاحرات ليُساعِدنهم بجرِّهم بعيدًا عن اللَّهب. خلال دقيقةٍ من سقوط الزِّپلن على الأرض استحالَ إلى كُتلةٍ من المعدن الملتوي وسحابةٍ من الدُّخان وقُصاصاتٍ من النَّار الرَّاجفة.

لكن الجنود على متنه، والآخَرون أيضًا (وبينهم المسز كولتر، مع أن لايرا أبعد كثيرًا من أن تلمحها، لكنها علمَت أنها هناك)، لم يُضيِّعوا وقتًا. بمساعدة السَّاحرات سحبوا المدفع الرشَّاش ونصبوه، وبدأوا يُقاتِلون بوطيسٍ حامٍ.

قال لها يوريك: «اركبي. سيَصمُدون طويلًا»، وهدرَ بأمرٍ لينفصل بعض الدِّببة عن المجموعة الرَّئيسة ويُهاجِموا ميسرة التَّرتار.

استشعرَت لايرا رغبته في أن يكون بينهم، لكن طوال الوقت كانت أعصابها تَصرُخ فيها: تقدَّمي! تقدَّمي! ملأَت عقلها صُور روچر واللورد آزريل، وأدركَ يوريك برنيسن هذا، ودارَ يصعد الجبل بعيدًا عن المعركة، تاركًا دببته يصدُّون التَّرتار.

صعدا وصعدا، ودقَّقت لايرا النَّظر لترى أمامها، لكن حتى پانتالايمون النَّاظر بعينَي بومةٍ لم يستطِع أن يرى حركةً على جانب الجبل، وإن كانت آثار مزلجة اللورد آزريل واضحةً، واقتفاها يوريك مسرعًا، يتواثَب في الثَّلج ويَركُله عاليًا وراءهما. أيًّا كان ما يَحدُث وراءهما الآن فهو -ببساطة- وراؤهما، تركَته لايرا شاعرةً كأنها تَترُك العالم بأكمله.

معزولةٌ عازمةٌ هي، شاهقٌ الجبل، غريبٌ مدهشٌ الضَّوء الذي يغمرهما.

قالت: «يوريك، هل ستَعثُر على لي سكورزبي؟».

- «حيًّا أو ميتًا سأعثرُ عليه».

- «وإذا رأيت سيرافينا پكالا...».

- «سأخبرها بما فعلتِ».

- «شكرًا يا يوريك».

لم يتبادَلا كلامًا أكثر فترةً، وشعرَت لايرا بنفسها تنتقل إلى غشيةٍ تتجاوَز السُّبات واليقظة، إلى حالةٍ أشبه بالحُلم الواعي، تَحلُم فيها بأن الدِّببة يحملونها إلى مدينةٍ في النُّجوم.

كانت على وشك ذِكر هذا ليوريك برنيسن عندما أبطأ سرعته ثم توقَّف قائلًا: «الآثار مستمرَّة، لكنني لا أستطيعُ الاستمرار».

قفزَت لايرا من فوقه ووقفَت إلى جواره لتَنظُر. كان واقفًا على شفا هاوية، وسواء أهي شقٌّ في الجليد أم صدع في الصَّخر فهذا غير واضح، ولا فرق كبيرًا على كلِّ حال، فكلُّ ما يهمُّ أن الهاوية تمتدُّ إلى أسفل في عتمةٍ لا يُدرَك غورها.

وآثار مزلجة اللورد آزريل تمتدُّ إلى الحافة، وتستمرُّ عبر جسرٍ من الثَّلج المكتنز.

واضح أن هذا الجسر شعرَ بضغط وزن المزلجة، لأن صدعًا يمتدُّ فيه وينتهي قُرب حافة الهاوية الأخرى، وعند جانب الصَّدع الذي يقفان عنده انخفضَ السَّطح قدمًا أو نحوه. قد يحتمل وزن طفلة، لكن الأكيد أنه لن يحتمل وزن دُبٍّ مدرَّع.

وآثار اللورد أزريل ممتدَّة بعد الجسر ومتوغِّلة أعلى الجبل، فإذا قرَّرت أن تتقدَّم فعليها أن تفعلها وحدها.

التفتَت لايرا إلى يوريك برنيسن قائلةً: «يجب أن أعبر. شكرًا لك على كلِّ ما فعلت. لا أعرفُ ما سيَحدُث حين أصلُ إليه. قد نموت جميعًا سواء أوصلتُ إليه أم لا، لكن إذا عدتُ فسآتي لأراك وأشكرك كما ينبغي أيها الملك يوريك برنيسن».

وضعَت يدها على رأسه، وتركَها هناك مومئًا برفقٍ وهو يقول: «وداعًا يا لايرا لسان الفضَّة».

بقلبٍ يخفق بحُبٍّ أليم دارَت ووضعَت قدمها على الجسر. طقطقَ الثَّلج من تحتها، وطارَ پانتالايمون إلى الأمام فوق الجسر ليستقرَّ على الثَّلج على الطَّرف الآخَر ويُشجِّعها على التَّقدُّم، وأخذَت لايرا خُطوةً تلو الخُطوة متسائلةً مع كلِّ واحدةٍ إن كان أفضل أن تعدو وتثب إلى الجانب الآخَر أم تتحرَّك بتؤدةٍ كما تفعل وتخطو بخفَّةٍ قدر الإمكان. في منتصَف الطَّريق صدرَت طقطقة أخرى من الثَّلج، وسقطَت قطعة قُرب قدمها في الهاوية، وانخفضَ الجسر بضع بوصاتٍ أخرى.

وقفَت بثباتٍ تام، وقبعَ پانتالايمون بتكوين نمر ثلوجٍ مستعدًّا للوثوب إليها.

واحتملَ الجسر، وتقدَّمت خُطوةً أخرى، ثم أخرى، ثم شعرَت بشيءٍ ينخفض تحت قدميها فوثبَت إلى الطَّرف الآخَر بقوَّتها كلِّها، وحطَّت على بطنها في الثَّلج إذ انهارَ الجسر بطوله في الهوَّة بصوتٍ مندفع ناعم من ورائها.

وانغرسَت مخالب پانتالايمون في ثيابها مثبِّتةً إياها بإحكام.

بعد دقيقةٍ فتحَت عينيها وزحفَت مبتعدةً عن الحافة. لا سبيل للعودة الآن. نهضَت ورفعَت يدها للدُّب المراقب، ووقفَ يوريك برنيسن على قائمتيه الخلفيَّتين يُحيِّيها، ثم دارَ وبدأ ينزل الجبل راكضًا بسرعةٍ ليُعين رعاياه في معركتهم مع المسز كولتر وجنودها.

وأمسَت لايرا وحدها.

(23) جسر إلى النُّجوم

ما إن غابَ يوريك برنيسن عن نظرها حتى شعرَت لايرا بوهنٍ عظيم يجتاحها، والتفتَت بغير هدى متحسِّسةً بحثًا عن پانتالايمون.

- «أوه، پان يا عزيزي، لا أستطيعُ الاستمرار! إنني خائفة للغاية... ومنهَكة عن آخِري... كلُّ هذا الطَّريق... ومرعوبة حتى الموت! ليت أحدًا آخَر كان هنا بدلًا مني، أتمنَّى ذلك حقًّا!».

مرَّغ قرينها القطُّ أنفه في عُنقها يُدفِّئها ويُعزِّيها.

وقالت لايرا باكيةً: «لا أدري ما علينا أن نفعله. الأمر أكبر كثيرًا منا يا پان، ولا يُمكننا...».

تشبَّثت به وقد أعمَتها الدُّموع، وراحَت تتأرجَح إلى الأمام والخلف تاركةً نهنهتها تنصبُّ بحرقةٍ على الثَّلج العاري.

- «وحتى إذا... إذا وصلَت المسز كولتر إلى روچر أولًا فلا سبيل لإنقاذه. ستعود به إلى بولڤانجار، أو أسوأ، سيَقتُلونه انتقامًا... لماذا يفعلون هذه الأشياء بالأطفال يا پان؟! أيَبغُضون الأطفال لهذه الدَّرجة فيُمزِّقونهم هكذا؟ لماذا يفعلون هذا؟!».

لكن پانتالايمون لم يحر جوابًا، ولم يستطِع إلَّا احتضانها بقوَّة.

شيئًا فشيئًا، إذ انحسرَت عاصفة الخوف، ثابَت إلى نفسها وعادَت لايرا... نعم، بردانة خائفة بكلِّ تأكيد، لكنها صارَت نفسها مجدَّدًا.

قالت: «أتمنَّى...»، ثم بترَت عبارتها. لا جدوى من التَّمنِّي. شهيق عميق راجف أخير، واستعدَّت للاستمرار.

كان القمر قد غابَ، والسَّماء إلى الجنوب في ظلامٍ دامس، ولو أن بلايين النُّجوم تُرصِّعها كالماس على المخمل. على أن الأورورا تفوقها بريقًا، تفوقها بريقًا مئة مرَّة، ولم ترَها لايرا زاهيةً مفعمةً بالأحاسيس هكذا قَطُّ. مع كلِّ خلجةٍ ورجفةٍ تتراقَص معجزات جديدة من الضِّياء في السَّماوات، ووراء سديم الضِّياء دائم التَّقلُّب يظهر ذلك العالم الآخَر، تلك المدينة المضاءة بالشَّمس، بوضوحٍ وثبات.

كلَّما تسلَّقا امتدَّت الأرض الجرداء أسفلهما. إلى الشَّمال البحر المتجمِّد المتضام هنا وهناك صانعًا أخاديد محزَّزةً أينما انضغطَ لوحان من الجليد معًا، لكنه بخلاف ذلك مسطَّح أبيض مترامي الأطراف، يَبلُغ القُطب نفسه ويتجاوَزه إلى بعيد، بلا ملامح، بلا حياة، بلا ألوان، تفوق وحشته خيال لايرا. وإلى الشَّرق والغرب المزيد من الجبال، قممها العظيمة المدبَّبة ترتفع بحدَّةٍ في السَّماء، وتُغطِّي أكوام وأكوام عالية من الثُّلوج منحدَراتها التي نحتَتها الرِّيح محيلةً إياها إلى حوافٍ ماضية كالسُّيوف المعقوفة. وإلى الجنوب الطَّريق الذي جاءا منه، وقد نظرَت لايرا بأشد لهفةٍ وراءها لترى إن كان باستطاعتها أن تلمح صديقها العزيز يوريك برنيسن وجُنده، لكن لا شيء يتحرَّك في السَّهل

الشَّاسع، ولم تثق حتى بأنها تستطيع رؤية حُطام الزِّپلن المحترق أو الثَّلج الملطَّخ بالقرمزي حول جُثث المُحاربين.

طارَ پانتالايمون البومة عاليًا، ثم حطَّ على معصمها قائلًا: «إنهما وراء القمَّة مباشرةً! اللورد آزريل رصَّ أدواته كلَّها، وروچر لا يستطيع الإفلات...».

بينما قال هذا تذبذبَت الأورورا وبهتَ ضوؤها كمصباحٍ عنبري في نهاية حياته، ثم انطفأَت تمامًا! لكن في العتمة استشعرَت لايرا وجود (الغُبار)، فالهواء بدا لها مليئًا بالنِّيَّات المبهمة، كصُور أفكارٍ لم تُولَد بعدُ.

وفي الظُّلمة المحيطة سمعَت صيحةً: «لايرا! لايرا!».

ردَّت صائحةً: «أنا قادمة!»، وتقدَّمت إلى أعلى متعثِّرةً، تتسلَّق بجهدٍ جهيد، تُكافِح وقد بلغَت قوَّتها منتهاها، ومع ذلك تُلقي نفسها إلى الأمام في بريق الثَّلج الشَّبحي.

- «لايرا! لايرا!».

قالت متقطِّعة الأنفاس: «أكادُ أصلُ، أكادُ أصلُ يا روچر!».

في هياجه أخذَ پانتالايمون يتبدَّل حثيثًا: أسد، قاقوم، نسر، قط برِّي، أرنب برِّي، سمندل، بومة، نمر، كلُّ تكوينٍ اتَّخذه من قبل، مِشكال من التَّكوينات وسط (الغُبار)...

- «لايرا!».

وبلغَت القمَّة، ورأت ما يجري.

على بُعد خمسين ياردةً في ضوء النُّجوم كان اللورد آزريل يلوي سلكيْن يقودان إلى مزلجته المقلوبة، التي يقف عليها صفٌّ من البطَّاريَّات والبرطمانات والأجهزة التي كسَتها لآلئ البرد بالصَّقيع بالفعل، وقد ارتدى ثيابًا ثقيلةً من الفرو وأضاءَ وجهه لهب مصباح نفثة. ورابضة إلى جواره كتمثال أبي الهول قرينته، يلتمع فروها المرقَّط الجميل طاقةً، ويتحرَّك ذيلها بكسلٍ في الثَّلج.

وفي فمها قرينة روچر.

والمخلوقة الصَّغيرة تُقاوِم، تُرَفرِف، تُحاوِل التَّملُّص، في لحظةٍ حمامة، وفي التَّالية كلبة، ثم قطَّة، ثم فأرة، ثم حمامة ثانيةً، ولا تنفكُّ تُنادي روچر نفسه الذي يَبعُد ياردات قليلةً مشدودًا عن آخِره، يُحاوِل تحرير نفسه من الشدَّة المتوغِّلة حتى القلب، يُنادي قرينته ويُنادي لايرا. جرى إلى اللورد آزريل وجذبَ ذراعه، فأزاحَه اللورد آزريل جانبًا. حاولَ ثانيةً باكيًا مستعطفًا متوسِّلًا منهنهًا، ولم يُعِره اللورد آزريل اهتمامًا إلَّا ليطرحه أرضًا.

كانوا على حافة جُرف، ووراؤهم لا شيء إلَّا ظلام بلا حدود، ويرتفعون ألف قدمٍ أو أكثر فوق البحر المتجمِّد.

كلُّ هذا رأته لايرا في ضوء النُّجوم وحده، ثم عندما ربطَ اللورد آزريل السِّلكيْن دبَّت الحياة السَّاطعة فجأةً في الأورورا كإصبعٍ طويل من طاقةٍ مُعمية تتلاعَب بين طرفين، مع فرق أن هذه ترتفع ألف ميلٍ وتمتدُّ عشرة آلاف، تَنخفض وترتفع، تتموَّج وتتوهَّج، طوفان من الجلال.

وهو يتحكَّم فيها...

أو يستمدُّ منها الطَّاقة، ذلك أن هناك سلكًا يمتدُّ من بكرةٍ ضخمة فوق المزلجة المقلوبة، سلكًا يرتفع إلى السَّماء مباشرةً. من الظَّلام بالأعلى دارَ غُداف هابطًا، وعرفَت لايرا أنه قرين ساحرة، ساحرة تُساعِد اللورد آزريل وارتفعَت بالسِّلك إلى أعالي السَّماء.

والأورورا متَّقدة من جديد.

إنه شِبه مستعد الآن.

التفتَ إلى روچر مشيرًا، وأتى روچر مغلوبًا على أمره، يهزُّ رأسه ويتوسَّل ويبكي، لكنه يتقدَّم بلا حيلة.

صرخَت لايرا: «لا! اجرِ!»، وألقَت نفسها على المنحدَر نحوه.

وانقضَّ پانتالايمون على نمرة الثُّلوج واختطفَ قرينة روچر من بين فكَّيها، وفي لحظةٍ وثبَت النَّمرة وراءه، وتخلَّى پانتالايمون عن القرينة الأخرى، والتفتَ كلا القرينيْن الصَّغيريْن يتبدَّلان يتبدَّلان يتبدَّلان، وقاتَلا الدَّابَّة الرَّقطاء الضَّخمة.

ضربَت يسارًا ويمينًا بكفَّين مليئتين بالإبر، وطغَت زمجرتها الهادرة على صياح لايرا نفسها. وقاتلَها كلا الطِّفلين أيضًا، أو قاتَلا ما في الهواء المضطرب من صُور، تلك النِّيَّات المبهمة التي تنهمر كثيفةً متهافتةً من شلَّالات (الغُبار)...

وتتأرجَح الأورورا بالأعلى، يُضيء وهجها الجيَّاش في لحظةٍ هذا المبنى، في لحظةٍ هذه البحيرة، في لحظةٍ هذا الصَّف من أشجار النَّخيل، كلُّها دانٍ لدرجةٍ تجعلك تحسب نفسك قادرًا على مجرَّد الخطو من هذا العالم إلى ذاك.

ثم قفزَت لايرا وأطبقَت على يد روجر.

جذبَته بشدَّةٍ وفلتا من اللورد آزريل، وركضا بيدين متعانقتين، لكن روجر صرخَ فجأةً وتلوَّى، لأن نمرة الثُّلوج قبضَت على قرينته ثانيةً وثبَّتتها بقوَّةٍ بين فكَّيها، واللورد آزريل نفسه يمدُّ يده إليها بسلك، ولايرا تعرف ألم الفصل الذي يُمزِّق نياط القلب، وحاولَت التَّوقُّف...

لكنهما لم يستطيعا التَّوقُّف.

كان الجُرف ينزلق تحت أقدامهما.

رفٌّ كامل من الثَّلج ينزلق إلى أسفل بعناد...

البحر المتجمِّد تحتهما بألف قدم...

- «**لايرا!**».

ضربات قلبها بلوعةٍ مع ضربات قلب روجر...

يدان تتشبَّث كلٌّ منهما بالأخرى...

وجسده المرتخي فجأةً، وبالأعلى الأعجوبة العُظمى.

لحظة أن همدَت حركته رأت قُبَّة السَّماء المظلمة المرصَّعة بالنُّجوم كأنما اخترقَتها حربة.

فيض من الضِّياء، فيض من الطَّاقة الخالصة انطلقَ كسهمٍ من قوسٍ عظيم، انطلقَ إلى أعلى من البُقعة التي أُوصِلَ فيها السِّلك بقرينة روجر. تمزَّقت حُجب الضَّوء والألوان التي هي الأورورا، وانبعثَ صوت طاحن فالق ساحق خارق من أقصى الكون إلى أقصاه، وفي السَّماء الآن أرض جافَّة...

وضوء الشَّمس!

ضوء الشَّمس السَّاطع على فرو قردٍ ذهبي...

كان سقوط رفِّ الثَّلج قد توقَّف. ربما أوقفَ إفريز غير منظور سقطته، لكن على كلِّ حالٍ رأت لايرا الآن القرد الذَّهبي يثب من الهواء إلى جانب النَّمرة على ثلج القمَّة المبعثَر، ورأت فرو كلا القرينيْن ينتفش بقوَّةٍ وحذر، وقد انتصبَ ذيل القرد وتحرَّكت النَّمرة بسرعةٍ من جانبٍ إلى جانب. ثم مدَّ القرد كفًّا متردِّدةً، وخفضَت النَّمرة رأسها مستجيبةً بحسٍّ لطيف، وتلامَسا...

وعندما رفعَت لايرا عينيها عنهما رأت المسز كولتر نفسها هناك بين ذراعَي اللورد آزريل، يتلاعَب الضَّوء حولهما كشراراتٍ وأشعَّةٍ منبعثة من طاقةٍ عنبريَّة قويَّة. بعجزٍ تخيَّلت لايرا ما حدثَ، أن المسز كولتر استطاعَت بوسيلةٍ ما عبور الهاوية وتبعَتها إلى هنا...

والداها معًا في مكانٍ واحد!

ويتعانَقان بعاطفةٍ مشبوبة، شيء لم تَحلُم به.

بعينين متَّسعتين، وجسد روچر السَّاكن الهامد الخالي من الحياة بين ذراعيها، سمعَت والديها يتكلَّمان.

قالت أمُّها: «لن يسمحوا بذلك أبدًا...».

وقال أبوها: «يسمحوا؟ لقد تجاوَزنا بمسافةٍ شاسعة أن يُسمَح لنا بشيءٍ كأننا أطفال. أنا جعلتُ العبور ممكنًا لأيِّ أحدٍ إذا أرادَ».

- «سيُحرِّمون ذلك! سيسدُّون الباب ويَحكُمون على أيِّ أحدٍ يُحاوِل بالحرمان الكنسي!».

- «أناس كثيرون للغاية سيُريدون العبور. لن يستطيعوا منعهم. سيعني ذلك نهاية الكنيسة يا ماريسا، نهاية مجمع حماية العقيدة، نهاية كلِّ قرون الظَّلام هذه! انظُري إلى هذا الضَّوء. هذه شمس عالم آخَر! اشعُري بدفئها على جِلدكِ الآن!».

- «إنهم أقوى من أيِّ أحدٍ يا آزريل! لست تعلم...».

- «أنا لا أعلمُ؟ أنا؟ لا أحد في العالم يعلم قوَّة الكنيسة أكثر مني! لكنها ليست أقوى من هذا. (الغُبار) سيُغيِّر كلَّ شيءٍ في جميع الأحوال. ليس هناك سبيل لمنع هذا».

- «أهذا ما أردت؟ أن تَخنُقنا وتَقتُلنا جميعًا بالخطيئة والظَّلام؟».

- «بل أردتُ النَّفاذ بجِلدي يا ماريسا! وقد فعلتُ. انظُري، انظُري إلى النَّخيل المتمايل على الشَّاطئ! أتَشعُرين بهذه الرِّياح؟ إنها رياح عالمٍ آخَر! اشعُري بها في شعركِ، على وجهكِ...».

أزاحَ اللورد آزريل قلنسوة المسز كولتر وأدارَ رأسها إلى السَّماء ممرِّرًا يديه في شعرها، وشاهدَت لايرا حابسةً أنفاسها، لا تَجسُر على تحريك عضلة.

تمسَّكت المرأة باللورد آزريل كأنها تُعاني دُوارًا، وهزَّت رأسها بأسى قائلةً: «لا... لا... إنهم قادمون يا آزريل... إنهم يعرفون أين ذهبتُ...».

- «تعالي معي إذن، غادِري هذا العالم».

- «لا أجرؤُ...».

- «أنتِ؟ لا تجرُئين؟ كانت طفلتكِ لتأتي، كانت طفلتكِ لتجرؤ على أيِّ شيءٍ وتُكلِّل أمَّها بالخزي».

- «خُذها إذن وهنيئًا لك بها. إنها ابنتك أكثر مما هي ابنتي يا آزريل».

- «غير صحيح. أنتِ أخذتها وحاولتِ تشكيلها. وقتها كنتِ تُريدينها».

- «كانت خشنةً للغاية، عنيدةً للغاية. تأخّرتُ في هذا كثيرًا... لكن أين هي الآن؟ لقد اقتفيتُ آثار قدميها...».

- «أما زلتِ تُريدينها؟ مرَّتين حاولتِ احتجازها ومرَّتين فلتَت منكِ. لو كنتُ مكانها لهربت وواصلت الهرب قبل أن أعطيكِ فُرصةً ثالثةً».

فجأةً توتَّرت يداه اللتان ما زالَتا تُمسِكان رأسها وجذبَها إليه طابعًا قُبلةً حارَّةً على شفتيها، وخُيِّلَ إلى لايرا أن المنظر يبدو أقرب إلى القسوة من الحُب، ولمَّا نظرَت إلى قرينيهما رأت مشهدًا غريبًا. كانت نمرة الثُّلوج مشدودةً، قابعةً ومخالبها مضغوطة في لحم القرد الذَّهبي، والقرد مسترخٍ هانئ منتشٍ على الثَّلج.

سحبَت المسز كولتر نفسها من القُبلة بعُنف، وقالت: «لا يا آزريل... إن مكاني في هذا العالم وليس ذلك...».

قاطعَها بإلحاحٍ قوي: «تعالي معي! تعالي واعملي معي!».

- «أنا وأنت لا نستطيع العمل معًا».

- «حقًّا؟ أنا وأنتِ نستطيع تفكيك الكون إلى قطعٍ وتجميعه مجدَّدًا يا ماريسا! يُمكننا أن نجد مصدر (الغُبار) ونسدَّه إلى الأبد! وأنتِ تودِّين أن تكوني جزءًا من هذا العمل العظيم، لا تكذبي. اكذبي بشأن كلِّ شيءٍ آخَر، اكذبي بشأن هيئة القرابين، اكذبي بشأن عُشَّاقكِ... نعم، إنني أعرفُ بأمر بوريل ولا أبالي... اكذبي بشأن الكنيسة، اكذبي بشأن الطِّفلة نفسها، لكن لا تكذبي بشأن ما ترغبين فيه بحق...».

والتصقَت شفاههما بشبقٍ عظيم، وأخذَ قريناهما يلعبان بشراسة. انقلبَت نمرة الثُّلوج على ظَهرها، وراحَ القرد ينهش فرو عُنقها النَّاعم بمخالبه لتزوم بدمدمةٍ عميقة مستمتعة.

قالت المسز كولتر مبتعدةً مرَّةً أخرى: «إذا لم آتِ معك فستُحاوِل تدميري».

ردَّ ضاحكًا وضوء العالم الآخَر يلتمع حول رأسه: «لماذا أريدُ تدميركِ؟ تعالي معي، اعملي معي، وسأبالي إن عشتِ أو مُتِّ. ابقي هنا وستفقدين اهتمامي في لحظة. لا تُداهِني نفسكِ وتحسبي أنني سأفكِّرُ فيكِ ثانيةً. ابقي وأعمِلي أذاكِ في هذا العالم أو تعالي معي، الآن».

تردَّدت المسز كولتر وأغلقَت عينيها وبدَت تترنَّح كأنها على وشك فقدان الوعي، لكنها حافظَت على توازُنها وعادَت تفتح عينين مفعمتين بحُزنٍ جميل لا متناهٍ، وقالت: «لا، لا».

افترقَ قريناهما ثانيةً، ومدَّ اللورد آزريل يده وقبضَ بأصابعه القويَّة على فرو نمرة الثُّلوج، ثم أدارَ ظَهره وابتعدَ دون كلمةٍ أخرى.

وثبَ القرد الذَّهبي بين ذراعَي المسز كولتر مصدرًا أصواتًا مغتمَّةً خفيضةً، يمدُّ يده إلى نمرة الثُّلوج المبتعدة بسرعة، وقد استحالَ وجه المسز كولتر إلى قناعٍ من الدُّموع. رأتها لايرا تلتمع،

فعرفَت أنها حقيقيَّة.

ثم دارَت أمُّها على عقبيها وجسدها يهتزُّ بنشيجٍ صامت، وبدأت تنزل الجبل مبتعدةً عن نظر لايرا.

وراقبَتها لايرا ببرود، ثم رفعَت عينيها إلى السَّماء.

يا لها من أعجوبةٍ لم ترَ لها شبيهًا.

المدينة المعلَّقة هناك خالية صامتة، تبدو جديدةً تنتظر سُكَّانًا، أو أنها نائمة تنتظر الاستيقاظ، وشمس العالم الآخَر ساطعة في هذا العالم صابغةً يدَي لايرا بالذَّهبي ومذيبةً الجليد على قلنسوة روچر المصنوعة من فرو الذِّئاب، جاعلةً وجنتيه الشَّاحبتين شفَّافتين وملتمعةً في عينيه المفتوحتين العمياوين.

شعرَت بنفسها تتمزَّق من التَّعاسة، ومن الغضب أيضًا. لحظتها كانت لتَقتُل أباها. لو كان بإمكانها أن تنتزع قلبه لفعلَت ذلك في التَّوِّ واللَّحظة لقاء ما فعلَه بروچر، وبها، لخديعته لها. كيف يجرؤ؟

كانت جثَّة روچر لا تزال بين ذراعيها، وپانتالايمون يقول شيئًا ما، لكن عقلها ملتهب، ولم تسمع شيئًا حتى ضغطَ مخالب القطِّ البرِّي في ظَهر يدها ليُنبِّهها.

رمشَت بعينيها، وقالت: «ماذا؟ ماذا؟».

- «(الغُبار)!».

- «عمَّ تتكلَّم؟».

- «(الغُبار). إنه ذاهب ليجد مصدر (الغُبار) ويُدمِّره، أليس كذلك؟».

- «هكذا قال».

- «وهيئة القرابين والكنيسة وبولڤانجار والمسز كولتر وغيرهم يُريدون تدميره أيضًا، أليس كذلك؟».

- «بلى... أو منعه من التَّأثير على النَّاس... لماذا؟».

- «لأنهم إذا كانوا جميعًا يحسبون (الغُبار) شرًّا فمؤكَّد أنه خير».

لم تتكلَّم، وقفزَ فُواق إثارةٍ صغير في صدرها.

تابعَ پانتالايمون: «نحن سمعناهم جميعًا يتكلَّمون عن (الغُبار)، وهُم خائفون منه، وهل تدرين؟ لقد صدَّقناهم على الرغم من أننا رأينا أن ما يفعلونه آثم وشرِّير وخطأ... حسبنا (الغُبار) شرًّا أيضًا بالتَّأكيد لأنهم كبار وقالوا هذا. لكن ماذا لو لم يكن كذلك؟ ماذا لو أنه...».

لاهثةً قالت: «أجل! ماذا لو أنه خير في الحقيقة...».

نظرَت إليه ورأت حماستها مستعرةً في عينَي القطِ البرّي، وشعرَت بالدُّوار كأن العالم كلّه يميد بها.

إذا كان (الغُبار) خيرًا... إذا كان على النَّاس السَّعي إليه والتَّرحيب به والحفاظ عليه...

قالت: «يُمكننا البحث عنه أيضًا يا پان!».

وكان هذا كلَّ ما أرادَ أن يسمعه.

واصلَ: «يُمكننا الوصول إليه قبله، و...».

أخرسَتهما جسامة المهمَّة، ونظرَت لايرا إلى السَّماء المتَّقدة مدركةً كم هما ضئيلان، هي وقرينها، مقارنةً بعظمة الكون ورحابته، وأنهما يعرفان أقل القليل مقارنةً بالغوامض الهائلة المعلَّقة فوقهما.

غير أن پانتالايمون قال بإصرار: «يُمكننا أن نفعلها. لقد قطعنا هذا الشَّوط الطَّويل، أليس كذلك؟ يُمكننا أن نفعلها».

- «لكننا أخطأنا يا پان، أخطأنا الفهم بخصوص روچر. لقد حسبنا أننا نُساعِده...». اختنقَت كلماتها، وقبَّلت وجه روچر السَّاكن بخَرقٍ مرَّاتٍ عدَّةً، ثم كرَّرت: «أخطأنا».

- «المرَّة القادمة سنُراجِع كلَّ شيءٍ ونُلقي كلَّ الأسئلة التي نستطيع التَّفكير فيها. سنُبلي بلاءً أحسن المرَّة القادمة».

- «وسنكون وحدنا. يوريك برنيسن لا يستطيع أن يتبعنا ويُساعِدنا، ولا فاردر كورام أو سيرافينا پكالا أو لي سكورزبي أو أي أحد».

- «نحن فقط إذن. لا يهمُّ. نحن لسنا وحدنا على كلِّ حالٍ مِثل...».

أدركَت أنه يعني: مِثل توني مكاريوس، مثل أولئك القُرناء المساكين الضَّائعين في بولڤانجار. ما زلنا كيانًا واحدًا، أنا وأنتِ واحد.

قالت: «ومعنا الأليثيوميتر. أجل، أظنُّ أن علينا أن نفعل هذا يا پان. سنذهب إلى هناك ونبحث عن (الغُبار)، وحين نَعثُر عليه سنعرف ماذا نفعل»، ثم إنها أنزلَت جثَّة روچر الهامدة من بين ذراعيها برفقٍ مردفةً: «وسننجح».

والتفتَت. وراؤهما الألم والموت والخوف، وأمامهما الشَّك والخطر وغوامض عصيَّة على الإدراك، لكنهما ليسا وحدهما.

وهكذا انصرفَت لايرا وقرينها عن العالم الذي وُلِدا فيه، ونظرا نحو الشَّمس، وخطوَا إلى السَّماء.

نهاية الكتاب الأول

مُلحق

بعض الأوراق من مكتبة كلِّيَّة چوردان

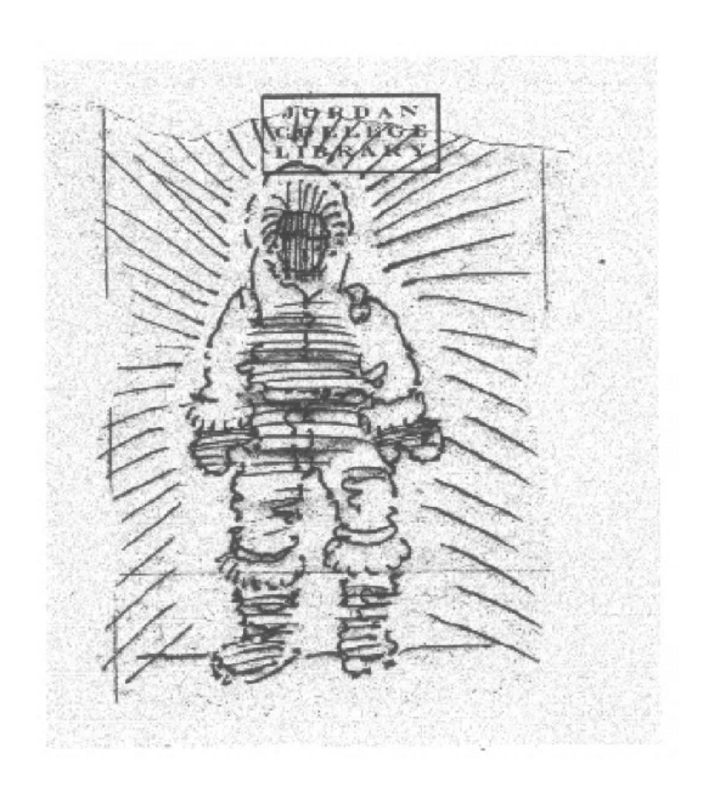
اكتُشفَت هذه الأوراق ضمن متعلِّقات باحثٍ مجهول بعد موته في أكسفورد، وأُرسلَت لتُباع مع جميع كُتبه وأوراقه بالمزاد، حيث أدركَ أهميَّتها الفنَّان المرموق المستر إيان بِك، الذي اشتراها بثمنٍ زهيد.

لا تزال كيفيَّة وصولها إلى هذا الكون لُغزًا. ثمَّة احتمال بوجود ثقوبٍ دوديَّة أو بوَّاباتٍ تُفتَح من كونٍ إلى آخَر، وأن في مكانٍ ما في أكسفورد هذا العالم مدخلًا إلى مكتبة كلِّيَّة بأكسفورد أخرى مختلفة بالكامل.

إذا كانت هذه هي الحال حقًّا، فقد تكون هناك أغراض مشابهة غيرها في هذا العالم ما زالَت تنتظر الاكتشاف.

Dust and experience, knowledge
— Grumman is no fool — seen a
great deal; — put him next to a
slow-witted peasant who's never
left his own village, and — what?
The Tungusk hunter was as clever
as G. in his own way — little
difference when we took his
photogram.

الغُبار والخبرة، المعرفة-جرومان ليس أحمق-رأى الكثير جدًّا-وضعته إلى جوار فلّاح بليد لم يبرح قريته قَطُّ و-ماذا؟ الصيَّاد التنجسكي كان ذكيًّا مِثل ج. على طريقته الخاصَّة-اختلاف قليل حين لقطنا الصُّورة الفوتوجراميَّة.



The child — inconceivable but
there's the evidence — why did
we never see this before?
The key to it all is in the daemon-bond

الطِّفل-شيء لا يُصدَّق ولكن ها هو ذا الدَّليل-لِمَ لم نرَ هذا من قبل؟

مفتاح كلِّ هذا هو الرَّابط بالقرين

Manganese

Manganese and titanium —

— but in what proportion?

In Sheffield I saw a new devt of the Hadfield process — 65% - 68% manganese, 16%-21% silicon, remainder carbon, smelted with coke and a quartz flux — they had tried tungsten without success — never encountered titanium. Melting point manganese — 2,271°, titanium something a little less than 3,010°. —

المنجنيز.

المنجنيز والتيتانيوم-لكن بأيِّ تناسُب؟

في شفيلد رأيتُ تطوُّرًا جديدًا في عمليَّة هادفيلد-

68%-65% منجنيز، 16%-21% سليكون، الباقي كربون مصهور مع فيضٍ من فحم الكوك والكوارتز-لقد جرَّبوا التَّنجستن دون نجاح-لم يتعرَّضوا إلى التيتانيوم إطلاقًا. نُقطة انصهار المنجنيز 2271°، التيتانيوم أقل قليلًا من 3070°-

The manganese nodules gathered
by the divers in the Sunda Straits -
- I saw a great collection of them
in the sultan's house - I asked
what they were used for and he
said straight-faced "Ritual Purposes"
- can't tell one's host he's a
barefaced liar. They were used
for something industrial -
- some manufacturing process.

عُقيدات المنجنيز التي جمعَها الغوَّاصون في مضيق سوندا-رأيتُ مجموعةً ضخمةً منها في دار السُّلطان-سألتُ فيم تُستخدَم وقال برصانة: «أغراض طقسيَّة»-لا يستطيع المرء أن يقول لمضيفه إنه كاذب صفيق. كانت تُستخدَم في شيءٍ صناعي-عمليَّة تصنيعيَّة ما.

Their idea of the sepikwu
or semipekwu – similar to
the African zombi. Same
fear, same uncanny quality.
Cognate?
Java / Madagascar / Benin



فكرتهم عن السِّپيكو أو السِّمپيكو -شبيهة بالزومبي الإفريقي. الخوف نفسه، الجودة المدهشة نفسها. مماثل؟

جُزر جاڤا/مدغشقر/بنين

Charter of vessel say 6,000 dr.

Crew 3,600

Sledges and dog teams 1,200

Political charges ~~1500~~ 2,000

Equipment ???? get Jackson

to draw up full list and cost it

Stores – Thorold to supervise

– say 2,500

Say 18,500 the total

استئجار سفينة نحو 6000 دولار

طاقم 3600

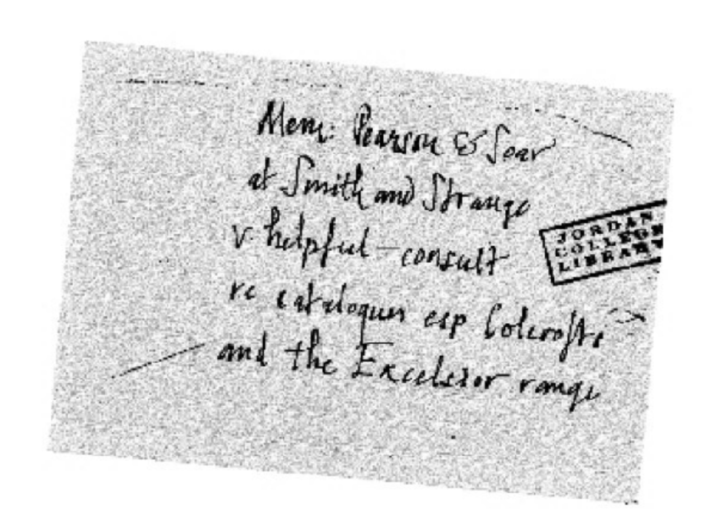
مزلجات وفِرق كلاب 1200

مصروفات سياسيَّة ~~1500~~ 2000

معدَّات؟؟؟؟ اجعل چاكسون يضع قائمةً كاملةً وتكلفتها

مؤن-إشراف ثورولد-نحو 2500

نحو 18500 إجمالًا



مذكِّرة: بيرسون & سورات سميث وسترينچ

مفيدون جدًّا-استشر إعادة الفهرسة خاصَّةً لائحة كولكروفت ونطاق إكسليسور

JORDAN
COLLEGE
LIBRARY

Mem. Do the witches know of
the shamans' spirit door-ways?
— But witches dismiss the
idea of spirit — so what do
the shamans mean if not this?

مذكِّرة: هل تعلم السَّاحرات بمداخل الشَّامانات الرُّوحيَّة؟

-لكن السَّاحرات ينبذن فكرة الرُّوح

-فما الذي يعنيه الشَّامانات إذن إن لم يكن هذا؟

Poss votes at Jordan

Pro — Hesketh, Guarnieri, Close, ~~Wilmington~~, Mortensen, Cairncross, Davids

Anti — Cesar, Bull, Trelawney, Polk, Shawcross, Stormbridge

Doubtful — Buchner, Tanaka, Evans, Langdale, Marshall, Trickett, Costas-Dimitriades, ~~Evans~~, Miller, Kirkham, Wilmington

????

الأصوات المحتملة في جوردان

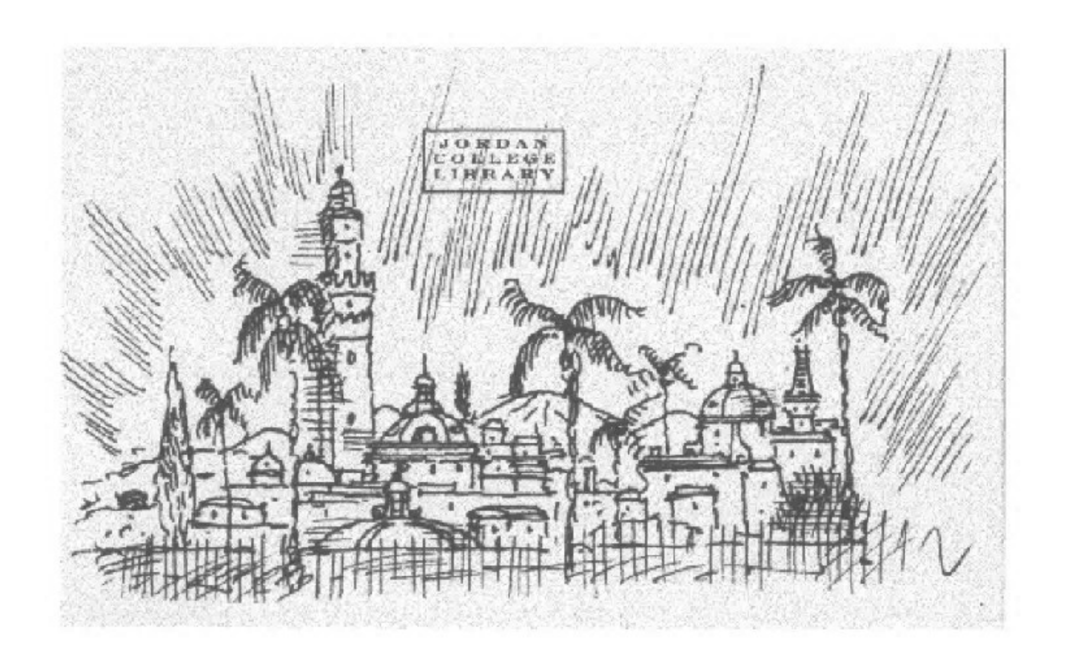
مع-هسكث، ناميري، كلوز، ~~ويلمينجتن~~، مورتنسن، كيرنكروس، ديڤيدز

ضد-سيزار، بول، تريلوني، پولك، شوكروس، ستورمبريدج

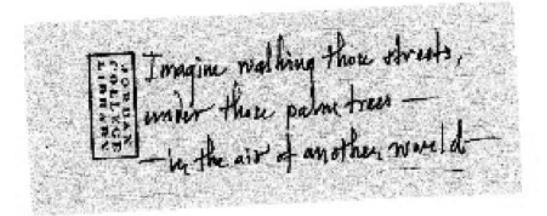
متردّدون-بوشنر، تاناكا، إڤانز، لانجديل، مارشال، تريكت، كوستاس-ديميترادس، ~~إڤانز~~، ميلر، كيرتشام، ويلمينجتن

This is what Jackson and I saw
behind the aurora, thro a glass
plate coated with the new emulsion.
Not the least like a mirage — no
shimmering or inconstancy —
impression of absolute firmness
and solidity. Tanya L. told me
that the witches know of this
and claim to see it best when
sunspot activity is high. They
say the sky is thin at that
point. Charged particles in the
solar wind —

هذا هو ما رأيناه أنا وچاكسون وراء الأورورا، عبر رُقاقةٍ زُجاجيَّة مغلَّفة بالمستحلَب الجديد. ليست كالسَّراب على الإطلاق-لا وهج أو تقلُّب-انطباع عن ثباتٍ وصلابة تامَّين. تانيا ل. أخبرَتني بأن السَّاحرات يعلمن بهذا وتَزعُم رؤيته عندما يكون نشاط البُقع الشَّمسيَّة مرتفعًا. يقلن إن السَّماء رقيقة في هذه البُقعة. جُسيمات مشحونة في الرِّياح الشَّمسيَّة-


JORDAN
COLLEGE
LIBRARY

The doorways the shamans speak of — into the spirit world — Grumman described one such in Alaska. He was on the verge of telling me more but illness overtook him. He had a weak heart. He had to rest and I had to move on.



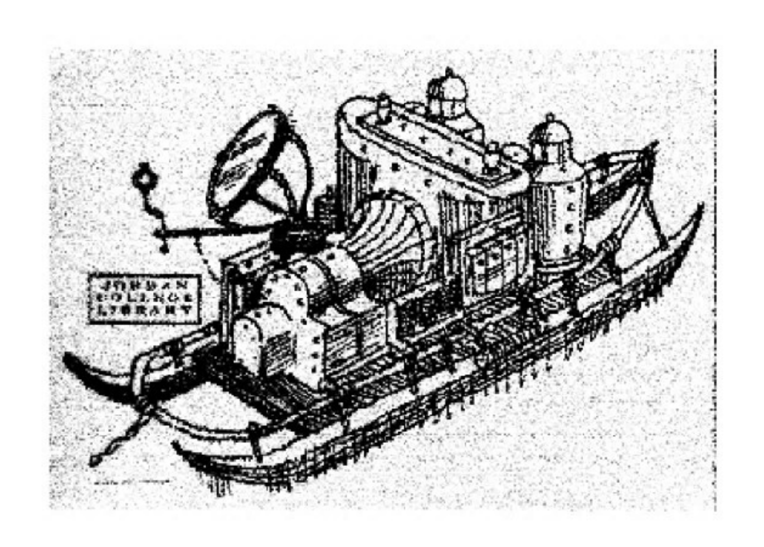
A wire flown high into the heart of it carrying a current —
— or flung there —

Imagine walking those streets,
under those palm trees —
— in the air of another world —

المداخل التي يتكلَّم عنها الشَّامانات-إلى عالم الأرواح-جرومان وصفَ أحدها في ألاسكا. كان على وشك إخباري بالمزيد لكن المرض غلبَه. كان قلبه ضعيفًا. كان يجب أن يستريح وأتقدَّم أنا.

سلك يُرفَع عاليًا إلى قلبها حاملًا تيَّارًا-أو يُلقِي هناك-

تخيَّل المشي في تلك الشَّوارع تحت شجر النَّخيل-في هواء عالمٍ آخَر-



قائمة ببعض مصطلحات عالم لايرا

ومقابلها في عالمنا

لتعزيز الإحساس بجريان أحداث الرِّواية في كونٍ موازٍ، أعادَ فيليب پولمان تسمية عدَّة أشياء شائعة في عالمنا، وأطلقَ عليها مصطلحاتٍ أصبحَت مهملةً عندنا أو ابتكرَ لها أسماء جديدةً، والأمر نفسه ينطبق على جغرافيا عالم لايرا، حيث تختلف أسماء بعض الدُّول والتَّضاريس وغيرها في النُّطق، وكذا عن مدلولها في العالم الذي نعرفه من حيث الحدود والمساحة، نتيجةً لاختلاف التَّاريخ، وهذا بخلاف بعض المناطق التي ابتكرَها بالكامل.

- أبحاث الذرَّة: فيزياء الجُسيمات، تحديدًا المتضمِّنة استخدام اليورانيوم.
- أرض ڤان تيرين: دولة تقع شمال ما نعرفه بأمريكا الشَّماليَّة.
- الآيزس: اسم بديل لنهر التِّمز يُستخدَم في عالمنا أيضًا.
- إيسترن آنجليا: إيست آنجليا، منطقة في شرق إنجلترا تقع محل مملكة آنجليا الشَّرقيَّة الأنجلو-ساكسونيَّة.
- بحيرة إينارا: بحيرة إيناري الواقعة في فنلندا، وهي ثالث أكبر بحيراتها.
- البرانتيڤين: البراندي.
- بولڤانجار: كلمة من اللُّغة النورديَّة القديمة تعني «حقول الشَّر».

- التّرتار: التّتار.
- تكساس: جمهوريَّة مستقلَّة في ما نعرفه بأمريكا الشَّماليَّة، وقد تختلف في المساحة والحدود عن ولاية تكساس التي نعرفها.
- تنجسكا: المنطقة المحيطة بنهر تونجوسكا في سيبيريا، التي وقعَ فيها الانفجار الغامض الشَّهير في عام 1908.
- التوكاي: نوع نادر من النَّبيذ الذَّهبي، مستوحى غالبًا من النَّبيذ المجري الذي يحمل الاسم نفسه.
- الجاثوم: كلمة عربيَّة مرادفة للكابوس، للتَّعبير عن الأرواح التي يُعتقَد في عالم لايرا أنها تجثم على الصُّدور وتُسبِّب الكوابيس.
- الجغرافيا السَّماويَّة: تقنية الملاحة الفلكيَّة المستخدمة في البحر عن طريق الاسترشاد بمواضع الأجرام السَّماويَّة.
- الچيپتيُّون: الغجر في عالمنا. جدير بالذِّكر أن المؤلِّف استخدم الكلمة اعتمادًا على الاعتقاد الخاطئ الشَّائع الذي نشأ في القرن السَّادس عشر، بأن الغجر أصلهم من مصر وليس من رومانيا.
- الحديد النَّيزكي أو الحديد السَّماوي: فلز أصلي يُوجَد في النَّيازك، ولئن كان استخدامه في عالم لايرا خياليًّا، فإنه مستوحى من قيمته العالية عند أهل المنطقة القُطبيَّة الشَّماليَّة في عالمنا، خاصَّةً نيزك كيپ يورك في جرينلاند، الذي سقطَ على الأرض قبل بضعة آلاف من السِّنين.
- الحرير الفحمي: النايلون، وهو نسيج صناعي ابتُكِرَ في عالم لايرا عوضًا عن الحرير الطَّبيعي.
- الدنمارك الجديدة: مقابل أمريكا في عالمنا، وقد اكتشفَها الڤايكينج أولًا في عالم لايرا.
- الرومانيَّة: اللاتينيَّة.
- الساموید: قبيلة السامويدك التي تَسكُن سيبيريا في عالمنا.
- سڤالبارد: أرخبيل تابع للنرويج في عالمنا، تُشرِف عليه حكومة مستقلَّة.
- السكريلينج: الإنويت أو الإسكيمو.
- الشوكولاتِل: الشوكولاتة في عالمنا، وأحيانًا تعني مشروب الشوكولاتة السَّاخنة، وهي الكلمة نفسها التي تستخدمها مجموعة لُغات الناواتل في أمريكا الجنوبيَّة، حيث اكتُشِفَت الشوكولاتة.
- الصَّنوبر السَّحابي: نوع من الشَّجر من خيال المؤلِّف.
- الصَّومعة: مقابل المعمل أو المختبر الأكاديمي في عالمنا.
- الطَّاقة العنبريَّة: الطَّاقة الكهربائيَّة، والكلمة مستوحاة من كلمة «عنبر» العربيَّة.

- فرنسا الجديدة: مقابل كندا في عالمنا.
- الفلسفة: الفيزياء وقوانين الكون. في عالمنا خرجَت العلوم والفيزياء من الفلسفة، وحتى القرن التَّاسع عشر كان يُطلَق عليها الفلسفة الطَّبيعيَّة.
- فولكشول: اسم قديم لمقاطعة ڤوكسهول في لندن.
- كامشاتكا: دولة مستقلَّة في عالم لايرا، وتُقابِل شِبه جزيرة كامشاتكا الروسيَّة في عالم الواقع.
- الكاوتشوك: المطَّاط في عالمنا، ويختلف تعريفه عن تعريف الكاوتشوك عندنا.
- الكحول الفحمي: البترول وغيره من الوقود الهيدروكربوني.
- كلِّيَّة چوردان: كلِّيَّة خياليَّة بجامعة أكسفورد في عالم لايرا، وإن استوحى المؤلِّف موقعها وشكلها من كلِّيَّة إكستر التي تخرَّج فيها.
- لاپي: دولة مستقلَّة في عالم لايرا، وهي إقليم تابع لفنلندا في عالمنا.
- اللَّاهوت التَّجريبي: الفيزياء الأساسيَّة.
- محطَّة قطارات جوفيَّة: ما يُقابِل مترو الأنفاق في عالمنا.
- المحيط الألماني: بحر الشَّمال.
- منجم نار: فتحات حراريَّة في الأرض تُستخدَم في التَّنقيب عن المعادن.
- منسِّق: مقابل الحاسب الآلي في عالمنا.
- موسكوڤي: الاتحاد السوڤييتي، والاسم إشارة إلى ما يُعرف في عالمنا بدوقيَّة موسكو الكُبرى.
- النورويج: النرويج.
- نوڤا زمبلا: نوڤايا زيمليا في عالمنا، وهو أرخبيل في المحيط المتجمِّد الشَّمالي.
- وايت هول: القصر الملكي، وفي عالمنا هو القصر الذي كان محل إقامة ملوك إنجلترا بلندن حتى احتراقه في عام 1698.
- ورق الدُّخان: التَّبغ.
- وِستمينستر: مقر رئاسة الوزراء، وهو القصر الذي كان مقعد الحكومة الإنجليزيَّة طيلة ألف عامٍ تقريبًا في عالمنا.
- ينيڤر: شراب الچين الهولندي.



نوفا زمبلا
موسكوفي
سيبيريا
ترتاريا
كاثاي
الهند
مصر
سيام
مدغشقر
مملكة أوستر
الإمبراطورية
الأوسترالية



[(1)](#) النَّفثة من منتجات النِّفط الوسيطة، عبارة عن مزيجٍ من القطفات المختلفة يُحصَل عليه من مصفاة النِّفط بعد إجراء تقطيرٍ أولي. (المُترجم).

[(2)](#) الصُّورة الفوتوجراميَّة، أو الصُّورة المساحيَّة الضَّوئيَّة، نوع من الصُّور يُلقَط دون كاميرا، بوضع الشَّيء المراد تصويره على مساحةٍ حسَّاسة للضَّوء وتعريضه إلى الضَّوء المباشر. (المُترجم).

[(3)](#) القاقوم حيوان ثديي ينتمي إلى فصيلة العرسيَّات، وهو من أخطر حيوانات هذه الفصيلة على الرغم من لُطف شكله وجَماله، وله فرو يُستخدم في صناعة الملابس الثَّقيلة الفاخرة. (المُترجم).

[(4)](#) الفَظُّ حيوان بحري شبيه بالفقمة، يتميَّز بشاربه الكثيف وفمه العريض الذي يَخرُج منه زوجان من الأنياب العاجيَّة الحادَّة. (المُترجم).

[(5)](#) الكرجل مخلوق أسطوري ذو مظهرٍ مشوَّه مخيف مصوَّر في منحوتاتٍ عدَّة، وبالأخص على الجدران الخارجيَّة لعددٍ من كنائس العصور الوُسطى، حيث يتَّخذ شكل ميزابٍ ناتئ. (المُترجم).

[(6)](#) الزِّبلن نوع من المناطيد الصُّلبة طوَّره الألماني فرديناند ڤون زبلن في مطلع القرن العشرين، واستُخدِمَ في الرِّحلات التِّجاريَّة وكذا في توجيه الضَّربات الجويَّة. (المُترجم).

[(7)](#) الحربون أداة شبيهة بالحربة تُستخدَم في صيد الحيتان والفقمات وغيرها من المخلوقات البحريَّة الكبيرة. (المُترجم).

[(8)](#) الظَّربان حيوان من رتبة اللَّواحم يُميِّزه شكله القبيح ورائحته المنتنة. (المُترجم).

[(9)](#) السيجارلُّو نوع أصغر من السيجار يشيع استخدامه في عددٍ من دُول أمريكا اللاتينيَّة. (المُترجم).

[(10)](#) السوڤرن عُملة ذهبيَّة إنجليزيَّة طرحَها الملك هنري السَّابع في القرن الخامس عشر، وعُمل بها حتى القرن السَّابع عشر، ثم طُرحَت عُملة جديدة مختلفة القيمة في القرن التَّاسع عشر وحملَت الاسم نفسه. (المُترجم).

[(11)](#) الفينات، أو مستنقعات الفِن، هي نوع من المستنقعات الأساسيَّة، يتميَّز بثرائه بالمعادن وقابليَّته للزِّراعة. (المُترجم).

[(12)](#) الزَّال كلمة هولنديَّة تعني القاعة. (المُترجم).

[(13)](#) قرن الوفرة رمز إقطاعي قديم، تعود أصوله إلى الأساطير الإغريقيَّة، وهو عبارة عن قرنٍ مليء عن آخِره بالزُّهور والفاكهة والحلوى وغيرها مما يدلُّ على الوفرة والخصوبة. (المُترجم).

[(14)](#) الجريفين مخلوق أسطوري له جسم أسد ورأس وجناحا عُقاب. (المُترجم).

[(15)](#) البروفسور الملكي منصب يشغله أساتذة الجامعات الذين يُعيِّنهم القصر الملكي، وهو تقليد أكاديمي يقتصر على المملكة المتَّحدة وأيرلندا. (المُترجم).

[(16)](#) الجذر التَّربيعي لسالب واحد هو وحدة تخيُّليَّة تُتيح توسيع مجموعة الأعداد الحقيقيَّة إلى مجموعة الأعداد المركَّبة، والتي تُمكِّن من إيجاد جذرٍ واحد على الأقل لكثيرات الحدود، وما دامَ لا يمكن تجذير الأعداد السَّالبة في مجموعة عددٍ حقيقي، فإن هذه الوحدة تُشكِّل مع مضاعفاتها ما يُعرف بمجموعة الأعداد الخياليَّة. (المُترجم).